طريق التوابل

تأليف

سونيا. ي. هاو

ترجمة

محمد رفعت

تقديم ومراجعة

د. عبد المنعم حسين

الكتاب: طريق التوابل

الكاتب: سونيا . ي . هاو

ترجمة : مُحَّد رفعت

تقديم ومراجعة : د. عبد المنعم حسين

الطبعة: ٢٠١٩

صدرت الطبعة الأولى عام ١٩٥٧

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)



٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

دار الكتب المصرية

فهرسة إثناء النشر

هاو ، سونيا . ي .

طريق التوابل / سونيا . ي . هاو ، ترجمة : مُحَّد رفعت ، تقديم ومراجعة : د. عبد المنعم حسين – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

٤٧٣ ص، ١٨ سم.

الترقيم الدولى: ٧ – ٩١٣ – ٤٤٦ – ٩٧٧ – ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٦٩٢ / ٢٠١٩

طريق التوابل





مقدمة

تُعتبر التوابل من أهم المنكهات التي تتم إضافتها إلى الطعام، فهي تُضفي عليه نكهة جميلة وطعماً لذيذاً، وتُعتبر الهند من أكثر البلدان المنتجة للتوابل والبهارات، كما اشتهرت البلدان العربية باستخدام العديد من أنواع التوابل والبهارات، حيثُ أنّ لها تأثيراً خاصاً في الطعام فهي تجعله ذا نكهة جميلة ومُحببة. كما يستخدم كثير من الناس البهارات والتوابل للاستفادة منها صحياً، حيث ثبت أنّ لها العديد من الفوائد الصحية للجسم، ولكن ينصح الكثير من الأطباء وعُلماء التغذية بعدم تناول كميات كبيرة منها بالإضافة إلى استخدامها بشكل مُعتدل لتحقيق الفائدة الصحية المطلوبة وبخاصة عند استخدام البهارات الحارقة؛ وذلك لأنّ الإفراط في استخدامها يسبب العديد من الأضرار والمشاكل الصحية للجسم.

أكد العلماء أن البهارات والتوابل لها فوائد كتعزيز عمل جهاز المناعة كما أنّها تُساعد على حماية الجسم من الإصابة بالعديد من الأمراض المُختلفة. وتُطهر القصبات الهوائية في الجهاز التنفسي، وتساعد على التخلص من الربو، وعلاج نزلات البرد وبخاصة الشطة والفلفل الحار؛ وذلك لأنّها تحتوي على عدد من الزيوت العطرية التي تساعد في ذلك؛ كما تُعالج مشاكل الجهاز الهضمي، وتُطهر المعدة، وتُساعد في التخلص من القُرحة، كما إنّها تطرد الغازات والسموم؛ وتقتل البكتيريا الموجودة في بعض

الأطعمة، وتُخلِّص الجسم منها؛ وتُساعد على تخفيف آلام المفاصل والعظام. وتحمي الجسم من الإصابة ببعض أنواع السرطانات؛ وذلك لأنّ العديد من أنواع البهارات تحتوي على مواد مضادة للأكسدة مثل الكمون، والزنجبيل بالإضافة إلى القرنفل؛ كما إن هُناك أنواع تُخفض نسبة الدهون والكولسترول الضار في الدم وبخاصة الزنجبيل، كما أنّها تُساعد على التخلص من دوار البحر وتقوي الذاكرة، وتُعالج الأورام المُختلفة، كما أنّها تُساهم في تحسين عملية الهضم وبخاصة الفلفل الأسود. وتُسكن المغص، وتعمل عل خفض درجة الحرارة وبخاصة الفلفل الأبيض. كما إنها تُسهل عملية الهضم؛ وذلك لأنّها تُزيد من إفرازات المعدة، وتُعالج فقدان الشهية، كما تُعتبر وسيلة فعالة في التخلص من التدخين.

تأتي التوابل من مجموعة متنوعة من النباتات الاستوائية وقطع الأشجار مثل: البذور، الفواكه، الجذور، البراعم، السيقان واللحاء؛ وتتوفر التوابل عادة بأشكال جافة تُضيف كمية لا تُذكر من السعرات الحرارية للغذاء ولكن الكثير من النكهة أيضاً؛ ومن أشهر التوابل المستخدمة في حياتنا وأشهرها الزعفران الذي يُعتبر من أإلى التوابل في العالم، ويُستخدم للطهي لأنه يُضيف نكهة ورائحة فريدة من نوعها، كما أنه يعمل على تلوين الأغذية.. أما عن زهرة الزعفران الأصلية فتنمو في جنوب غرب آسيا، ومناطق أخري عديدة بالعالم...كما أن للزعفران فوائد صحية عديدة مثل محاربة مرض الزهايمر وتحسين الذاكرة والتركيز.. كما يمنع الزعفران السرطان، وذلك لأنه يحتوي على خصائص تحول دون تشكيل بعض الأورام ومنع تكون الخلايا السرطانية في الجسم.. كما أن الزعفران

يُحسن المزاج ويُسبب الشعور بالفرح والسعادة، واستهلاك كميات كبيرة منه يُساعد على تخفيف الاكتئاب.. كما يُعزز صحة القلب ويُحسن الدورة الدموية؛ كما يعمل على تجنب المضاعفات التي يُمكن أن تُؤدي إلى العمى وضعف الرؤية بسبب الشيخوخة؛ كما يُساعد في علاج آلام الجهاز الهضمي وعلاج الربو. ووفقاً لأبحاث أجريت في الهند والمملكة المتحدة أكدت أن الزعفران مُفيد لالتهاب اللثة وكذلك أمراض القلب والرئة، كما إنه يُستخدم في العديد من الكريمات المضادة للشيخوخة والمستحضرات التجميلية، وأيضاً صابون الاستحمام، والمرطبات، وذلك نظراً لفوائده المؤكدة للبشرة.

أما عن العُصفر فهو يُعتبر من التوابل التي تُستخدم دائماً مع الليمون والذي يُسمى بـ "الليمون المعصفر"، وهو يتمتع بفوائد عديدة وكثيرة منها أنه يُستخدم لعلاج أعراض الدورة الشهرية عند الإناث؛ ويُستخدم لخفض مستوى الكولسترول في الدم؛ كما يعمل على علاج قبوضة المعدة وملين للمعدة؛ ويُستخدم في علاج الأمراض التي لها طفح جلدي كالحصبة؛ كما يُستخدم كعلاج لالتهابات الفم؛ ويُستخدم في علاج الكلف والبهاق؛ كما يعمل كمُنشط لوظائف الكبد.

أما عن الهيل فهو واحد من بين ألإلى التوابل في العالم، ويُستخدم لأغراض الطهي والطبية على حد سواء. وموطنه الأصلي الهند، وكان الإغريق والرومان والعرب يستخدمون هذه التوابل للعديد من الفوائد الصحية منها علاج اضطرابات الجهاز الهضمي حيث إن الهيل يُعتبر مُفيد

لتخفيف حرقة المعدة والانتفاخ والحموضة والإمساك وعُسر الهضم. كما إنه مُفيد لتحسين الشهية فضلاً عن عملية التمثيل الغذائي، ومنع التهابات المعدة ويُساعد في شفاء تقرحات الفم والمعدة. كما إنه يُستخدم لصحة الكلى؛ وذلك لأنه مُفيد جداً للكلى ويُدر البول ويُخفض ضغط الدم، كما إنه مُفيد لإزالة الكالسيوم واليوريا المُتراكمة في الكلى، ويُساعد في علاج الالتهابات التناسلية والبولية. كما أكد الأطباء أنه مُفيد لعلاج مشاكل الأسنان واللثة والالتهابات، كما إنه فعال في منع رائحة الفم الكريهة نظراً لخواصه المضادة للبكتريا فيعمل كمطهر للفم؛ ويُساعد في تخفيف التهابات الحلق. كما يُستخدم الهيل منذ زمن بعيد كعلاج للربو والتهاب الشُعب الهوائية، كما يُساعد في طرد البلغم وتخفيف الصداع الناتج عن البرد القارص، كما إن الهيل يُعتبر من أهم المنشطات الجنسية حيث يُستخدم في علاج العجز الجنسي وفقدان الرغبة الجنسية والضعف بشكل عام، كما أنه يُعزز من الدورة الدموية ويُنشط الجهاز العصبي كونه غني بالبوتاسيوم؛ كما يُساعد أيضا في السيطرة على ضغط الدم ومُعدل ضربات القلب. كما إن الهيل له تأثير مزيل للسموم ومُطهر ومضاد للمكروبات، كما يُساعد في علاج تشنجات العضلات والجهاز التنفسي، ويُعالج حالات الاكتئاب.. كما يمنع أنواع مُعينة من السرطانات وبخاصة تلك المرتبطة بالهرمونات (مثل سرطان الثدي، وسرطان المبيض وسرطان البروستاتا). كما يُخفف من آلام العضلات والمفاصل ويُقال أنه فعال في حالات التشنج.

أما عن ورق اللورى (الغار) فعرف زيت اللورى كزيت سحري لما له من فوائد عظيمة، ويُقال أن نساء شهيرات مثل كليوباترا والملكة زنوبيا

استعملن زيت اللورى ليُحافظن على بشرتهن حية نضرة وعلى عافية شعرهن وصحته، كما تُستعمل أوراق اللورى كبهارات في وصفات الطعام المتنوعة لإكسابه الطعم والنكهة المميزة. وصناعياً يُستخرج زيت اللورى من ثماره ليدخل في صناعة الصابون الطبيعي (صابون الغار) ذي الفوائد العديدة. ولزيت ورق الغار فوائد كثيرة منها تغذية البشرة وإعطاؤها قوة ونضارة مما يُساعد على تأخر ظهور التجاعيد؛ وتغذية جذور الشعر ومنحه الحيوية والتخفيف من التساقط؛ كما تخليص الجسم من البكتريا المسببة للرائحة ومنحه عطراً طبيعياً جميلاً؛ والمساعدة في علاج بعض الأمراض الجلدية كالأكزيما والصدفية.

أما عن الفلفل الأسود فهو من أشهر التوابل وأكثرها استخداماً.. كما اشتهر استخدام الفلفل الأسود منذ القدم قبل التاريخ في الهند، وفي اليونان القديمة حيث كانت تُستخدم كعملة نقدية، واستُخدم أيضاً في تقديم التعازي للآلهة وكذلك لدفع الضرائب وللفدية.. وفي العصور الوسطى أصبح الفلفل الأسود علامة من علامات الثروة، كما إن للفلفل الأسود فوائد عديدة منها أنه يُساعد في تحسين عملية الهضم والشهية؛ حيث يعمل على تحفيز وتنبيه المعدة لإفراز كمية كبيرة من حمض الهيدروكلوريك الذي بدوره يُعزز من هضم البروتينات والمكونات الغذائية الأخرى في المعدة؛ كما إنه فعال جداً ضد السرطان حيث يعمل على تقييد بعض السيتوكينات الموالية للالتهابات التي يتم إنتاجها من قبل الخلايا السرطانية. الفلفل الأسود يمنع نمو البكتيريا في الأمعاء، وهو يعمل أيضاً بوصفه طاردا للريح فيُساعد على منع تشكيل الغازات المعوية.

وأيضاً هو مفيد ضد الإمساك والإسهال؛ كما يتميز بوجود خصائص معرقة، وهي التي تساعد على تعزيز التعرق في الجسم.. كما أنه ذو خصائص مدرة للبول؛ وغني بمضادات الأكسدة وتأثيرات مضادة للجراثيم، مما يجعله مفيداً للجهاز الهضمي. أما عن الطبقة الخارجية من الفلفل الأسود فإنها تُحفز انهيار الخلايا الدهنية، وهذا يساعد في الحفاظ على صحة جيدة، مع توفير الطاقة بشكل مستمر لحرق الدهون، كما إنه ذو تأثير كبير في تخفيف حالة البواسير.

الزيت العطري المستخرج من الثمار يُستخدم ضد آلام الروماتزم وآلام الأسنان؛ كما إنه يكون مُفيداً للأشخاص الذين يُحاولون الإقلاع عن التدخين. وأيضاً نجد أن أجهزة استبدال السجائر التي ينبعث منها بخار الفلفل الأسود قد تُساعد على تقليل رغبة المدخن في التدخين.

أما عن الكُركم فهو بمثابة المادة المنقية لجميع أعضاء الجسم؛ وأصل الكركم من جنوب شرق آسيا؛ والهند هي أكبر مُنتج لهذه العشبة في العالم، ويزرع في الصين وتايوان وباكستان وبيرو وتايلاند، وبلدان أوروبا الوسطي وأمريكا اللاتينية، وله عدة خواص علاجية موجودة في ساقه وهو نفس الجزء الذي يُكسب الطعام اللون والمذاق. يُستخدم الكُركم دائماً في صورته الطازجة في المطبخ الآسيوي، أما في باقي أجزاء العالم فيُستخدم في صورته المُجففة والمطحونة؛ وهو ذو فوائد عديدة منها أنه يُخفف من تورم وآلام المفاصل؛ حيث إنه يُساعد في علاج التهاب وآلام المفاصل ويُقلل من التورم الذي يصاحب التهاب المفاصل؛ كما يُقلص من خطر الإصابة

بمرض الزهايمر والخرف، ويُحسن من الذاكرة والتركيز؛ كما يُقلل ويحد من خطر السرطان وبخاصة سرطان البروستاتا وسرطان الثدي والقولون والمستقيم وذلك بسبب خصائصه المضادة للأكسدة؛ كما يُعزز مناعة الجسم وذلك لأنه غني بالفيتامينات مثل فيتامين C وفيتامين A وفيتامين B٦ ؛ كما إنه مُعالج لمشاكل الهضم كعسر الهضم، والإمساك، وفقدان الشهية، وآلام المعدة، و البواسير؛ كما يُساعد على حرق الدهون، والحد من الربو وتحسين مظهر بشرتك ويُساعد على منع الآثار السلبية لمستحضرات التجميل على المدى الطويل، كما يُمكن أن يُحسن من مظهر الشعر والأظافر ويُوفر لهما البروتينات الضرورية .

وما بين يديك كتاب غزير بالمعلومات المهمة عن التوابل والأعشاب والبهارات التي لا نعلم عن فوائدها الكثير؛ فهو كتاب غزير بمعلوماته وغني بالتجار العلمية والتقارير الطبية التي تُثبت فوائد هذه الأعشاب والنبات التي تجدها في مُعظم بيوتنا ولا نعلم عن فوائده شيئاً، لذا اغتنم من هذا الكتاب الكثير كي تنعم بحياة صحية آمنة بإذن الله.

د. عبد المنعم حسين

مؤلفة الكتاب

صنفت كتاب "في طلب التوابل" هذا سيدة إنجليزية عالمة، قضت – على ما يبدو من مقدمتها للكتاب الذي نحدد بصدده – شطراً من حياتها في فرنسا حيث نشرت لها عدة مؤلفات باللغة الفرنسية، كرم اثنين منها المجمع الفرنسي L'Academie FranÇaise كما منحتها الجمعية الجغرافية بباريس مدالية جودي Gaudy على أحدهما وعنوانه "أبطال الصحراء" Les Heros Du Sahara وميدالية أرمان روسو "Armand Rousseau" على الآخر وعنوانه "أوروبا ومدغشقر" L'Europe Et Madagascar.

وللمؤلفة عدة كتب بلغتها الأصلية وقد ترجم كتاب "في طلب التوابل" إلى اللغة الفرنسية، نقله إليها الجنرال فيلونو كما كما سيأتي في المقدمة.

أما المراجع التي استعانت بها المؤلفة فكثيرة متعددة متشعبة منها البرتغالية والإسبانية والإنجليزية ومنها العربية المطبوعة في بعض العواصم الأوروبية كرحلة ابن بطوطة. وقصص السير في ألف ليلة وليلة وكتب الجغرافيين من أمثال أبي الفداء والإدريسي وابن خرداذبه، والحق أن الكاتبة قد ألمت بموضوع الكتاب من جميع أطرافه على تشعب ميادينه وحوادثه وإن مزجت فيه الحقيقة بالقصص، والواقع بالخيال أحياناً.

المترجم

تقديم المراجع

هذا كتاب "في طلب التوابل" يسرد لنا قصة الرحالة الأوائل الذين ركبوا الأهوال وشقوا طريقهم في البحار المجهولة شرقاً وغرباً في طلب التوابل، من البرتغاليين الذين كشفوا الطريق الإفريقي إلى الهند، ومن الإسبانيين الذين جابهوا أهوال المحيط الأطلسي غرباً في اتجاه أمريكا وجزائر الهند الغربية، ومن الهولنديين والفرنسيين والإنجليز الذين شقوا طريقهم شرقاً وغرباً في طلب تلك الكنوز النادرة.

وكتابنا هذا قد وفى الموضوع حقه وجهة النظر الغربية إذا سرد تلك القصص سرداً شيقاً بأسلوب سلس واضح مضيفاً إلى الوقائع التاريخية بعض النوادر والفكاهات التي أضفت على الوصف الجاف ألواناً وصوراً حية تقرب إلى أذهاننا تفهم الحياة في الغرب وفي الشرق أبان تلك العصور.

ويبدأ الكتاب بنبذة أولى تمهيدية عن التوابل في العصور القديمة، ولعل الكاتبة تعني العصور التي سبقت عصر الأمير هنري الملاح، أي أنه لم يعني بالتوابل إلا منذ اللحظة التي بدأ فيها الغربيون حملاتهم البحرية للكشف عن طرق التوابل والاستيلاء عليها. وهذا القسم الأول من الكتاب صورة طريفة كلية وتجميع لكل ما ورد في كتاب التاريخ القديم والقصص وما حكى عن الشرق من خرافات وما فيه من عجائب ونفائس، تختلط في سياقه التوابل النادرة مع الأحجار الكريمة واللآلئ والطنافس،

وتختلط فيها مصادر هذه النفائس مع جنات عدن، كما يخلط فيها الرواة والمؤرخون بين الأنهار والجبال والبحار والممالك، كل ذلك حائر بين مختلف ممالك إفريقيا وآسيا..

والصورة تجمع ما ورد على لسان الرحالة العرب أمثال أبي زيد السيرافي والبيروني وابن بطوطة، وما ورد في القصص مثل قصص السندباد البحري، وما ورد على لسان الجغرافيين أمثال الإدريسي مع ما جاء في كتب القدماء من الإغريق والرومان وجوابي القرون الوسطى، كل ذلك بدون تحقيق ولا تعليق، وانتهت المؤلفة في آخر هذا الجزء إلى الحديث عن "مملكة القس يوحنا" دون أن تربط بين البحث عن التوابل وبين هذه المملكة سوى أن بعض الرحالة كانوا يسافرون للبحث عن أحداها دون الأخرى أو عن الاثنتين معاً.

ويبدأ القسم الثاني (وهو القسم الرئيسي منه) بقصة الأمير هنري البرتغالي مؤسس أول مدرسة للبحرية والذي كرس حياته لرسالة مقدسة هي حرب المسلمين في الهند وجزائر الشرق الأقصى وكسب شعوب تلك البلاد إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. وليس أدل على الصفة الدينية لهذه الرحلات من تلك الرسالة التي بعث بها البابا نيقولا الخامس إلى الأمير هنري في سنة ١٤٥٤ يحثه على حرب الكفرة (ويعني المسلمين) ونشر الدين المسيحي والاتصال بالممالك المسيحية في الشرق للتحالف معها على حرب المسلمين أعداء المسيحية وأن يدخل في زمرة المسيحية تلك الشعوب التي لم تلوث برياء الإسلام.

وليس أدل على ذلك من قيام أساطيل البرتغال بمصادرة مراكب العرب وإعدام من فيها من ملاحين وركاب، ومهاجمتها موانئ العرب والمسلمين كلما سنح لهم الفرصة.

كانت إذا حرب التوابل من أول أمرها حرباً صليبية وامتداداً لتلك الحروب التي شنها الغربيون على الشرق الإسلامي في عام ١٠٩٨ والتي دامت قرنين كاملين.

والحديث عن الحروب الصليبية حديث طويل لا تتسع له هذه العجالة، ولكن هذه الحروب تتصف ببعض الصفات الرئيسية المميزة. أولها تحالف الغرب بأجمعه عندما دعا الداعية لحرب المسلمين وانتزاع الأراضي المقدسة منهم وثانيها أن تلك الحروب لم تأخذ صفتها الجدية إلا بعد أن أفاقت مصر من هو أول صدمة وقبض الله لها صلاح الدين الأيوبي الذي أنزل الصليبيين هزيمة حطين التي كانت بدون شك نقطة تحول مهمة في تاريخ العالم، وثالثتها أن الصليبيين لما فهموا مركز مصر وأهميته وقوتها حولوا هجماتهم عن الأراضي المقدسة إليها، فكانت هزيمتهم في المنصورة وأسر لويس التاسع ضربة قاصمة قضت على آمالهم في البطش بتلك الدولة التي وقفت في وجههم. وانتهت تلك الحروب في عام ١٢٩١ بطرد الصليبيين من عكا على يد الأشرف خليل بن قلاوون أحد سلاطين المماليك البحرية.

لذلك كان لزاماً على الغربيين إن أرادوا استئناف الحرب المقدسة والبطش بمصر أن يهاجموها بوسيلة أخرى وعن طريق آخر، وكانوا يعلمون أن مصر دولة قوية غنية، وأن معظم ثروتها تأتيها من تجارة التوابل وغيرها من كنوز الشرق، كالحرير واللآلئ والأحجار الكريمة والأعشاب الطبية والتحف النادرة، تأتي إلى مصر ثم يعاد تصديرها بثلاثة أضعاف ثمنها الأصلي. وفي نفس الوقت كان يترامى إلى سمع الغربيين أن بالشرق دولة مسيحية كبيرة سموها دولة (القس يوحنا) قد تكون بإفريقيا، وقد تكون بالهند، وقد تكون في غير ذلك من الأقطار، ولكنها بالتأكيد حليفة مهمة لدول الغرب إن هي أرادت أن تأخذ المسلمين على غرة وتطعنهم من الخلف، وهي على كل حال غير عون لتثبيت أقدام المسيحيين في تلك الأقطار التي توغل فيها الإسلام ونشر تعاليمه، فكانت حرب التوابل لكل هذا امتداد للحروب الصليبية حملها البرتغاليون إلى تلك البحار لأخذ مصر والمسلمين عامة من الخلف وللاتصال بمملكة (القس يوحنا) لعلها أن تكون لهم في هذه الحرب خير حليف وأحسن قاعدة لمهاجمة المسلمين، فكان المبعوثون يكلفون دائماً بأحد أمرين: البحث عن التوابل أو عن تلك المملكة أو بكليهما.

ونحن إذ نبحث هذا الأمر ونذاكره من وجهة نظرنا الشرقية يجب أن لا تفوتنا هذه العوامل الروحية الأساسية التي دفعت إلى تلك الحرب لإضافتها إلى الحافز الرسمي، وهو البحث عن التوابل والتنافس على تجارتها ونقلها. ثم نخلص من ذلك كله إلى نتائج تلك الحرب التي كان لها في تاريخ العالم أبعد الثار، ولقد لقيت بعدها حتى يومنا هذا:

كان اكتشاف القارة الأمريكية كلها وما ترتب عليه من الأثر العميق في تاريخ العالم وجغرافيته ومستقبله أثر من آثار تلك الحرب. وكان اكتشاف إفريقيا والهند وجزائر الملايو ورغبة البرتغاليين أولاً ثم باقي دول الغرب من بعدهم في إنشاء المتاجر والقواعد البحرية بها فاتحة عصر الاستعمار وبدء قيام إمبراطوريات ما وراء البحار وما يصحبها من عقلية بغيضة تجعل من الغربي السيد ومن الشرقي المسود وتفرق بين العناصر والألوان تفرقة لا يزال العالم إلى اليوم يرزح تحت وطأتها.

وكان من نتائج حرب التوابل أن ركزت الدول الكبرى اهتمامها حول بناء الأساطيل لفرض سلطانها على العالم خلال تلك الفترة الطويلة التي لم تنته إلا أخيراً حين انتقلت السطوة من البحر إلى الجو، وأصبحت الطائرات سلاحاً أشد بطشاً وأبعد مدى من السفن. ولكن سيادة العالم كانت قبل ذلك للدولة التي تملك أقوى الأساطيل وتسيطر على البحار، حتى لقد قال أحد المؤرخين أن الإمبراطورية الإسبانية ماتت يوم هزم أسطولها الضخم (الأرمادا) على سواحل إنجلترا.

ولست أريد أن أختم هذه المقدمة – ونحن في الحديث عن حرب التوابل – دون أن أشير إلى دور مصر في تلك الحرب وهو الدور الذي أهملته الكاتبة إهمالاً أعتبره تقصيراً بالغاً.

لقد كانت مصر في القرون: الثالث والرابع والخامس عشر هي الطريق الرئيسي لتجارة التوابل بين الشرق والغرب، وكان سلاطين

المماليك يحتكرون هذه التجارة لما كانت تدره على الدولة من أرباح طائلة. ولكن مصر كانت دائماً تحترم حرية التجار وتفتح أبوابها لتجار الشرق من صينيين وهنود وفرس وعرب وأحباش، كما كانت تفتحها فسيحة رحبة لتجار الغرب من بنادقه وجنويين وغيرهم. بل لقد كانت لهم في القاهرة والإسكندرية وكالات خاصة بهم ينزلون بها ويتجرون فيها، أحراراً في حياتهم الخاصة وفي إقامة شعائرهم الدينية وفي تنقلاتهم، فلما وصل البرتغاليون إلى شواطئ الهند نزلوا في أول الأمر بمدينة قاليقوط التي كان يحكمها أحد ملوك الزاموريين ولم يكن مسلماً. ولكن المدينة كانت محط رحال التجار العرب يعاملون أهلها كخير ما يعامل به الأخ أخاه، فكان أول شرط أراد البرتغاليون فرضه على ذلك الملك أن يقصي عن مدينته تجار العرب وأن لا يتعامل معهم وإلا فهي الحرب بينه وبينهم، ورفض الملك مطلبهم فكانت الحرب وكان أن أرسل البرتغاليون أساطيلهم الواحد بعد الآخر لمهاجمة تلك المدينة الوادعة. فلما تحقق ملك الزاموريين من أن سفنه الخفيفة لن تجديه نفعاً أمام سفن البرتغاليين الحربية المزودة بالمدافع استنجد بصديقه السلطان قنصوه الغوري سلطان مصر وكان ذلك في سنة ١٥٠٢. وكان سلطان مصر عاقلاً حكيما يدبر أموره بفطنة وعلى أكمل وجه فبدأ بالتحالف مع البندقيين أعداء البرتغاليين ثم جهز أسطولاً ضخماً مجهزاً بأحدث الأسلحة وحمل فيه ١٥٠٠ مقاتل وعقد لواءه للأمير حسن أحسن قواده البحريين.

سار الأسطول المصري في سنة ١٥٠٧ بقيادة ذلك الملاح المحنك الذي رأى أن يتخذ جزيرة ديو قاعدة لعملياته ولتموينه. ومنها اتصل

بأسطول الزاموريين الذي انضم إليه لمهاجمة البرتغاليين. وكان الأسطول البرتغالي تحت أمره لورنسو دالمبدا مرابطاً في كوشين، فقام منها واتجه شمالاً حتى التقى الأسطولان في شولا، فهجم الأمير حسين بأسطوله هجمة صادقة وأصلى البرتغاليين بمدافعه ناراً حامية، ففر الأسطول البرتغالي بعد أن أصيبت سفينة أميرهم فغرقت وقتل دالمبدا.

وأسقط في يد البرتغاليين بعد أن رأوا أمامهم أسطولاً بحرياً يعادلهم في القوة والخبرة البحرية ثم هو فوق ذلك حليف وصديق لملك قاليقوط ولكنهم جمعوا بقايا أسطولهم بعد ما جاءتهم النجدات وواجهوا الأمير حسين مرة أخرى عند ديو في سنة ١٥٠٩، وبالرغم من أن حاكم الجزيرة خانه ورفض أن يقوم بتقديم الإمداد اللازم له، فإن الأمير حسين خاض المعركة وهزم البرتغاليين مرة أخرى.

ولكن خطراً أكبر بدأ يهدد مصر نفسها حين شعر قنصوه الغوري بأن سلطان تركيا سليم ياقوز بدأ يتحرش به وبالشاه إسماعيل الصفوي ورأى أنه في حاجة إلى تجميع كل قواه للدفاع عن مصر العزيزة الكريمة التي قامت مدى ثلاثة قرون مقام السد المنيع الذي دفع عائلة الغرب عن الشرق وبلاده. وانهزمت مصر بمرج دابق في سنة ١٥١٧ أمام جحافل سليم الغاشمة نتيجة خيانة الأميرين خير بك وجاق يردي وانهار ذاك السد المنيع وأطلقت يد البرتغاليين في الهند وبذلك بدأ عصر الاستعمار الذي لم ينته إلا في عصرنا هذا...".

د.محمود النحاس

في الإشادة بالتوابل

شبه العاشق الملكي، مرتل أغنية سليمان بن داود حبيبته "ببستان فيه الفاكهة الحلوة وفيه الكافور والنردين[1] والزعفران وفيه القلماوش[2] والقرفة. وفيه أشجار اللبان والمر والصبر وفيه أجود أنواع التوابل الأخرى".

حملت ملكة سبأ إلى الملك سليمان "كميات عظيمة من التوابل" وما أن انقضى ألف عام على ذلك العهد حتى حضر رجال حكماء من الشرق ليقدموا للطفل المقدس في بيت لحم، الذهب واللبان والمر.

[1] سليل الطيب

[2] القصب الذريري وفيه جذور زيت طيار وهو عطري مر مقو للمعدة

تمهيد

تقص الصفحات التالية حوادث معينة في حياة رجال أبطال مغامرين، من مواطن مختلفة جابوا البحار المجهولة في طلب التوابل فاكتشفوا في طريقهم بلاداً جديدة لم تكن معروفة من قبل،كانت فكرتي في أول الأمر أن ابدأ كتابي بقصة فاسكو دا جاما (Vasco da Gama) أول من أمعن في البحر إلى ما وراء رأس الرجاء الصالح في طلب التوابل صدوعاً بالأوامر الصادرة إليه ضمناً. على أنني لم ألبث أن تبين لي ضرورة الرجوع إلى تاريخ البرتغال. أولاً لأتمكن من تقدير أعمال أولئك الأبطال حق قدرها، أولئك الذين اتخذ كموينز (Camoens)[٣]من بسالتهم مادة لقصائده اللويسياديات (Lusiades) فمن الشواهد الجلية الواضحة أن عام ١٤١٥ وهو العام الذي استولى فيه البرتغاليون على مدينة سبتة لا يقل خطراً وأهمية عن عام ١٤٨٧ الذي دار فيه برثولومير دياز[٤] حول القارة الإفريقية من جنوبها، قد بلغت البرتغال يومئذ أوج مجدها بعد جهاد دام اثنين وسعين عاماً وفقاً للخطة التي وضعها ملوكها.

على أنني وجدت نفسي مضطرة إلى التعمق في تاريخ البرتغال إلى ما قبل هذا التاريخ لأتفهم الحوافز التي استنهضت هممهم حق الفهم ومنطق

---

[٣] شاعر برتغالي مشهور ١٥٢٥ م – ١٥٨٠م ولد في لشبونة ومات من الفاقة. مجد فاسكو دا جاما في قصائده المعروفة باللويسياديات وهي عشر قصائد تعتبر من أروع الشعر البرتغالي.

[٤] **Bartholomeo Diaz**

النتائج التي ترتبت على هذا النشاط الفذ. ثم انتقلت من ميدان التاريخ إلى ميدان قصص الجوابين وما زلت أتتبعها حتى انتهيت إلى شخصية "القس يوحنا" التي يكتنفها الغموض وهو الذي يزعم أن الفلفل ينبت في حقول مملكته. بل أنني اضطررت بعد ذلك كله إلى الخوض في مزاعم ما قبل ذلك العهد إلى الفردوس الأرضي الذي أعتقد الناس في العصور الوسطى بأن التوابل والأفاويه كانت تأتيهم منه.

في عام ١٥١١ استطاع ربابنة السفن البرتغالية الوصول لأول مرة إلى تلك المجموعة من الجزائر التي انفردت وحدها في عالمنا الفسيح بزراعة أشجار جوزة الطيب والقرنفل فأطلقوا عليها اسم "جزائر التوابل".

وكان الذي استرعى اهتمامي بوجه خاص في تاريخ البحث عن التوابل، بعض حوادث إنسانية معينة وعوامل سياسية قربت إلينا وإلى عصرنا الذي نعيش فيه أولئك الملاحين الذين مخروا البحار في طلب التوابل كما قربت إلينا نشاط ملوكهم الدبلوماسي.

ولقد تتبعت رجال البحار من برتغاليين وفرنسيين وهولنديين وإنجليز حتى نهاية أهدافهم عند جزائر "ملوك" جاعلة نصب عيني تلك العوامل الإنسانية والسياسية متعمدة عدم الخواص في الموضوعات المعروفة للجميع والتي كانت معالم من معالم التاريخ بفضل تلك السياحات البحرية. وقد يبدو أنه ليس هناك أية علاقة تربط بين السياسة والفلفل أو بين الدبلوماسية وبين جوزة الطيب والقرنفل. بيد أن هذه التوابل قد تأثرت بها

مصائر عدة دول أوروبية دفعتها شهوة الحصول على التوابل للسفر إلى البلاد التي تنبت فيها ثم إلى الفتح والاغتصاب. لقد توصلت إلى معرفة الرجال الذين يروي أخبارهم كتابة هذا معرفة وثيقة حتى أصبح الكثير منهم من أصدقائي حقاً. فلقد بذلت كل ما في وسعي لتفهم عصرهم وعقليتهم ومبلغ عملهم واستعدادهم لمغامراتهم التي اكتنفتها الأخطار من كل جانب. ومما زاد من سروري في الكتابة عما كانوا يبحثون عنه هو أنني زرت كثيراً من العواصم والبلاد التي كان لها اتصال بتاريخ التوابل، لشبونة، القاهرة، الإسكندرية، سيلان، غرب إفريقية، الزنجبار، مدغشقر والصين.

وفي موريتانيا شاهدت أشجار توابل زرعها في القرن الثامن عشر مسيو يير بوافر[٥] الذي كان من نتيجة إقدامه ونشاط مغامرته إن جزائر ملوك لم تعد تنفرد بزراعة القرنفل وجوزة الطيب. فمن مشاتله أرسلت بذور هذه الأشجار النفيسة إلى الزنجبار أصبحت تنافس سيلان وجزائر ملوك في التوابل والأفاويه.

وإنني أدين بجزيل الشكر لصديقي المرحوم الجنرال فيلونو[٦] من كبار المهندسين الفرنسيين الذي وضع تصميمات خط ماجينو[٧] فقد كان لي خير عون. وهو لم يكتف بنقل كتابي هذا إلى اللغة الفرنسية في أسلوب عذب صحيح العبارة حتى لتبدو الترجمة وكأنها الأصل، بل ذهب إلى أبعد

---

[٥] **Pierre Poivre**
[٦] **Fillonneau**
[٧] **Maginot**

من هذا فنقد النص الإنجليزي الأصلي ونقح التعبيرات البحرية العديدة التي عييت بها.

وأود كذلك أن أخص بشكري الدكتور هيومل[٨] وكيل الجمعية الجغرافية الملكية لتفضله بقراءة نص الكتاب جاعلاً تنقيحه نصب عينيه كلما دعت الضرورة إلى ذلك ولحسن تشجيعه لي.

سونيا. ي. هاو (Sonia E. Howe).

باريس ١٩٢٧ – لندن ١٩٤٦.

---

(٨) **Hugh Mill**

الجزء الأول

التوابل في أول عهدنا بها

الفصل الأول

من الجنة إلى تنبكتو

وكان نهر يخرج من عدن ليسقي الجنة، ومن هناك ينقسم فيصير أربعة رؤوس. اسم الواحد فيثون وهو المحيط بجميع أرض الحويلة حيث الذهب، واسم النهر الثاني جيجون(٩). هو المحيط بجميع أرض كوش، واسم النهر الثالث حد أقل، وهو الجاري شرقي أشور، والنهر الرابع الفرات.

[سفر التكوين – الإصحاح الثاني ١٠ – ١٤]

ساد الاعتقاد بوجه عام إبان القرون الوسطى بأن التوابل والأحجار الكريمة تأتي من جنة عدن، تحملها إلى الدنيا أنهار تنبعث منها. وكان الجغرافيون يوضحون موقعه على خرائطهم برسم دائرة أو نصف دائرة يكتبون إلى جانبها في ثقة تامة. "هنا موضع الجنة: وكانوا يعتقدون أنها تقع بالشرق في أقصى شماله، عالية مرتفعة حتى أنها لتلامس القمر، تحيط بها أسوار شامخة تكسوها أوراق الأشجار الخضراء وتقوم من حولها الحصون. وكان هذا المكان الذي يثلج الصدور وغرسته يد الله جل شأنه والذي ترعرعت فيه الأشجار الباسقة وانتشرت منه الروائح العبقة – كان هذا

---

(٩) جيجون كما يعرف اليوم نهر بآسيا الوسطي يسمى عند الإفرنج أكسوس وإليه تنسب الجهة المشهورة عند العرب ببلاد ما وراء النهر واسمه بلغة التتار أموداريا.

المكان بمعزل من مساكن البشر تفصل بينه وبينها البحار والجبال والصحاري. فكل اتصال مباشر بين الجنة والعالم معدوم إلا عن طريق هذه الأنهار الأربعة التي تنبعث منها.

هذا ما كان عليه عامة الناس أيام الحروب الصليبية بشأن هذه الأنهار فقد كانوا يعتقدون أن نهر الفيثون أو الجانجيز يخترق في مجراه أرضاً مليئة بالتوابل والأحجار الكريمة، وأن نهر الفرات كان يفيض بالجواهر والأحجار الكريمة أيضاً، وأن نهر دجلة في تدفقه السريع من الفردوس الأرضي كان يحمل معه التوابل، وأن نهر جيجون أو النيل الذي كانت ترتفع مياهه إلى سطح الأرض غير بعيد من "أيلانت" كان يجري أولاً حول أثيوبيا ثم يخترق بعد ذلك أرض مصر.

ولقد قيل للسيد دي جوانفيل عندما كان بالإسكندرية مع القديس لويس[١٠] أن جميع التوابل التي تعرض بأسواق القطر المصري تأتيها من الفردوس الأرضي. أما الطريقة التي كان يحصل بها الناس على هذه التوابل فهي كالآتي: هناك حيث ترتفع مياه النيل إلى سطح الأرض يمد الصيادون شباكهم بعرض النهر في المساء فإذا ما أقبل الفجر ضموا شباكهم إليهم وما أكثروا ما كانوا يجدون فيها من القرفة والجنزبيل والرواند والقرنفل وأخشاب الصبر، وما إلى ذلك من صنوف التوابل والأفاويه الطيبة. على أنه كان يقال أيضاً أن هذه التوابل كانت تأتيهم من أرض "أوفير" وهي جزيرة تقوم في وسط نهر جيجون بها جبال عديدة من الذهب وبها التوابل

---

[١٠] هو لويس التاسع ملك فرنسا الذي قاد حملة الصليبيين السابعة وأسر في مدينة المنصورة.

المستملحة الطيبة وما أصدق ما كان يقوله الناس من أن العثور على هذه الجزيرة الذهبية، مثل الذهب نفسه يتعسر العثور عليه.

ويصف السير جون منذ قبل جنة عدن بأنها تقوم وسط صحراء مرعبة لا يستطيع البشر اجتيازها بالرغم من أن النهر المنبعث من الجنة يخترقها وإن لم يكن به قطرة من الماء قط، ولكن يندفع فيه، على حد قوله، سيل جارف ثلاث مرات في الأسبوع تتألق أمواجه كبريق الماء تحت أشعة الشمس، ولكن هذه الأمواج لم تكن سوى جدول من الجواهر والأحجار الكريمة فكان الناس يبادرون إلى جمعها كلما حملها النهر.

وروى هذا الرحالة المغوار، كيف أنه وصل هو وأصحابه إلى واد يزخر بالجواهر وبالشياطين في آن واحد، وكيف أنهم قبل أن يقدموا على اجتيازه كفروا عن خطاياهم بالاعتراف وتقبل السر المقدس استعداد الموت، وهو يعتقد كما اعتقد رفقته أن نجاتهم من المكروه ترجع إلى تعففهم حتى عن لمس تلك الجواهر؛ فللشياطين حيل وقدرة على جعل الأشياء تبدو على غير حقيقتها الأصلية، فلا جرم أن كانت الأحجار الكريمة والتوابل، من السلع التي ارتفع ثمنها في ذلك العهد ارتفاعاً كبيراً.

إن الحياة في الشرق لا يمكن تخيلها مجردة من تلك الهبات المبهجة التي تحبوها بها الطبيعة؛ فالحب والحياة والموت والجمال، وشهوة التنعم والتعبد، والحبور والحزن، كلها تتطلب التعبير عن مظهرها الخارجي بما تضيفه عليها تلك العطور والتوابل والدهون الغالية والبخور والحلي من

زينة ومباهج، على أن أوروبا الغربية لم تتصل عن كثب بصورة الحياة في الشرق إلا بعد قدوم فرسانها الصليبيين إلى فلسطين لانتزاع الضريح المقدس من أيدي المسلمين[١١]. وقد ترتب على هذا أن ازدادت معلومات أوروبا عن كنوز الشرق، واستطاعوا أن يقدروا الانتفاع بها وبخصائصها المتنوعة حق قدره، فازداد طلب الناس للتوابل لمعالجة الطعام بصورة ملموسة، وازدادت حاجة الصيادلة إليها لصنع المراهم والأشربة التي كانت تضاف إلى تركيبها الكاسية[١٢] والقرفة والكندر والقرنفل وجوزة الطيب والفلفل، إما لتسكين الأعصاب أو لتنشيطها.

وفي القرن الثالث عشر، خطرت لراهب علامة يسمى برثولوميوس أنجليكس[١٣] فكرة طيبة لوضع دائرة معارف كان لها فضل كبير في إطلاعنا على ما كان يعتقده أهل ذلك العصر بشأن التوابل والأحجار الكريمة. وقد دأب هذا الراهب في مؤلفه، على ذكر أسماء الكتاب الذين نقل عنهم من إغريقيين ولاتينيين، ومنهم الجغرافيون والمؤرخون والفلاسفة والجوابون والرهبان الخ. ولقد التزم منتهى الدقة وصدق الرواية في كل ما نقل إلينا، سواء في ذلك القصص والأساطير، أو الوقائع والحوادث التي لا يتطرق إليها الشك.

---

[١١] في الأصل الكفار، وهو يدل على مدى تعصب المسيحيين في القرون الوسطى.

[١٢] جنس من النباتات البقولية يخرج من بعضها السنا.

[١٣] **Bartholomeus Anglicus**

فتحت مادة خشب الصبر، تقول دائرة المعارف المذكورة: المفروض أنه ينبت بين أشجار الجنة الأخرى وينحدر منها إلى العالم نتيجة حادث من الأحداث، أو يجرفه تيار نهر السند[١٤]. ومن بين منافع خشب الصبر العديدة أنه حينما ينفع في النبيذ يساعد على شفاء القلب من جميع ما يعتريه من أمراض ونوبات.

وتحت الاسم الشامل لفصيلة البلسان نقرأ (أن شجرة البلسان تنبت حول بابليون[١٥] في مصر، وأن جميع فوائدها طبية، فعصيرها يلهب المخ حتى لكأنه يشتعل ناراً، وأهم خصائص البلسان أنه يذيب ويلطف ويفني ويبيد، ويحفظ جثث الموتى من التعفن).

وأحسن أنواع البلسان هو المستخرج من الأشجار المعروفة ببلسان إسرائيل، قرب مكة ومن "المطرية" قرب بابليون بمصر. وشأن هذا المكان الأخير تروي الأسطورة التالية:

نزلت الأسرة المقدسة لتستريح أثناء فرارها إلى مصر بمكان غير بعيد عن نابليون (اسم القاهرة في تلك الأيام) فجلست السيدة مريم العذراء على الأرض وفي حجرها طفلها الصغير[١٦] بعد أن أجهدها السير ونال منها العطش. وهنا حدثت المعجزة. فقد أخذ الطفل المقدس يرفس برجليه الصغيرتين كما تفعل الأطفال، فلامس كعباه الأرض، وما أن حدث ذلك

---

[١٤] **Indus**

[١٥] حصن بابليون بمصر القديمة

[١٦] في الأصل (ابن الإله)

حتى تفجرت عين ماء في الموضع الذي لمع كعباه فاستطاعت السيدة العذراء أن تروي ظمأها من ذلك الماء وأن تغسل لفائف الطفل أيضاً. ثم نبتت حيث تساقطت نقط المياه المعتصرة من لفائف الطفل شجيرات من البلسان لا تزال تنبت وتزهر في ذلك المكان منذ ذلك العهد يزورها الحجاج في طريقهم إلى بيت المقدس للحج وفي انصرافهم منذ حاملين معهم إلى أوطانهم ما أمكنهم الحصول عليه من ذلك البلسان. ولما رأى سلطان مصر تهافت الحجاج على زيارة هذا المكان وحرصهم على التزود من ورق البلسان استقر رأيه على أن يستغل هذا النبات ليكون مصدر ربح له فابتنى سوراً حول الموضع وكان يحضر بنفسه عملية استخراج البلسان الغالي في كؤوس من الفضة.

على أن الجانب الأكبر من دهن البلسان كان يستورد من جزيرة العرب. ويقول برثولوميوس أن الإغريق كانوا يسمون جزءًا من الجزيرة العربية Eudaimon ويسميه الرومان Felix[17]

وعن جزيرة العرب السعيدة كتب الجغرافي الإسكندري ديونسيوس Dionysius في القرن الثالث.

انظروا الروضة الساحرة الخالدة.

أبدًا معطرة يفوح عنها عبير اللبان.

وعبير المر والقلماش والقرفة العاطرة.

---

(17) أي السعيد

والبخور الذي يقدم على مذبح القربان.

فهنا المشترى أنزل باخوس(١٨) في هذا المكان.

فمنذ مولده تضوع كل زهر وريحان.

وأطلق المصريون أيضاً على الجزء الخصيب من الجزيرة العربية اسم "السعيد" لأنهم كانوا يحصلون منه على كل ما يحتاجون إليه من التوابل والعطور. ولكن التوابل وإن عزي إليها مثل هذه القيم العلاجية العظيمة إلا أن ما عزي إلى الأحجار الكريمة من القيمة العلاجية كان أوفر نصيباً، يدل على ذلك المثل القائل "إن قيمة الأعشاب عظيمة ولكن قيمة الأحجار الكريمة أعظم" ويقول برثولوميوس: ليس الاعتبار بالموضع الذي توجد فيه الأحجار الكريمة؛ فبعضها يوجد في قاع البحر وبعضها يوجد بين حصى الأنهار ولكن الأحجار الكريمة إذا شرف جوهرها خلت فيها بركة الخالق وعظمت قيمتها حتى ما كان يوجد منها في بطون الطيور والزواحف. والحق إذا نحن آمنا بقول دائرة المعارف كان كل ما يحتاج إليه الإنسان لينعم بسلامة العقل والجسد هو أن يقرن إلى شخصه بعض جواهر معينة لتضفي عليه الفضيلة والشجاعة والإخلاص وليصبح محبوباً ويمأمن من الأخطار.

ومفعول بعض الجواهر المعينة من هذه الأحجار الكريمة التي لا يظهر على الوجه الأكمل إلا إذا قرنت إلى جزء معين من الجسد فالماس مثلاً إذا

---

(١٨) ابن الإله جوبتر (المشتري) في أساطير الرومان وهو ديونيوس عند اليونان

وضع على الكتف الأيسر أو تحت الإبط أكسب صاحبه مناعة ووقاه شر الخصومات والتشاحن والكابوس والأطياف لأنه جوهر المحبة والوئام.

وعلى الرغم مما عزي إلى معظم أنواع الحجار الكريمة من الفضائل فإن الحجر الذي سماه براتسين[١٩] يعتبر أفضلها من الوجهة العملية فحامله لن يمسه الذباب ولو كلل جميع بدنه بالشهد، ويعتبر التصفير[٢٠] (الياقوت الأزرق) أكرم الجواهر وأليقها بتزيين أصابع الملوك. فهو يحفظ سلامة أطراف الجسم ويلطف. ثورة الحمى إذا علق قرب موضع النبض أو عروق القلب وهو يشرح الصدور وبساعد على تخفيف حدة الانفعالات القلبية ويوقف نزيف الأنوف إذا وضع على الأصداغ الخ.. وهو إلى جانب هذا كله يعين العرافين ويرشدهم إلى أحسن الردود المنشودة. وللسحرة به ولع شديد، وهو يخرج المساجين من سجونهم ويفتح ما استغلق من الأبواب بمجرد لمسها.

والجواهر وإن وجدت في الجنة إلا أنها توجد كذلك في جزيرة سيلان التي يزعم أن آدم وحواء لبثاً بها خمسمائة عام يذرفان الدموع لمقتل قابيل، ومن هذه الدموع تكونت رويدا رويداً بحيرة تمور بالأحجار الكريمة التي تولدت من الحب والحزن.

---

[١٩] **Baralicine**
[٢٠] **Sapphire**

وقد سجل الراهب أودوريكس[٢١] الذي ساح في ربوع الشرق خلاله القرن الرابع عشر، هذه الرواية في يومياته مع إضافة بعض تفاصيل قليلة تتصل بهذه البحيرة مضمونها أنها ملك هذا القطر كان يسمح لفقراء رعيته بالغوص في البحيرة مضمونها أن ملك هذا القطر كان يسمح لفقراء رعيته بالغوص في البحيرة مرتين كل عام لجمع الأحجار الكريمة على شريطة أن يصلوا لله ليبارك روحه ويخصها برحمته.

ولما كانت البحيرة ملأي بالعلق[٢٢] وأشباهها من ماصة الدماء فقد أمر الملك بأن يدهن الغائصون في البحيرة أجسادهم بعصير الليمون.

ولقد أيد السيد نقولا دي نيقولاي[٢٣] العالم الجغرافي ببلاط هنري الثاني ملك فرنسا، هذه الوقائع بعد مضي مائتي عام على رواية الراهب برثولوميوس. ثم إنه زار جزيرة العرب فكتب عنها عن تجربة شخصية، فكانت من بين ما كتب "إن هذه المنطقة تفوق كل ما عداها في العالم خصباً في النباتات النادرة والمواد البلسمية والجزء الواقع في أقصى جنوب هذه المنطقة تكسوه غابات البخور وأشجار المر والقرفة والكاسية واللدن فما أزكى وأرق الرائحة العبقة المنبعثة من هذه الأشجار حتى لكأنها لم تكن من أشجار هذه الدنيا وإنما هي أشجار قدسية علوية وكأنما الطبيعة قد حشدت في هذه الرقعة من الأرض أروع العطور شذى وأعبقها أرجا وأكثرها حلاوة وأسرعها في شفاء الناس.

---

[٢١] **Odoricus**

[٢٢] دورية في الماء تمتص الدم

[٢٣] **Nicolas de Nicolay**

ولنعد إلى دائرة المعارف: "الكاسية" نوع من التوابل له رائحة طيبة نبيلة تشبه رائحة بلسان "سبأ" إلا أنه يفوق البلسان طيباً.

وكانت فوائد الكافور ومنافعه كثيرة متشبعة حتى أن مؤلف دائرة المعارف وجد نفسه عاجزاً عن أن يحصيها عدا. غير أنه ذكر على كل حال أنه إذا مزج بالنبيذ حرك الشهوة لمزاولة العملية الجنسية.

ويبدو أنه كان يعزى للقردامون[٢٤] معظم الفوائد العلاجية المتنوعة، طبقاً لكيفية مزجها عند تعاطيها فيكون المزج بالماء أو بالنبيذ أو بالخل!

أما القرفة فقد ذكرت دائرة معارف الأخ الراهب برثولوميوس أنها – إلى جانب نموها في جنة عدن – تنمو في بلاد الحبشة الصغيرة في أرض بني تروجلوديت[٢٥] وهي تود أيضاً في أوكار الطيور وخاصة في أوكار السمندل[٢٦] الذي يقول عنه الأخ برثولوميوس أنه من "أصل خرافي" ثم يواصل الكلام فيقول: هذا الطائر بعد أن يعمر ثلاثمائة عام ويشعر بالضعف يأخذ في بناء عش له من أغصان شجر القرفة والكاسية والكندر والمر. وبعد ذلك يجلس السمندل في عشه ثم يشعل فيه نار أيخترق. وبعد مضى ثلاثة أيام تتولد من الرماد امرأة صغيرة جداً ثم يتضاءل حجمها رويداً ويبدأ الريش يكسو جسمها وفي النهاية تصبح طائراً.

---

(٢٤) نبات الكروية البري

(٢٥) **Troglodytes**

(٢٦) طائر خيالي

وكان للقوافل في العصور الوسطى أهمية كبرى في نظر الصيادلة – لما له من الفوائد العلاجية إلى جانب فوائده في تتبيل اللحوم والمشروبات. وتحت مادة القرنفل تقول دائرة المعارف بأنه ينبت في الهند وأن فوائده كثيرة متعددة. فهذا التوابل يصلح المعدة والكبد والقلب وهو يريح المخ ويشفي من الصداع.. وإذا مزج بالنبيذ زاد قوة الإبصار حدة. ويداوي به التهاب العيون واحمرارها كما يعالج به هبوط القلب وهو يلطف من حدة السخط والحنق. وكان الجنزبيل يعتبر جم الفائدة كعقار طبي إلى جانب منفعته في طهي اللحوم وأصناف الطعام الأخرى.

وكانت جوزة الطيب والبهار (البسباس) يمنعان من القيء وخفقان القلب، ومن خصائص زيت البهار أنه مهديء للأعصاب. أما الفلفل فكانت الرغبة في الحصول عليه أشد من أي توابل أخرى على الرغم من ارتفاع ثمنه، ولقد نسج الشيء الكثير من الأساطير حول هذا التوابل حتى أنه كان يسود الاعتقاد "بأنه ينبت في جنوب القوقاز في وهج الشمس وأن الثعابين والحيات كانت تقوم على حراسة الغابات التي ينبت فيها. وأنه عندما يتم نضجه تشعل النار في أشجاره فيسود الفلفل بعد أن يكون أبيض، وأما ما كتبه عنه الأخ برثولوميوس فهو أن الفلفل يأتي من الهند وأنه على ثلاثة أنواع: طويل ويكون حينئذ غير مستكمل النضوج، وأبيض لم تصهره النار بعد، ثم أسود – بعد أن يتم تحميصه – وأحسن أنواعه الأبيض: وهو أسود من الخارج وباطنه أبيض. وهو حار حريف المذاق ذو رائحة طيبة. وليس للفلفل رونق يستوقف النظر ولكن فوائده عظيمة، بارد الملمس ولكنه حار المذاق".

وللفلفل تأثير قوي نافذ كدواء يعالج به ولهذا التأثير عدة وجوه فهو عندما يمزج بورق الغار يكون دواءً ناجحاً في حالات لدغ الكائنات السامة، وعندما يمزج بالنبيذ يفيد في النزلات الشعبية والتهاب الرئة، وعندما يمزج بالزيت يكون مرهماً مفعوله بعيد الأثر.

وكان يفترض للفلفل بعض "خصائص خبيثة خفية" لذلك لم يكن من الحكمة الإسراف في تعاطيه؛ فالكلاب إذا ما أعطيت شيئاً من الفلفل كان موتها محققاً، وأهم استعمال للفلفل – عدا تنشيط الشهية والجهاز الهضمي – حفظ اللحوم من التعفن.

وكانت التوابل تستعمل بصفة مستديمة في طهي الطعام، لكل بلد ذوقه الخاص في تفضيل تابل على تابل؛ فسكان إنجلترا كان يطيب لهم أكل السجق المتبل والفطائر المتبلة. لذلك كان الإقبال شديداً على احتساء البنش[٢٧] والبيرة متبلة. وإن ساعات الشتاء لتبدو طويلة لمن لم يساعده الحظ على احتساء فنجان من شراب دافئ مزج بشيء من التوابل والبهارات؛ فالفلفل والجنزبيل وجوزة الطيب والقرنفل والقرفة كانت كلها مبعث انتعاش القلوب ودواء للأمراض.

وكان الفلفل – نظراً لارتفاع ثمنه – يستعمل كذلك في أغراض أخرى فالمثل الذي كان شائعاً في فرنسا أيام القرون الوسطى "غال كالفلفل" منشؤه أنه كانت للفلفل قوة شرائية يتعامل بها في بعض ظروف معينة.

---

[٢٧] مزيج من الأشربة

فكان من العادات الشائعة بين رؤساء الكنيسة الفرنسية أن يتقاضوا نصيب الكنيسة من الخراج أو الزكاة "توابل" فمثلاً كان على الأرقاء أو الأتباع (في مقاطعة برجندي Burgundy) من الذين يرغبون شراء حريتهم أن يدفعوا لرئيس دير نوتردام دي سيمير[٢٨] رطلاً من الفلفل. وكان رئيس أساقفة أكس Aix يفرض على كل جالية من الجاليات اليهودية المقيمة في منطقة أسقفيته ضرائب أو جزية قوامها الفلفل والجنزبيل والشمع نظير السماح لهم بحق حيازة مدافن لموتاهم ومدارس خاصة بهم.

وكان على تجار التوابل في مدينة شالون أن يدفعوا سنوياً لراعي كنيسة سان فنسان ملء صاع فلفلاً، كذلك كان للفلفل في إنجلترا قوة شراء مثله مثل العملة المتداولة بين الناس نظراً لغلوه وندارته كسلعة. وفي العصر الإقطاعي كانت كميات معينة من الفلفل تدفع إيجاراً للأراضي الزراعية[٢٩]. وهناك نوع آخر من الفلفل في تلك الأزمات البعيدة لم يكن يجلب من الشرق الأقصى يعرف في مدينتي نيم[٣٠] ومونبلييه[٣١]باسم مالاجت[٣٢] كان الإيطاليون يبتاعونه من موانئ شمال إفريقية. ولما لم

---

[٢٨] **Notre Dame de Semur**

[٢٩] في ديسمبر ١٩٣٧ استلم الملك بوصفه دوق أوف كورونوول مائة شلن ورطل فلفل من عمدة لونستون في صحفه كإيجار لأملاكه في المدينة ولم يزل التعبير "إيجار الفلفل" مستمراً على اليوم

[٣٠] **Nîmes**

[٣١] **Montpellier**

[٣٢] **Malaguette**

يستطع أحد أن يخبرهم عن مصدره الأصلي أطلقوا عليه اسم "حب الجنة" وكان هذا النوع يعرف أيضاً باسم "الفلفل ذي الذنب".

على أن قصص الشرق الشعبية قد أنبأتنا عن مصدر التوابل قبل أن يكتب عنها الأخ برثولوميوس بأجيال. وأقرب مثل لذلك قصص السندباد البحري فمهما يكن من التلفيق الخرافي الذي أحاط به هذا البحار المغوار قصة مغامراته إلا أن موضوعها في حد ذاته يقوم على أساس واقعي فقد وصف لنا سندباد الأماكن التي وجد فيها التوابل وصفاً مطابقاً للحقيقة فنحن نرى سفينته في سومطرا وقد شحنت بالقرنفل والزنجبيل والكافور لتحملها إلى الهند، وهو يرسم لنا صورة دقيقة للطريقة التي يستخرج بها الكافور. ثم هو يزور جزر مالاديف[٣٣] حيث ينبت "الصبر" ويذكر لنا أنه زار "جزيرة الفلفل" بالقرب من ساحل مالابار، ثم هو يقارن جزر صندا[٣٤] "بجنة عدن" فيها فاكهة من كل جنس.

بيد أنه إذا كانت رحلات السندباد البحري قد امتزجت فيها ذرات الحقيقة بأقصى ما يصل إليه الخيال الجامح في تحليقه إلا أن القصة التي كتبها بنيامين دي تويديلا[٣٥] عن رحلاته لا تعتبر من إيحاء الخيال؛ فقد ترك هذا الحاخام المثقف موطنه في أسبانيا سنة ١١٦٠ ولم يعد إليها إلا بعد انقضاء ثلاثة عشر عاماً.

---

(٣٣) **Maladive**
(٣٤) **Sunda**
(٣٥) **Benjamin de Tudela**

ويذكر لنا هذا الحاخام أنه نزل بجزيرة قرب "هرمز" حيث التجار من الموصل وفارس واليمن يقايضون على سلعهم من الحرير والقطن والكتان والبقول والحبوب بالتوابل المجلوبة من الهند. ولقد زار مدينة من المدن تحيط بها حقول نبتت فيها شجيرات تحمل ثمار الفلفل. وبها أيضاً أشجار القرفة والجنزبيل وغير ذلك من التوابل. وهو يصف مدينة أسوان القائمة على ضفاف النيل فيقول عنها أنها مدينة عظيمة مزدحمة بالسكان تخرج منها القوافل قاصدة مملكة بنين(٣٦) في الجانب الآخر من إفريقيا وأن الذين استطاعوا تحمل مشاق هذه الرحلة وأهوالها وصمدوا أمام الزوابع الرملية التي تشبه أمواج البحار عادوا بربح وفير حاملين معهم ملح الطعام في مقابل توابل الشرق التي حملوها إلى شواطئ المحيط الأطلسي.

وجاء بعد هذا التاريخ بثمانية وثلاثين سنة ومائة سنة ماركو بولو(٣٧) من أهالي فينيسيا(٣٨) والذي قضى في ربوع الشرق خمسا وعشرين عاماً فلم يذكر الجنة كمصدر التوابل والأحجار الكريمة، ولكنه ذكر البلاد التي توجد بها هذه التوابل بالفعل؛ فذكر أن الفلفل والجنزبيل يأتيان من شاطئ مالابار وأن الياقوت الأزرق يأتي من جزيرة سيلان وأن الماس يأتي من جلكندا(٣٩) وأن الياقوت الأحمر يأتي من جبال التبت(٤٠) فما أقل ما كان يعرفه الناس عن الكون الواسع الفسيح وما أشد إصرارهم على الاعتقاد

(٣٦) **Benin**

(٣٧) **Marce Polo**

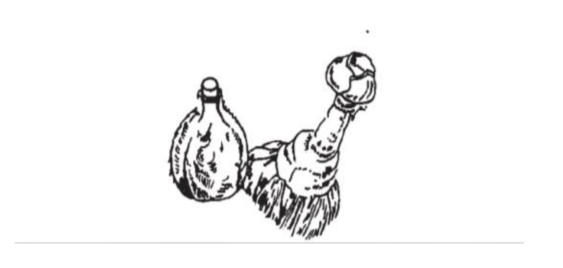
(٣٨) **Venice** وهي التي تعرف عادة "بالبندقية"

(٣٩) **Golconda** = اسم حيدر أباد سابقاً

(٤٠) **Thibet**

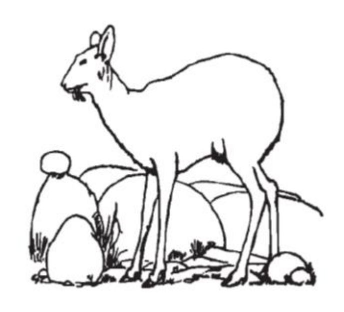
بوجود الفردوس الأرضي!! لقد برهن على كل هذا برونتو لاتيني[٤١] في كتابه "كنز كل شيء" فقد كتب عن آسيا في سنة **١٢٩٠** أنها تضم نصف المعمورة بما في ذلك القطر المصري، وذكر أن مصب نهر النيل في البحر هو بالإسكندرية في المكان الذي يلتقي فيه نهر النيل بمياه البحر قرب سان جورجِ في اتجاه المشرق، وأن آسيا تضم كل المناطق إلى نهاية شاطئ المحيط والفردوس الأرضي.

وفي نفس هذا الوقت ذكر حاكم أرمينيا في خطاب بعثه إلى شقيقته ملكة قبرص أنه عبر هو وجيشه "نهراً يجري من الجنة" يقصد بذلك نهر الفرات، وبعد ذلك ببضع سنوات في عام **١٣٠٥** روى السيد دي جوانفيل في مؤلفه عن تاريخ سان لويس ما ترامى إلى علمه في مصر عن مصدر التوابل، وكيف أنها تصل "القاهرة مباشرة من جنة عدن" ومن ثم تحمل إلى جميع أنحاء المعمورة وحتى إلى تنبكتو.



عدة المسك في الظبي المكي

[٤١] **Brunetto Latini**



ظبي في المسك

الفصل الثاني

طرق التجارة القديمة

ليس في طاقة البشر حصر جميع من جابوا أرجاء هذا الكون الفسيح الرحب.

فهذا ما تستطيعه الآلهة وحدها، ولا أحد غير الآلهة، فآلهة السماء لا تخفى عليهم خافية.

فليكتف الناس بأن يعلموا أن أولئك الجوابين كانوا أول بناة العالم ومؤسسيه.

لقد ابتنوا العواصم وأقاموا الدول العظام.

وشقوا الطرق يميناً وشمالاً وسط بحار لم يكن للناس بها علم من قبل.

وحينما استبدت بنا الشكوك وخيم ظلام المجهول كانوا أول من أثبت للحياة وجوداً وجعل لها معنى.

"**ديونيسيوس الإسكندري**"(٤٢).

---

(٤٢) **Dionnysius of Alexandria**

قامت الإمبراطوريات وسقطت، وازدهرت عواصم ومدن كانت كالملكات يأتمر بأمرها العالم ثم ما لبثت أن هوت عن عروشها، واندثرت أمم كان لها السيادة من بين الأمم وخلفتها غيرها، ولكن مهما يكن من أثر التقلبات في المحيط السياسي العالمي ومهما يكن من تعددها وتشعبها، ومهما يكن من تحول مراكز المدينة وانتقالها من مدينة إلى أخرى فإن شيئاً لم يستطع شل حركة تجارة التوابل أو منع ازدهارها واطراد نموها.

كانت تجارة التوابل منشأ العلاقات بين الأمم، منها تكونت حلقات الاتصال بين فترات التاريخ ولها يرجع الفضل في إيجاد الاتصال بين الشرق والغرب بصورة مستمرة؛ فالطرق التي سلكتها القوافل المحملة بتوابل الشرق لم تلبث أن أصبحت أهم شرايين الاتصال في آسيا وإفريقية. وقد عدل بعض الوقت – في بعض الأزمنة – عن انتهاج بعض هذه الطرق، ولكن قدر لها أن تستعبد ما كان لها من أهمية بعد عدة قرون.

وهناك طرق لم تنقطع القوافل عن سلوكها منذ آلاف السنين بينما فتحت طرق جديدة منها ما اقتضت فتحه أحداث معينة لها خطرها وأهميتها في محيط السياسة الدولي، ومنها ما اقتضاه تزايد الطلب على توابل الشرق.

إن لتجار هذه التحف النفسية التي تجود بها الطبيعة جاذبية وبهجة ليستا لسواها، فهي لا تروق للخيال فحسب، ولكنها تروق للحواس أيضاً، فالمنح المبهجة التي تؤثر على الأحاسيس والمشاعر من رائحة طيبة

ومذاق حلو إنما تشملها كلمة واحدة هي "التوابل" أو بمعنى أوسع "العطارة" وليس جميع الناس يعلمون بأن هذه السلع التي تطيب لها النفوس ظلت مدى قرون عديدة أهم ما كان يتبادله الشرق والغرب من سلع؛ فتاريخ التجارة، ثم تاريخ الملاحة بعد عام ١٥٠٠ ميلادية مرتبطا ارتباطاً حيوياً بالعطارة والتوابل حتى ليمكن القول بأنه منذ الوقت الذي استدار فيه برثولوميو دياز[٤٣] حول أقصى نقطة من جنوب إفريقية بدأ عصر جديد في تاريخ البشرية. ومنذ ذلك الحين أخذ أبناء الأمم الأوروبية يسافرون إلى البلاد التي تنبت فيها التوابل لجلبها بدلاً من الانتظار حتى تجلب إليهم بطريق القوافل كما كانت الحال في الزمن الأول، ومنذ ذلك الحين أيضاً أصبحت البحار تستخدم كطرق للتجارة إذ لم تعد حداً فاصلاً بين قارة وقارة بفضل السفن الشراعية التي أصبحت تحمل كنوز الهند إلى أسواق أوروبا.

ولم يعد في استطاعة الجمل الذي كان خير وسيلة للنقل غير مدافع، أن يباري السفن، لا في نقل البضائع، ولا في السرعة، وكانت النتيجة التي ترتبت على ذلك أن زادت كميات التوابل المستوردة فانخفضت أسعار التكلفة واتسع مجال استعمال التوابل حتى أصبحت في تناول جميع الناس، تستعمل في البيوت المتواضعة وفي أفقرها كمواد عادية لا غنى للناس عنها في أي يوم بعد أن كانت وقفاً على الأغنياء باعتبارها من أخص الكماليات.

---

[٤٣] **Bartholomew Diaz**

على أنه قبل أن يتم حدوث كل هذا كانت القوافل تقطع مراحل شاسعة في البر مجتازة بلاد كثيرة لتوصل حمولتها النفسية إلى مدن وعواصم تعتبر من معالم التاريخ، وإن مجرد ذكر أسمائها البعيد إلى الذاكرة مجد إمبراطوريات العالم العظيمة ابتداءً من فجر التاريخ مستعرضة مجد يونان فروما فبيزنطة حتى تصل إلى تلك الأيام التي التحمت فيها قوات المسيحية بقوات المسلمين.

وهذه هي أسماء أهم المدن التي كان لها اتصال بتجارة التوابل واستهلاكها منذ أول سجل للتاريخ إلى الوقت الذي عاد فيه فاسكو داجاما من شاطئ مالابار إلى لشبونة: نينوى وبابل، ممفيس وطيبة، قرطاجنة والإسكندرية وروما، بيزنطة وبغداد والقاهرة، دمشق وأنطاكية، كفيا واستراخان، بكين وكشجار، سمرقند وبخارى، ملقا وقلقوط وهرمز والبصرة، مسقط وعدن، السويس ومكة، جدة وسواكن، بربره وموجادوكسا، مرسيليا وبرشلونة، بروج ولندن، لوبك وتوفو جورد العظمى.

وأقدم المدن التي ذكرت يربطها بقصص الإنجيل رباط وثيق؛ ففي الإنجيل الشيء الكثير عن التوابل وكيفية استعمالها وشدة الرغبة فيها وفي الإتجار بها، وأقرب مثل لذلك قصة سيدنا يوسف الذي بيع في مصر لبعض التجار من أبناء إسماعيل كانوا يحملون معهم التوابل من الهند، والمر من جزيرة العرب والبلسان الإسرائيلي من مكة لبيعها في عاصمة فرعون. وفي عهد مملكة سليمان بن داود كانت التوابل تأتيه من جزيرة العرب لا من مملكة سبأ فحسب. وعلى شاطئ البحر الأحمر صنع الفينيقيون

أسطولاً لسليمان لحمل الذهب من أوفير وحمل الكنوز الأخرى من الشرق أيضاً.

ولكن طروادة – كما يقال – لم تكن متخلفة عن بيت المقدس في استهلاك التوابل والعقاقير وغيرها من منتجات الهند؛ فقد كانت تحمل من الهند إلى الجزء الشمالي من خليج العرب. وهنا في ظل أرسنوي[٤٤] "السنويس" كانت تفرغ الشحنات لتحمل على ظهور الجمال والحمير والبغال حتى مدينة كاسون على شاطئ البحر الأبيض المتوسط، وكانت القوافل – نظراً لشدة الحر – تسير أثناء الليل مسترشدة بالنجوم، ولكن الصعوبات التي كانت تعترض هذه الوسيلة في النقل دعت سيزوستريس – فرعون مصر – إلى محاولة الاهتداء إلى سبل أخرى من شأنها أن تجعل استيراد البضائع من الهند أقل عسراً ومشقة، لذلك استقر رأيه على وصل النيل بالبحر الأحمر بواسطة قناة، فأمر ببناء سفن كبيرة في مدينة سيريم تمهيداً لتنفيذ هذا المشروع.

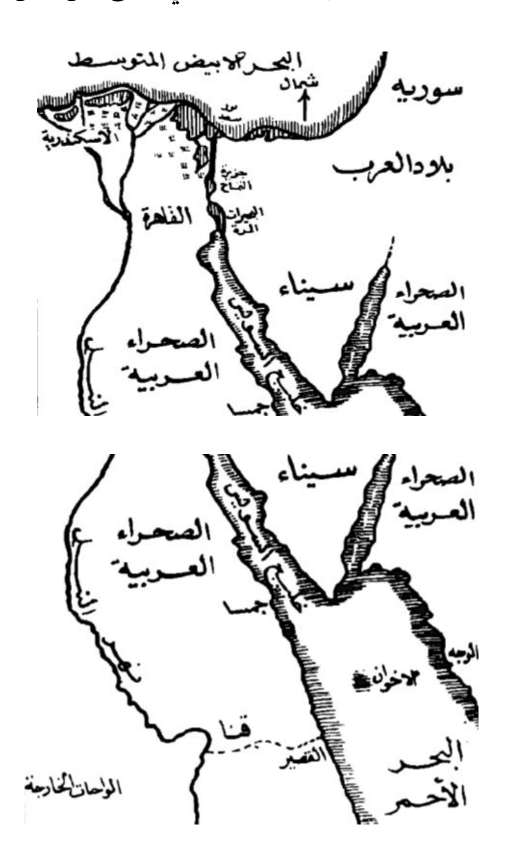
انقضت أربعمائة سنة منذ فكر سيزوستريس في وصل النيل بالبحر الأحمر حتى عزم دارايوس هستاسبس[٤٥] في عام ٥٢٠ قبل الميلاد على تنفيذ هذا المشروع ولكن عن طريق وصل البحر الحمر بالبحر الأبيض المتوسط. ولكن دارايوس اضطر إلى العدول عن هذا المشروع بعد اقتناعه

---

[٤٤] **Arsinoe**

[٤٥] **Darius Hestaspls** شاه إيران ولد سنة ٥٢١ وتوفى سنة ٤٨٥ ق. م. وحد إمبراطوريته ونظمها وفتح الهند وأخضع ترافيا ومقدونيا ولكنه انهزم أمام الإغريق في موقعه ماراثون.

بأن أراضي مصر تنخفض كثيراً عن مستوى مياه البحر الأحمر وأنه من المحتمل أن تغطي المياه المالحة أرض مصر فتقضي على كل أمل في زراعتها.



أما الطريق التي كان يسلكها التجار من نسل إسماعيل فقد ظلت مدى عصور طويلة كبرى طرق التجارة (الطريق المثالية للقوافل)، ولكن الإسكندر الأكبر المقدوني بعد توغله في الهند وبعد أن استساغ طعم الفلفل قرر فتح طريقين آخرين لحمل كنوز الهند وتوابلها إلى ممتلكاته، إحداهما تمتد بحراً وبراً عن طريق البحر الأحمر إلى الإسكندرية ثم من الإسكندرية عبر البحر الأبيض المتوسط إلى اليونان. والطريقة الثانية كانت

بواسطة الخليج الفارسي لتموين ممتلكاته الأسيوية. ولكن الفاتح العظيم وافته منيته قبل أن يتسع له الوقت لتنظيم مشروعه ووضعه موضع التنفيذ، بيد أن بطليموس ملك مصر شرع في تنفيذه فأمر بحفر قناة بين البحر الأحمر والبحر الأبيض المتوسط، وبالرغم من أن عملية الحفر وصلت حتى البحيرات المرة إلا أن المشروع عدل عنه بعد ذلك لأنه تبين أن الأراضي تنخفض عن مستوى البحر الأحمر بثلاثة أذرع.

ولكن في الوقت نفسه كان هنالك مائة وعشرون سفينة تبحر سنوياً من الهند وإليها، وكانت الميناء التي تبحر منها السفن وتعود إليها في مدينة برنيس على شاطئ الحبشة، وكانت الرحلة تستغرق عامين.

أصبحت الإسكندرية أكبر مركز لتجارة التوابل حتى أن أحد أبواب المدينة سمي "باب الفلفل"، ولتجنب أخطار البحر الأحمر بسبب المياه الضحلة والجزر، أمر بطليموس الثالث عشر والد كليوباترا ببناء ميناء على الشاطئ الغربي عند نهايته الجنوبية قرب باب المندب أطلق عليها اسم "برنيس" ومن هنا كانت البضائع تصل إلى الإسكندرية في شيء من اليسر وبذلك ازدادت حركة الملاحة إلى درجة عظيمة حتى أن البرتغاليين قدروا قيمة دخلها من الضرائب الجمركية بسبعة ملايين ونصف مليون كروسادوس ذهباً أي بحوالي ٩٠٠.٠٠٠ جنيها.

بدأت روما تستهلك بدورها كميات ضخمة من التوابل فشيدت المخازن العظيمة لحفظ الفلفل والقرفة من تسرب الديدان إليها أو التعفن

بسبب رطوبة الجو، وفرضت على هذه التوابل المستوردة ضرائب زادت في دخل خزينة الدولة حتى قال الشاعر برسيوس Persius.

أسرع التجار إلى الهند المحرقة حيث مطلع الشمس، يدفعهم الجشع والرغبة في الربح الدنئ، ومن ثم يعودون بالفلفل والعقاقير بعد أن بذلوا في التوابل مقتنياتهم الإيطالية.

واستهلكت طقوس العبادة ودفن الموتى كميات هائلة من هذه العطور والتوابل فترى النيران بأمر نيرون قد التهمت في جنازة بوبيا[٤٦]جميع القرفة المستوردة من جزيرة سيلان خلال عام بأكمله.

ويشير الشاعر عينه المتقدم الذكر في هجاء لاذع إلى التوابل كمصدر من مصادر الثروة كما يذكر بعض وجوه استعمالها فيقول:

ماذا يهمك أنت إذا أهمل إناؤك الذي يوضع فيه رمادك.

ماذا يهمك لو تركت جثتك تحترق بغير توابل وبخور.

ماذا يهمك لو منعت عن رماد حطامك تلك العطور.

ماذا يهمك لو اشتريت الكاسية المتعفنة من رهط اليهود.

لو سألنا بستيوس[٤٧] الحكيم لأجاب.

---

[٤٦] كانت عشيقة نيرون قبل أن تكون زوجاً له قتلها ركلا عام ٦٥

[٤٧] **Bestlus**

كل هذا الترف هباء، أبهة الموتى غرور.

نحن لم نعرف مثل هذا الترف الباطل من قبل.

كل هذا جاءنا به الإغريق المخنثون.

كل هذا اللعب، كل هذا العبث، جاءنا من أثينا.

البلح والفلفل قد شلا عضلات روما.

وشكا كاتب روماني آخر[٤٨] من أن الهند وبلاد العرب تستنفد من أموال الإمبراطورية الرومانية (ما قيمته بعملتنا) ثلاثون مليوناً من الجنيهات سنوياً مقابل أشياء تافهة لا يمكن أن يحسبها العاقل حتى من مستلزمات الكماليات، وكان أهل روما يدفعون ثمنها ذهباً وفضة لذلك سن قانون يحرم إرسال الذهب خارج روما استناداً إلى أن الأموال التي تنفق على هذا النوع من التجارة لا يجني من ورائها غير الكماليات، آفة الفضيلة والمعول الهدام للإمبراطورية.

وأعظم شاهد على مدى ما لغته من الأهمية تجارة التوابل في تلك الأيام ذلك الوصف الدقيق الواضح الذي جاء في سفر الرؤيا[٤٩] عن المدينة العظيمة[٥٠] "المدينة العظيمة التي فيها استغنى جميع الذين لهم سفن

[٤٨] بليني

[٤٩] رؤيا يوجنا اللاهوتي – الإصحاح الثامن عشر من العهد الجديد

[٥٠] مدينة بابل

في البحر من نفائسها[٥١] بسبب ارتفاع أسعارها، وتجار الأرض استغنوا من وفرة نعيمها[٥٢]" بضائع من الذهب والفضة والحجر الكريم واللؤلؤ والبئر والأرجوان والحرير والقرمز وكل عود أثيني وأثمن الخشب والنحاس والحديد والمرمر وقرفة وبخوراً وطيباً ولباناً[٥٣]..





(٥١) الإصحاح الثامن عشر من العهد الجديد

(٥٢) الإصحاح الثامن عشر من العهد الجديد

(٥٣) الإصحاح الثامن عشر من العهد الجديد

تجار العرب من نسل إسماعيل يبتاعون يوسف بن يعقوب
(من مخطوط فارسي يرجع عهده إلى القرن الخامس عشر).

في الوقت الذي كتب فيه القديس يوحنا هذه الرؤيا طرأ تغيير عظيم على حركة النقل التقليدية التي كانت متبعة في حمل توابل الهند وسيلان إلى الإسكندرية؛ ففي العام السابع عشر للميلاد قام ربان إغريقي في خدمة الأسطول المصري اسمه هبولوس "Hipolus" بمغامرة ترتبت عليها نتائج كان لها أبعد الأثر في تجارة التوابل وفي فنون الملاحة؛ فقد كان الملاحون حتى ذلك العهد يقيدون أنفسهم دائماً بالسير قريباً من الشواطئ في مخورهم إلى الهند لا يجرؤون على الاندفاع إلى عرض البحار ولكن حدث ذات يوم أن استقر رأي هذا الربان على أن يرى ما إذا كان في الاستطاعة الانتفاع بالرياح الموسمية.

ونجحت التجربة ودفعته الرياح من خليج باب المندب إلى شاطئ الهند في زمن قصير يدعو إلى الدهشة. وترتب على هذه التجربة أن فتح الملاحون أعينهم وأخذوا يراقبون ويدرسون قوانين الطبيعة المسيطرة على هبوب الرياح الموسمية التي أصبحت منذ ذلك الحين خير عون للسفن في مخورها إلى الهند والصين. وقد أطلق اسم هذا الربان المتواضع على الرياح الموسمية تمجيداً لشجاعته فقرن بذلك اسمه إلى أسماء الآلهة الذكور منهم

والإناث. وأخذ هبولوس مكانه بين صفوف الآلهة أورنتوس[٥٤] وسفيرس[٥٥] وتيفوس[٥٦] وجميع آلهة الرياح الأخرى.

وباتساع رقعة الإمبراطورية الرومانية ازداد طلب الناس للتوابل فحيث تقيم الفرق العسكرية الرومانية مخيماتها الشتوية أو حيث تبنى المدن تظهر القرفة والفلفل ويحرق البخور سواءً كان ذلك في بلاد الغال أو في بريطانيا أو في ألمانيا. وبدأ البربر بدورهم يستسيغون الفلفل، فهذا ألاريك[٥٧] قد قدر حق قدرها فطالب روما، كجزء من الفدية التي طالبها بها، ثلاثة آلاف رطل من الفلفل واضطر إمبراطور الرومان بعد ذلك بعامين عقب نهب روما سنة ٤١٠ ميلادية أن يدفع لملك الفزيجوت المنتصر ثلاثمائة رطلا من الفلفل جزية سنوية.

على أن ازدهار حركة الإتجار في التوابل انتهى عقب الفوضى والاضطرابات العظيمة التي حدثت نتيجة نهب البرابرة لروما وغزوهم لإسبانيا وفتح شمال إفريقيا وما ترتب على ذلك من تقويض دعائم المدنية مضافاً إليها جميع الحوادث الأخرى التي أصبحت من معالم التاريخ في العصور المظلمة، فقد وقفت حركة التجارة مدة أربعمائة سنة، ولا تجرؤ خلالها أية أمة على التعامل مع غيرها من الأمم لا براً ولا بحراً.

---

(٥٤) Euronatus

(٥٥) Sephyrus

(٥٦) Typheus

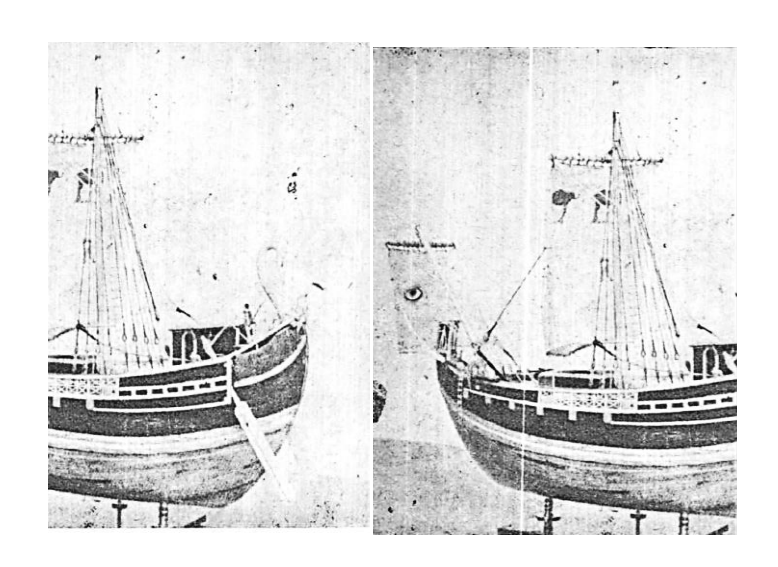
(٥٧) **Alaric** ملك الغزيجوت غزا الشرق وانتهب روما. مات سنة ٤١٠

كل شيء كان يتأرجح: اكتسحت الممالك والأديان والقوانين والفنون والعلوم والملاحة، ثم بدأت حركة التجارة تنتعش مرة أخرى براً وبحراً بعد أن استبان الناس مضرة خمود حركة التجارة، لذلك استقر الرأي على محاولة استئناف التعامل من جديد، وأخذت الروابط – التي كانت قد انقطعت أسبابها بين الأمم، خلال العصور المظلمة – تؤدي إلى تكتل مجموعات جديدة من الأمم، استطاعت أن تنهض من تحت أنقاض الفوضى والاضطرابات القديمة، وعندما تركزت قواعد هذه الدول بدأ الاتصال بالمشرق من جديد.

ولكن الحركة التجارية لم تعج تسلك الطريق القديمة العتيدة من الهند إلى البحر الأحمر ثم النيل، ثم أصبحت تجارة التوابل تسلك طريقاً جديدة ثم نهري السند وجيجون، ثم عبر بحر الخزر، ثم تصعد في نهر الفولجا، ثم تنحدر في نهر الدون إلى بحر أزوف، ومن ثم إلى مدينة تيودوسيا. وحدث أن اعتقد أحد حكام أرمينيا، أنه قد اكتشف طريقاً أصلح لنقل التوابل. وذلك باجتياز مدينة جورجيا إلى طرابزوند **Trebizond** على شاطئ البحر الأسود، على أن تشق قناة طولها مائة وعشرون ميلاً لتربط بين بحر أزوف والبحر الأسود، تمخر فيها السفن بشحناتها من التوابل والعقاقير وغيرها من السلع، ولكن هذا المشروع الضخم، لم ينفذ لأن الإمبراطور قتل قبل الشروع فيه.



تتري يقود جملاً.



سفينة لبعض تجار روما " القرن الثاني للميلاد

وبعد انقسام الإمبراطورية الرومانية إلى غربية وشرقية أصبحت القسطنطينية المركز الرئيسي، وشهدت الإسكندرية تحول تجارة التوابل عنها وفقدت الطريق الممتدة على طول البحر الأحمر أهميتها، بينما ازدادت الحركة على شاطئ الخليج الفارسي، ومنذ ذلك الوقت بدأ تجار الفرس يتعاملون مباشر مع الهند، وأصبحت القوافل تنقل التوابل من شبه جزيرة تشر سونيز[٥٨] الذهبية إلى القرن الذهبي.

---

[٥٨] أوكوسونيز. اسم أطلقه اليونانيون على أربع أشباه جزائر، الأولى كرسونيز "ترافيا" وهي الآن شبه جزيرة الدردنيل. والثانية كرسونيز "طوريق" وهي القرم، والثالثة كروسونيز "سمبريك" وهي الآن جتلاند الدنمركية، والرابعة كرسونيز "الذهبية" التي يحتمل أن تكون الهند الصينية الحالية.

والتغيير الكبير الثاني الذي طرأ على طرق التجارة، وقع في مستهل القرن السابع بظهور الإسلام، الذي كان صاحب الدعوة إليه راعياً من نسل إسماعيل، ثم مديراً لأعمال زوجه في تجارة المر والطيب وغيرهما من التوابل والعطور. وقد كان لانتشار الإسلام أعظم الأثر في تجارة الشرق، لأن كثيراً من العرب الذين دعوا إلى الإسلام (بحد السيف[٥٩]) استقروا بشاطئ الهند كتجار للتوابل والعطور وكسمسارة لها. وتسهيلاً لحركة التجارة بين فارس والهند أسس عمر بن الخطاب، ثاني الخلفاء الراشدين مدينة البصرة سنة ٦٣٥م عند ملتقى نهري دجلة والفرات، لم تلبث أن ازدهرت وأصبحت بعد مدة قصيرة من الزمن أهم مركز للملاحة كما يستدل من كتاب ألف ليلة وليلة. وقد بلغ عدد سكان البصرة في عهد الخلفاء العباسيين مائتي ألف نسمة.

وفي عام ٩٦٩ ضم اسم مدينة جديدة إلى قائمة أسماء المدن التي اقترنت بتجارة التوابل. وكانت هذه المدينة الجديدة هي القاهرة. إذ ما تم لقائد[٦٠] جيوش الخليفة الفاطمي فتح مصر حتى بنى مدينة بالقرب من موضع المدينة القديمة، بابل مصر[٦١] التي لم تكن تبعد عن موضع ممفيس عاصمة الفراعنة. وقد خطت هذه المدينة بمنتهى الدقة صدوعاً بأمر الخليفة، وسميت "القاهرة" وما فتئ التجار منذ ذلك الحين يبيعون العطور والتوابل في شوارع القاهرة الضيقة، وفي أسواقها، حتى أن جوها المشبع

---

[٥٩] هكذا تقول الكاتبة وهو افتراء صارخ لا يقوم على أساس من الصحة.

[٦٠] جوهر القائد

[٦١] حصن بابليون

برائحة التوابل والعطور العبقة الحادة طيلة القرون المنصرمة ليبدو اليوم وكأنه يحمل بين طيات دوره خيال ذلك العهد البعيد عندما كان الشرق يخطر متألقاً في حلل ثرائه ومجده.

وفي عام ١١٦٩ أي بعد انصرام مائتي عام، أفراد السلطان صلاح الدين للتجار من الإفرنج حياً خاصًا في القاهرة لسكناهم ولمزاولة تجارتهم فيه، وفي عام ١١٧٥ أوفد سفارة إلى مصر رفعت إليه تقريراً عقب عودتها، ذكرت فيه أن بمصر كميات ضخمة من التوابل وبخاصة من الفلفل.



***

وفي نفس الوقت كانت أسماء القرنفل وجوزة الطيب والبهار قد أضيفت إلى قائمة التوابل التي كانت معروفة للناس منذ القدم.

وفي عام ١٠١٢ كان الصينيون قد استولوا على جزر ملوك بعد أن تبين لهم عظيم أهمية هذه الجزر لما تغله من التوابل، إذ كان الاعتقاد السائد في ذلك الحين هو أن التوابل لم تكن تنبت إلا بها وليس بأي مكان آخر. وكان سكان جزر التوابل – وهو الاسم الذي أطلقه البرتغاليون على جزر ملوك فيما بعد – لا يجدون في ثمار القرنفل وأشجار جوزة الطيب أي نفع لهم، ولكن عندما عرفت منافعها أجلى أهلها الصينيين عنها ١٥٠٣ ميلادية. ولكن حدث بعد ذلك أن سلاطين ملقاً، أقدم المدن في تلك النواحي وأهمها مركزاً، بناها إسكندر شاه في عام ١٢٥٢ احتلوا جزائر ملوك.

وكان التجار من العرب والفرس قد شرعوا في القرن الثامن يرحلون إلى ملقا لابتياع توابلها، وحمل التجار العرب خاصة هذه التوابل من بوغاز ملقا إلى بوغاز طارق. وكان تجار الملايو يقصرون جهودهم في أول الأمر على جلب التوابل من سومطرا وجاوا وبورنيو وجزر ملوك إلى ملقا، ولكنهم شرعوا بعد ذلك في حملها بأنفسهم عبر البحار إلى هرمز، وكانت تشمل ثمار القرنفل وجوزة الطيب والفلفل وزيت الكارفور وخشب الصندل، جاراهم الصينيون في ذلك.

وما هي إلا مدة قصيرة حتى كان الطلب على هذه الأنواع الجديدة من التوابل قد ازداد زيادة كبيرة جداً حتى أن الضرائب المفروضة على أهالي مدينة سانت جان أكر St. Jean Acre أي عكا لعام ١٨٨٠ سددت كميات من جوزة الطيب. على أن أحداً لم يكن يعلم شيئاً عن مصدر هذه التوابل ولا عن أصلها؛ فقد كان التجار الصينيون إذا سئلوا عن ذلك أمعنوا في الغموض ورووا عنها القصص الخيالية ليزيدوا من قيمتها. ولم يكشف عن سرها إلا في أواخر القرن الثالث عشر حينما ذكرها مؤلف عربي في بعض كتبه مشيراً إلى أنها تستورد من جزر ملوك.

وكانت الحروب الصليبية أهم أداة لإعادة الاتصال من جديد بين الغرب والشرق لصالح تجار الفريقين، فبزغت نجوم ثلاث مدن كبيرة في المشرق كمراكز تجارية للتوابل، هي القسطنطينية والقاهرة وبغداد، والواقع أن بغداد بلغت أوج مجدها في تلك الأيام من ناحية التنعم والترف. وامتلأت أسواقها بكميات وفيرة من السلع، فكان فيها فراء الصين الناعم وخزفها، وفيها المنسوجات الحريرية الغالية وفيها المسك والتوابل والعطور وما إلى ذلك.

وكانت تأتيها هذه السلع من طرق شتى، فحينا من كاثاي[٦٢] إلى كاشغر فسمرقند فبخارى، ثم عبر بحر قزوين إلى أسترخان، ومنها تحمل في نهري الفولجا والدون إلى القرم حيث كان أهل جنوا قد أسسوا فيها إبان القرون الوسطى مستعمرة للاتجار. وما أن ازدهرت هذه المستعمرة، حتى

[٦٢] الاسم القديم للصين

عمدوا إلى إعادة بناء مدينة تيودوسيا القديمة وأطلقوا عليها اسم "كافا" وهي التي أصبحت في ذلك العهد أهم المراكز الأوروبية لتجارة التوابل وكنوز الشرق الأخرى التي كانت تحمل منها إلى القسطنطينية، وثمة طريق آخر يوصل إلى "كافا" من كامباي، ثم إلى الخليج الفارسي فأرمينية فالبحر الأسود.

وكانت بضائع الهند ترد على القسطنطينية كذلك عن طريق نهر الجانجيز (الكنج) حتى أجرا، ومن ثم إلى سمرقند – عروس مدن آسيا الوسطى – ففيها يلتقي الشرق الأقصى والغرب، ولقد بلغ عدد التراجمة في هذه المدينة في عهد من عهودها ثلاثة مترجمين ومائة مترجم يمثلون عدداً مماثلاً من اللغات واللهجات، يشهد بذلك ما سجله عقب عودتهما من سمرقند شخصان فرنسيان، أحدهما من مقاطعة "بريتانيا" واسمه "مالرب Malherbe"، والثاني من مدينة مرسيليا واسمه بلان Blanc. فهما يرويان أنهما شاهدا في سمرقند هنوداً وفرساً وأتراكاً وأجناساً أخرى من الناس لهم متاجر يتبادلون فيها العروض مع تجار الصين من أقمشة مزركشة بالذهب، ومن منسوجات حريرية وأخشاب وأوبار الجمال، نظير الفضة واللؤلؤ والأحجار الكريمة والحرير والمسك والراوند وما إلى ذلك من النفائس.

وفي تاريخ التجارة لعبت جمهوريتان كبيرتان من مدن إيطاليا الساحلية – هما فنيسيا (البندقية) وجنوا – دوراً مهماً، فقد أدركنا كما كما أدركت "صور" في عهد عظمتها أهمية إنشاء المستعمرات للتجارة ففعلا ذلك،

وحالفهما التوفيق. على أن أملفي "Amalfi" وبيزا – وبعدهما – فلورنسا لم تلبث أن أصبحت من أشد المنافسات لهما

والواقع أن مدن إيطاليا الساحلية أثرت وازدهرت بفضل الحروب الصليبية، إذ كانت سفنها تنقل الفرسان الصليبيين وكل من استنهضته الغيرة على الدين للإبحار إلى سوريا، وسرعان ما أصبحت مدن برشلونة وناربون ومرسليا منافسات للمدن الإيطالية في هذا المضمار.

ومما يستحق الذكر أن ملاحي مرسيليا كانوا قد غامروا قديماً في الأطلسي فجابوه جنوباً حتى السنغال، وشمالاً حتى النرويج، ولكنهم أصبحوا الآن أكثر إبحاراً صوب الشرق. وكانت التوابل التي ترد على مارسليا تباع في فرنسا أو تشحن إلى فلاندرز(٦٣)، فدرت على التجار ربحاً وفيراً وأثرت المدينة حتى أن بائنات العرائس في عام ١٢٢٤ كانت تدفع بهاراً وجنزبيلاً وكراويا برية وكانت لوائح الضرائب الجمركية تفرض حوالي ذلك العهد دنيين(٦٤) على كل كيس من أكياس الفلفل والجنزبيل.

وتحولت مونتبلييه ونيم كذلك إلى مركزين رئيسيين لتجارة التوابل، على أن العلاقات التجارية مع المشرق كانت تتوقف إلى حد بعيد على الظروف الدولية – أو بالأحرى – الدينية، فبينما نرى أمراء المسلمين وحكامهم يحرمون حيناً على المسلمين كل تعامل تجاري مع النصارى نرى

(٦٣) Flanders – اسم بلجيكا قديماً

(٦٤) عملة رومانيا قديمة حوالي جزء من مائتين وأربعين جزءاً من الفرانك

البابوات كذلك أحياناً يحرمون على النصارى كل تعامل مباشر مع المسلمين. فحينما أعلن المجلس البابوي في عام ١١٧٩ قراره بتحريم الإتجار مع العرب تحول سيل تجارة التوابل إلى القسطنطينية. وكان حظ تجار فينيسيا وجنوا مرتبطاً بحكام القسطنطينية ومتوقفاً على ما إذا كانت جنسيتهم الأصلية لاتينية أو إغريقية، فبحسب جنسية الجالس على العرش إذا كانت إغريقية أو لاتينية تمتعت الواحدة أو الأخرى بامتيازات خاصة أو حرمت منها، وكان لكل من الجمهوريتين مستودعات لتجارتهما في سوريا أهمها في حلب وبيروت.

على أنه في عام ١٢٥٨ ترتب على المنازعات التي استفحل أمرها بين أبناء فينيسيا وبيزا وجنوا أن قفل في وجهها جميعاً ميناءا: عكا ودمياط. ولم يكن تجار برشلونة أقل همة ونشاطاً من تجار الجمهوريات الإيطالية. ولتجار كاتالونيا يرجع الفضل في توسطهم عام ١٢٥٠ لدى جيمس الأول ملك أراجون لعقد معاهدة مع سلطان مصر، ولما كانت هذه المعاهدة قد أجازت أموراً وحرمت أموراً بسبب الفوارق بين عقائد الفريقين الدينية فقد انتهز التجار المحايدون، وهم اليهود هذه الفرصة للاستغلال.

ففي بغداد كان جميع أصحاب البنوك الرسمية في عهد الخلفاء من اليهود نظراً لأن الإسلام لا يبيح تحصيل فوائد على الأموال الموظفة؛ فأسسوا شركات لمزاولة الشئون التجارية، وكان غالبية المساهمين في رؤوس الأموال من اليهود. ولما كانت هذه الشركات تستهدف القيام بعمليات تجارية على نطاق واسع فقد بذلت القروض للتجار من يهود وفرس وعرب

ونظمت القوافل ورتبت رحلاتها في مواعيد ثابتة لربط المدن الكبرى بعضها إلى بعض وأرسلت إلى إفريقية العملاء لجلب الرقيق كما أرسلتهم إلى الهند والصين ليأتوا بالتوابل.

كان التجار اليهود سماسرة قبل كل شيء، ولقد روى بنيامين من أهل توديلا أنه أحصى عدد السماسرة اليهود في جزيرة كش[٦٥] بالقرب من هرمز فوجدهم خمسمائة. وكان اليهود يزاولون نفس العمل في الإسكندرية وبرقة حيث كانت توجد جاليات يهودية كبيرة العدد.

وما أن أوفى القرن الثالث عشر على نهايته حتى كانت المنافسة بين الإسكندرية والقسطنطينية – كمركزين تجاريين – قد بلغت أشدها بالرغم من أنه كان لكل من المدينتين مناطق توزيع وأسواق خاصة.

كانت التوابل تحمل من مصر إلى الموانيء الإيطالية ومن ثم تجتاز جبال الألب ومنها تنحدر إلى وادي نهر الرين حتى تصل إلى هولندا. أما في القسطنطينية فكان تيار الحركة التجارية متجهاً نحو مدن البلطيك كما أن البضائع كانت تحمل في الدانوب إلى هولندا مجتازة في طريقها بسوقي نورمبورج وأوجزوبورج. على أن جميع الطرق التي كانت يسلكها التجار بتوابلهم كانت تؤدي في النهاية بروج Burges" أعظم المراكز التجارية أهمية في غرب أوروبا وشمالا، وبها يقيم أكبر تجار رابطة "الهنزا" الجبارة التي انتشرت مخازنها في جميع أنحاء أوروبا، فبينما كانت مستودعات مصانع

---

(٦٥) **Kish**

الحديد في لندن تعتبر أقصى مراكز للغرب كانت مستودعات نوفوجورود العظمى تعتبر أقصى المراكز في الشرق.

كانت بروج ملتقى تجار إنجلترا وإسبانيا وفرنسا وألمانيا ففيها يقايض السماسرة على منتجات الغرب من الصوف بمنتجات الشرق من التوابل، وإليها كان يحمل صوف إسبانيا الناعم وصوف إنجلترا الخشن، وكانت أسرة مدشيس "Medicis" خاصة – وهي أشهر أسر فلورنسا، تعني بشراء هذا الصوف لتنسج منه الأقمشة الفاخرة. وكانت بدورها تمون السوق بالتوابل والعقاقير بينما كان تجار فينيسيا يقايضون على توابلهم بالأقمشة الكتانية والصوفية من إنتاج فلاندرز. ولم تلبث أن أصبحت مدن جت وأنتويرب ولوفان هي أيضاً من المراكز التجارية المهمة وكذلك مدينتا بوردو وتولوز التي كانت تحمل منهما التوابل مباشرة إلى لندن حيث أسست في عام ١١٧٩ رابطة تجار الفلفل بينما لعبت في فرنسا كذلك رابطة تجار التوابل دوراً مهماً في هذا الميدان.

احتلت التوابل بوجه عام في أوروبا مكانة في المرتبة الأولى من الأهمية التي كانت تعتبر من الوسائل المفيدة للصحة؛ فهي بتحسينها نكهة الطعام تنشط الشهية وتجعل في استطاعة الإنسان استساغة تلك الألوان التي كثيراً ما تكون تافهة. ومن هنا كانت أهمية ما يعزى إلى التوابل من الأثر الفعال في المساعدة على عملية الهضم وتسهيلها. فنرى سان بونيفاس St. Boniface بعد أن اقتنع بفوائد التوابل للصحة ونظافة الجسم، يدعو في

ألمانيا إلى استعمالها في نفس الوقت الذي كان يدعو فيه إلى اعتناق المسيحية.

فكلما ازداد انتشار الفلفل والجنزبيل والقرفة والكراويا البرية ازدادت معرفة الناس بفوائد استعمالها، فمن ذلك أن الأديرة التي اعتادت أن توزع على الناس في ألمانيا حتى ذلك العهد لوناً من الخبز يسمى كعك المحبة Hebkuchen شرعت في إضافة الفلفل إلى عجينته فسمي منذ ذلك التاريخ بالكعك المفلفل (pfefkuchen) وحل محل كعك المحبة التقليدي.

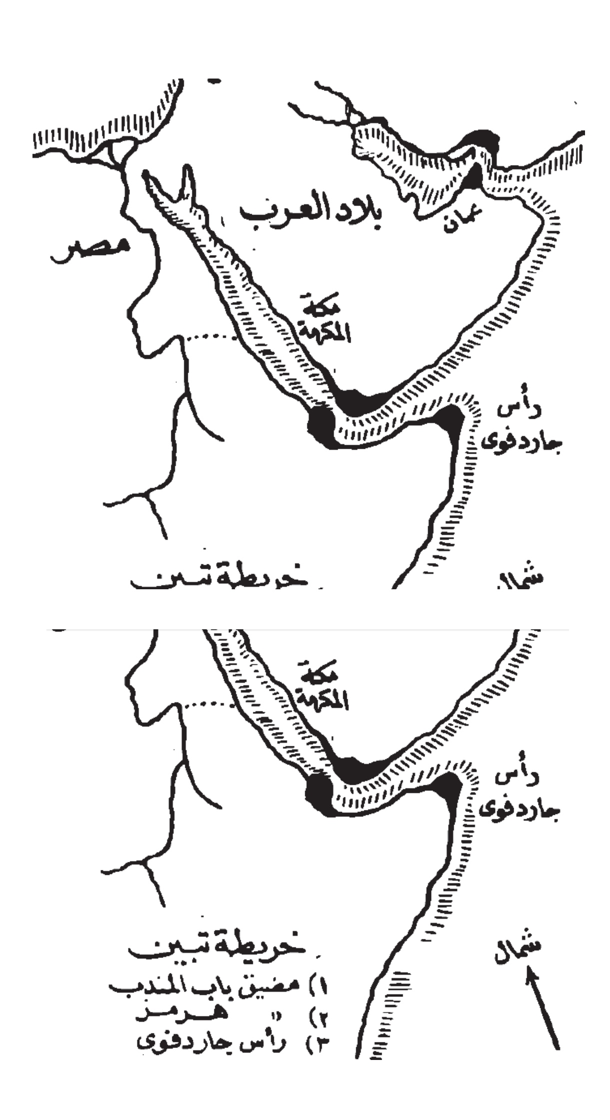
ولقد أحكم تنظيم تجارة التوابل بعناية تامة فحسبت تكاليف النقل في البحر والبر بكل دقة حتى ما تحزم في مليم واحد، فلا جرم أن أصبحت تجارة التوابل في طليعة الأعمال المالية المربحة يتسع ميدانها لجميع الناس، فما كاد القرن الثالث عشر يوشك على الزوال حتى كان الحصول على التوابل أمراً ميسوراً لاعتدال أثمانها، ولكن فجأة تغير كل ذلك.

في عام ١٣٠٠ استقر رأي سلطان مصر على أن تكون تجارة التوابل مصدر ربح خاص لها وذلك بسد جميع الطرق في وجهها إلا طريق مصر، فأمر بأن يحمل إلى القاهرة جميع التوابل التي ترد على هرمز، وفرض السلطان كذلك على جميع السفن القادمة بالحجاج من الشرق أن تأتي معها بالتوابل إلى جدة حيث كانت تقوم القوافل بنقلها إلى مكة ومن ثم إلى القاهرة. وبذلك أصبح السلطان ومن جاء بعده من السلاطين أعظم تجار

للتوابل وأكثرهم ثروة بفضل ما كانوا يجنونه من حصيلة الضرائب التي فرضوها على هذه التوابل مما أدى إلى ارتفاع أسعارها في الأسواق. وكانت هذه الضرائب تحصل في عدن والسويس ومنهما تحمل البضائع إلى النيل في تسعة أيام ثم إلى القاهرة بالقوافل ي خمسة عشرة يوماً. ومن القاهرة تحملها السفن في النيل وقت فيضانه حتى الإسكندرية حيث تكون السفن الإيطالية في انتظارها بالميناء، فكانت التوابل تستغرق في رحلتها من جزر ملوك إلى حارة الفرم "Mincing Hane" بلندن عامين كاملين.

وفي عام ١٣٣٩ أذن السلطان لأهالي فينيسيا بالإتجار في القاهرة وداخل منطقة الإسكندرية، وكان البابا بنيدكت الثالث عشر "Benedict XIII" قد أذن آنفاً لجمهورية فينيسيا في الإتجار مباشرة مع المسلمين، وبذلك فتح باب التعامل التجاري على مصراعيه فاستقر، ونزل بالإسكندرية كثير من تجار فينيسيا واستقروا بها وما لبث أن انضم إليهم تجار فلورنسا بعد أن حصلت أسرة مديشيس Medicis من السلطات على امتيازات خاصة، مصرفية وتجارية. وحرمت جنوا من الحصول على امتيازات مماثلة ولكنها وجدت عوضاً عنها في القسطنطينية التي كان لمركزها أهمية ملحوظة من الوجهة التجارية نظرية لازدياد حركة معاملاتها مع الشرق واطراد نموها.

ولكن سرعان ما صدم الإيطاليون وغيرهم من التجار المسيحيين صدمة شديدة بتحريم الأتراك كل تعامل مع النصارى عقب استيلائهم على القسطنطينية عام ١٤٥٣.


بلاد العرب
عمان
مصر
مكة المكرمة
رأس جاردفوى
خريطة تبين
شمال
مكة المكرمة
رأس جاردفوى
خريطة تبين
١) مضيق باب المندب
٢) " هرمز
٣) رأس جاردفوى
شمال

الفصل الثالث

الجوَّابون وقصصهم

كيف تتأتى للإنسان المعرفة إذا هو لم يسع للبحث عنها؟

إن القوقعة لتنطوي على نفسها داخل صدفتها فيخيل إليها أن سكنها أطيب مسكن في العالم.

"ومن أمثال الغجر".

وفارقت وطني مفارقة الطيور للوكور.

"ابن بطوطة" ١٣٢٥.

كان طبيعياً أن يهتم الخليفة في بغداد بطرق المواصلات في ممتلكاته وأن يقف على دقائقها أمام سيل القوافل المتدفقة فيها بحمولاتها النفيسة من التوابل، لذلك أصدر أمير المؤمنين المعتز بالله مُحَّد بن المتوكل[٦٦] أمره إلى عامله على البريد ابن خرداذبه[٦٧] عام ٨٨٠ ميلادية بوضع مؤلف يحشد فيه جميع المعلومات بشأن هذه الطرق. وقد أنجز ابن خرداذبه مؤلفة

[٦٦] في الأصل الإنجليزي "الخليفة مُحَّد بالله" – لعل الكاتبة تقصد المكتفى بالله ٢٨٩ – ٢٩٥

[٦٧] هو أبو القاسم عبد الله بن عبد الله المؤرخ الجغرافي. توفى في حدود سنة ٣٠٠ هـ وقد ترجم باربيير دي مينار **(Barbier de Meynard)** كتابة "الملك والممالك" إلى اللغة الفرنسية وطبع في باريس عام ١٨٦٥.

في أربع سنوات تحت عنوان "المسالك والممالك"، أودعه المسافات التي بين البلدان وأحصى فيه الواردات.

وقد جاء هذا المؤلف أشبه بالتقرير منه بالكتاب؛ وهو وإن كان قد حقق الغرض الذي صنف من أجله وخدم علم الجغرافيا خدمة جليلة إلا أنه اقتصر على ذكر البلاد والأماكن التي تتعلق فقط بهدف الكتاب، فهو مثلاً حينما يتكلم عن عدن، يكتفي بالقول بأن عدن، وإن لم ينبت بها شيء إلا إن الإنسان يستطيع أن يحصل فيها على كل ما يرغب من التوابل والعنبر.

ولكن ما لم يذكره ابن خرداذبه قد ذكره إمام بغداد مؤدب أحد الأمراء في كتابه "الفتوح والأمصار". والكتاب يلقي كثيراً من النور على الجانب الإنساني في التجارة، وهو يقسم لنا سبب قيام اليهود خاصة بالإتجار في كل مكان ويؤكد أنهم كانوا يتكلمون بالفارسية واللاتينية والإغريقية والعربية والإسبانية والسلافية. ويذكر أنهم كانوا يبدءون رحلتهم من إسبانيا، فبعد أن يعبروا إلى طبنجة يجتازون شمال إفريقية إلى مصر، ومنها إلى دمشق فبغداد ثم إلى الهند فالصين. أما عن تجارتهم فيذكر لنا أن أهم ما كانوا يصدرونه من الغرب إلى الشرق هو الصبيان والإماء السلفية[٦٨] والغلمان والحرير والفراء والسيوف أما ما كانوا يعودون به من الشرق فأهمه المسك والصبر والكافور والقرفة وما إلى ذلك من منتجات تلك النواحي.

---

[٦٨] كان الناس من الجنس السلافي يبيعون أولادهم.

والتجارة وإن تكن الحافز الأساسي لجوب الآفاق وتحمل مشاق الأسفار إلا أن الشئون السياسية والورع الديني كان لها أيضاً من الدوافع ما أتاح الفرص لمشاهدة العالم؛ فالسفارات الموفدة إلى الأقطار الغريبة الأجنبية والحج إلى مكة المكرمة كانت في معظم الأحيان منشأ الأسفار والإمعان فيها؛ فبدأ المثقفون من العرب يدرسون تدريجياً أحوال الشرق الأقصى ويلمون بشئونه. وكان الجوابون يروون القصص عما شاهدوه في سياحاتهم ويدونون ملاحظاتهم عن أحوال الأمم التي خالطوها. ولقد استفاد الجغرافيون من معلوماتهم فأضافوا كثيراً من التفاصيل من عادات الأمم الأجنبية وتقاليدهم إلى مؤلفاتهم بفضل هذه المعلومات.

ومن أشهر الجوَّابين العرب: سليمان(٦٩) وابن وهب(٧٠) التاجران البصريان اللذان دمغا القرون بطابعيهما. فقد زار الصين في أواخر القرن التاسع الميلادي وليس هذا في حد ذاته بالشيء الخارق فقبلهما وفد كثير من تجار العرب على ميناء كانفو(٧١) لابتياع المنتجات الصينية وبخاصة المسك والكافور، إلا أن سليمان وابن وهب قد فعلا أكثر من ذلك لأنهما نجولا في ربوع الصين لا لشيء سوى الاستمتاع بمشاهدة بلاد لم يرياها من

---

(٦٩) اسمه سليمان البصري وكل ما يعرف عنه أنه وصف سياحة له في الهند والصين ذكرها مؤلف من سيراف اسمه أبو زيد حسن في مؤلف له كتبه عام ٢٣٧ هـ – ٨٥١م اعتمد فيه على ما سمعه من رحالة العرب في الهند والصين لاسيما من ابن وهب

(٧٠) هو ابن وهب القرشي من ولد سهبار بن الأسود. قام برحلة إلى الصين سنة ٢٥٦هـ ٨٧٠م. وترك البصرة عندما خربها الزنج وأبحر من سيراف على بعض مراكب هندية وساح في الهند إلى انتهى إلى خانقو = Canton وهو ربما لم يدون ما شاهده ولكنه رواه للمؤلف السيرافي أبي زيد الحسن.

(٧١) اسمها الآن "كانتون"

قبل. ويروي لنا سليمان أن الفضول وحب الاستطلاع دفعاه إلى أن يستسلم إلى الرياح الموسمية التي اندفع معها من شاطئ عمان إلى شاطئ الهند ثم حول رأس كومورن ومن ثم إلى الصين.

بينما يروي لنا ابن وهب أنه أجاب إمبراطور الصين عندما سأله عن السبب الذي حمله على مغادرة وطنه بقوله: "شاهدت في البصرة سفينة صينية على وشك أن تبحر فنازعتني نفسي إلى ركوبها ففعلت وحضرت فيها إلى الصين، ثم أضاف التاجر العربي في سذاجة – وكان صادقاً فيما قال – بأنه كانت له رغبة ملحة لمشاهدة الإمبراطورية.

كان سفر هذين التاجرين إلى الصين منفصلاً إذ كان كل منها مستقلاً عن الآخر إلا أن كلا منهما استطاع أن يدرس عن كثب حياة الصينيين في جميع مظاهرها: حياتهم الخاصة وحياتهم العامة.،والمدنية منها والدينية والسياسية أيضاً.

ولقد كان لكشفهما عن سر المسك وحقيقة مصدره أكبر أثر في أوساطنا التجارية. فهما يذكران أنهما شاهدا رجلاً قدم إلى "كانفو" مشيا على الأقدام من سمرقند يحمل نافجة مسك من جلد استخرجه من الظباء المكية التي تكثر في الغابات القائمة حول سمرقند. بيد أن أحسن أنواعه وأطيبه رائحة ما يجلب من بلاد "التبت" وذلك لأن المراعي التي ترعاها الظباء المسكية بها أطيب أعشاباً من أعشاب المراعي الصينية وكثيراً ما يخلط الصينيون المسك الذي يعرض للبيع في أسواق "كانفو".

وكتب سليمان عقب عودته إلى البصرة أخبار رحلته في كتاب تحت عنوان "قصص سائح". وقد حمل هذا الكتاب بعد ذلك العهد بسنوات عديدة إلى أبي زيد السيرافي ليحقق وقائعه وليزكيه ويقدم له. وصادف وجود ابن وهب في ذلك الحين بسيراف فأفضى عن طيب خاطر إلى أبي زيد معلوماته الخاصة وبما شاهده بالهند والصين، فنتج عن هذا التعاون كتاب عنوانه "سائحان" أودع قصص أسفارهما فكان لتلك القصص حظاً عظيماً من الانتشار وإقبال الناس عليها حتى أنها كانت المصدر الوحيد للمعلومات عن الصين وأهلها طيلة أربعة قرون وانتفع الجغرافيون بما ورد فيها وأمنوا على صحتها.

ولم يكن الجغرافيون وحدهم هم الذين انتفعوا بتجارب سليمان وابن وهب فقد أثرت كذلك قصص الخيال وزاد انتشارها، وليس من شك في أن قصة السندباد البحري التي يحتمل أن تكون قد ألفت في مستهل القرن الرابع عشر إنما ينبت وقائعها على تجارب السائحين المذكورين.

هذه القصة الخلابة تشبه خيوط النسيج في وقائعها وتعاريج السداة في وثبات خيال واضعها المجهول؛ فهذا حمال مرهق مكدود ببغداد اسمه سندباد أيام خلافة هارون الرشيد قد أخذ يروي له السندباد البحري قصة رحلته العجيبة. ويجب أن أوضح هنا كما توضح القصة أن هذا الحمال التعس وجد نفسه ذات يوم أمام منزل في زقاق قد غمر بماء الورد وأنه استنشق نسمات معطرة برائحة المسك والعنبر والصبر ونفذت إلى أنفه كذلك رائحة لحوم تحمر على النار كما شنفت آذانه نغمات موسيقية

ناعمة فرثى لنفسه وتحركت فيه عوامل الغيرة من صاحب الدار لثرائه وما هو فيه من نعيم لم يتكلف في سبيله مشقة عمل ولا عرق جبين فجار إلى الله بشكواه لما هو فيه من شقاء وفاقة مع كده وكدحه. وسمع صاحب الدار دعاء السندباد ونجواه فأرسل في إحضاره. وهنا يقص السندباد البحري صاحب الثراء العريض على سميه الحمال الفقير المكدود قصة رحلاته ومغامراته وثرائه، وكيف أن أحد لم يعان مثل ما عاناه من مشاق ووصب فقال: "إن قصتي سوف تبهر المستمعين وتحد من أهواء الناس وأطماعهم لأنها سلسلة وقائع ومغامرات مذهلة وظروف خارقة".

ولنعد إلى موضوعنا؛ ففي السنوات الأولى من القرن الحادي عشر نشر على معاصريه تاجر من أهالي جنوه اسمه البيروني[٧٢] مجموعة من القصص عن رحلاته، وكان البيروني قد رافق جيش السلطان إلى الهند وكان مولعاً بالأسفار. ثم هو فيلسوف فلكي رياضي، يعتبر من أعلم أهل زمانه كما تعتبر مؤلفاته كنوز معرفة وعلم كان البيروني تاجراً فكان طبيعياً أن يسترعى اهتمامه كل ما يمت إلى التجارة بسبب. وهو يذكر لنا في سياق كلامه عن القرنفل أنه يسمى في اللغة السنسكريتية "لافكا" وأن هناك أساطير كثيرة عن جزيرة خرافية اسمها "لانكا"، وهو يزعم أن اللافكا تأتي من هذه الجزيرة وهو يكرر علينا روايات الملاحين بشأن "لانكا" فيقول أنهم يروون جميعاً القصة التالية.

[٧٢] هو أبو الريحان محمد البيروني الفيلسوف الرياضي الفلكي الجواب ألف تاريخ الهند، ولد بخيوه عاصمة خوارزم وتوفى عام ١٠٤٨م

"عندما تقترب السفن من هذه الجزيرة ينزل بعض الملاحين إلى شاطئها حيث يتركون به نقوداً أو بعض ما ينقص أهالي الجزيرة من المواد، كملح الطعام، أو أقمشة مما تلف حول الخصر وينصرفون. ولكن عندما يعودون إلى الشاطئ في اليوم التالي يجدون كميات من القرنفل تعادل قيمة ما تركوه بالأمس. ويعتقد بعض الناس أن الذين يعقدون معهم هذه الصفقات وإنما هم من الجن ولكن مهما يكن من اعتقاد الناس فإن الشيء الوحيد الذي لا يتطرق إليه الشك هو أن أحداً لم يتوغل داخل الجزيرة ثم عاد منها.

كان الناس مولعين بالسياحة في تلك الأيام، ولوع الناس بها في عصرنا الذي نعيش فيه؛ فرؤية العالم متعة لا تعادلها متعة. وأشهر ما كتبه الجوابون عن سياحاتهم في القرن الثاني عشر كتاب الشريف الإدريسي(٧٣) الذي أتمه عام ١١٦٥ "تحفة العقلاء ومعرفة أغرب الأشياء" وفي إحدى رحلاته زار هذا المغربي جزيرة صقلية حيث كان ملكها روجرز الثاني وهو من نسل الفايكنج Viking من أكثر الناس ولوعاً بالجغرافيا. وكان قد درس ما كتبه الجغرافيون من لاتينيين وإغراق وعرب عن المعمورة فلم يجد في كل ذلك شيئاً ذا غنى، وساءه ما يكتنف رواياتهم من غموض. وكان تواقا للتفاصيل الواضحة القاطعة فدأب على استشارة أصحاب الرأي ممن

---

(٧٣) هو مُحَمَّد أبو عبد الله الشريف الإدريسي من أبناء العلويين الذين ملكوا غرب إفريقيا الشمالية في أواخر القرن الثاني الهجري. ساح في شمال إفريقية وآسيا الصغرى والأندلس، ثم استدعاه روجزر ملك صقلية إلى زيارته فلبى طلبه وألف في صقلية كتابه المشهور نزهة المشاق في معرفة الآفاق.. توفى سنة ٥٦٩ هـ أو "حوالي ذلك"

يعتقد فيهم الكفاية والقدرة على إجابة أسئلة وإزالة ما يخامره من ريبة وشك ولكنهم عجزوا عن الإبانة والتوضيح؛ فاستقر رأيه في النهاية على سلوك منهج آخر برهنت نتائجه على أنه أكثر توفيقاً، وكان هذا المنهج الجديد هو أن يقوم شخصياً باستيضاح الجوابين عن مشاهدتهم وعن المسافات بين مختلف البلدان والأقطار فاستعمل لذلك الترجمة مستفسراً من كل رحالة على حدة، ثم منهم كلهم مجتمعين، حتى إذا اتفقت أقوالهم حول موضوع من الموضوعات، قطع بصحته؟

وقد دعا الملك الرحالة العلامة الشريف الإدريسي إلى البقاء في بلاطه ليساعده على استيضاح مزاعم الجوابين. ومثل هذه الدعوة المشفوعة بالوعود المادية يصعب رفضها. وكانت مهمة الإدريسي تنحصر في جمع الأدلة والشواهد الناتجة عن الاستجوابات، وقد استغرق هذا المنهج الجديد خمسة عشر عاماً كتب الإدريسي بعدها مؤلفه المشهور "نزهة المشتاق في معرفة الآفاق" والكتاب يحوي الشيء الكثير مما تهم معرفته هو، يبين إلى جانب هذا ما استرعى اهتمام كل جواب نقل عنه في مشاهداته الخاصة، وكان الذهب بطبيعة الحال من الأشياء التي استرعت الاهتمام، فذكر السودان، وحوض نهر النيجر والمناجم القائمة على شاطئ إفريقيا الشرقي بأنها المواطن التي توجد فيها المعادن الثمينة بكميات وافرة.

وضمن الإدريسي كتابه كثيراً من القصص والنوادر المسلية، التي لولاها لكان الكتاب من المؤلفات التي تبعث عن الملل والسأم لكثرة ما حوى من المسافات والأبعاد بين البلدان والأماكن، فمن ذلك مثلاً ما

يعلمنا بأن المسافة بين مناجم الذهب والفضة في الحبشة وبين ميناء زيلع يقطعها المسافر في خمسة عشر يوماً، وأن المسافة بين زيلع وبيت اليمن ثلاثمائة ميلا. وكذلك ينبئنا بأن شجر الصبر بسومطرا قد زرعه الإغريق ببلادهم منذ عهد الإسكندر الأكبر. ويبدو أنه لولا العصير المستخرج من ورق الصبر لما تيسر تجهيز الأدوية الأساسية على الوجه الأكمل؛ ففي شهر يوليو تنقى أوراق الصبر ويجمع عصيره في قدور نحاسية ثم يعرض لأشعة الشمس مدة شهر وبعد ذلك يعبأ في جرار وتباع منه كميات ضخمة للتصدير..

وذكرت جدة على أنها سوق الرقيق يحملهم الأحباش إليها كما أنها الميناء التي تصدر منها التوابل والعطور، واسترعت صهاريج المياه العجيبة بعدن اهتمام أحد الجوابين بصفة خاصة وقد رأى منها "جنوكاً"(٧٤) صينية وفدت على الميناء بعروض مختلفة بينها الفلفل، بعضها ذو رائحة قوية، والبعض لا رائحة له ومنها خشب الصبر وعصير الصبر المر. وصدف السلحفاة والعاج وخشب الأبنوس والخيزران والفخار الصيني والسروج المصنوعة من الجلد والأقمشة المنسوجة من الألياف النباتية وغيرها من المخمل.

---

(٧٤) ذكرها ابن بطوطة وجمعها على جنك وهي بالإنجليزية نقلاً عن الصينية **"Junk"**



الصبر

والمسافة من عدن إلى حضرموت يقطعها المسافر في خمسة أيام، رمالها كثيرة وسكانها قليلون وحركة التجارة فيها ضعيفة، وبشواطئها يوجد الند تقذفه إليها الأمواج عقب الأعاصير الهوجاء كما هي الحال مع العنبر. ويروي الرحالة المذكور أن أمير المؤمنين هارون الرشيد كان قد أرسل بعض خاصته ممن يثق بهم ليطلعوا من سكان الشواطئ ما يعرفونه عن الند، فقد كثرت الشائعات حول ذلك الجوهر الزكي الرائحة مما جعل الخليفة يرغب في معرفة أصله. ودلت المعلومات التي التقطت على أن هذا الجوهر يتسرب من عيون في قاع البحر مثله في ذلك مثل النفط المتفجر من العيون في رحت "العراق".

وكانت المكافأة التي نالها الشريف الإدريسي من الملك على مؤلفه العظيم شحنة كاملة لسفينة محملة بأنفس السلع. في الوقت الذي كان فيه ملك صقلية قائماً بعصر عقول الجوابين كان حاخام إسباني اسمه بنيامين من

مدينة توديلا (Tudela) بإسبانيا يقوم بزيارة بعض بلدان الشرق الأدنى والشرق الأقصى "ليرى بنفسه أحوال إخوانه في الدين وعدد المقيمين منهم في مختلف البلاد بتلك الربوع". ويدل الكتاب الذي صنفه بعد عودته على أنه رجل مثقف قوي الملاحظة له ولع بالتاريخ والفن والجمال، ولم يكن له اهتمام بشئون التجارة إلا من حيث أهميتها في حياة الأمم التي زارها، وكان يقسم عادة أبناء عقيدته إلى طبقتين: طبقة كرست نفسها لدراسة الحكمة، وطبقة لا هم لها سوى جمع الثروة.

ويختلف ما رواه بنيامين هذا عن رحلته اختلافاً كبيراً عن روايات زملائه من رحالة العرب والفرس لأن أسفاره امتدت إلى الأقطار الأوروبية؛ فهو يصور لنا مينائي: برشلونة ومرسيليا، وقد ازدحمتا بأساطيل السفن التجارية من جميع البلاد. كما يصور لنا ما بقي من آثار روما القديمة، وتفاصيل بلاط البابا، وحياة الترف البراقة في القسطنطينية، ويصف عرش الإمبراطور المصنوع من الذهب الخالص وفوقه التاج المرصع بالماس واللؤلؤ مما لا يقدر بثمن، وكيف أنها تتألق في الضوء حتى إذا ما حل الظلام أغنت عن كل ما عداها من نور. وفي رأي هذا الجواب أن القسطنطينية لا تعادل لها مدينة أخرى على وجه البسيطة إلا بغداد عاصمة الخلفاء. والحق أن هذه العاصمة الرائعة الشامخة بمبانيها الفخمة وقصورها ومساجدها ليزيد من روعتها وعظمتها أنها مجمع الفنون فيها يتلقى الفلاسفة والرياضيون وأقطاب العلوم الأخرى.

وعني الرحالة بوصف الإسكندرية ومنارتها العجيبة وصفاً دقيقاً كما وصف الميناء وازدحامها بالسفن فتقرأ في كتابه عن التجار الذين يفدون عليها لشراء التوابل، وكيف أن لكل أمة مخازن خاصة بها وأسواقاً ومتاجر علقت فوقها لافتات تشير إلى أنواع السلع التي تباع فيها.

***

كانت أربعة قرون قد انقضت منذ عودة سليمان وابن وهب بأخبار الصين الموثوق بها حينما عاد إلى فينيسيا من إمبراطورية الصين العظيمة ثلاثة من أبناء فينيسيا، هم الأخوان بولو وابن أحدهما، بعد أن مكثوا في الصين سنوات عديدة حتى أن أصغر الثلاثة سناً كان له شرف العمل في إحدى الوظائف الحكومية بالصين. وكثيراً ما كان يرفض رجاؤهم للعودة لإيطاليا، إلى أن استجاب لهم الإمبراطور ذات يوم بمناسبة رغبته في أن يرافقوا حفيدته في سفرها إلى فارس لتنزح من أرغوم خان. وبما أن السفر براً كان يعتبر من المشاق المضنية، استقر الرأي على أن تكون رحلة الأميرة في البحر. وقد سر الإمبراطور حينما ترامى إلى علمه أن الفينيسيين الثلاثة سيكونون من بين المرافقين لحفيدته لما كان يتوسم فيهم من الأمانة والخبرة بالأسفار. وكان عدد السفن التي حملت الأميرة وحاشيتها ثلاثة عشرة سفينة بكل منها أربعة قلوع. وكان يقوم على أربع من هذه السفن مائتان وخمسون ملاحاً بينما بلغ عدد ركابها – باستثناء الملاحين – ستمائة شخصا.

وكان برفقة الأميرة الجميلة الفاتنة عدد من الوصيفات وحاشية كبيرة من بينها ثلاثة مبعوثين موفدين من قبل الخان ليرجوا إمبراطور الصين أن يتكرم فيزوج الخان من إحدى أميرات البيت الإمبراطوري لأن زوجه الملكة المتوفاة أوصته بذلك وهي تحتضر، إذ كانت هي أيضاً يجري في عروقها دم البيت الإمبراطوري الصيني.

استغرقت الرحلة ثمانية عشر شهرا تخلفوا ستة أشهر منها بسومطرا في انتظار رياح مواتية. وبعد أن أوصل الفينيسيون الثلاثة حفيدة الإمبراطور إلى فارس بسلام، واصلوا سفرهم إلى فينيسيا مسقط رأسهم حيث وجدوا أقاربهم قد احتلوا دارهم ويرفضون التنازل عنها. فقد ساد الاعتقاد بأنهم لا بد أن يكونوا قد لاقوا منيتهم منذ أمد بعيد، ولكن ها هم الآن يطلعون على الناس في ملابس وأزياء غريبة ولهجة أجنبية، وها اثنان منهم يدعيان بأنهما الأخوان بولو وأن الثالث ابن لأحدهما، وسيط للآخر.

على أن المجوهرات والأحجار الكريمة التي أبرزوها لم تلبث أن أقنعت أهلهم في النهاية بصحة دعواهم.

واضطر ماركو بولو إلى إعادة قصة الرحلة الصينية مراراً وتكراراً، ونظراً لما كان يردده في سياق الكلام من الإشارة إلى وجود ملايين الذهب وملايين الناس في ممتلكات الإمبراطور بالصين فقد أطلقوا عليه لقب "ماركو المليونير". ولما كثر إلحاح الناس عليه وعلى والده وعمه لقص أنباء

رحلتهم إلى الصين وما شاهدوه خلال الخمسة وعشرين عاماً التي قضوها فيها، ولما كثر إعادة القصة مرة بعد أخرى فقد وافق ماركو بولو على إملائها. وقد أملاها بالفعل أثناء وجوده بالسجن في جنوا حيث كان قد أسر في إحدى المواقع الحربية.

أخرج ماركو بولو كتابه عام ١٢٩٨ فكان لمعاصريه – ولعدة قرون بعد ذلك – مثلما كان كتاب السائحين مرجعاً من المراجع التي يعول عليها، سردت فيه الوقائع في اعتدال واتزان يدمغها طابع الحقيقة كما يشهد بذلك من جاء من بعده من الرحالة، فجاءت مطابقة للحقيقة في معظمها، ونال الكتاب ما هو جدير به من الشهرة والانتشار. وكان ذا أثر بعيد ترتب عليه تطور الملاحة وما تبع ذلك من الاستكشافات. وبعد ذلك العهد بخمسين سنة ظهر كتاب أسفار آخر. زاد في تراث العلم والمعرفة، أملاه ابن بطوطة بعد أن جاب أقطاراً أو قطع مسافات لم يقطع أبعد منها أحد قبله ولا قطعها أحد بعده بقرون عديدة. فهذا المغربي من مواليد طنجة قد ذرع ما بين بكين تنبكتو، واجتاز إفريقية من شمالها إلى النيجر، ومن الأطلسي إلى البحر الأحمر. وكان يحصل على نفقاته من الإتجار في الطيب والملح. فكان يحمل الأول إلى السودان ويحمل الثاني من السودان إلى أسوان. وفي دلهي بالهند شغل منصب القضاء.

وعندما أوفد الإمبراطور سفارة إلى الصين رافقها ابن بطوطة، ولابن بطوطة ملاحظات وتقديرات من حقها أن تقرأ، فتصويره للسفن وهي تغدو وتروح على موانئ المحيط الهندي وبحر الصين يجعلها تنبض بالحياة

وأنت تقرأ عن "الجنوك يخدم في الواحدة منها ألف رجل. منهم ستمائة من البحارة أربعمائة من المقاتلة ويجتمع على الجداف الواحد من عشرة إلى خمسة عشر رجلاً"

وهو يتكلم عن عدن وصهاريجها وعن التجار وما لهم من الثراء والأموال العريضة حتى أن الواحد منهم ربما امتلك المركب العظيم يجمع ما فيه. ويقول عن زيلع "إنها مدينة كبيرة إلا أنها أقذر مدينة في المعمورة وأوحشها وأكثرها نتنا" ويتوغل ابن بطوطة جنوباً حتى موزمبيق فيزور "مقديشو" التي يقول عنها أنها مدينة كبيرة جداً ذات ثراء واسع. ولم يقتصر ابن بطوطة على زيارة الهند والصين وإفريقية، ولكنه زار القرم والقسطنطينية كذلك.

ولما عاد ابن بطوطة إلى مدينة فاس من رحلته الأخيرة عام ١٣٤٩ طلب منه السلطان أن يضع كتاباً عن مشاهداته فاعتذر بأن مذاكراته التي دونها أثناء رحلاته الطويلة قد فقدت، فاقترح عليه السلطان إملاء ما يذكر منها على أحد رجال الحاشية في بلاطه فعمل ذلك، ونعم الناس بكتاب[٧٥] من أعظم ما كتب عن الأسفار. في الوقت الذي كان ابن بطوطة يجوب فيه ربوع آسيا وإفريقية أو قرابة ذلك العهد كان أحد الرهبان الإسبانيين من فرق الفرنسسكان قد شرع في زيارة أهم البلاد في أوروبا وآسيا وما يقع منها على شاطئ إفريقيا العربي والشرقي. وقدم غينيا فأدرك عن اختبار شخصي كثرة ما بها من الذهب، وسافر مع القوافل إلى جنوب

---

[٧٥] **Sracino**

مراكش، فوقف على مدى الحركة التجارية بين المدن الواقعة على شاطئ إفريقية الشمالي وبين المناطق الواقعة بجنوب الصحراء.

وفي الجانب الشرقي من إفريقيا زار الراهب دنقلة والنوبة والحبشة، وصنف بعد ذلك كتاباً عن أسفاره عنوانه "كتاب المعرفة بجميع الممالك والأقطار والأمراء في العالم". وقد ذكر الراهب في سياق الكلام عن بلاد النوبة والحبشة "أن بطريق هذه الأقطار هو القس يوحنا الذي يحكم أقطاراً عديدة وعواصم يدين أهلها بالمسيحية، وأن رعاياه من الجنس الأسود وهم يرسمون الصليب على أجسادهم بالنار دليلاً على أنهم قد تم تعميدهم.

وزار الراهب مدينة أسماها "ملسا" حيث يقيم القس يوحنا بصفة مستديمة. وهو يقول لنا أن لهذا الحاكم علم خاص أبيض اللون رسم عليه صليب أسود معقوف من جانبيه، لأن ببلاد النوبة والحبشة إمبراطورين أحدهما إمبراطور علي جراسينا (gracina) والآخر علي مجداسر Magdaser، ولكل منهما علم خاص بحمل صورة الصليب. ودون الرحالة كل ما سمعه عن نهر الفرات العظيم أو النيل – على حد قوله – والذي يزعم أنه ينبع من مناطق القطب الشمالي بالفردوس الأرضي وأنه يطوق بلاد الحبشة. ويذكر الراهب أنه رأى أشباها غاية في الروعة وأنه استفسر عن هيئة الفردوس الأرضي فأجابه العقلاء من الناس بأنه جبل شاهق إذا تسلقه الإنسان حتى القمة وجد نفسه داخل دائرة القمر. ويبدو أن أحداً لم تقع عينه أبداً على الفردوس الأرضي بأكمله ولا عرف مكانه

على التحقيق؛ ففريق من الناس يزعمون أنهم رأوه من الشرق وفريق يزعمون أنهم رأوه من الشرق وفريق يزعمون أنهم رأوه من الغرب.

وإذا كان الراهب لم ينجح في الحصول على المعلومات الصحيحة بشأن الفردوس إلا أنه نجح في أمور أخرى وكان أول من دوّن ذلك، فقد رسم الراهب صوراً دقيقة للرموز المنقوشة على أعلام الممالك التي زارها بما في ذلك غينيا وأرجانا ودنقلة وجميع الممالك التي يتملك عليها "القس يوحنا". على أن الراهب لم يذكر لنا اسمه وإن كان قد ذكر أنه ولد عام ١٣٠٥ وأنه بدأ رحلته العظيمة من مدينة أشبيلية التي عاد إليها بسلام بعد أن توغل في الشرق حتى الصين. وهناك قصة أخرى لرحلة انتشرت تفاصيلها بين الناس حوالي ذلك العهد، قام بها راهب إيطالي آخر اسمه أدوريك[٧٦] وكان هذا الراهب قد قطع جانباً منها في رفقة السير جون ماندفيل[٧٧] من أشراف الإنجليز.

ولا يسع من يقرأ قصة هذه الرحلة إلا أن يجزم بأن الراهب قد توخى الصدق في وصف كل ما شاهده عيانا، ولكن ما ساقه في كتابه نقلاً عن الغير ما يدل على أنه افتتن عن سذاجة بما نقل إليه. على أنه عندما شاهد بحيرة سيلان التي يزعم أن ماءها من دموع آدم وحواء أعلن في إصرار بأن ذلك غير صحيح وأنه قد رأى الماء يتدفق في البحيرة. وهو تصويري في وصفه، وقد أوضح أشياءً لم يذكرها قبله أحد من الجوابين، مثل ذلك

---

[٧٦] **Odoreick**
[٧٧] **Sir John Mandeville**

وصفه عادة الصينيين في حرق التوابل والأفاويه أمام منازلهم حين مرور موكب الإمبراطور عليها حتى يتنعم باستنشاق الروائح الزكية، ويصف الراهب أدوريك كذلك نظام البريد في الصين وطرقها الكبرى والنزل القائمة على طول الطرق ويذكر أسعار السلع ويقارن بين ثمنها وثمن أمثالها في إيطاليا.

ويبدي اهتماماً كبيراً بالفلفل وطريقة زرعته في مالابار لأنها تشبه الطريقة المتبعة في تهذيب الكروم بموطنه فيقول: أن شجيرات الفلفل تنبت قرب الأشجار (كما نفعل بالكروم) وهي تثمر عناقيد صغاراً كما تثمر كرومنا، وهي خضراء اللون في حالة نضوجها وتقطف كما تقطف عناقيد الكروم ثم تفرش فوق الأرض في الشمس لتجف وبعد ذلك يوضع الفلفل في جرار من الفخار لبيعه.

وقصة الراهب أودوريك هذه أملاها عام ١٣٣٣ على المدعو وليام سولاج[٧٨] في منزل بميدان القديس أنطوان[٧٩] بمدينة "بادوا"[٨٠] وهي قصة رحالة مزجت فيها الوقائع بالخيال مزجاً خفيفاً. ولكن الأمر يختلف عن ذلك في قصة السير جون ماندفيل الشهيرة فتجاربه العجيبة وكل ما يزعم أنه قد سمعه بأذنيه كان من نوع لا يقبله العقل، حتى أن الإنسان ليتخيل كاتبه وقد تلعثم لسانه وانكمش بين فكيه وبرقت عيناه وهو بصور

---

[٧٨] **William Solange**
[٧٩] **St. Anthony**
[٨٠] **Pdua**

لنا الوحوش الضخمة الهائلة وينثر الجواهر والأحجار الكريمة نثراً في كل جرة قلم.

وأتاحت له أسطورة الملك الخرافي المدعو القس يوحنا فرص فريدة لإطلاق العنان لخياله يتقلب مرحاً بين أكوام الذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة، فهو مثلاً يصف لنا سرير الملك بأنه مصنوع من زمردة واحدة مطوقة بالذهب الخالص.

وافتتن هذا النبيل الإنجليزي بالفردوس الأرضي فكتب: "كثير من الحكام والأعيان حاولوا عبور الأنهار المنبعثة من الجنة ولكن الأمواج العاتية الصاخبة حالت دون ذلك فلاقوا حتفهم نتيجة انهيار قواهم من وصب التجديف أو أصابتهم بالصمم من شدة خرير المياه" والحق أن أحداً لا يستطيع عبور هذه الأنهار إلا إذا اقتضت ذلك مشيئة الخالق، وبما أن الله لم يأذن للكاتب في العبور فهو يقول في كتابه "لا أستطيع الكلام عن الجنة بصورة صحيحة سليمة لأنه لم يؤذن لي في الوصول إليها ولكني سأخبر بما سمعت".

كان السير جون ماندفيل قد غادر إنجلترا للقيام برحلته في عام ١٣٢٢ ولم يعد لأوروبا ثانية إلا بعد انقضاء أربعة وثلاثين عاماً، وفي أثناء مروره بروما أطلع البابا على قصته. ويزيد الرحالة أن البابا صدق على ما جاء في القصة لأنه مطابق لما في خريطة العالم.

ولم يكتف السير جون ماندفيل بتدوين هذه الأكاذيب المروعة والتخيلات الجامحة التي زعم بأنها نالت تأييد البابا وموافقته بل ذهب إلى أبعد من ذلك فوعد بأن يصلي من أجل كل قارئ لكتابه هذا. على أنه إذا كان من بين القصص ما يستحق أن يسمى بحق "أروع قصص الرحلات" فكتاب السير جون ماندفيل أجدر الكتب بذلك من غير شك. فقد شغف الناس بقراءاته وافتتنوا بالقس يوحنا الذي أصبح في نظرهم سلطاناً من سلاطين الشرق، وإن لم يكن أحد قد توصل إلى معرفة حدود مملكته بعد.

ولم يفت ماركو بولو والراهب أدوريك أن يذكرا هذه الشخصية الغامضة؛ فأصبحت مهمة العثور عليه هدف الملوك والفرسان النبلاء، وبخاصة البرتغاليين منهم، حتى لقد قيل "إن محاولات البرتغاليين للعثور على القس يوحنا، الذي لا وجود له أصلاً. كان لها من الأهمية للملاحة بقدر ما كان لملاحي الإنجليز من الفشل في محاولاتهم استكشاف الطريق الشمالية الغربية إلى الهند.

الفصل الرابع

مملكة القس يوحنا

والآن، دعونا نذهب إلى "تندك" في مملكة القس يوحنا" واعلموا أن في إقليمه هذا مقره المختار، وهو الذي نسميه في بلادنا، إقليم يأجوج ومأجوج "ماركو بولو".

مهما يكن من إسراف السير جون مانديفيل في تخيلاته فإن شخصية القس يوحنا لم تكن من اختراعه، فلقد كانت هذه الشخصية الغامضة الفاتنة في وقت من الأوقات موضوع حديث الناس في جميع دول الغرب المسيحية. وكل ما فعلته قصص السير جون مانديفيل هو أنها أضفت على القصص والأساطير التي نسجت حول شخصية هذا الملك الفذ القدس يوحنا شبه شعاع باهت من الواقعية، فما من أحد، حتى البابوات والأباطرة والملوك إلا وكان يعتقد، طيلة قرنين كاملين، بصحة هذه القصص التي كان القس يوحنا فارسها المعلم. فاكتشاف هذا الملك المسيحي الذي افترض وجوده حياً بين شعوب وثنية يسيطر على عدد لا يحصى من ملوك أقل مرتبة منه، كان في نظر المسيحيين حدثاً له أهميته وخطره.

وإن التحالف مع ملك بلغ من القوة والسلطان هذا المبلغ كفيل بأن يكون خير وسيلة للقضاء على زعامة المسلمين في غرب آسيا وخاصة في الأرض المقدسة، وليس في الإمكان فهم الدور الذي لعبه هذا (الملك –

القس) الخرافي دون أن نأخذ في اعتبارنا مجريات الحوادث في الشرق الأدنى لذلك العهد عندما تسامع الناس باسمه لأول مرة، فالظلام الذي كان يحيط بالموقف السياسي، والحالة التعسة اليائسة التي تدهورت إليها شئون البارونات الألمان الأشراف في فلسطين، حتى لكأنهم سقطوا في مستنقع عميق، كل هذه الأمور جعلت من هذا الملك المجازي الذي لا تعرف له صورة ولا مستقر، شعاعاً من نور يستضاء به.

كانت المملكة اللاتينية في القدس قد انقضى على تأسيسها أربعون عاماً عقب الحملة الصليبية الأولى. وكان لدول الغرب المسيحية من المشاغل ما حال دون اهتمامها بما يجري من الأحداث في سوريا، وكانت ملكة القدس الشابة مليسند (Millissende) عاجزة عن نجدة البارونات، فسقطت أدسا عام ١١٤٤ على يدي أمير الموصل واستولت عليها جيوشه. وانخلعت قلوب السكان من هول المذابح، ولم يكن ثمت أمل في أي نجدة إلا إذا استقدمت من العالم المسيحي. فأرسلت الرسل إلى بيزنطة وروما لاستجداء المعونة ومصارحة ملوك المسيحية وزعمائها بواقع الأمر وشرح ظروف النصارى وما يلقون من عنت وبلاء رهيب. وكانت جميع المظاهر تدل على أن لا سبيل لإنقاذهم إلا بحملة صليبية أخرى.

وكان أسقف جبلة السوري من بين الذين أوفدوا إلى البابا أوجين الثالث[٨١] وما أن رفعوا إليه شكواهم حتى نهض بالمر برنارد دي

---

[٨١] **Eugene**

كليرفو[٨٢] ومنذ ذلك الحين شرع في الدعوة للحملة الصليبية الثانية، ثم وضعت موضع التنفيذ. وكان الأسقف أوتودي فريزنجن[٨٣] من بين الذين اشتركوا فيها. وقد ذكر هذا الأسقف في يومياته أن أسقف جبلة أخبره عند مقابلته له في فتربو[٨٤] عام ١١٤٤ عن انتصار عظيم أحرزه – ضد المسلمين – أحد ملوك المسيحية من سلالة الملك الساحر القس يوحنا.

فمن بين ثنايا هذه السطور القليلة التي أشار فيها أوتو في يومياته إلى اجتماعه بالأسقف السوري نشأت شخصية القس يوحنا الخلابة الغامضة، ولولا ما جبلت عليه نفس أسقف ألماني آخر من الشر والمكر لجر الزمان ذيل العفاء على تلك السطور كما جره على غيرها من سطور يومياته.

كان قد انقضى عشرون عاماً على ذكر أسقف جبلة السوري لهذا العاهل الأسيوي القس يوحنا عندما وصل إلى إمبراطور بيزنطة في عام ١١٨٠ خطاب زعم أن كاتبه القس يوحنا نفسه. وقد أثار هذا الخطاب الشيء الكثير من الاهتمام لأن القس يوحنا بسط فيه – بلهجة المتكبر المتعالي وبأسلوب تكلف فيه الفصاحة – ما له من عظيم القوة ووفرة المال مع كثرة عدد الملوك الذين يدينون له بالطاعة، وفي الحال أرسلت نسخ من هذا الخطاب إلى البابا وإلى إمبراطور ألمانيا[٨٥].

---

[٨٢] **Bernard de Clarivaux**
[٨٣] **Olto de Freisingen**
[٨٤] **Viterbo**

[٨٥] في إحدى الروايات أن خطابات مماثلة أرسلت إلى البابا وإلى إمبراطورية ألمانيا وغيرهم من الملوك

لم يحدث بسبب الخطاب وكاتبه شيء بعد ذلك إلا أن الرسالة الغريبة التي تضمنها أطلقت العنان للخيال بغير حساب ونسخ الخطاب مرات ومرات، وصار يتلى في الأديرة وفي بلاط الملوك[٨٦].

ويتجه الرأي بصفة عامة إلى الجزم بأن كرستيان أسقف مايانس[٨٧] هو كاتب الخطاب الذي يزعم أنه من القس يوحنا، وليس من شك في أن الأسقف كرستيان قرأ ما كتبه الأسقف أوتو في يومياته عن وجود ملك مسيحي قهر الكفار اسمه القس يوحنا، فاتخذ من هذه الرواية مادة للسخرية من عواهل الممالك المسيحية بعدما أضفى على هذه الشخصية الخرافية من الصفات والأساطير مثل ما نسجته القرون الطويلة حتى شخصية الإسكندر الأكبر، وبهذا يكون قسنا الساحر قد أجرى قلم شخصية القس يوحنا الخرافية بمداد شخصية هي مالك التاريخ ومن معالمه:

اختلق الأسقف كرستيان بعمله هذا شخصية خيالية جديدة، ولكن الذي لم يتوقع حدوثه ولا دار له في خلد، هو قيام أسرتين حاكمتين نسطوريتي المذهب إحداهما في آسيا الوسطى والأخرى في الحبشة بعد فترة من الزمن، تنتسبان كلتاهما إلى القس يوحنا الذي اختلق شخصيته عقله المستهتر.

---

[٨٦] توجد حوالي مائة نسخة من هذا الكتاب في وقتنا الحاضر

[٨٧] **Mayence**

كلما ظهرت بين الناس خرافة جديدة، زادت أهمية المعلومات التي تؤيد موضوعها وتقر بحقيقتها. هكذا كانت الحال في موضوع القس يوحنا. فقد حدث ذات يوم أن وصلت البابا إسكندر الثالث أنباء من أحد أطبائه ببيت المقدس مضمونها أنه التقى برسل من قبل ملك الحبشة أفضوا إليه برغبة الملك في التفقه في المذهب الكاثوليكي الحق؛ فسر البابا بهذا النبأ واعتقد في نفسه أنه قد عثر على القس يوحنا. لذلك حمل طبيبه كتاباً إلى الحبشة خاطب الملك فيه "بعظمة ملك الهند، وبقدس الأقداس"، وبالرغم من أن الطبيب البابوي لم يعد من بعثته فإن افتراض وجود مثل هذا "القس الملك" قد ازداد رسوخاً بسبب زيارة قام بها إلى روما بطريق النصارى في الهند من أتباع مذهب القديس توما الذي يرفعه الرأي العام فيها إلى مرتبة الملوك. ونظراً لما كان الناس يعتقدونه من أن الحبشة جزء من الهند فإن مشكلة القس يوحنا ازدادت تعقيداً. لذلك عندما وصلت البابا لأول مرة أنباء الفاتح العظيم جنكيز خان ساد الاعتقاد بأنه – لفرط عداوته للإسلام – لا بد أن يكون هو بعينه القس يوحنا. ولكن لم يلبث هذا الاعتقاد أن تبخر، ثم جاء دور ملك الحبشة في سلسلة الاعتقادات بأنه هو ذلك القس الملك، ففي عام ١٢٣٠ علم بعض الرهبان الإيطاليين من راهب حبشي بدير جبل الزيتون أن ملك الحبشة هو بعينه "القس يوحنا". فبادروا بنقل الخبر إلى روما. ولما كان كل نجاشي يعين شماساً للكنيسة بحكم منصبه، ولما كانت لفظة "الجلالة الملكية" في اللغة الأمحرية هي زان أو جان

فمن المحتمل أن يكون قد التبس عليهم الأمر لما في هذين اللفظين من الشبه الصوتي بلفظ بني الذي هو اسم الملك – القس[٨٨].

وبالرغم من أنه قد اتضح أن جنكيز خان ليس بالملك القس يوحنا إلا أن عدداً من الباباوات ظلوا يواصلون إيفاد السفارات إلى خانات المغول، وكان الباعث لهم على مراسلتهم وعلى الاتصال المباشر بهم أمور ثلاثة:

أولاً: **الاحتجاج على ما يعامل به النصارى من القسوة وطلب الكف عن ذلك.**

ثانياً: **محاولة منهم لحمل هؤلاء الفاتحين الوثنيين على اعتناق الدين المسيحي.**

ثالثاً: **محاولة اكتسابهم إلى جانبهم كحلفاء لهم في قتال العدو المشترك (أمراء المسلمين).**

لم تفتأ طلبات النجدة والوساطة تتدفق على البابا من سكان أوروبا الشرقية الذين ضاقوا ذرعاً بجموع المغول الحاشدة ولما حل ببلادهم وزراعتهم من الدمار والخراب.

---

[٨٨] عن "المجلة الأسيوية" يعتقد كونتي روسيني أن منشأ اسم القس يوحنا وعزوه على نجاشي الحبشة هو الجمع بين اللقب والوظيفة

وقد أثيرت هذه المسألة في المجلس المنعقد بمدينة ليون عام ١٢٤٤ وكانت نتيجة المداولة أن أوفد البابا أوجين الثالث بعض المندوبين المفوضين إلى باتوخان في مقره على نهر الفولجا فأرسلهم هذا الأخير إلى الخان الأعظم مانجو بمركز قيادته العام في كراكورم، فأخذ الرهبان سمتهم في رحلة طويلة محفوفة بالمخاطر وهم يرعدون خوفاً ورهبة، وفي كراكورم التقوا بكثير من المسيحيين الذين يسميهم العامة النسطوريين في حين أنهم يلقبون أنفسهم بالمسيحيين الكلدانيين.

كانت المسيحية قد انتشرت في طول آسيا وعرضها حتى الصين، ولقد ذكر لنا سليمان وابن وهب نبأ المذبحة التي حلت بالمسيحيين عام ٨٧٧ بمدينة كمدان (حسب تسميته) وقد أبدى الإمبراطور لابن وهب بصورة واضحة في حديثه معه أنه عالم بأخبار المسيح وبأحداث حياته وموته، وجميع النصارى في الصين يتبعون مذهب النسطورية.

ولما كان مبعوثو البابا دائبي البحث عن القس يوحنا فقد اعتقدوا أنهم عثروا عليه في شخص عاهل. قس نسطوري المذهب. فترى الراهب الدومونيكي جيوفاني بلانوكاربيني[٨٩] يصف في أحد تقاريره إلى البابا كل ما رآه المبعوثون وسمعوه في طريق رحلتهم الطويلة وفي بلاطي باتوخان ومانجو خان. ثم نراه بعد ذلك يتورط في رواية قصة معقدة مضمونها أن جنكيزخان أسس إمبراطوريته في كاثاي بعد أن هزم القس يوحنا الذي يعيش في مقاطعة تندك.

---

[٨٩] **Giovanni Plano Carpini**

ويعتبر تقرير بلانو كاربيني – بفضل ما ضمنه من أنباء النصارى النسطوريين – عاملاً من العوامل المهمة التي ساهمت في توضيح تاريخ النسطوريين وشرح الدور الذي قاموا به في آسيا الوسطى. وقد ترتب على هذا التقرير اعتبار القس يوحنا عاهلا نسطوري المذهب بصورة لا تقبل الشك. وهذا نفس ما اعتقده أيضاً أمراء المؤمنين في بغداد. فقد اكتشف عالم يهودي في سجلاتهم ما يفيد أن القس يوحنا رأس النسطوريين في الهند، وأنه كان على وشك اعتناق مذهب الرومان الكاثوليك لكن الإشاعات الدائرة عن شح هذه الكنيسة واختلال نظامها، صدته عن تحقيق ما كان يعتزمه. وكان لظهور المبعوثين الأوروبيين في بلاط الخانات ما زين لهم فكرة الاتصال بعواهل المسيحية لعل أن يكون في ذلك نفعاً لهم.

وفي عام ١٢٤٩ وصل جزيرة قبرص مبعوثون من قبل أحد الخانات ومعهم خطاب لسان لويس من عاهلهم الذي كان قد اعتنق المسيحية حديثاً – على حد قولهم – وفي الخطاب يعرض الخان على سان لويس التحالف معه ويعده بالمساعدته على طرد الكفار من فلسطين وبخاصة من بيت المقدس. فسر سان لويس لذلك سروراً عظيماً وتلطف كثيراً في استقباله لمبعوثي الخان وأرسل من فوره صورة من الخطاب لأمه الملكة بلانش.

ذكر النبيل دي جوانفيل في مؤلفة "حياة سان لويس" أن مبعوثي الخان – الذين تخلقوا بأحسن ما يكون عليه الخلق المسيحي – أفهموا الملك بأن الخان نسطوري المذهب وأنه من المحتمل تحويله إلى المذهب

الكاثوليكي فيكون ذلك كسباً للكاثوليكية. وأمر سان لويس – نزولاً على اقتراح المبعوثين – بصنع خيمة لتكون بمثابة كنيسة تعلق على جوانبها صورة "تحية العذراء" وما عليها من الصورة الرمزية للعقائد المسيحية. ويزيد النبيل دي جوانفيل على ما تقدم أن الخيمة صنعت من أجود أنواع الأقمشة وبلغت نفقاتها مبلغاً كبيراً من المال.

بيد أن سان لويس – مع تصديقه لكل ما رواه له المبعوثون – استقر رأيه على إيفاد سفارة إلى الخان العظيم، ولم تلبث الحوادث أن أثبتت على أن الملك كان مخدوعاً إلى حد بعيد بمظهر المبعوثين الكاذب ونفاقهم.

كان الملك قد اختار لسفارته راهبين أحدهما من البلاد الواطئة، ويدعى جيوم ربريكس، والثاني بولندي المولد. وكلاهما يتكلم اللغة العربية بطلاقة، وأرسل الملك معهما كثيراً من الهدايا الفخمة إلى الخان وأوصاهما بوجوب تفقيهه في الدين المسيحي وشرح تعاليمه له.

وفي عام ١٢٥٣ غادر الراهبان القسطنطينية في صحبة جاويشين قاصدين كاراكورم وبعد مضي عامين عاد الراهب ربريكس من سفارته إلى عكاء منهوك القوى من مشاق الرحلة وقد عاد إليه صوابه وتبخر الحلم الجميل الذي كان يداعبه عن المغول والخان ومسألة تنصيره.

أما فيما يتعلق بالقس يوحنا فقد كان شرح صاحبنا الراهب معقداً كما يفهم من رواية النبيل دي جوانفيل، قال: "عندما نقرأ ما كتبه

روبريكس ندرك مبلغ دقته في كل ما دونه عن اكتشافه حقيقة سر هذه الشخصية الغامضة، نشأتها وأسرتها وموطنها

وخلاصة كل هذا أنه كان هنالك في عهد من العهود قسا نسطوريا قوي الشخصية يتملك على قوم يدينون بمذهبه، وأنه بعد موت ملكه خان الصين أعلن استقلال بالمملكة ومنذ ذلك الحين والناس تتكلم عن وجود الملك القس جوهان. ويضيف الراهب إلى قوله هذا "أن الناس يروون عنه من العجائب أكثر من الواقع، وللقس يوحنا شهرة في كل مكان ولكني عندما اجتازت ذلك الإقليم لم أجد أحداً يعلم شيئاً عنه سوى عدد قليل من النسطوريين".

عرفت أوروبا من رواية الراهبين روبريكس وبلان كاربيني أشياء لم تكن تعرفها من قبل ونسخت تقاريرهما مراراً وتكراراً وتليت في الأديرة، ومما زاد من قدرها وأهميتها إلى آخر الدهر أن رواية كل منهما جاءت مؤيدة ومطابقة للأخرى. كان مجرد ذكر مانجو خان لاسم القس يوحنا كافياً لمضاعفة الاهتمام بهذا العاهل المسيحي، كان الناس يتلهفون شوقاً لمعرفة القس يوحنا وفي عام ١٢٧٩ أعلن أسقف عكاء جاك دي فرتي[٩٠] أن اسمه الصحيح داوود وأنه قائم بوضع خطة للهجوم على مكة، ومما زاد في منطقة هذه الأقوال ما أشيع من أن القس يوحنا كان ملكاً نسطوري المذهب وأن سليل الحكماء الثلاثة في الشرق، الذين حينما شاهدوا النجم خفوا إلى حيث المسيح ليعبدوه.

---

[٩٠] **Jacques de Virty**

وهكذا استقرت أسطورة القس يوحنا بصورة قاطعة، ففي ألمانيا صادفت ذيوعاً شعبياً بفضل ما نظمه الشاعر الغنائي الغزلي العظيم ولفرام فون أشنباخ[٩١] يمجد فيها القس يوأنس ويذكر أن برسفال عندما كان يبحث عن الكأس المقدسة، قيل له بأنها لا توجد إلا في مملكة القس يوحنا. وفي فرنسا كانوا يسمونه القس جوهان بينما كان يسميه الإيطاليون "القس يني" مضيفين إلى اسمه لقب (صاحب مملكة التوابل).

وبالرغم من أن رحلة الراهبين بلانو كاربيني وربريكس إلى الخان الأعظم جاءت نتائجها مخيبة للآمال، إلا أن تبادل الرسائل والسفارات لم تنقطع أسبابها بين البابوات والخانات. إذ كان الخانات يطمعون من جانبهم في الفوز بفوائد سياسية عن طريق عقد المحالفات. بينما لم يكن للبابوات من مطمع سوى حمل الخانات على ترك مذهبهم واعتناق المذهب الكاثوليكي. وقد أدى هذا الموقف في النهاية إلى المغامرة بإرسال بعثة إلى الصين لبث الدعوة – فترى جيوفاني دي مونتي كرفينا[٩٢]– وهو أول من عين رئيساً لأساقفة بكين – يكتب في عام **١٣٠٥** بأنه قد حول أحد ملوك تلك الناحية (من سلالة ملك الهند العظيم الذي كان يدعى القس يوحنا) من الراسخين في المذهب النسطوري إلى مذهب الكاثوليكية القويمة، وهكذا ظل اسم العاهل الغامض يذكر في الرسائل الواردة على روما من الشرق دائماً مبهمة يخلط فيها القس يوحنا صاحب الممتلكات الواسعة في آسيا –كما وصف في مبدأ الأمر – بالقس يوحنا الحبشي.

---

[٩١] **Wolfrom Von Eschenbach**

[٩٢] **Giovanni de monte Carvina**

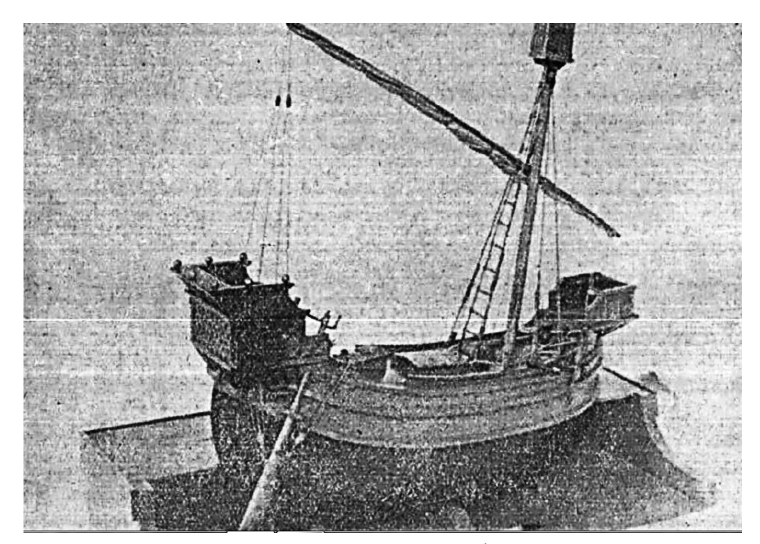
ولا جدال في أن ماركو بولو قد ساهم في تخليد أسطورة القس يوحنا الآسيوي بما كتبه عنه وعن علاقاته وحروبه مع أباطرة الصين. وهو يسميه عادة "القس يني".

والواقع أن الاعتقاد بوجود القس يوحنا كان اعتقاداً قوياً راسخاً في عقول الناس بالرغم مما يكتنف شخصيته من غموض. أما مسألة تحديد مقره بالضبط فقد ظلت موضع شك وجدل حتى أن راسمي الخرائط الجغرافية في العصور الوسطى حينما تعذر عليهم الاهتداء إلى وجود حل مقبول، عمدوا إلى تعيين حدود مملكته على خرائطهم حيثما اتفق. وكتبوا لفظة أثيوبيا (الحبشة) بعرض خريطة إفريقيا، وكذلك فعلوا بجزء من خريطة آسيا مطلقين على الأولى أثيوبيا الكبرى وعلى الثانية أثيوبيا الوسطى، ورمزوا إلى القس يوحنا بصورة رجل جالس في خيمة هنا وهناك وفي كل مكان.

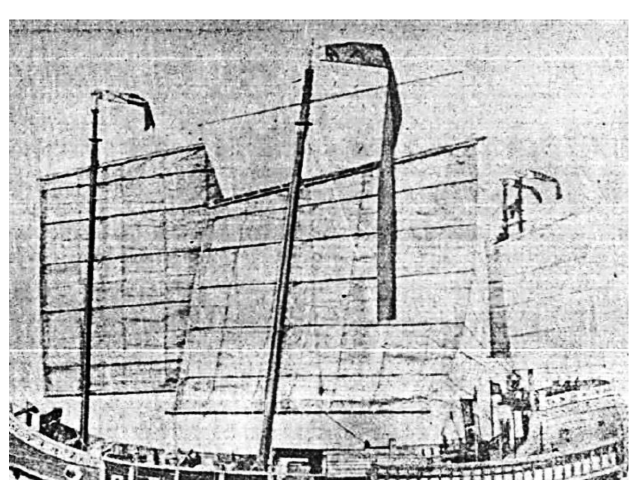
وفي عام ١٢١٦ دخل البابا يوحنا الحادي عشر في اتصال مباشر مع أثيوبيا موفداً إليها بعض الرهبان الدومنكان اعتقاداً منه بأن أثيوبيا هي مملكة القس يوحنا الأصلية. وتبين خريطة كاتالونيا[٩٣] المشهورة عام ١٣٧٥ ملكاً عربياً وقد كتبت تحته هذه العبارة "هذا الملك العربي عاكف أبداً على مقاتلة المسيحيين في بلاد النوبة التي تدين بالطاعة لإمبراطور أثيوبيا موطن القس يوحنا".

---

[٩٣] **Catalan** مهداه إلى شارل الخامس ملك فرنسا وتوجد بدار الكتب الأهلية بباريس



إحدى عابرات الأبيض المتوسط في القرن الرابع عشر



جنوك صيني كبير الحجم

الجزء الثاني

اكتشاف الطريق البحرية إلى جزيرة التوابل

وما ترتب على ذلك من نتائج

في السنين السحيقة المقبلة سوف يأتي زمن يحطم فيه المحيط قيود المادة والأشياء وتنفرج البسيطة وتظهر عوالم أخرى ولا يكون للمعمورة نهاية "سنكو" في ميديا(٩٤).

(٩٤) **"Seneco" in Medea**

الفصل الأول

الأمير هنري الملاح

موهبة العمل الصالح.

شعار الأمير هنري الملاح.

يسجل نشاط الأمير هنري الملاح ابن جون الأول ملك البرتغال

فاتحة عهد جديد في تاريخ الملاحة الأوروبية.

هنري العظيم، أول من قام بوحي من السماء.

بأعمال جسام لم يسبق إليها فوق أمواج البحار

المقطع الثامن.

للمؤرخ جومز إيتزدي ازورارا[٩٥]سفر صنفه بأمر مليكه ألفونسو الخامس، عنوانه "تاريخ اكتشاف غانا وفتحها" ويمجد المؤلف في هذا السفر أعمال البطولة التي قام بها الأمير هنري ويصفه بأنه عظيم وممتاز للغاية. ويؤكد بأن بطولته قد ورثها عن آبائه وأجداده العظام الأبطال، والواقع أن قصة نسب الأمير هنري تشبه الأساطير؛ فقد حدث ذات مرة

[٩٥] **Gomes Eannes de Azurara**

بينما كان ملك قشطالة يقاتل بعض عرب إسبانيا أن نزلت ببلاطة كوكبة من الفرسان الفتيان بقيادة هنري أمير برجونيا(٩٦). فانضموا إلى صفوفه ومعهم السيد(٩٧) العظيم يقاتلون العرب. وقد زوجه الملك من إحدى بناته مكافأة له على حسن بلائه وبسالته وأقطعه بعض الأراضي في البرتغال نظير ما قد يطلبه منه من المساعدات العسكرية عند الحاجة، كما وعده بمنحه كل شبر من أرض البرتغال ينتزعه من العرب ليحتفظ به لنفسه.

وما أن وافت سنة ١١٠٩ حتى كان الفتى الفارس قد اكتسح البقية الباقية من أراضي البرتغال فاتخذ لنفسه لقب كونت البرتغال، ولكن المنية عاجلته بعد ثلاث سنوات من ذلك الحين تاركاً وراءه ولي عهد لم يدرج بعد من حجر أمه التي اعتلت عرش المملكة منفردة بالوصاية على ابنها الطفل إلى أن يبلغ سن الرشد، وهكذا جلست على عرش البرتغال امرأة قبل أن يجلس عليه ملك، ولقد انقضى ثلاثة وعشرون عاماً على ذلك التاريخ قبل أن يعتلي ابنها العرش باسم ألفونسو الأول وخاض خلال الجزء الأخير منها عدة مواقع في قشطالة ضد العرب كان النصر فيها حليفه.

أما في مواقعه البحرية ضد العرب فقد خف إلى مؤزراته أسطول من أساطيل الصليبيين كان في طريقه إلى بيت المقدس. أدرك الملك أهمية

---

(٩٦) **Burgundy**

(٩٧) هورودريح دياز دي بيمار فارس أسباني اشتهر بمقابلته لعرب أسبانيا والمغرب مات سنة ١٠٩٩.

الأساطيل وعظيم نفعها بعد النصر الذي أحرزه بفضل مساعدة الأسطول الصليبي، فشرع من وقته في بناء السفن وحشد لها بحارة من المرتزقة الغرباء إذ لم يكن للبرتغال خبرة بملاحة الأساطيل قبل ذلك العهد

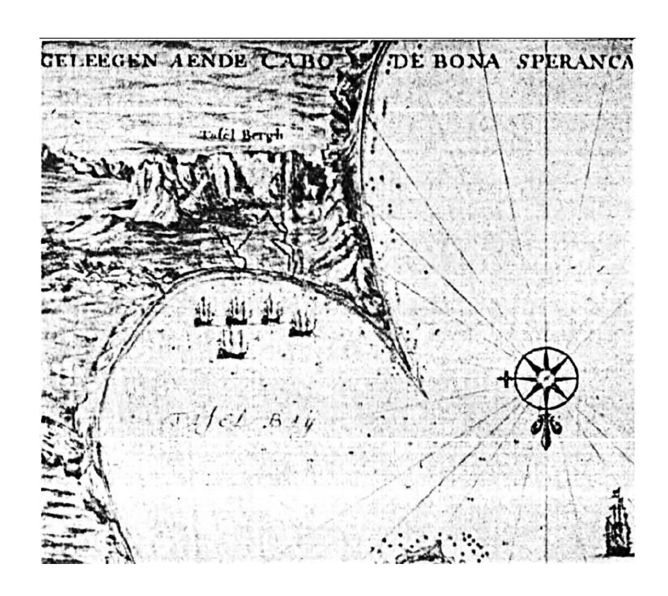
ولعل متاخمة البرتغال للمحيط الأطلسي كانت الباعث الأساسي لمن تعاقب من الملوك بعد الفونسو الأول على عدم إغفال ما للبرتغال من الحاجة إلى أسطول قوي، فساهم كل منهم بدوره في سبيل التمهيد لإنشاء الأسطول واستكمال قطعة تحقيقاً للهدف المنشود. فنرى مثلاً الملك دينيز الأول[٩٨] يأمر بغرس الأشجار ليستمد منها الأخشاب اللازمة لبناء السفن، كما نراه يعين أحد مشاهير الملاحين من أبناء جنوه أميرا لأسطوله يخلفه على إمارته أعقابه من بعده، وكان على أمير البحر هذا أن يصطحب معه عشرين ضابطاً ومرشداً من مواطنيه من ذوي الخبرة بشئون الملاحة. وكان من بين هوايات هذا الملك جمع قصص السواح ومغامراتهم، وفي خلال حكم ابنه الفونسو الرابع زادت حركة التجارة البحرية زيادة عظيمة حتى أن حصيلة الضرائب الجمركية بلغت خمس مجموع الضرائب المحصلة من جميع مرافق الدولة.

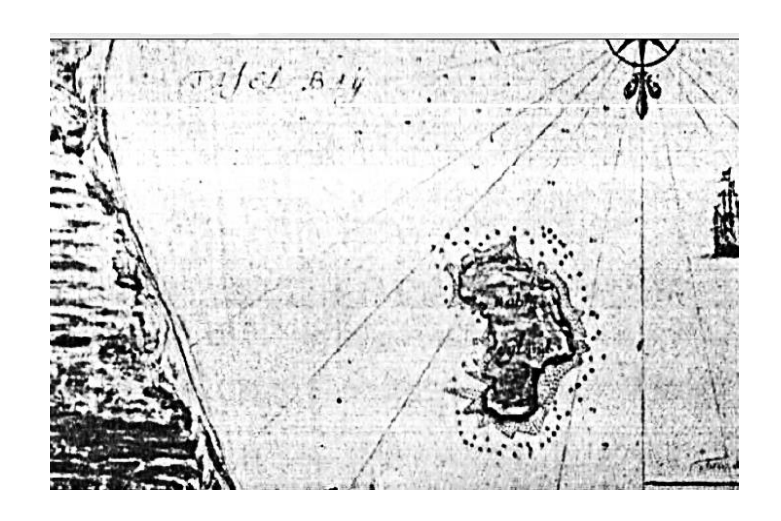
---

[٩٨] Diniz ١



الأمير هنري الملاح





رأس الرجاء الصالح عند أول احتلال الهولنديين له

والواقع أن الألقاب التي نعت بها ملوك البرتغال تؤيد صحة ما ذهب إليه أزورارا من نبل سلالة بطله الأمير هنري، فألفونسو لقب "بالشجاع" كما لقب بعده بدرو[٩٩] "بالعادل" ولقد أحبه رعاياه حباً جماً حتى أنهم قالوا يوم وفاته: كان الأفضل لو أن دون بدرو لم يولد أبداً أو أنه إذ ولد لم يمت أبداً.

وقد أنعم هذا الملك قبل وفاته بعامين على ابنه غير الشرعي البالغ من العمر ثمان سنوات بوسام أفيز[١٠٠] من رتبة السيد الأعظم، وكان هذا الوسام قد أنشئ عام ١١٨١ لحماية المدن المسيحية من غزو المسلمين.

---

(٩٩) **Pedro**
(١٠٠) **Aviz**

وبعد وفاة الملك بدرو خلفه على العرش، ابنه الأكبر فردناند الأول[١٠١] فاعتنى بأمر الأسطول والتجارة البحرية أكثر ممن سبقوه، ولتشجيع الناس على بناء السفن أمر الملك بأن كل من يرغب في بناء سفينة لا تقل حمولتها عن مائة طن يعطى الأخشاب اللازمة لبنائها من الغابات الملكية بدون مقابل مع إعفائه من الضرائب الجمركية على الجمركية على المواد المستوردة من الخارج والتي لا غنى عنها في بناء هذه السفن مثل الحديد والقطران وما إلى ذلك. وأعفي كذلك من ضريبة التسجيل وانتقال الملكية كل من يشتري سفينة من الخارج. وزيادة على كل هذا أعفيت من الضريبة المتحصل على الصادر كل سفينة جديدة تقوم برحلتها الأولى. ومد سريان هذا الإعفاء لثلاث سنوات لكل من فقدت سفينته أبان رحلتها البكر.

وعين الملك لجنة لوضع سجل خاص للسفن التي تزيد حمولتها على خمسين طناً يفيد فيه أسماءها وأعمارها وأثمانها الخ. وأنشأ الملك شركة تأمين تلزم أصحاب السفن بأن يدفعوا لها حصة تعادل جزءًا من خمسين من أرباحهم. ومنح الملك تجار البلاد الأجنبية امتيازات خاصة رغبة منه في جعل لشبونة سوقاً عالمية فاجتذب بذلك إلى عاصمته القائمة على نهر التاجوس سيلاً لا ينقطع من سفن إيطاليا وقطالونا.

وبعد وفاة الملك في عام ١٣٨٥ نادى مجلس الأمة بأخيه الحدث (لأبيه) ملكاً باسم جون الأول سليل أسرة أفيز. وبعد تتويجه بقليل قدم

[١٠١] Ferdinand

عليه جون أوف جونت[١٠٢] دوق أوف لانكاستر عن طريق البحر مصطحباً زوجه وابنتيه وجيشاً.

التمس الدوق الإنكليزي مساعدة الملك الفتى في الحرب التي يزمع شنها على قشطالة بغية الحصول على عرش هذه المملكة لزوجه التي هي بنت ملك قشطالة أو لابنتهما كاترين إذا لم يوفق في الحصول عليه لزوجه. وفي مقابل هذه المساعدة وعد الملك جون الأول بالتخلي له عن بعض مدن الحدود الإسبانية وأن يزوجه من إحدى ابنتيه. كان الزواج من كاترين – لو أنه تم – أصلح للملك وللملكة من الناحية السياسية، ولكن الملك هام حباً بأختها الكبرى فليبا [١٠٣] ابنة الدوق من زوجة سابقة.

وبذل وزراء الملك كل ما في وسعهم لحملة على الزواج من كاترين وريثة عرش كاستيل، ولكن عاطفة الحب تغلبت على حكمة السياسة.

ولما كان الملك من حملة وسام أفيز الديني تعين عليه قبل الإقدام على الزواج أن يتحلل من العهد الذي قطعه على نفسه بالتزام العزوبة. وقد استجاب له البابا فحله من يمينه، وفي زواج الملك من فليبا قال الناس: "لقد قرنت العبقرية التجارية الإنجليزية إلى البطولة القومية البرتغالية".

---

[١٠٢] **Gohn of Gaunt**
[١٠٣] **Philippa**

وإذا كان لزيجة من الزيجات أن تتسم بميسم السعادة، يباركها الحب المتبادل والنسل الموهوب فهي هذه الزيجة التي ربطت بين الملك جون البرتغالي وعروسه الإنجليزية التي أنجبت له خمسة أولاد ذكور وأنثيين. سمت ابنها الأول إدوارد(١٠٤) تيمنا باسم جده إدوارد الثالث ملك إنجلترا، الثاني بدرو، أي باسم جده لأبيه. وسمت الثالث – المولود عام ١٣٩٩– هنريكس وهو الذي خلده التاريخ تحت اسم الأمير هنري الملاح.

ساهمت الملكة مساهمة فعلية في تربية أبنائها وتثقيفهم، وقد كان من حسن حظهم أنهم نشأوا في بلاط ما فتئ يشجع على طلب العلم، ولم يكن الورع والتقوى فيه مجرد مظهر من المظاهر، فقد دأب الملك في بلاطه على الترحيب بالسياح والعلماء ولم يكن نصيب الفرسان من ذوي المروءة والشهامة بأقل من نصيب العلماء والسياح. ولما بلغ أبناء الملك الثلاثة أشدهم رغب في أن يغنموا لأنفسهم أكاليل المجد في ميدان الفروسية، ولكن مملكته كانت في حالة سلم مع الممالك الأخرى فليس ثمة ميدان قتال يظهرون فيه مواهبهم ومبلغ بسالتهم وحنكتهم، وحار كيف يحتال لذلك فهداه التفكير إلى إقامة مباريات استعراضية للفروسية تستمر عاماً بأكمله يدعو إليها الفرسان من جميع البلاد للاشتراك فيها.

ولكن هذه الفكرة لم ترق لأبنائه ولا ارتاح لها وزير ماليته لما سوف يترتب عليه إقامة هذه المباريات لمثل هذه المدة الطويلة والاحتفاء بالمدعوين إليها من إرهاق للخزانة العامة واستنفاد لإيرادات الدولة. فراح

---

(١٠٤) **Duarte**

يناشد مولاه أن يعدل عن هذا الرأي قائلاً له في سباق الخيل. إن مثل هذه المباريات قد تليق بأبناء التجار الذي يتطلعون إلى وسام أو رتبة شرف يمنحونها ولكنها لا تليق بأبناء الملوك، فلم لا تغزو سبتة[١٠٥].

لشد ما كان ارتياح الملك لاقتراح وزيره وسرعان ما نزل من نفسه منزل القبول والترحيب. خاصة وأنها سوف تكون أول حملة ضد المغاربة في بلادهم.

اغتبط للفكرة الأمراء الأحداث واغتبطت أمهم مشاركة منها لأبنائها فيما يسرهم ويسعدهم.

وشرع في اتخاذ العدة فورا لهذه المغامرة العظيمة التي أثارت كثيراً من القلق لملكي قشطالة وغرناطة، ولكن ملك البرتغال أرسل إليهم من يهدىء من روعهما مؤكداً لهما بأنه يعتز بغزو سبتة لا أكثر ولا أقل، ليتيح لأبنائه فرصة إحراز شرف الفروسية في ميدان القتال.

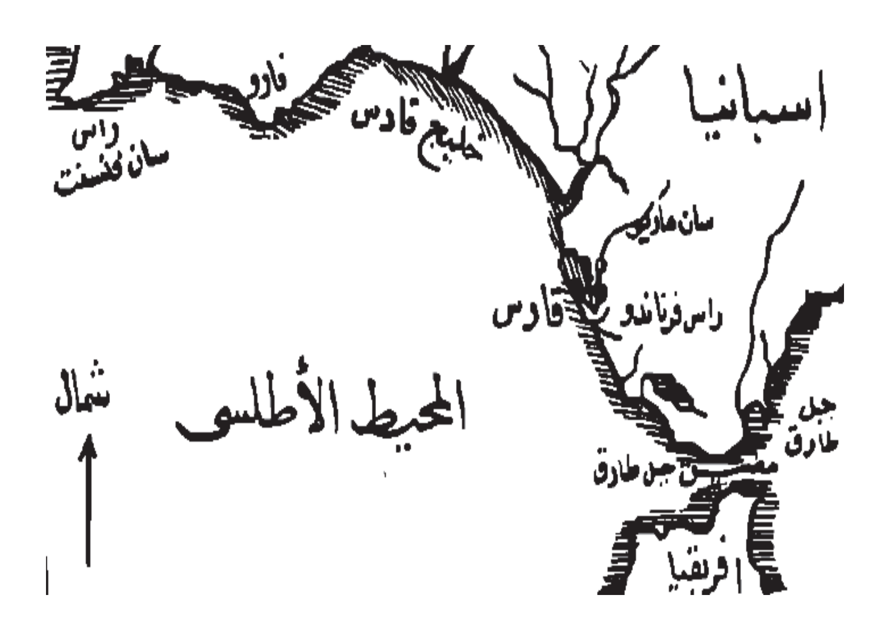
كان الأسطول الذي أعد للغزوة مكوناً من اثنتين وأربعين ومائتي قطعة كلها برتغالية الجنسية إلا عدداً قليلاً منها.كل شيء كان على أتم الاستعداد حينما بلغ الملك وأبناءه عشية الإبحار المزمع أن الملكة قد أصيبت بالطاعون.

---

[١٠٥] ميناء في إفريقيا تقع شمالي مراكش على البحر الأبيض المتوسط

سجل المؤرخ في يومياته أن الملك وأبناءه الأمراء حينما بلغوا إلى حيث ترقد الملكة والتفوا بسريرها استجمعت قواها وناولت كل وحد من أبنائها الثلاثة سيفاً من الذهب مرصعاً بالأحجار الكريمة كانت تعتزم إهداءها إليهم بعد عودتهم منتصرين من حومة القتال.

وكان مما قالته الملكة لابنها الأكبر دوارت وهي تودعه الوداع الأخير "أي بني. إن الله قد اختارك لتكون ملكاً فوجب عليك أن تحمي رعاياك وأن تدافع عنهم وأن تسوسهم بالتي هي أحسن وأن تسير بينهم بالعدل. أما دورن بدرو فأوصته برعاية العذارى والأرامل. وأوصت دون هنريكس برعاية حماة المملكة والذائدين عن حياضها – رجال القوات المسلحة – وناشدتهم أن يتخذوا الاتحاد شعاراً لهم وأن يتذكر دائماً أبداً أنهم ولدوا من رحم واحد وأن المهد الذي دللوا فيه واحد. وتكلمت معهم وهي تجود بنفسها عن رحلتهم المقبلة إلى ساحل إفريقية معبرة عن اغتباطها بأن الرياح ما برحت تهب من ناحية الشمال.



افترض الناس بوجه عام أن مراسيم الحداد على الملكة الراحلة سوف يترتب عليها تأجيل المسير إلى الميدان ولكن الملك صرح بأن البدء في الرحيل عقب الانتهاء من دفن جثة الملكة يتفق تماماً مع رغبة زوجته الراحلة وأمنيتها.

سقطت سبتة في سنة ١٤١٥.

كان من نتائج إقامة الجيش البرتغالي على أرض إفريقية – وإن لم تطل مدتها – أن تغيرت آراء الأمير هنري تغيرا كليا بصورة لم تكن لتخطر له على بال. هنا زرعت أول بذرة لسياسة الاستعمار البرتغالية التي لم يكن ليحلم بها أحد حتى ذلك الحين، فقد استبدت بالأمير هنري رغبة ملحة لاستكشاف مجاهل إفريقية التي يكتنفها الغموض ولم يكن ثمة ما يحول بينه وبين رغبته أو ثنيه عن عزمه شيء

سمع في سبتة عن المناجم الغنية بالذهب والتي يقال أنها توجد في غانا بينما روى له الأسرى السودانيون الشيء الكثير عن وطنهم، فتحقق لديه مما سمع في سبتة أن في الإتجار مع أهل ذلك الجزء من إفريقية الذي يقع جنوبي موريتانيا ربح وغنم وفير. وترامى إلى مسامعه أيضاً أن ملك الحبشة يدين بالمسيحية وأن الحبشة تقع في إفريقية – في جهة ما. كل هذه الأقوال التي أيد صحتها تجار العرب والمغاربة حدى بالأمير هنري إلى الإمعان في التفكير

وما أن عاد الملك إلى البرتغال حتى رفع ابنه الثاني دون بدرو إلى رتبة دوق أوف كوامبرا(١٠٦)ورفع ابنه الأمير هنري إلى رتبة دوق أوف فيزي(١٠٧)ولورد أوف كوفلهام(١٠٨). ولما كان أبناء الملك قد بلغوا مبلغ الرجال أسند إليهم مناصب تحمل مسئوليات جسام. فعين ابنه الأكبر دون دورات رئيساً لمجلس القضاء الأعلى، وعين الأمير هنري حاكماً لسبتة، كما أسند إليه تصريف الشئون التي تتعلق بإفريقية، وبعد ذلك بقليل عينه في منصب الأستاذ الأعظم لجماعة المسيح التي تأسست عام **١٣١٩** عقب حل جمعية الفرسان الداوية(١٠٩) وكان كثير من أعضائها قد التجئوا إلى البرتغال حيث بسط عليهم الملك حمايته. ومن ثم أسس الملك "جماعة المسيح" التي انضم إليها هؤلاء اللاجئون. وكان الفوز بعضويتها يعتبر شرفاً عظيماً، أما الغاية التي كانت تستهدفها فهي مواصلة محاربة المسلمين

---

(١٠٦) **Duke of Coimbra**
(١٠٧) **Duke of Viseu**
(١٠٨) **Lord of Covilham**
(١٠٩) **Templars**

ولقد برهن الأمير هنري على كفاءة ممتازة في منصبه الجديد، منصب الأستاذ الأعظم. استغل الأمير هنري إيرادات الجمعية الوفيرة في تنفيذ مشروعاته الخطيرة التي كان يحلم بها في سبتة.

في أقصى الجنوب الغربي من البرتغال تقوم دولة المغرب الصغيرة المنتزعة من عرب المغرب والتي يسميها البرتغاليون "الجرف" هذه المملكة وهبها الملك لابنه الأمير هنري لتكون من بين ممتلكاته وفي هذه المنطقة تمتد في الأطلسي صخرتان: الغربية منهما تسمى رأس سان فنسان وهي التي سماها الرومان بالمقدسة، وأما الشرقية فقد شيد عليها الأمير دارا ريفية لسكناه خاصة سماها ساجرس(١١٠). وعلى شاطئ الخليج الصغير الرملي وضع أساس مدينة جديدة.

ومن هذه الدار المشيدة على الصخرة العظيمة المطلة على المحيط كثيراً ما كان الأمير يسرح البصر في الأفق بينما كانت الأمواج العاتبة تتكسر على الصخور. كان الأمير يسبح بفكره إلى ما وراء هذه الأمواج، إلى إفريقية الغامضة. ثم عكف على دراسة الخرائط والرسومات ليقف على كل ما كان معروفاً لأهل عصره. ومن المسلم به أنه كان على علم بجميع الخرائط التي وضعها الإيطاليون والماجوركيون(١١١). إذ أن رسامي الخرائط في ذلك العهد كانوا قد قطعوا شوطاً بعيداً في هذا المضمار وخاصة علماء

---

(١١٠) **Sagres**

(١١١) نسبة إلى جزيرة **Majorca**

أوروبا الذين جعلوا من الملاحة علماً بفضل القواعد والأسس التي وضعها الصينيون والعرب.

وكان من أكثر المؤلفات العلمية ذيوعاً في العصر الذي نحن بصدده: مؤلف وضعه عالم إنجليزي من مقاطعة يوركشير[١١٢] في شمال إنجلترا توفي في باريس عام ١٢٥٠ حيث كان يشغل منصب أستاذ للرياضة وعلم الفلك. وكان هذا السفر يحوي رسالة عن الإسطرلاب وهو آلة كان يستعملها جميع رجال البحر في أيامه، كما كانوا يستعملون البوصلة وربع الدائرة وهي جميعاً مستحدثة من الإسطرلاب. وفي عام ١٢٧٦ كتب المدرس روبرت إنجلز[١١٣] من مونبلييه رسالة عن هذه الآلة القيمة. ولقي فن الملاحة في أرغون[١١٤] بنوع خاص رعاية فائقة حتى أنه صدر في عام ١٣٤٠ قانون يحرم على السفن مخور البحار بدون وجود خريطة في حيازتها.

وكان الإيطاليون والماجركيون والقطالونيون أول من رسم الخرائط في أوروبا بالبر والبحر على السواء. كما كان لواضعي الخرائط مكانة مرموقة. وأشهر أسرة زاولت مهنة رسم الخرائط في القرن الرابع عشر هي أسرة من سكان مايوركا كما تعرف باسم كرسك[١١٥]. وقد وضع أحد أفرادها لملك

---

(١١٢) **Yorkshire**

(١١٣) **Robert Anglés**

(١١٤) أرغون من مقاطعات الأندلس

(١١٥) **Cresques**

أرجون خريطة للعالم[١١٦] أهداها الملك فيما بعد إلى ملك فرنسا شارل الخامس. وتبين هذه الخريطة كل ما كان معروفاً في ذلك العهد عن صورة المعمورة والأفلاك، وكانت إلى جانب هذا كله مزينة برسوم فنية وشروح مستفيضة لأهم البلاد وأوصافها. وكان الغرض من هذه الخريطة – حسب ما نص فيها – تعريف الربابنة والملاحين بمواضعهم من البحر ليهتدوا بها.

وعلى هذه الخريطة المسماة بـ "خريطة قطالونيا" عين مكان جزر الأزور مع ذكر أسمائها كما عين أماكن ست جزر من جزر الكناري. ويقال أن تسميتها بالكناري يرجع إلى كثرة عدد ما فيها من الكلاب كما أن اسم كابري يرجع لكثرة ما في هذه الجزيرة من الماعز. وكتب فوق هذه الجزر "جزر السعداء" التي يجئ إليها الوثنيون من الهند بعد مماتهم ليعيشوا على أرج الفاكهة وشذاها.. ويضيف واضع الخريطة إلى ذلك رأيه الشخصي "بأن هذا خرافة" وتحت جزر الكناري رسمت سفينة على ظهرها أربعة ركاب ويرفرف فوقها شعار مملكة أراجون وجاء في النص المكتوب "أبحر جيمس فرر"[١١٧] قاصداً ريو دورو[١١٨] في اليوم العاشر من أغسطس سنة ١٣٤٦ وهو يوم عيد القديس سنت لورنز[١١٩] وعلى رقعة شمال إفريقية الواقعة إلى جنوب إسبانيا مباشرة رسمت جبال الأطلس يخترق عرضها خط كتب في تفسيره "هنا يمر التجار القادمون من غانا بلاد الزنوج

---

[١١٦] عرفت باسم **Mappa Mundi**

[١١٧] **Games Ferrer**
[١١٨] **Rio D'Oro**
[١١٩] **St. Lorenz**

وهذا الممر يسمى درا[١٢٠] وفي أسفل جبال الأطلس ذكرت أسماء ثلاثة بلاد. جوزولا[١٢١] وأسارا (الصحراء) وغانا، وإلى جانب هذه الأخيرة كتبت هذه الأسطورة "أن ملك زنوج غانا أعظم ملوك هذه الجهات وأغناهم لكثرة ما يملكه من الذهب" ولم يكتف واضع الخريطة بما ملأها به من نصوص ولكنه ذهب إلى أبعد من هذا فقرن إلى النصوص صوراً من كل لون. فترى بها صور ملوك في أبهى الحلل وأفخمها وعلى الأخص صورة واحد من هؤلاء الملوك وصف بأنه قد دأب على مقاتلة المسيحيين في بلاد النوبة من رعايا القس يوحنا

ورسمت صورة ملكة سبأ (بلقيس) وعلى رأسها تاج من الذهب فوقه تفاحة من الذهب أيضاً. كذلك جاء في النصوص المدونة بالخريطة ذكر الطيب والعطور والمر والبخور وطير السمندل.

وبقرب جزيرة سوكوترا[١٢٢] رسمت صورة جنوك وإلى جانبها هذه العبارة "اعلم أن هذه السفن تسمى جنوك وطولها عند سطح الماء ستون ذراعاً وطول ظهرها أربع وثلاثون. وبكل منها من أربع إلى عشرة صوار وأشرعتها مصنوعة من الغاب وأوراق النخيل".

وتنص الخريطة على أن الهند تبدأ عند مدينة هرمز. وذكرت التوابل والأحجار الكريمة ومصادرها المختلفة في شتى أجزاء الهند حسب الأساطير

---

[١٢٠] **Draa**
[١٢١] **Gozola**
[١٢٢] **Sokotra**

المنتشرة بين الناس. ويرى في الخريطة أيضاً صور الملوك الثلاثة من ملوك الشرق وهم يجدون السير إلى بيت لحم قادمين من أرض ويجورز[١٢٣] وهم الذين عبدوا المسيح ودفنوا في مدينة كولون[١٢٤] على مسافة يومين من مدينة بروج (Bruges). وبالقرب من جبال الهملايا أثبتت مدينة كراكورم وإلى جانبها كتبت هذه الأسطورة "هنا يحكم الملك المسيحي استيفن[١٢٥]. وهنا ضريح الحواري توماس.

ولم يستطع واضح الخريطة أن يثبت فيها جميع جزر البحر الأحمر التي ينص على أن عددها سبعة آلاف وخمسمائة وثمان وأربعين، فتحاشى تدوين تفاصيل ثروتها من ذهب وفضة وتوابل وأحجار كريمة، ولكن وصف ماكوبولو للصين احتوى أسماء المدن القائمة في تلك الإمبراطورية.

وأثبت في الخريطة مواقع جزر صندا على هيئة أوراق الشجر والأحجار الكريمة، وإلى جانبها هذه الأسطورة "هذا بحر الهند الذي توجد فيها التوابل. في هذا البحر تمخر سفن عديدة لمختلف الأمم، وهنا يصادف الإنسان فصيلتين من السمك، إحداهما وتسمى غانية البحر – نصفها امرأة ونصفها سمكة – والأخرى نصفها امرأة ونصفها طائر".

---

(١٢٣) **Ouigours**
(١٢٤) **Cologne**
(١٢٥) **Stephen**

أما عن سومطرا فيذكر النص أن اسمها كان تيروبان[١٢٦] عند القدماء وهي آخر جزيرة يصادفها الإنسان في الشرق. ولم يكن أحد قد اهتم بعد مما يوجد وراء سومطرا ولا كانت جنيات البحر قد بدأت في إغراء الملاحين إلى مملكتها – المحيط الهادي.

والواقع أن عادة إهداء الخرائط كانت شائعة بين أفراد البيت المالك في أراغون لأننا نجد عادة خريطة أخرى من خرائط العالم قد أهديت إلى ملك فرنسا في سنة ١٣٨١. وفي عام ١٣٩٠ أهديت خريطة أخرى إلى أحد أصدقاء ملك أرغون ومعها إسطرلاب، وتقويم يشمل حساب ثلاث سنوات، وساعة رملية في مقابل كلبين من كلاب الصيد طويلي الشعر طلبهما الملك من صديقه.

ويبدو أن الخرائط الثلاث الأخيرة كانت من صنع السيد جاكومو[١٢٧] وهو من العلماء في فن الملاحة وفي وضع الخرائط وله معرفة بصنع الآلات؛ كان فلكياً ببلاط ملك أرجون وكان اسمه في الأصل كرسك لي جيهي (Cresque Le Geheu) ولكنه اضطر كما اضطر كثير غيره من اليهود – أمام موجة الاضطهاد في ذلك العصر إلى اعتناق المسيحية وتغيير اسمه بعد إجراء مراسم التعميد إلى اسم جاكومو. وقد نزح بعد وفاة مولاه العاهل الملكي إلى جزيرة ماجوركا لتدريس فن الملاحة للضباط البرتغاليين بمدرسة ساجرس.

---

(١٢٦) **Taprobane** هذا الاسم أطلق في القديم كذلك على جزيرة سيلان

(١٢٧) **Jacomo**

كان السكون والضباب لا يزالان يخيمان في ذلك العهد فوق المحيط الأطلسي الذي يسميه القدماء بحر الظلام، وهو الذي كتب في وصفه جغرافيون العرب "توجد في هذا البحر مواضع تنبعث منها دائماً أبداً ألسنة من اللهب تصل إلى ارتفاع مائة ذراع في الجو، وفيه توجد أيضاً أسماك الجرم وحيتان ووحوش بحرية غريبة الخلقة والتكوين، وفيه مدن تسبح في الفضاء، وفي هذا البحر جزيرة يقوم فوقها قصر بديع الحسن والتنسيق يحوي جثمان الملك سليمان بن داود.

وكتب ابن خلدون[١٢٨] مؤرخ المغرب عن المحيط الأطلسي، أنه بحر لا تعرف له حدود حتى أن الملاحين لا يجرؤون على الابتعاد عن الشاطئ خشية أن تدفعهم الرياح إلى مجاهله، ولا يوجد وراء هذا البحر معمور.

كتب الجغرافيان: أبو الفداء[١٢٩] والإدريسي في عصرهما: لا يعرف أحد ما وراء المحيط الأطلسي فلم يستطع أحد اكتشاف شيء معين لصعوبة الملاحة فيه بسبب ما يخيم عليه من ظلمات وبسبب أمواجه العاتية العالية وكثرة أعاصيره وشدة رياحه الهوجاء. على أنه يوجد بهذا المحيط عدد من الجزر بعضها مسكون وبعضها غير مسكون، ولكن أحداً

---

[١٢٨] هو عبد الرحمن بن محمد ولد بتونس سنة ٧٣٢هـ كان من أعظم مؤرخي العرب له كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر وهو مطبوع في سبعة مجلدات كبيرة يعرف جزؤه الأول بمقدمة ابن خلدون

[١٢٩] هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء بن الأفضل بن المظفر بن المنصور صاحب حماه. نظم كتاب الحادي في الفقه، وله تاريخ كبير مشهور وكتاب الكناس وكتاب تقويم البلدان توفى سنة ٧٣٢م ١٣٦هـ

من الملاحين لا يجرؤ على التعمق في مياهه وهم يكتفون بالسير قرب الساحل لكي لا تغيب عنهم معالمه.

على أن الأمير هنري كان يعلم بفضل بعض حقائق ثابتة موضحة على الخرائط أن في أواخر القرن الثالث عشر (١٢٩١) أبحر بعض تجار جنوه من أسرة فيفالدي (Vivaldi) ومعهم أحد القسس في سفينتين للتوغل جنوباً إلى أقصى نقطة يمكن الوصول إليها على ساحل إفريقية الغربية. وكان من المعروف أنهم مروا برأس جوبي "Cape Juby" ولكن شيئاً لم يسمع عنهم بعد ذلك.

وعلى خريطة مستر جاكومو كتبت هذه الكلمات التي تنذر بالسوء إلى جانب رأس "نام" أو "نون". "هنا أخر المعمور المعروف". وبذلك يكون قد عبر عن نفس الاعتقاد الذي أراده بطليموس نقلاً عن بليني Pliny وهو أنه لا يوجد شيء وراء هذا الموضع سوى الصحاري القفر المجدية "التي روي عنها في الأساطير، وفي عام ١٤١٨ عاد الأمير هنري إلى سبتة لنجدة حامية المدينة التي حاصرها ملوك غرناطة وفاس ومراكش وتونس على رأس جيش قوامه مائة ألف مقاتل.

أغراه الانتصار العظيم الذي أحرزه في هذه الموقعة على محاولة احتلال جبل طارق، ولكن الموسم لم يكن مناسباً كما أن العواصف العاتية والتيارات الشديدة لم تكن في صالحه. ومهما يكن من أمر، فقد اضطر للتخلي عن مشروعه، وخاصة لأن أباه نهاه عن المضي فيه.

كان الأمير هنري جندياً بسجيته، وكان صيته قد طبق الآفاق طولاً وعرضاً لما أبداه من البسالة والإقدام في القتال بسبتة، والذي انتهى باستيلائه عليها. وكان من نتائج هذا الفوز أن دعاه البابا مارتن الخامس (Martin٥)[١٣٠] لقيادة جيوشه ضد الأتراك كما دعاه إمبراطور ألمانيا وملك قشطالة، وملك إنجلترا للقتال باسمهم وبالنيابة عنهم. ولكنه فضل استغلال وقته وجهوده في فتح بلاد لم تزل مجهولة من الناس؛ ففكرة الاستكشاف لم تزايل مخيلة الأمير هنري لحظة واحدة، ولقد شغل بها عن كل شيء وأخذ يعد لها العدة عسى أن تتاح لها في مستقبل الأيام فرصة تخرجها إلى حيز التنفيذ العملي.

وقد كان للجهود الحميدة التي سبق أن بذلها أسلافه في بناء أسطول بحري خير عون له فيما كان يعتزمه؛ فعلى الأساس الذي وضعوه شُيد بناؤه. ورغماً من أن ميناء لاجوس (**Lagos**) البديعة كانت الميناء المستعملة بصورة منتظمة في الجرف (الغرب) فقد استقر رأي الأمير هنري على بناء ميناء أخرى أقصى حدود المملكة تجاه المحيط الأطلسي لتكون – على حد قول المؤرخ – سوقاً للتجار، ولتسهل كذلك على السفن المارة من الشرق إلى الغرب أن تستنير بها على تعرف مواضعها ولتأخذ منها ما تحتاجه من المؤن والأدلاء.

كان الأمير هنري دائم التفكير وإنعام النظر في مشكلة هذا المحيط الذي لم تكشف مجاهله، وفي الثروة التي ينتظر وجودها فيما وراء الصحراء

---

[١٣٠] **Martin ٥**

الكبرى من جنوبها، وفي أمر أولئك الذين يعيشون في تلك المناطق من وثنيين ومسلمين – على حد ما كان شائعاً بين الناس في ذلك العصر – كذلك ما برح يفكر في أمر ذلك الملك المسيحي الذي يزعم أنه يعيش بين أولئك القوم.

وليس من شك في أنه قد قرأ كتاب الراهب الإسباني الذي أطال فيه الكلام عما يوجد وراء جنوب الصحراء وأسهب في ذكر ملك الحبشة المسيحي، أما القول بأن الحبشة تقع في إفريقية فأمر قد قطع بصحته. اختلج صدره بعد ذلك بأمر استقر عليه رأيه، فمهما يكن مبلغ المجازفة ومهما يكن مبلغ الأخطار، فلا بد لسفنه من أن تمخر عباب هذا المحيط رافعة علم جماعة "المسيح".

وهكذا أبحرت السفن ناشرة أشرعتها البيضاء كأنها أجنحة عقبان عمالقة حاملة إلى شعوب إفريقية جماعة من الرسل يبشرون بإنجيل المسيح ويعودون منها بكنوزها من الذهب والعاج والفلفل كما قدر لفرسانه أن يزيحوا النقاب عن حقيقة القس يوحنا الذي كتب عنه ماركو بولو والراهب الإسباني والسير جون ماندفيل.

وقيل إلى الأمير هنري أن في العثور على هذا الملك العظيم القوي تحقيق لجميع رغباته وأمانيه كما اعتقد اعتقاداً جازماً بأن التوابل تنبت في مملكة هذا الملك، لذلك لا بد وأن يكون الأمير هنري قد استطار فرحاً

حينما تطوع سيدان من رجال حاشيته للقيام برحلة استكشافية على طول ساحل إفريقيا الغربي إذا هو أعد لهم السفن وأمدهم بالبحارة.

كتب المؤرخ أنطونيو جلفانو[١٣١]عن هذه المغامرة بعد مرور مائة وثلاثين عاماً على حدوثها فذكر أنه بعد أن حصل السيدان على إذن الأمير هنري في عام ١٤١٨ للقيام برحلة استكشافية حول العالم أبحراً إلى ساحل إفريقية وسرعان ما دهمتهما أعاصير وأنواء شديدة دفعتهما إلى عرض البحر، غير أن الله تداركهما برحمته فقيض لهما الوصول إلى إحدى الجزر بسلام فأطلقا عليها اسم بورتو سانتو[١٣٢].

فشلت محاولة السيدين البرتغاليين في رحلتهما الاستكشافية الأولى فيما يتعلق بشاطئ إفريقية، ولكن مهما يكن من أمر هذا الفشل فإن هذه الرحلة التي قاما بها كانت نقطة البداية للتوسع الاستعماري.

في سنة ١٤٢٩ أرسل الأمير صاحبينا السابقين إلى بورتو سانتو مرة أخرى في صحبة ملاح مار من أبناء جنوه يسمى برسترللو[١٣٣] وأمرهما بمحاولة استكشافات جديدة. وفي ذات يوم بينما كانا يمخران بالقرب من الجزيرة الصغيرة وصلت بهما السفينة إلى جزيرة ملتفة الأشجار كثيفتها أطلقا عليها اسم ماديرا (Madeira) أي جزيرة "الخشب". وفي ماديرا يقول أعظم شعراء البرتغال، في عهد لاحق:

---

[١٣١] **Antonio Galvano**
[١٣٢] **Porto Santo**
[١٣٣] **Perestrello**

"شاطئ غمرته الورود.

ونسيم من شذ العرف عليل.

حتى كنوز فينوس لو أنها

شيدت فوقه معبدها المحبوب"

كان لاكتشاف هذه الجزيرة أثر كبير في حياة البرتغال، فبفضل ما استجلبته من أخشابها الوفيرة استطاعت أن تشرع في تشييد منازلها على طراز جديد. كان القدماء يعلمون بوجود هذه الجزيرة ولكنهم لم يكونوا يعرفون مكانها على وجه التحديد. فقد وصلت أنباءها إلى إسبانيا والبرتغال بطريق غير مباشر نقلاً عن أحد مرشدي السفن، كان أسيراً في مدينة فاس وسمع عن هذه الجزيرة ومن بعض زملائه في الأسر من الإنجليز.

حركت هذه المكتشفات عوامل الطمع في نفس الأمير هنري فحول نظره نحو جزر الكناري وكانت قد أثارت كثيرا من الاهتمام قبل ذلك بعدة سنوات. عكف الأمير هنري على دراسة الخرائط وموقع هذه الجزر التي كان يطلق عليها اسم الجزر "المجدودة أو السعيدة" فقد زارها في عام ١٢٧٠ رجل من أبناء جنوه يدعى لانسلوت ملفوسللو[١٣٤] وشيد بها قصرا لسكناه.

---

(١٣٤) **Lancelot Malvolcello**

ووصل إليها مصادفة بعد ذلك التاريخ بستين عاماً أميرال من أبناء جنوه دفعت به العواصف إليها.

وفي عام ١٤٠٢ كانت هذه الجزر مثار اهتمام نبيل فرنسي يدعى جان دي بثنكور(١٣٥)، ضاق ذرعاً بالمنازعات الداخلية وبالحروب في الخارج فبات ينشد السلام والسكينة، وتاقت نفسه إلى نشر الدين المسيحي فأبحر من مدينة لاروشيل(١٣٦) إلى عرض المحيط الأطلسي وبصحبته زمرة من رجال فرنسيين من ذوي المروءة والإقدام نخص بالذكر منهم، جاديفير دي لا سال(١٣٧).

والحق أن هذه قصة هذه الرحلة تبعث على الإعجاب والتقدير، فقد ذكر المؤرخ بأن جان جي بثنكور كان ورعاً ويمتاز بشجاعة فذة. لم يغامر بالخروج إلى عرض المحيط طمعاً في مغنم أو في العثور على كنز من الكنوز كغيره من الناس، ولكن كان همه الوحيد نشر الدين المسيحي بين ربوع تلك الجزر.

زار جان دي بثنكور ومعه صديقه الوفي جاديفير دي لاسال ساحل إفريقيا، ولكنه – على حد رواية المؤرخ – لم يلق أية مساعدة لا من أمراء فرنسا ولا من أمراء إسبانيا؛ لذلك لم يفلح في فتح إفريقية الغربية وحمل أهلها على اعتناق المسيحية. ويضيف الراوي تفسيراً لذلك أن النبيل

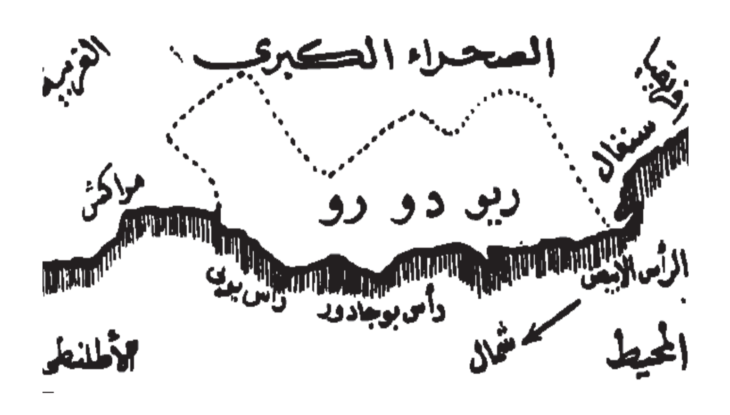
---

(١٣٥) Jean de Bethencourt
(١٣٦) La Rochelle
(١٣٧) Jadifer de la Salle

الفرنسي قال: "إن الشغب والاضطرابات تسود فرنسا إلى حد يجعل من العسير عليها أن تفكر فيما يحدث في الخارج فيحسبها ما تعانيه داخل البلاد".

وبعد مضي اثنتين وعشرين سنة من ذلك التاريخ أرسل الأمير هنري أسطولاً لفتح تلك الجزر ولكنه فشل في ذلك. على أن رغبته الأساسية وهدفه الأول من إرسال هذه الحملة البحرية كان للكشف عما يقع وراءه رأس بوجادور. فيسجل الراوي في هذا الصدد: "ما أكثر المرات التي أرسل فيها الأمير كتائبه إلى عرض البحر وفيها الرجال المجربون من أولى البأس والإقدام والخبرة بأساليب الحرب ممن تألقت أسماؤهم في ميادين القتال ولكن أحدا منهم لم يجرؤ على اجتياز المحيط إلى ما وراء رأس وجادور لا عن جبن ولا عن خور – كما يقول الراوي – ولكن لكثرة ما أذاعه بحارة إسبانيا جيلاً بعد جيل عن الأخطار التي تكتنف مثل هذه المحاولات".

بيد أن الأمير لم يبرح يجرد الحملة بعد الحملة ويرسل السفن بعد السفن متكبداً في سبيل ذلك نفقات باهظة ولكن لغير طائل. وأراد ربابنته وقواد جنوده أن يكفروا عن فشلهم فراحوا يغيرون على ساحل غرناطة حتى سواحل شرق البحر الأبيض المتوسط.



لم يكن هذا كل ما كان يصبو إليه الأمير، على أنه – كما يقول الراوي – لم يوجه لربابنته لوما ولا تثريباً على فشلهم وإنما تبسط معهم واستمع إلى روايتهم في صبر وأناة، وكافأهم على حسن خدماتهم. وبالرغم من أن محاولات الأمير هنري باءت كلها بالفشل خلال إثنتي عشر عاماً، إلا أن عزمه لم يضعف ولا تسرب إليه وهن أو خور. وكان والده وأخواته يواسونه في جميع محاولاته ويحيطونه بعطفهم، حتى أن إخوته بذلوا له كل مساعدة مستطاعة في مختلف الظروف والأحوال. فوافاه أخوه الأصغر دون فرناندو بأنباء رحلات عثر عليها بين مجموعة من الوثائق وقصص الجوابين، كان سلفهم الملكي دنيز الأول ١ **Diniz** قد جمعها قبل مائة وعشرين عاماً. وكانت عودة أخيه دون بدرو من سياحاته التي استغرقت عشرين عاماً من العوامل التي زادت في تنشيطه وشحذ همته.

كانت غزوة سبتة قد أثارت في نفس الأمير رغبة ملحة لرؤية العالم والسباحة في أقطاره، فبدأ رحلته بعد أن باركه والده وزوده بالمال وبنخبة صالحة ممتازة من الفرسان، ولقد زار خلال رحلته فلسطين ومصر وقاتل في

صفوف جيوش إمبراطور ألمانيا، كما زار بلاط كثير من ملوك أوروبا. وحينما كان في إنجلترا أنعم عليه بوسام رابطة الساق من رتبة فارس. وفي فينيسيا أهدى إليه الدوق مخطوطاً نفيساً، فريداً في بابه، وخريطة جغرافية رمزاً لعطفه وتقديراً منه لشخصه.

أما المخطوط فكان نسخة من كتاب ماركو بولو، ويغلب على الظن أن الخريطة كانت من صنعه أيضاً. كل هذه الوثائق والنفائس وهبها دون بدرو لأخيه الأمير هنري الذي وجد فيها تفاصيل عديدة تتصل بالقس يوحنا مما ضاعف من عزمه في المضي بتنفيذ مشروع مغامراته البحرية لأنه كان يأمل أن يجد في هذا الملك المسيحي حليفاً له في مقاتلة المسلمين[١٣٨].

لم يكن الأمير هنري أقرب اليوم إلى تحقيق رغبته في معرفة ما وراء رأس بوجادور[١٣٩] منه في عام ١٤١٨ حينما أبحر فرسانه لأول مرة إرضاء له فكم مرة أرسل رجاله في السفن إلى عرض البحر ولكن بغير طائل.

حار الأمير هنري في تأويل إحجام فرسانه، حتى الشجعان منهم، عن المخاطرة رغم ما مناهم به من مكافأة وتكريم. انقضت سبع عشرة على ذلك المنوال إلى أن أرسل رئيس ركائبه جل أينز[١٤٠] بأوامر محددة ليدور

---

[١٣٨] في الأصل الكفار، وقد سبق الإشارة إلى مدى تعصب المسيحيين ضد المسلمين في تلك العصور الغابرة.

[١٣٩] **Cap Bogador**

[١٤٠] **Gil Eannes**

حول رأس بوجادور. ولكن للأسف، كان هو أيضاً قد استولى عليه الرعب كما استولى على من سبقوه من قبل – هكذا يقول الراوي – فعاد ولما يتجاوز في رحلته جزر الكناري.

ولكن الأمير هنري عاود الكرة وأرسل رئيس ركائبه مرة أخرى لتحقيق الهدف عينه متلطفاً معه في القول، محذراً ومشجعاً ومتوسلاً إليه ألا يأخذ بقصص الملاحين، وأن يتجلد ويشد من عزائمه ويسير إلى الهدف مباشرة. وكان أن قرر رئيس الركائب فيما بينه وبين نفسه ألا يخيب أهل أميرة مرة ثانية بحال من الأحوال نظراً لما كان يكنه له من محبة وإخلاص. لذلك ازدرى الأخطار واستهان بها وأبحر صوب الجنوب مستديراً برأس بوجادور، وما كان أعظم دهشته عندما وجد أن كل ما سمعه حتى وقته هذا بشأن الأراضي الواقعة خلف رأس بوجادور لا أساس له من الصحة، ولكن ساءه أنه لم ير أحدا من السكان في تلك الجهات.

كان سرور الأمير هنري بعودة جل أينز عظيماً جداً وراح يستمع إلى روايته في اهتمام وغبطة وختم رئيس الركائب روايته بهذه العبارة: "ولما كنت أرى أن من واجبي يا مولاي أن أهدي إليك شيئاً من أرض تلك البلاد التي نزلت بها فقد جمعت هذه الأعشاب لأقدمها لسموكم وهي التي نسميها في بلادنا هذه "حصليان"[١٤١] (أوراق إكليل الجبل).

---

[١٤١] حصى لبان أخضر

الفصل الثاني

الخروج للاستكشاف

لا يزال بريق نجم القطب يقترب منا رويدا رويدا

إلى أن اجتاز الحد حيث عربة النهار تمر فوق رؤوسنا

مرسلة من على أشعته المضيئة على الأرض

المقطع الخامس

اغتبط الأمير هنري بعسلوج ورق الغار اغتباط نوح عليه السلام بورقة الزيتون في منقار الحمامة؛ إذ كانت رمز الأمل والحياة. كان في هذا العسلوج تفنيداً للزعم السائد بأن خلف رأس بوجادور لا توجد غير صحراء مجدبة قاحلة لا ماء فيها ولا أشجار ولا أعشاب خضراء.

فمنذ هذه اللحظة لم يعد أحد من حاشية الأمير يحجم عن التطوع لركوب البحر والاستكشاف. فما هو إلا أن يصل هؤلاء السادة في رحلاتهم إلى موضع لا يبعد جنوباً عن موضع سبق الوصول إليه بأكثر من بضع فراسخ حتى يأخذوا في طريق العودة إلى الأمير، والبشر يطفح على وجوههم كالأطفال، ليزفوا إليه النبأ السعيد، دون أن يدور في خلد أحد

منهم أن الأمير كان يفضل لو أنهم واصلوا المسير؛ لذلك انقضت ستة أشهر على الأقل، قبل أن يصل أحد منهم إلى تخوم موريتانيا.

لم يغب عن الأمير هنري أن يضع لبحارته قواعد يتبعونها في معاملتهم للأهالي، فلا يعادونهم، وحتم عليهم أن يعملوا على اكتساب ودهم تمشياً مع شعاره "موهبة صنع الجميل" وأصدر إليهم الأوامر كذلك بإقامة صليب كبير الحجم من الخشب في كل بلد جديد يكتشفونه على الساحل وأن تحفر فيه هذه العبارة (شعاره).

كانت البواعث التي حفزت هؤلاء الشبان لمواجهة الأخطار عن طيب خاطر، كثيرة مختلفة الأغراض؛ فبعضهم كان يهدف إلى إرضاء مولاه وبعضهم كان يدفعه إلى ذلك حب المغامرة ونشوة الاستكشاف أو فتنة المغانم. أما الأمير هنري فكان يستهدف خمسة أغراض، الرغبة في معرفة ما يوجد خلف رأس بوجادور لأن عدم المعرفة به كان حائلاً يمنع البحارة والتجار عن متابعة السير. ثم الرغبة في معرفة ما إذا كان هنالك بلاد يسكنها مسيحيون يمكن الإتجار معهم.

وهناك غرضان آخران يصطبغان بصبغة سياسية أحدهما الوقوف على مدى قوة المسلمين في إفريقية، وثانيهما البحث في تلك الأنحاء عن أمراء مسيحيين يمكن الاستعانة بهم – بدافع من محبتهم للمسيح– على إبادة أعداء المسيحية. أما الغرض الخامس والأخير فرغبة الأمير هنري الملحة في حمل الأهالي على اعتناق الدين المسيحي.

كثيراً ما تناول الناس نشاط الأمير هنري في البحر بالنقد اللاذع الصارم وقطعوا بأن مصيره الفشل لا محالة، وأنه مجرد إسراف لا مبرر له، بيد أن هؤلاء النقاد سرعان ما تحولوا عن فكرتهم ونقضوا حكمهم عندما لمسوا مبلغ الزيادة المطردة في ثروة البرتغال نتيجة الإتجار مع الأهالي في إفريقية، وكان وصول التبر لأول مرة إلى لشبونة حدثا من الأحداث.

وعندما طلب بعض أعيان مدينة لاجوس(١٤٢) أن يؤذن لهم في القيام بتجريد حملات لحسابهم الخاص، استجاب الأمير ليطلبهم ومنحهم رخصة بذلك كانت فيما بعد نموذجاً للرخص التي كان لها شأن كبير في توسع هولندا وإنجلترا الاستعماري. ثم هنالك تجارة الرقيق التي كانت محرمة في بادئ الأمر تحريماً باتاً بأمر الأمير هنري ولكنها لم تلبث أن أصبحت مصدر ثراء عريض.

لم يكد أول فوج من الأسرى البربر يصلون إلى البرتغال حتى أمر الأمير هنري بإعادتهم إلى وطنهم. غير أن سيل الأسرى لم ينقطع رغم أوامر التحريم وكان الأسرى يعرضون على آسريهم أموالاً طائلة يفتدون بها أنفسهم، فيقبل العرض ويرافق البرتغاليون أسراهم من المسلمين إلى بلادهم حيث يقبضون الفدية ذهباً وزنوجاً. وعندما حمل الزنوج لأول مرة إلى البرتغال كانوا موضع اعتبار مزدوج إذ هم أرقاء وبشر في وقت واحد. (وثنيون يمكن كسبهم وتحويلهم إلى مسيحيين). أما المسلمون فيجب أن يقهروا ثم يقتلوا.

---

(١٤٢) **Lagos**

وفي عام ١٤٤٤ حملت إلى لاجوس أول شحنة كبيرة من الرقيق قوامها مائتان وثلاثة وخمسون رقيقاً.

بقلب يتفطر من الحزن للمناظر البشعة التي تمثل على مسرح الألم والحسرة من تمزيق شمل الأسرة وفصل أفرادها الواحد عن الآخر، يكتب في تفجع بقلم الواقف على أسرار النفس البشرية وما يختلج فيها من شعور الكمد وهو لم يزل في طور طفولة الزمن، ولكنه يسرح النظر فيما وراء العذاب الوقتي إلى الخلاص الأبدي الذي أصلح لأولئك الذين سماهم "بأبناء آدم السود" حتى التطلع إليه، صور الراوي الأمير هنري ممتطياً صهوة جواده القوي المطهم ومن حوله رجال حاشيته وهو يشرف على عملية تقسيم الرقيق إلى خمسة أقسام، ويوزع على ربابنته وفرسانه المنح والهبات. بلغ نصيب الأمير هنري من هذه الغنائم البشرية ستا وأربعين عبداً ولكنه أهداهم جميعاً إذ كان همه في تحقيق غرضه لا في المغانم وهو مغتبط أشد الاغتباط بخلاص هذه الأرواح من وهده الكفر والوثنية.

توفي جون الأول عام ١٤٣٣ فجلس على العرش ابنه الملك دوارت، فسار سيرة أبيه في مد يد المساعدة بسخاء لأخيه الأمير هنري الذي أخذت شهرته تزيد في بريق تاج البرتغال، ولا غرو، فقد ذاع صيته طولاً وعرضاً مجتذباً إليه الفرسان والملاحين والتجار، فأخذوا يتقاطرون على ساجرس Sagres ولاجوس من كل صوب وحدب. وكان الأمير هنري كثيراً ما يقضي لياليه وهو يراقب النجوم من المرصد الذي شيده في

لاجوس بينما هو يتوافر بالنهار على دراسته إلا إذا شغلته عن ذلك واجباته الرسمية بوصفه حاكما على سبتة أو شئون الدولة في البرتغال.

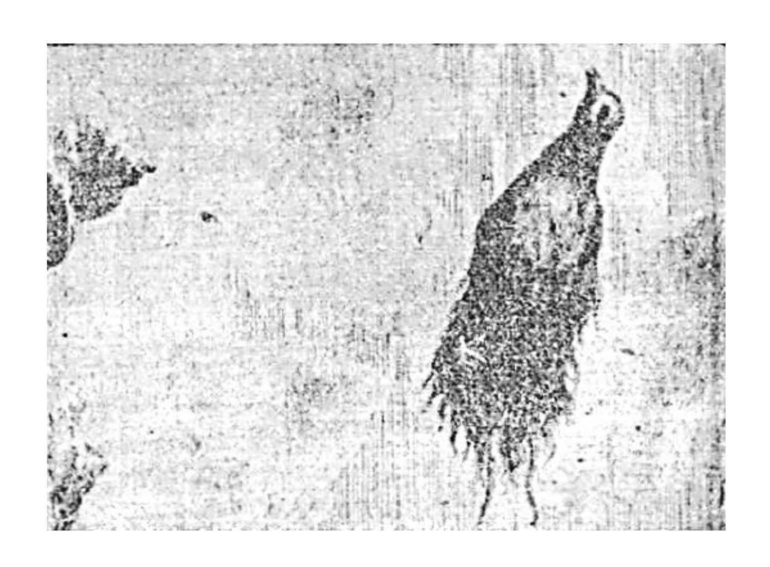
جبل الأمير هنري على الكرم فكانت داره مفتوحة للجميع يؤمها الغرباء الوافدون بسفنهم على الميناء فلا يترفع الأمير عن الاختلاط بهم والاستماع إلى أحاديثهم حرصاً منه على الانتفاع من معلوماتهم وتجاربهم، وبذلك أصبحت ساجرس مركز لدراسة أحوال الملاحة، وما هي إلا عشية أو ضحاها حتى أصبح ربابنة البرتغال أخطر المنافسين لربابنة جنوه.

لم يحالف التوفيق الأمير هنري فيما كان يعتزمه من الاستيلاء على جزر كناريا ولكنه استعاض عنها بامتلاك مجموعة أخرى من جزر الأطلسي في عام ١٤٣٥ أطلق عليها رجال أسطوله اسم "أزور" لكثرة ما فيها من الصقور والشواهين وكان الأمير هنري قد عقد النية من زمن غير قصير على الوصول إلى "الجزائر الخالدة" كما عبر عنها على الخرائط التي وهبها له أخوه دون بدرو. وما أن استولى الأمير على جزائر الأزور حتى برهن على نبوغ فائق في إدارة المستعمرات، وسرعان ما شرع في استغلال موارد هذه الجزر الطبيعية بتعميم زراعة القصب والكروم والحبوب مما عاد بالخير العميم على البرتغال.

على أن إسبانيا – في الوقت نفسه – لم يكن حظها في جزائر الكناريا أقل من حظ جارتها البرتغال في جزائر أزور. عاجلت المنية الملك دوارث عام ١٤٣٨ أي بعد خمس سنوات من جلوسه على عرش البرتغال

فأثرت وفاته المبكرة على نشاط الأمير هنري تأثيراً عميقاً وحدت من حركته، فقد اضطر الأمير إلى إهمال شئون الملاحة لمعالجة شئون الدولة المستعجلة، نظراً لأن ابن الملك الراحل وولي عهده لم يكن قد تخطى السادس من عمره بعد، وكان عمه الوصي على العرش دون بدرو قد نشبت بينه وبين أرملة أخيه لسوء الحظ بعض المنازعات، فتعين على الأمير هنري أن يتدخل في الأمر ناصحاً ومشيراً.

كانت المغامرات والعلاقات التجارية مع إفريقية قد تركزت خلال هذه السنوات على أساس متين وشعر الأمير هنري بأنه قد أصبح لزاماً عليه أن يوفد سفارة إلى البابا يطلب منه الموافقة على اعتبار كل البلاد التي يستكشفها رجال أسطوله داخلة ضمن نطاق النفوذ البرتغالي. لم يستجب البابا مارتن الخامس من فوره لرجاء الأمير هنري فحسب، بل ذهب إلى أبعد من هذا فوهبه هذه الممالك لتكون ممتلكات مستديمة للتاج البرتغالي ثم أمعن البابا الكرم والسخاء فأحل من الأوزار والخطايا أرواح من يلقون حتفهم في تلك المغامرات من أعوانه وأجناده.



طائر الجنة الذي لا أرجل له

وبذلك أصبح لهذه المغامرات الاستكشافية الاستعمارية مثل ما كان للحروب الصليبية سابقاً من الاعتبار. ونهج البابا أوجينوس الرابع منهج سلفه فأصدر أمر مماثلاً. وكان هذا الأخير ينتمي إلى أسرة من سر أعيان فينيسيا النبيلة لذلك كان له اهتمام عظيم خاص بتجارة الفلفل وجوزة الطيب والقرفة والأحجار الكريمة التي كانت مصدر ثراء عريض لأسر فينيسيا.

كان الترف في ذلك الوقت قد بلغ ذروته فلا عجب أن رصع التاج الذي يكلل هامة هذا البندقي، رأس العالم المسيحي، بكمية من أنفس الجواهر وأغلاها ثمناً، تفوق ما رصعت به تيجان من سبقوه من زملائه، باستثناء ابن أخيه البابا بول الثاني وهو بندقي مثله.



شجرة القرفة

حدث ذات يوم من عام ١٤٤٠ أن نمى إلى علم البابا أوجينوس أن أحد الجوابين ممن ساحوا في الأرض طولاً وعرضاً اسمه نيكولا دي كونتي[١٤٣] من فلورنسا يلتمس المثول بين يدي قداسته، وأضاف رافع الالتماس للأب المقدس بأن الجواب قضى خمسة وعشرين سنة سائحاً في ربوع الشرق وقد زار الصين والهند.

أثار هذا النبأ اهتمام البابا في الحال؛ فالهند والتوابل لم تفقد أهميتهما من حسبانه. لاسيما وأن شرابه المفضل كان – على حد رواية المؤرخين – ما ساخناً متوبلاً بالقرفة. وها اليوم بالباب أحد العائدين من منبت هذا التوابل يلتمس المقابلة في خشوع فليؤذن له في الحال.

---

(١٤٣) **Nicolo di Conti**

كان الرجل مفعم القلب حزناً تبدو عليه الكآبة. جاء يلتمس المغفرة من نائب المسيح على الأرض لما ارتكبه من الخطيئة العظمى بارتداده عن النصرانية. وأخذ نيكولا دي كونتي يشرح للبابا كيف أنه اعتنق الإسلام لأنه لم يجد وسيلة غير ذلك لإنقاذ زوجه وأبنائه الأربعة. ولكن للأسف حتى هذه التضحية لم تنقذ جميع أسرته لأن امرأته واثنين من أبنائه ماتوا بالطاعون في مصر، فقرر الزوج الحزين المشكل السفر إلى روما لالتماس الغفران.

وبالرغم من أن قصة نيكولا دي كونتي حركت في البابا عوامل الرثاء له والعطف عليه إلا أن البابا أبى أن يعد التاجر باغتفار خطيئته وقبول توبته إلا على شريطة أن يملي كل ما سمعه وما شاهده طيلة سنوات الرحلة على سكرتيره.

لم يكن بوجيو براشيوليني(١٤٤) سكرتير البابا في ذلك العهد من رجال الكنيسة بل كان مدنياً من قادة إحياء الدراسات التقليدية(١٤٥) وبلغ من نفوذه في ذلك العهد أن الناس كانوا يطلقون عليه "عصير بوجيو".

اغتبط السكرتير بالمهمة التي كلفه بها البابا وارتاح إلى كتابة ما أملاه عليه دي كونتي عن تفاصيل رحلته، ولقد صرح بأن الرحالة رزين يعتمد على شهادته. "يتكلم في وقار وحذر وإخلاص". وأن أقواله تطابق ما جاء

(١٤٤) **Poggio Bracciolini**
(١٤٥) **Classical**

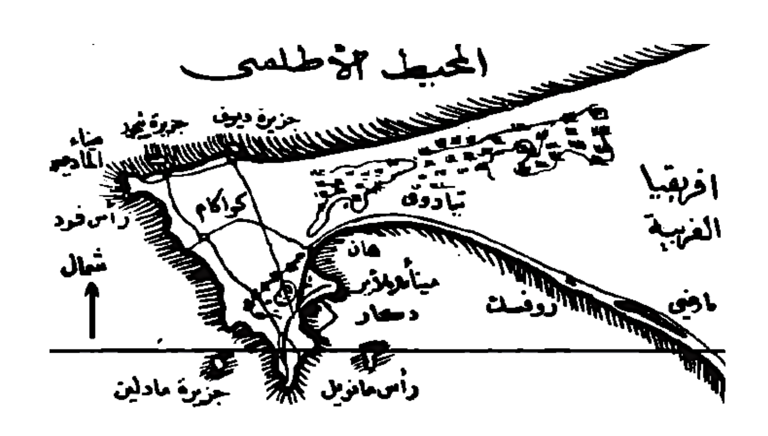
في "كتاب ماركو بولو". وزاد من قيمة ما أملاه دي كونتي دقته في تحديد المسافات بين مختلفة الأماكن المهمة والوقت الذي استغرقه في قطعها.

أملى التاجر أنه سافر ومعه أسرته وبعض الأقارب وأربعة من الخدم، إلى ربوع الشرق فذرعها طولاً وعرضاً، وأنه كان قد تعلم العربية في صباح حينما أرسل إلى دمشق لأمور تتعلق بتجارة بعض السلع الشرقية. وأنه تعلم الفارسية بعد ذلك، ثم انتحل شخصية فارسية بارتداء زي فارسي وسافر إلى أقصى الأماكن في آسيا. ولم يكن يجهد نفسه في سفره حتى أنه كان يقضي عدة شهور في مكانه بعينه فاستطاع بذلك اختبار أحوال الأهالي وعاداتهم وزراعتهم وتجارتهم في كثير من البلاد.

حمل سكرتير البابا نيكولا دي كونتي على أن يملي تقريرين أحدهما عن تجاربه الشخصية والثاني عن عادات الشعوب المختلفة التي عاش بينها. وقد أسهب دي كونتي في وصف زراعة الفاكهة والتوابل تفصيلياً وفي طريق إعداد الأفاويه، فروى أن الفلفل والكافور تكثر مزارعها في سومطرا التي سافر منها وقت هبوب رياح مواتية إلى جزيرة تسمى "جزيرة الذهب" مستغرقاً عشرين يوماً في الرحلة. وأنه قد استرعى اهتمامه بنوع خاص في جاوه الكبرى نوع من الطيور تسمى "عصافير الجنة" وهي في حجم الحمام، طويلة الذيل ولكن ليس لها أرجل، وهي تطلب لجلودها وذيولها التي تتخذ أدوات للزينة؛ فجلودها كثيراً ما تملأ بالتوابل ثم تصدر إلى الخارج على هذه الصورة.

وبعد رحلة استغرقت خمسة عشر يوماً وصلت الأسرة إلى جزيرة "صندل" حيث توجد جوزة الطيب والبهار بينما يوجد القرنفل في جزيرة "بندا" فقط. وفي بندا يوجد أيضاً ثلاثة أنواع من الببغاء سر بها المسافرون كثيراً بعضها أحمر مصفر المناقر والبعض الآخر ذو ألوان مختلفة متعددة والنوع الثالث أبيض في حجم الدجاج وهو باهظ الثمن لا يستطيع الكلام بسهولة عجيبة ويجيب عن كل سؤال. والبحر فيما وراء هذه الجزر غير صالح للملاحة بسبب الرياح.

وأما جزيرة سيلان "النبيلة" وهي في حجم سومطره فتكثر فيها أشجار القرفة. وتشبه شجرة القرفة شجرة الصفصاف إلا أنها تفوقها ارتفاعاً وأغصانها تنمو أفقياً لا عمودياً وأجود ما فيها لحاء أغصانها، أما لحاء الساق فسميك ونكهته أقل جودة وأوراقها تشبه أوراق شجر الغار ولكن أكبر حجماً. وثمرتها تشبه حبات الغار يستخرج منها زيت قوي الرائحة يستعمل في مراهم لها عند الهنود مكانة مرموقة، ومتى جردت الشجرة من لحائها وثمرتها استعملت للوقود. ومن سوكوترا حيث ينبت الصبر الجيد الممتاز والتي تبعد مائة ميل من ساحل جزيرة العرب، رحلنا إلى عدن فوصلناها بعد خمسة أيام. ومن هذه المدينة "الغنية النبيلة ذات الأبنية الجميلة" عبر السواح إلى أثيوبيا. وقضوا بعد ذلك شهرين في بربرة.



ونظراً لصعوبة الملاحة في البحر الأحمر استغرقت الرحلة إلى ميناء سموها "جدم[١٤٦] شهرين ومن ثم واصلوا السفر براً إلى سيناء ومنها إلى القاهرة حيث حلت بهم المصائب وقد كانوا قبل ذلك في أتم سرور وسعادة. وقعوا في الأسر وخيروا بين الموت وبين اعتناق الإسلام – وهو عمل سائغ، حيث أن معظم وظائف الدولة المهمة على عهد المماليك كان يشغلها أوروبيون اعتنقوا الإسلام.

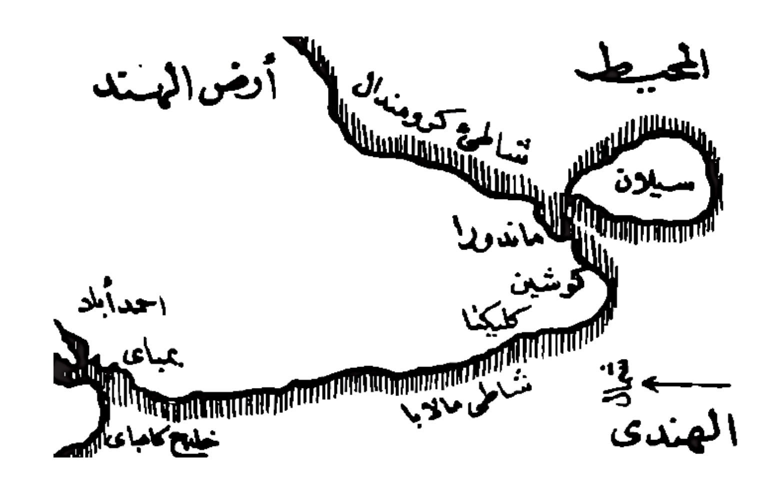
وختم سكرتير البابا قصة نيكولا دي كونتي بهذه الكلمات "كل هذا قصه على نيكولا بأمر البابا وقد دونته أنا بوجيو الفلورنسي سكرتير قداسته ولم أضف إلى القصة شيئاً ولا أسقطت منها شيئاً. وقد ضمن بوجيو براسيولوني كتابه (تاريخ مختلف الأطوار التي مرت بها مدينة روما) هذه القصة، ولم تلبث أن احتلت قصة الرحالة والتاجر الفلورنسي المكانة الأولى باستثناء كتاب ماركو بولو.

---

[١٤٦] يقصد جدة

ظل الأمير هنري يواصل إرسال البعثات البحرية للاكتشاف ولم يغفل الإفضاء إليهم مما سمعه في سبتة من الأسرى الموريتانيين عن وجود نهر عظيم جنوب بلادهم وحددوا له موضع العلامات التي يمكن الاسترشاد بها إلى موضع مصبه وهي عبارة عن نخلتين تنبتان على الشاطئ. فإذا اجتاز المسافر موضعهما إلى الجنوب بمسافة عشرين فرسخاً وصل إلى حيث يصب النهر في البحر.

وليس بعسير أن يتصور الإنسان مبلغ اغتباط الأمير هنري عندما أنبأه رجال بعثته البحرية عقب عودتهم من رحلتهم الطويلة بصدق المعلومات التي نقلها إليهم وأنهم قد اكتشفوا نهر سنغال الذي تقع إلى جنوبه مملكة غانا، بلاد الزنوج.



وفي ذات يوم رست بميناء لاجوس سفينة كانت في طريقها إلى فلاندرز يمتلكها تاجر فينيسي اسمه ألويز كادا موستو[١٤٧] وقد دهش مما

---

(١٤٧) **Aloise Cadamosto**

شاهده بها ومما سمعه عن احتمال الإتجار مع إفريقية – فسأل عما إذا كان يسمح لأجنبي أن ينضم إلى بعثات الأمير، ولما جاءه بالرد بالإيجاب طلب إلى قنصل فينيسيا أن يقدمه إلى الأمير ففعل. وكان معروفاً عن الأمير حبه لمقابلة أبناء فينيسيا لما لهم من المعرفة التامة بتجارة التوابل، لذلك سر بمقابلة كاداموستو ورحب بمقدمه وبالغ في إكرامه، وبلغ من اغتباط الفينيسي بهذه المقابلة أن ترك سفينته تواصل إبحارها إلى فلاندرز بينما تخلف هو في لاجوس أملاً في الانضمام إلى إحدى بعثات الأمير المبحرة صوب الجنوب. وفي النهاية أقلع في مركب شراعية حمولتها خمسون طناً بعد أن وقرت بشحنة طيبة من السلع.

وهو يتنبئنا في يومياته عن جزيرة صغيرة تسمى أرجوين[(١٤٨)] تعتبر أهم المراكز بشاطئ موريتانيا لتبادل السلع، وهو ينبئنا أيضاً بأنه قام برحلة على ظهر جمل استغرقت ستة أيام داخل الجزيرة حتى وصل إلى مدينة تسمى هودن[(١٤٩)] تؤمها القوافل القادمة من تنبكتو لابتياع النحاس الأصفر والفضة المجلوبة من بلاد البربر[(١٥٠)] لتستبدل بالذهب والملاجت[(١٥١)] وعلم التاجر الفنيسي مدى اتساع الصحراء وكيف أنه لا يتيسر لأحد اجتيازها حتى على صهوات الخيل في أقل من ستين يوماً. ومر في طريقه برأس سماه رأس فردي، واكتشف الجزر التي سميت باسم هذا

---

(١٤٨) **Arguin**

(١٤٩) **Hoden**

(١٥٠) اسم كان يطلق فيما سبق على منطقة إفريقية الشمالية – مراكش والجزائر وتونس وطرابلس الغرب

(١٥١) الفلفل الذي ينبت في جزيرة فانه (**Malaguette**)

الرأس، وكانت هذه أطول رحلة قام بها رحالة حتى ذلك الحين فقد بلغت مسافتها ١٥١٠ ميلاً من البرتغال.

وعند نهر جامبيا التقى كاداموستو بملاح من أبناء جنوة اسمه أنطونيو دي نول كان هو أيضاً ملحقاً بخدمة الأمير، وقد اكتشف الاثنان معاً أن نهر سنغال ونهر النيجر إنما هما في الحقيقة نهران مستقل أحدهما عن الآخر وليسا نهراً واحداً كما توهما في مبدأ الأمر. ثم واصلا السير معاً حتى سيراليون حيث شاهد نوعاً من الفلفل وصفاه بالفلفل ذي الذنب.

ويذكر المؤرخ باروس(١٥٢) أنه، إلى أن اتصل البرتغاليون بجزيرة غانا، كان أهل المغرب يحملون هذا الفلفل من موطنه في جزيرة غانا مجتازين به أراضي إمبراطورية مانديج(١٥٣) المترامية الأطراف ثم صحراء ليبيا حتى مندى برقة(١٥٤) على ابتياع هذه التوابل النادرة الغالية التي كانوا يسمونها حبوب الجنة. فقد ذكر بيجالوني الإيطالي في عام ١٢٣١ في كتابه عن التجارة أن عناقيد الفلفل الطويلة كانت من بين التوابل التي تعرض في أسواق نيم ومونتبليه. ومنذ ذلك الحين شرع البرتغاليون في استيراد هذا التوابل مباشرة من إفريقية الغربية إلى لشبونة. وبما أنه كان من الصنف الجيد، قوي حريف يفوق كل أنواع التوابل الأخرى. فإنه لم يلبث أن أصبح من السلع المربحة في الأسواق التجارية.

---

(١٥٢) **Barros**

(١٥٣) الصحراء الكبرى **Mandigue**

(١٥٤) لعل المقصود سرانيكا **(Cyrennica)**

دهش كاداموستو لكونه لم ير نجم القطب إلا مرة واحدة، وكان ارتفاعه وقتئذ من سطح البحر لا يتجاوز طول ساق رمح – على حد قوله – وأنه رأى من ناحية الجنوب – هكذا كتب في يومياته – ستة نجوم براقة متألقة كبيرة الحجم على هيئة هذا الشكل ** *** *[١٥٥].

وتركنا خلفنا الآن بحر الشمال تجري مياهه.

ونجم القطب المتألق يهبط وتيداً.

وها أمامنا الآن نجم قطب آخر قد تألق.

وإلى الشمال يبدو صليب يشع منه النور.

ومن كواكب سبعة براقة تكون الصليب المقدس.

المقطع الخامس

دوَّن كاداموستو في يومياته أنه علم بوجود مدينة تسمى تجهز (Teghazza)[١٥٦] ومعناها (صندوق الذهب) وأنه توجد بقرب هذه المدينة مناجم ملح يحمل الملح منها إلى تنبكتو حيث يبتاعه الأهالي ويدفعون ثمنه تبراً. ثم يرسل هذا الملح إلى القاهرة عن طريق تونس كما يرسل إلى مراكش وحوران حيث يبتاعه التجار الإيطاليون.

---

[١٥٥] يرى الصليب الجنوبي وقت ما يكون الفرع الأطول أفقياً

[١٥٦] لعلها تكده وقد ذكرها ابن بطوطة في سياق الكلام من هذه المنطقة وبها مناجم نحاس

وفي هذا الكلام مصداق لما ذكره الرحالة اليهودي الحاخام بنيامين دي توديلا قبل هذا التاريخ بمائتي وخمسين عاماً، فقد ذكر أن القوافل كانت تفد على أسوان حاملة معها الملح يقايضون عليه مقابل التوابل المستوردة من الشرق.

كان كاداموستو أول أوروبي شاهد أفراس الماء(١٥٧)والفيلة في هذه الجهات وقد حمل إلى الأمير هنري بعض لحوم الفيلة المملحة ليذوقها كما حمل إليه أقدام بعضها وأنيابها وقد اعتبرها الأمير من أنفس العجائب حتى أنه أهدى عمته دوقة برجندي قدماً وناباً.

وعثر رجال البعثات البرتغالية أثناء رحلة من رحلاتهم إلى السنغال على آثار الأخوين فيفالدي في سلالة خلاسية يزعم أفرادها أنهم من نسل بعض الإيطاليين الذين أسرهم الأهالي منذ مائة وسبعين سنة قبل ذلك التاريخ.

ويقول المؤرخ باروس بأن اكتشاف البرتغاليين لغانا أحدث دوياً في جميع أنحاء القارة الأوروبية حتى أنه لم يكن للمجتمعات من حديث إلا عن هذا الكشف وعن أولئك الأبطال الشجعان الذين كان لهم الفضل في ذلك.

أرسل الأمير هنري كاداموستو للقيام برحلة ثانية، ولكن لم يكن هو الذي توغل إلى الداخل في هذه المرة بل كان رفيقه ديجو جومير (Diego

---

(١٥٧) **Diego Fomez**

(Gomez هو الذي فعل ذلك، فسار متتبعاً نهر جامبيا في تعاريجه إلى مدى خمسمائة ميل حتى وصل كانتور[١٥٨] محققاً بذلك ما سمعه الأمير هنري عندما كان في سبتة عن ثراء هذه الأقاليم. وعندما تسامع الناس عن وصول رجال من البيض إلى كانتور هرع الناس من تنبكتو لمشاهدتهم. وقد علم البرتغاليون من الأهالي هناك عن وجود مناجم الذهب في المنطقة الواقعة إلى شمال سيراليون كما سمعوا عن ملك من ملوك المنطقة وضع أمام بيته كتلة من الذهب[١٥٩] بلغ من ضخامتها أن عشرين رجلاً يعجزون متضافرين عن زحزحتها من موضعها إلا قليلاً. وعندما أنبئ الأمير بذلك، إلى جانب ما أخبر به عن وقوع حروب بين ملوك تلك النواحي أظهر أنه كان على علم بذلك كله عن طريق مراسل له يتاجر في حوران.

وعاد كاداموستو ورفيقه حاملين معهما مائة وثمانين رطلاً من الذهب حصلا عليها في مقابل بضاعتهم الرخيصة. تقاطر على ساجرس كثير من الأجانب على أمل أن يرخص لهم في مرافقة رجال الأمير هنري في أبحارهم إلى إفريقية، أما الدوافع لهم على ذلك لمختلفة متفاوتة. فمثلاً كان هناك واحد من هؤلاء – موطنه فيينا – كان الدافع له رغبته في إظهار بسالته في المغامرات الإفريقية ولكنه كان تواقا كذلك إلى مشاهدة العواصف في المحيط وتجربتها بنفسه ليستطيع أن يتباهى بذلك ويقص تفاصيلها على الذين – لا يحتمل – أن تتاح لهم مثل ما أتيح له من الفرص للوجود وسط عاصفة من عواصف المحيط الأطلسي.

---

(١٥٨) **Cantor**

(١٥٩) يوجد بدار آثار سوث كمسنجتون بلندن نموذج لكتلة من الذهب زنتها **١٥٤** رطلاً

وكان هناك فتيان من فتيان بلاط الملوك أحدهما من الدنمارك والآخر من النمسا أذن لكل منهما ملكة في التوجه إلى الأمير هنري لمرافقة رجاله. وعندما كانت الحملة على وشك الإبحار أعطى الأمير هنري الفتى الدنمركي – واسمه فلارت(١٦٠) – خطاباً إلى ملك معين تقع مملكته تجاه الساحل كان يعتقد الأمير أنه مسيحي فالتمس منه المساعدة ضد الكفار، ولسوء الحظ حلت الكوارث بهذه الحملة فقد انقلب في الماء زورق فلارت فقتل هو وبعض رفقته بينما أسر الآخرون وحملوا إلى داخل المنطقة.

أبدى الملك الشاب ألفونسو الخامس اهتماماً كبيراً بمغامرات عمه البحرية، فكلما كشف عن مكان جديد على الساحل أرسل الملك تفاصيل المكتشفات إلى فينسيا لتصنع له خريطة بمعرفة الخبير الكسمغرافي(١٦١) فرا مورو(١٦٢) وقد أرسلت نسخة منها إلى فينسيا.

في عام ١٤٦٣ توفي الأمير هنري قبل أن يتم كل ما كانت تصبو إليه نفسه من أعمال جسام. على أنه بفضل مثابرته وعزمه الذي لم يلن ولا تطرق إليه وهن قد مهد الطريق لكل من يأنس في نفسه الرغبة في سلوكه واقتفاء خطواته. وإذا كان في لقب "الملاح" الذي أطلق عليه شيء من المغالاة نظراً لأنه لم يبحر إلى أبعد من ساحل مراكش الشمالي إلا أنه كان القوة الدافعة الحافزة للمغامرات التي كان من نتائجها ما طرأ على

---

(١٦٠) **Vallarte**

(١٦١) **Cosmography** هو علم نظام الكون وتركيبه

(١٦٢) **Fra Mouro**

أسلوب التجارة القديم في التوابل بين الشرق والغرب من تجديد وسرعة، ومن هنا كان بلقب الملاح جديراً وله مستحقاً.

ولقد كتب بعد ذلك التاريخ بمائة عام رجل إنجليزي[١٦٣] كثير الإعجاب بما امتاز به الأمير هنري من الجلد والمثابرة "إنه لم يكف أبداً عن محاولاته للاستكشاف حتى اكتشف "بيت مقدس السماوات".

لم يكشف ملاحو الأمير هنري سوى ما كان بالساحل من بوجادور إلى سيراليون وهي مسافة لا تزيد على ألف ومائة ميل وعشرة أميال استنفذت خمسين عاماً أو نحو ذلك من جهود ونفقات؛ فليس الاستكشاف بالأمر الهين. أما النفقات فكانت باهظة حقاً، فقد توفي الأمير هنري وهو مدين بمبالغ ضخمة بالرغم مما كان يدخل خزينته من جمعية المسيح وما كانت تدره عليه حركة التجارة مع إفريقية الغربية من أرباح وفيرة، ولكن ابن أخيه وابنه بالتبني سددا كل ديونه.

سجل أزورارا في تاريخ تقديره العظيم لشخصية الأمير هنري في كلمة هادئة رزينة: فذكر ذكاءه المتوقد وذاكرته القوية الممتازة، وحصافة رأيه ورجاحة عقله وتعمق فكره وهدوء طبعه وسموه مقروناً إلى رقة الحديث ووداعة المعاملة حتى مع أقل الناس منزلة. كل هذه الصفات حببت الأمير

---

[١٦٣] اسمه صمويل بيرشاس (Samuel Purches) في كتابه "الحج" الجزء الأول طبع في لندن عام ١٦١٩

إلى قلوب الناس جميعاً. وأضاف المؤرخ: فخيره شمل الجميع ولم يأذ أحداً أبداً".

كانت جهود الأمير وقفاً على الصالح العام في المملكة وكان يلذ له ابتكار المشاريع التي تعود بالخير على عامة الشعب متحملاً نفقات ذلك من صلب ماله. وكان يغتبط كل الاغتباط بأعمال الفروسية ومقاتلة أعداء المسيحية على حين أنه كان ينشد السلام مع جميع النصارى. كان جلداً في الشدائد والخطوب، متواضعاً في اليسر والرخاء، لم يعرف قلبه معنى الخوف أبداً إلا ما كان من ارتكاب وزر أو خطيئة في جانب الله.

أثر موت الأمير هنري تأثيراً كبيراً على حركة السياحات الاستكشافية لأن أهم ما كان يعني به الملك ألفونسو هو فتح مراكش، أما مسألة امتلاك أراضي إفريقية الغربية واستغلالها فقد ترك أمرها إلى شركة رخص لها في ذلك على شريطة أن يجوب ربابنة سفنها مسافة تزيد خمسمائة ميل كل عام على العام المنصرم في اتجاه الجنوب.

واحتكرت الدولة الفلفل والعاج، وكانت ترسل بين الفينة والفينة حملات استكشافية بأمر الملك أهمها الحملة المرسلة إلى ساحل الذهب عام ١٤٦٩ على أن خط الاستواء لم يتم اجتيازه إلا عام ١٤٧١ لأول مرة، اجتازه أولئك البرتغاليون الذين خاضوا مياه المحيط الأطلسي الرهيب لأول مرة قبل اجتياز خط الاستواء بثلاث وخمسين سنة إكراماً لأميرهم وحباً منهم في إرضائه.

الفصل الثالث

فوق أمواج الأطلسي

إلى حيث تنادي الفضيلة ويدعو المجد ويذهبون لا يثني
عزائمهم هول الأخطار ولا من العمل يكلون فمن القدم
جبل على البسالة ملوك لوزيتانيا(١٦٤) نسل المغاوير
الشجعان وجابوا أقصى حدود الأرض في وضح النهار
وركبوا في الضحى متون أبعد الأمواج والأخطار
واخترقوا أقصى شواطئ تطفو فوقها البحار

المقطع الثامن

كانت فكرة احتمال الوصول إلى الهند بالإبحار في اتجاه غربي قد شغلت الأذهان بعض الأوقات، وطال الجدل في اهتمام بالغ حول الموضوع حتى رأى الملك ألفونس الخامس أن يحسم النزاع، فدعا باولو توسكانللي الطبيب الفلكي الفلورنسي الجنسية، وهو العقل المتزعم لهذه الفكرة وطالبه بإثبات ما ذهب إليه من إمكان الوصول إلى الهند، وأن يدعم أقواله بالبراهين.

(١٦٤) اسم البرتغال القديم



كان هذا الطبيب المولع بالجغرافيا قد درس ما سجله ماركو بولو في وصل ساحل الصين وما كتبه هذا الجواب الفينيسي عن جزيرة سيانجو Sypango(١٦٥) وكان توسكانللي قد درس كذلك تقرير نيكولو دي كونتي الذي أيد فيه كل ما قصه ماركو بولو، وكان هذا العالم الفلورنسي يشارك الكردينال الفرنسي بيير ديبي(١٦٦) مؤلف "صورة الكون" رأيه فيما يتعلق بحجم الكرة الأرضية فكل من الرجلين يزعم أن العالم أصغر بكثير مما كان يفترض، وأن المسافة بين سبباً نجو وشاطئ أوروبا الغربي لا يمكن أن يزيد على مائة درجة "طول" ألف الكردينال كتابه صورة الكون عام ١٤١٠ عندما كان رئيساً لكلية نافار اللاهوتية بباريس وقد نهج في كتابه منهجاً مغايراً لمعظم معاصريه فعمد إلى إحياء النظريات التي كان يأخذ بها الكتاب المسيحيون الأول من أمثال مارتن أوف تير(١٦٧) من علماء

(١٦٥) اسم اليابان

(١٦٦) **Pierre d'Ailly**

(١٦٧) **Martin of Tyre**

الجغرافيا في القرن الأول، كما اقتبس كثيراً من الإنجيل ومما ورد في نصوصه عن حملات الملك سليمان التي بعثها إلى أوفير لحمل الذهب إليه منها. كذلك استمد غير قليل من نظريات بليني وسنيكا وسيرجون ماندفيل.

***

اغتبط باولو توسكانللي بالفرصة التي أتيحت له لإمداد الملك الفونسو بالمعلومات التي ينشدها فقد جاء في خطاب أرسله إلى القس فرناندو مارتنز[١٦٨] "إن الملك قد طلب مني بعض الإيضاحات بشأن طريق إلى موطن التوابل تكون أقصر من طريق غانا التي تسلكها أنت في الوقت الحاضر". ولتوضيح الطريق الجديدة وجعلها أقرب إلى الفهم، أرسل الطبيب الفلورنسي خريطة ملاحية رسمها بنفسه مبنياً فيها الجزر الواقعة إلى غرب الساحل الإفريقي وهي التي يوصى بأن تبدأ منها الرحلة في اتجاه غربي، وتبين الخريطة كذلك – على حد قوله – الأبعاد (على الترتيب) من القطب أو خط الاستواء، وعدد الأميال التي لا بد من قطعها قبل الوصول إلى البلاد التي ينبت في أراضيها الخصبة كل نوع من التوابل والأفاويه، إلى جانب غناها بالأحجار الكريمة.. وخص بعلامة معينة جميع الأماكن التي تستحق الزيارة منها بميناء زيتون[١٦٩] التي تفد عليها كل عام مائة سفينة موسوقة بالفلفل إلى جانب مئات أخرى محملة بمختلف التوابل،

---

[١٦٨] **Fernando Martinzz**

[١٦٩] تشانجتشا وبمقاطعة فوكين

وهو يشير كذلك إلى الثروات الضخمة في تلك البلاد وكثرة عدد سكانها من رعايا الخان الأعظم.

وصرح توسكانللي بأنه حصل مباشرة على هذه المعلومات عن كاثاي (الصين) من مبعوث الخان الأعظم إلى البابا أوجينوس الرابع، ووضح توسكانللي على خريطته المسافة بين لشبونة وميناء كونزاي[١٧٠] في إقليم "مانجي" عن طريق البحر الغربية مقسمة إلى ستة وعشرين عقدة بين كل عقدة والأخرى مائتان وخمسون ميلاً، وهذا يساوي ثلث محيط دائرة الكرة الأرضية.

أما جزيرة سيبانجو الحافلة بالذهب واللؤلؤ والأحجار الكريمة والمعابد والقصور الملكية المكسوة بالذهب الخالص فإنها تبعد مسافة مائتين وخمسين ميلاً من جزبرة أنتيليا وهي المسماة جزيرة البحار السبع، وليست المسافة إلى تلك الشواطئ المجهولة بالمسافة الشاسعة.

وبالرغم من هذه الرسائل فإن شيئاً لم ينجم عنها لأنه لا يوجد في السجلات ما يدل على أية محاولة للقيام بسياحات بحرية في الاتجاه الغربي، ولكن التكتم كان من طابع هذا العصر، لذلك لا يمكن الجزم بأن البرتغاليين لم يحاولوا تنفيذ مشروع توسكانللي، لمجرد عدم وجود شيء عن تلك المحاولات في السجلات.

---

[١٧٠] هانجشاو **Hang Chau**

وفي عام ١٤٨١ توفي الملك ألفونسو، وهو وإن يكن قد قعد به الفتور عن متابعة الرحلات الاستكشافية بعض الشيء إلا أن ابنه الذي أخلفه على العرش أعاد سيرة الأمير هنري في هذا الميدان حتى لكأنه قد تقمص روحه فكانت في البر والبحر بعيدة الأثر، ولا غرو قد درب في صباه وأعد للقيام بمثل هذه الأعمال منذ نعومة أظفاره، فنرى والده يسند إليه وهو في التاسعة عشر من عمره مهمة الإشراف على جميع شئون البحرية والمستعمرات.

ونحن نرى أيضاً هذا الوزير الحديث للمستعمرات يرسل عيونه ورسله إلى داخل أراضي فورت أرجوين[١٧١] حتى لا تخفي عليه حافية مما يجري فيه من الأمور. وكان وهو ولي للعهد شديد الاهتمام بما يقوم به الرياضيون من دراسات وكانوا قد ألفوا – صدوعاً بأوامر أبيه – مجلساً لوضع قواعد جديدة يستعين بها الملاحون على قياس خط العرض عندما يتعذر رصد نجم القطب مباشرة لاسيما وأن ما عاناه كاداموستو من احتجاب نجم القطب أثناء سياحاته جعلت من الضروري قطع الشك باليقين لما لهذه المشكلة من أهمية حيوية لكل ما قرب جنوب خط الاستواء.

وكان المجلس أو الـ (جنتا)[١٧٢] يتكون من طبيبي الملك اليهوديين وعدد من الرياضيين، وأحياناً ينضم إليهم بعض الأجانب من الفلكيين

---

[١٧١] **Fort Arguin** أي حصن أرجوين

[١٧٢] كلمة أسبانية معناها (المجلس الأعلى) أو مجلس الملك

ولكن بصورة مؤقتة. وفي ذلك الحين نشر الأستاذ زاكوث[١٧٣] اليهودي أستاذ علم الفلك بجامعة سلمنكا كتاباً مهماً بالعبرية يعرف (بالتقويم الدائم) كان خير عون للفلكيين والتقويم البحري وخاصة بعد أن قام بترجمته إلى اللاتينية أحد أعضاء الجنتا. وكانت عقدة المسألة، هي ما الذي يمكن عمله للاستغناء عن رصد النجم القطبي مباشرة؟ كان الجواب على هذا قياس ارتفاع الشمس ظهراً بواسطة الإسطرلاب حتى يستطاع تعيين خط العرض، وقد أرسل أحد طبيبي الملك إلى إفريقية الغربية لتجربة الابتكار الجديد فنجحت التجربة على أتم وجه. ومنذ ذلك الحين شرع أعضاء المجلس في تدريب جميع الربابنة على طريقة استعمال الإسطرلاب.

انضم إلى أعضاء مجلس العلماء جغرافي ألماني الجنسية اسمه مارتن بهايم[١٧٤]من مواليد نورمبرج[١٧٥] منجذباً إلى البرتغال بفضل شهرتها المنتشرة في كل مكان، ولما كان من تلامذة الفلكي الشهير رجيومنتانس[١٧٦] الأستاذ بجامعة ميونخ فقد ساعده ذلك على تبوأ مكانة مرموقة في لشبونة.

بينما كان علماء الفلك ماضين بأمر الملك جون الثاني في ضبط وسائل الاستعانة بهذا العلم في البحر، نشط الملاحون للتعمق بسفنهم في اتجاه الجنوب. كان الغرض الذي يهدف إليه الملك من وراء الاستكشاف

---

[١٧٣] **Zacouth**
[١٧٤] **Martin Behaim**
[١٧٥] **Nurembarg**
[١٧٦] **Regumontanus**

مزدوجاً: العثور على القس يوحنا، واكتشاف مواطن التوابل التي يبيعها الإيطاليون للأسواق الأوروبية. وكان الفلفل يسترعي اهتمام الملك بنوع خاص ويسعى لإيجاد سوق رائجة للفلفل المستورد من مزارع غانا والذي أرسل عينات منه إلى بروج (Bruges) وغيرها من مراكز التجارة الرئيسية، ولكن عندما يتبين له أن هذا النوع من الفلفل يقل الثمن الذي يبذل فيه بالأسواق عن ثمن الفلفل المستورد من الهند، أرسل عاملاً من عماله إلى القاهرة ليتحرى له السر في ذلك ومعرفة الفرق بين الصنفين، وكلف الملك مبعوثه ي الوقت نفسه بدراسة سوق التوابل عامة، بمنتهى الدقة. وعندما وقف الملك من تقرير مبعوثه على ضخامة الأرباح التي يجنيها الوسطاء الإيطاليون من تجارة الفلفل الهندي قرر أن يجعل البرتغال مستقلة عن المتوردين الفينيسيين وغيرهم حتى يتيح لرعاياه فرصة للغنم والثراء.

على أنه لم يكن يعتزم استبعاد الأجانب من المساهمة في جولاته الاستكشافية، والواقع أنه دعا غيره من الملوك إلى تأييده ومعاونته، ولكن أحد لم يستحب له لأن مصالح الشعوب التي دعاها كانت تتركز في التعامل مع الإيطاليين.

اعتزم الملك – أمام فشله في حمل الدول الأخرى على التعاون معه – أن يضمن لأمته حقوق كل ما قد يتوصل إلى اكتشافه فطلب من البابا، كما طلب الأمير هنري من قبل، أن يهب له جميع قد يكتشفه من الأراضي، وأن يحرم على غيره من الأمم استعمال سفنها للمياه التابعة لتلك الأراضي. استجاب البابا لطلباته ولكن تخوفه من محاولة الدول

الاستيلاء على تجارة إفريقية الغربية، وبخاصة من إنجلترا دفعه إلى إيفاد سفيره إلى بلاط الملك إدوارد الرابع ليعلمه بأنه قد نصب نفسه عاهلاً على غانا وأنه يرجو من ملك إنجلترا أن ينشر هذا النبأ على الناس في جميع أنحاء مملكته، وأن يحرم على رعاياه المخور في مياه غانا بسفنهم، وزاد على هذا بأن طلب إلى الملك بأن يأمر التاجرين الإنجليزيين، اللذين كان يعرف اعتزامهما الإبحار إلى غانا، بالعدول عن ذلك.

استجاب الملك إدوارد الرابع لجميع هذه المطالب فعاد السفير إلى ملكه قرير العين منشرح الصدر، ولكن الملك كان لا يزال يخشى الخديعة رغم هذه التحفظات الدبلوماسية؛ فعمد إلى اتخاذ وسائل أخرى يأمن بها عدم تسرب الأجانب إلى ممتلكاته التي يجهد في المحافظة عليها؛ لذا بث عيونه وجواسيسه في شتى البلاد ليفضوا إليه عن أي مشروع يوضع للاتجار مع أهالي إفريقية الغربية. ولم يكتف بذلك بل شدد على رجال أسطوله بالتزام السرية وعدم ذكر الأماكن التي يزورونها إلى أحد، وقد برهنت الأيام على أن هذا التكتم الشديد عاد بالخير العميم على البرتغال.

في عام ١٤٨٤ أرسل الملك القبطان دييجو كام(١٧٧) إلى ملك بنين(١٧٨) فوقف القبطان منه على بعض حقائق كان يعلم بأنها ستكون مصدر غبطة لمليكه. كان سرور الملك عظيماً حقاً عندما أفضى إليه دييجو

---

(١٧٧) **Diego Cam**

(١٧٨) **Benin**

كام عقب عودته بما سمعه في بنين عن ملك إفريقي يبدو أنه القس يوحنا الذي طال البحث عنه.

وكان ملك بنين قد لاحظ باهتمام طريقة البرتغالي وهو يتعبد فسأله عن معنى كل هذا، ولما شرح له البرتغالي بأنه مسيحي وبأن الصليب رمز للعقيدة المسيحية هتف الملك بأن مولاه وسلطانه الذي يدين له بالطاعة لا بد وأن يكون مسيحياً هو أيضاً. اهتم البرتغالي بقول ملك بنين اهتماماً بالغاً وعلم منه أن يوجد على بعد مائتين وخمسين ميلاً ملك عظيم قوي مرهوب الجانب يسمى أوجان(١٧٩) وأن على كل ملك يرتقي عرش بنين أن يرسل إليه الهدايا العظيمة وأن يطلب إليه الهدايا العظيمة وأن يطلب إليه الاعتراف بحقه في العرش، وكان المبعوثون يعودون من لدنه حاملين رمز شعاره الملكي وهو عبارة عن عصا في طرفها صليب.

لم تقع عين أحد من المبعوثين على شخص هذا الملك لأنه كان يكلمهم على الدوام من وراء ستار، ولكنه كان عندما يخاطب وعندما ينتهي الحديث يخرج من وراء الستار إحدى قدميه دلالة على انه قد استجاب لما طلب منه.

ألهبت هذه الأنباء مخيلة الملك ألفونس، واكتشف دييجو كام إقليم الكونغو أيضاً. وتوثقت عرى الصداقة بين ملك تلك الجهات وبين الملاحين البرتغاليين إلى أحد أنه رغب في اعتناق المسيحية وفعلاً أرسل

---

(١٧٩) **Ogan**

بعض أبنائه وعدداً من أعيان مملكته إلى البرتغال حيث تلقنوا تعاليم المسيحية وعمدوا وقام الملك جون الثاني وزوجه الملكة بدور الكفلاء في عملية التعميد.

أعيد دييجو كام إلى إفريقيا من جديد للقيام باستكشافات جديدة مصطحباً معه في هذه المرة مارتن بهايم الألماني الذي عهد إليه إتمام الخرائط الموجودة وتنقيحها وتوطدت علاقات المودة بين رجال البعثة البرتغالية وبين الأهالي على طول ساحل غانا (اعتاد البرتغاليون أن يسموا جميع ساحل إفريقيا الغربي بساحل غانا) فكان مما قاله الراوي في ذلك: إننا لا نحتاج إلى رماح أو سيوف فممتلكاتنا سلمية، تزودنا بالذهب والعاج والشمع والجلود والسكر والفلفل.

وعند مصب نهر الكونغو أقام دييجو كام عموداً من الحجارة حفر فيه شعار ملك البرتغال، ففي ذاك العهد كانت الصلبان المتخذة من الرخام قد نصبت محل صلبان الخشب التي أقيمت في عهد الأمير هنري.

في نفس هذا العام الذي جرت فيه هذه الحوادث وهو عام ١٤٨٤ بالذات عرض رجل من جنوه اسمه خرستفر كولومبس[١٨٠] على ملك البرتغال أن يرشده إلى طريق توصل إلى الهند، موطن التوابل، أقصر من سواها، على شريطة أن يضع الملك تحت تصرفه السفن اللازمة لهذه الحملة.

---

[١٨٠] **Christopher Columbus**

كان هذا القبطان واثقاً من نجاح مشروعه كل الوثوق إلى حد أنه اعتبر نفسه محقاً في أن يشترط على الملك أن يعده بتعينه نائباً عنه في جميع البلاد التي يكتشفها وأن يعينه أميرالاً على أسطوله وأن يمنحه لقب نبالة يتوارثه خلفاءه وأن يكون له عشر ما ينتج عن مكتشفاته من مغنم وربح.

وأطلع الملك أيضاً على الأسباب التي حدت به الاعتقاد في إمكان الوصول إلى الهند بطريق أقل طولاً إذ هو أبحر من جزر الأزور في اتجاه جنوبي غربي. ولا بد أن يكون هذا القبطان قد ذكر الملك جون الثاني بما كان من اهتمام سلفه بهذا الموضوع وبالخطاب الذي كان باولو توسكانللي قد أرسله إليه.

كان هناك بالفعل مراسلات بين كولومبوس وبين الطبيب الفلورنسي الذي كان قد أرسل إليه نسخة من خطابه إلى ألفونسو الخامس مضيفاً إليها بأن من دواعي سروره أن يعلم بأن لكولومبس رغبة نبيلة في السفر إلى حيث تنبت التوابل مؤكداً له ما ينتظر من وراء مثل هذا السفر من شهرة وشرف وربح لمن يحققه. وكذلك أرسل إليه خريطة تبين الطريق إلى الهند ثم أضاف إلى ذلك قوله "غير أن رؤية الطريق على وجه الأرض خير من رؤيتها على الخريطة".

لم يذكر كولومبس للملك معلومات توسكانللي وحسابه للأبعاد فحسب بل ذهب إلى أبعد من هذا، فذكر له من الدلائل ما يثبت بأن الأراضي الواقعة إلى غرب جزر الأزور عامرة بالسكان فعلاً. وكان مما

أخبره به أن البحر قذف بجثتين إلى شواطئ إحدى تلك الجزر لها وجهان يختلفان عن منظر ما ألفه الناس، وأن هناك أشجاراً من نوع غير معروف ارتطمت بتلك الشواطئ عينها، وتكلم أيضاً من غاب قذفه البحر بلغ من ضخامة حجمه أن الأنبوبة منه فيما بين عقدة وأخرى تتسع لحمل تسع زجاجات من الخمر. ونقل إليه كذلك ما كان قد أخبره به قبطان برتغالي من عثوره على بعد خمسين فرسخاً من رأس سنت فننست على قطعة من الخشب منحوتة بلا أثر فيها للنحت بالحديد ويغلب على الظن أن رياحاً غربية دفعتها إلى حيث التقطها القبطان.

وأفضى إلى الملك كذلك بأنه قد درس عدداً غير قليل من خرائط الملاحة التي يمتلكها حموه حاكم ميناء سانتو سابقاً ويدعى برسترللو وأن هناك طائفة أخرى من الأدلة التي يستطيع أن يقنع بها الملك، فمثلاً يمكن رؤية أراضي بعض الجزر من شاطئ الأزور في وقت معين من السنة. فكثير من الملاحين رأوا أرضاً من مسافة بعيدة ولا بد أن تكون هذه الأرض جزيرة أنتيليا وسان براندون[(١٨١)] اللتين كتب عنهما الجغرافيون القدامى واللتين تروى عنهما الأساطير. وأكد كولومبس بأنه من اليسير الوصول إلى الهند وخيراتها من تلك الجزر.

وصرح كولومبس أيضاً بأنه وصلته مباشرة معلومات من بحار على عهد الأمير هنري دفعت سفينته العواصف إلى جزيرة في الغرب فوجد لدهشته أنها مأهولة، ولكنه بادر هو ورفاقه إلى الابتعاد عن الشاطئ

[(١٨١)] **Sy. Brandon**

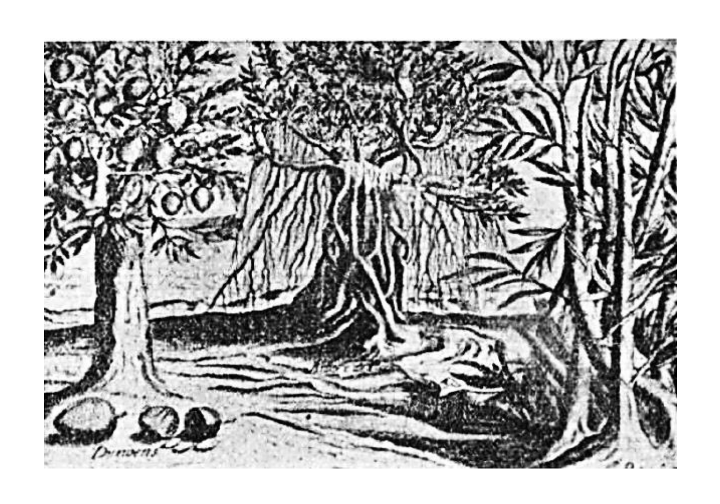
بسفينتهم خشية أن يحرقها أهل الجزيرة، وكانت رحلتهم في العودة شاقة مضنية فوصلوا البرتغال وهم أقرب إلى الموت منهم إلى الحياة.

تملك الأمير هنري غضب شديد لعودة أولئك البحارة دون أن يقفوا على نبأ تلك الجزيرة وأهلها وأمرهم بالعودة إليهم في الحال ففعلوا ولكن ما كاد البحارة التعساء يصلون إلى جزر الأزور حتى ماتوا جميعاً من الجهد والأعباء ما عدا البحار الذي روى القصة لكولومبس.

وأكد هذا الأخير للملك أن الجزيرة المشار إليه لا بد وأن تكون جزيرة أنتيليا على التحقيق وضع الملك اقتراح كولومبس أمام المجلس لبحثه وإبداء رأيهم بشأنه ولكنهم بعد مناقشة موضوعه وبحث المشروع بمنتهى الدقة، أشاروا على الملك برفضه. ويقال أن أهم ما دفعهم إلى رفض المشروع أمران:

أولهما: **جسامة المكافأة المطلوبة.**

وثانيهما: **أن كولومبس قد بنى اعتقاده في نجاح مشروعه على ما جاء في كتاب ماركو بولو عن جزيرة سيبخو في حين أن ماركو بولو لم تطأ أرضها قدمه.**



خيزران – الغاب الهندي

على أن هذا الرفض لم يزعزع من عقيدة كولومبس في إمكان العثور على الطريق القصير للهند وإذا كان ملك البرتغال في غنى عن خدماته لمثل هذه المغامرة التي تبشر بنتائج عظيمة فإن غيره من الملوك قد يسعدهم الحصول على خدماته: ولكن لسوء حظ كولومبس رفض الرياضيون والفلكيون في إسبانيا كذلك أن يقتنعوا بإمكان الوصول إلى الهند عن طريق الإبحار غرباً وأخذ صاحباً الجلالة الكاثوليكية فرناند ملك أرغون وزوجه إيزابللا ملكة قشطالة برأي مستشاريهما الذين اعتبروا مشروع كولومبس ضرباً من الوهم والتخريف.

وكانت هناك عقبة أخرى تحول دون الاستعداد لإنفاق المال والمجهود الفكري على مشروع ليس إلا ضغث أحلام، هذه العقبة هي الانشغال بقتال المغاربة في غرناطة.

بينما كان كولومبوس يحاول عبثاً أن يجد متبيناً لمشروعه كان الملك جون الثاني ماضياً في تؤدة وأناة وراء خطته التي اختطها بنفسه لاكتشاف الهند، وكان الملك يعتقد بأن كل ما على رجال سفنه أن يعملوه هو أن يتابعوا السير على طول الساحل الإفريقي فيصلون إلى الهند.

وكان لغرب إفريقية في نظره أهمية أخرى إلى جانب أهميتها من الناحية التجارية، أهمية نشر الدين المسيحي. لذلك أوفد إليها بعثات التبشير، وقد اختار للقيام بعمليات التبشير هذه رجالاً متضلعين في العلوم الرياضية ليستطيعوا درس المسائل الفلكية إلى جانب تدريس التعاليم المسيحية، وطلب إليهم الملك أن يصرفوا أوقات فراغهم في الاستقصاء والبحث عن "ملك الحبشة العظيم الذي يشار إليه في أحاديث الناس باسم القس يوحنا" إذ كان الملك ينتظر من هذا الملك القس مساعدات عظيمة لمشروعه المتعلق بالهند، ولما أنه تعذر حتى الآن الوصول إلى مملكته عن طريق ساحل إفريقيا الشمالي حيث ترسم الحبشة على الخرائط متاخمة له، فقد أصبح الملك يرجو إمكان الوصول إليها عن طريق الساحل الغربي، وكان الملك قد اعتمد في وقت من الأوقات – لتحقيق رغبته – على مساعدة حاكم جولوف[١٨٢] الذي وعد باعتناق المسيحية إذا عاونته البرتغال في حربه ضد أخ من أخوته. سر الملك بذلك واستجاب لطلب الإفريقي. ويقول الراوي أنه بلغ من رغبة الأمير الإفريقي في التعميد أن

[١٨٢] **Golof**

سحب قواته من الميدان للظهور في موكب الاحتفال فتمت بذلك هزيمته في حربه مع أخيه.

التجأ الحاكم المهزوم إلى البرتغال ومكث بها فترة من الزمن إلى أن أرسل ومعه عشرون سفينة بسلاحها لاستعادة ملكه. ولكن لسوء حظه خشي قائد الحملة من أن يلقى حتفه نتيجة رداءة الجو الإفريقي فقتل الحاكم وعاد بالسفن إلى البرتغال دون أن يقوم بالمهمة التي انتدب لها.

ومهما يكن من أمر فإن الملك جون الثاني اتخذ خطوة جديدة في سبيل تحقيق هدفه الذي لم يحد عنه فأنشأ صلات جديدة بينه وبين حكام التروكولير(١٨٣) Troucouleurs وملك تنبكتو. وأسست مستعمرة تجارية تبعد سبعين ميلاً إلى شرق مدينة هودن Hoden ولم يكن الغرض من تأسيسها للتجارة وحدها ولكن لمعرفة أحوال النجاشي قبل كل شيء فقد كان القول الدائر على الألسن خلال عهد الملك جون الثاني أن أهم ما يصبو إليه في حياته هو جمع ما يمكن جمعه من المعلومات عن مملكة هذا العاهل أي "النجاشي".

شرعت بعض الدول في ذلك الحين تتجر خلسة مع إفريقية الغربية فعمد الملك إلى اصطناع الحيلة ليضع حداً لهذا التعامل، فعمل على ترويج إشاعة مضمونها أن السفن ذات الهياكل المستديرة لم تستطع العودة من غانا بسبب التيارات العنيفة وأن السفن الصغيرة ذات الصواري الأربعة

---

(١٨٣) **Troucouleurs** ومعناها "جميع الألوان

والأشرعة المثلثة هي أصلح ما يمكن استعماله في هذه السياحات، وقرن الملك القول بالفعل تمويها على الناس فأرسل بعض سفن هولندية عتيقة من الطراز الأول موسوقة بالجير والآجر وشتى المؤن إلى إفريقيا الغربية. هذه السفن لم تعد ثانية لأنها حطمت عقب وصولها إلى إفريقيا وفقاً للخطة المدبرة. وأخذت العهود على البحارة ألا يفشوا السر. وقتل بعض الذين شوهدوا وهم يتجهون نحو قشطالة لإفشاء السر وهكذا نجحت الحيلة.

قرر الملك أن يواصل العمل على تحقيق أهدافه فأرسل برثولوميو دياز أحد رجال حاشيته ومعه أحد ربابنة أسطوله لمتابعة عمليات الكشف بالإبحار جنوباً إلى حيث مطلع الشمس وبمواصلة السير إلى أقصى حد مستطاع.

أبحر برثولوميو دياز بسفينتين حمولة كل منهما خمسون طناً ومعه ثالثة أصغر منهما لحمل مؤنة ثلاثة أعوام. واصطحب معه عينات التوابل ليطلع الأهالي عليها في البلاد التي ينزل بها علها تكون مما ينبت في بلادهم فيتعرفون عليها أو يرشدونه إلى مواطنها كما اصطحب معه عدداً غير قليل من الزنوج ذكوراً وإناثاً ليترك في كل مكان جديد يكتشفه جماعة منهم لينبئوا الأهالي عن علم وخبرة شخصية بعظمة البرتغال وليستفسروا في الوقت نفسه عن القس يوحنا وعن الهند.

وسلم الملك قبطانه ثمانية عشر فرساً مطهمين بسروجها وأكسيتها المزركشة ليهدي منها إلى ملوك البلاد التي قد ينزل بها أثناء الرحلة.

أبحر الأسطول الصغير عام ١٤٨٦ موغلاً في الخضم المجهول، ومرت عليه سنة طويلة شاقة مضنية وهو يمخر فوق العباب إلى أن تذمر البحارة من هذه الرحلة التي كانت تبدو بلا نهاية، فاكتشاف البلدان لا يعنيهم من الأمر شيء، وقد دخلوا في مناطق آذتهم برودتها وأذهلتهم عواصفها عن معرفة مركزهم من المحيط ونفذ ما معهم من المئونة أو كاد. فقد خلفوا سفينة المئونة عند نهر البرتغال ليتمكنوا من الخروج إلى عرض البحر بكركوريهما دون عائق. واستولى اليأس على البحارة فراحوا يطالبون الربان بالكف عن هذه المحاولة الفاشلة، وأن يأخذ في طريق العودة إلى الوطن. ولكن برثولوميو دياز راح يناشد الجماعة بأن يتذرعوا بالصبر ثلاثة أيام أخرى فإذا لم يظهر لهم أثر من يابسة بعدها ولي شطره نحو الوطن. ولكن لحسن الحظ لاحت لهم الأرض بعد ذلك بقليل فوصلوا إلى مكان أطلقوا عليه اسم (لوس فاسكيروس)(١٨٤) لكثرة ما شوهد فيه من البقر. واصلت السفينتان المسير حتى وصلتا إلى مصب نهر نصبوا عنده عموداً كتب عليه "إلى هنا وصل برثولوميو".

من هنا أخذ برثولوميو دياز في طريق العودة وهو يكاد يغص بمرارة الخيبة لعدم الاستدارة حول طرف إفريقية الجنوبي الموضح على خريطة مورو تحت اسم رأس ديال (Dial) واشتد به الغم والكرب لاعتقاده بأنه لم يكن في مياه البحر الشرقي. وكان يعتقد بما ذهب إليه فرا مورو بصفة

---

(١٨٤) Las Vaqueros

قاطعة من أن بحر الهند ليس بحراً مغلقاً على نفسه – كما كان يفترض بوجه عام في ذلك الوقت – وأنه يتصل بالأطلسي.

لم يطل شعور برثولوميو بالاستياء والغم إذ لم يلبث أن تحول كل هذا إلى غبطة وحبور ولنقتبس قول الشاعر كامونير.

وبدأ فجأة للعيان رأس المارد الجبار.

ناشر في البحر ساقيه بينما شق الفضاء عاتقاه.

ونظر لما صادفوه من الأنوار والأعاصير المرعبة أطلقوا عليه اسم "رأس الأهوال" ولقد ترتب على إقدامهم الطائش واجترائهم على البحر المجهول مآس تنبأ بها الشاعر على لسان روح أهل تلك المملكة.

أنا ذلك الرأس الجبار في الأرض المستتر عن العيان.

أنا رأس العواصف كما سميتموني عن جدارة واستحقاق.

أنا الذي لم يهتد إلى مكاني أحد من بني الإنسان.

لا ولا بطليموس[١٨٥] ولا ميلا[١٨٦] ولا استرابو[١٨٧]

ولا أنا قد خطرت يوماً ليليني على بال.

---

(١٨٥) جغرافي لاتيني عاش في القرن الأول للميلاد.

(١٨٦) جغرافي يوناني قديم توفي في عهد الإمبراطور (تيبريوس) **Tiberius**.

(١٨٧) كاتب روماني وكان صديقاً للإمبراطور "تراجان" **Trajan**

ولا لغيره من حكماء العصور والأجيال.

هنا في محيط الجنوبي مكاني أنا إفريقية! هنا أقيم.

وهذا رأسي المحجوب عن النظار كشفتم عنه النقاب.

رأسي الذي لا يمتد بعيداً إلى قطب الجنوب.

سوف تلقون جزاء طيشكم الجرئ قصاصاً مربعاً.

المقطع الرابع

إيه أنت يا أشجع أمة بين الأمم.

عزة النفس وشهوة الشهرة شحذت فيك الهمم.

فازدريت الحياة ناعمة في ظل أشجار البساتين.

واقتحمت على أمواجي في جرأة بحيزوم السفين.

غير هيابة ولا عابئة بطول الطريق في الماء.

ولا بالعواصف التي أسيطر عليها، ولا بهذه الأنوار.

وأتيت تنقبين بين الصخور حولي وفي أحضاني

حيث قبلك لم يجترئ على حصني بطل أو تحداني

إيه بني لوسيوس. فقد انتهكت عيونكم الدنسة حرمتي وجواري.

ودلفتم إلى تخوم ملكي وكشفتم للعيون سري وأطواري.

وتخطيتم الحدود التي أقامتها الطبيعة الغيور.

لتخفي معبدها المقدس من عيون العصور.

اسمعوا من شفتي ما سوف يأتيكم من شفاء وبلاء.

وما سوف يصيب ذريتكم من صروف القضاء.

وهكذا قال "أدمستون[١٨٨]" اعلموا أن كل سفينة تمخر فوق هذا العباب.

مجترئة في اليم مثل ما اجترأتم اليوم في سفر أو إياب.

سوف تكون هدفاً لحقدي في هذا المحيط وانتقامي.

وسوف تلقى ما لا تطيق من ريح صرصر وأنواء جسام.

وإن أول أسطول يمخر بين هذه الأمواج.

سوف يلقى من سطوتي ومن بأسي منتهاه طعنات يتلقاها من قريب وبعيد.

وعذاب أنكى من عبارات الوعيد هنا سوف يحلو لي الانتقام.

---

(١٨٨) **Adamston** مارد العواصف، شخصية خيالية ابتكرها الشاعر في ملحمته تمجيداً لفاسكوداجاما.

ممن أزاح عن حر وجهي اللثام ولن يكون جزاء تهوركم محدوداً.

بل سوف تقلون من العذاب وترون أنفسكم بين براثن الموت الزؤام.

وترون السفينة حطاماً عاماً بعد عام حتى ليبدو الموت أخف من هذه الأيام.

المقطع الخامس

كان فرح الملك عظيماً بعودة برثولوميو دياز، وطابت نفسه للنبأ الذي أفضى إليه، من أن الطريق إلى الهند قد أصبحت الآن مفتوحة على مصراعيها.

"أيها الرأس في أقصى الجنوب، صاح الملك المسرور.

لكن اسمك رأس الرجاء الصالح على مر العصور

فهو الرجاء الصالح لتيسير الحصول منذ اليوم على توابل الهند.

الفصل الرابع

رسل الملك

أوامر الملك

"اكتشاف مملكة القس يوحنا، وتتبع تجارة فينيسيا في العقاقير والتوابل حتى مصادرها والتأكد مما إذا كان في استطاعة السفن السير حول أقصى طرف إفريقيا الجنوبي على أن تدون بمنتهى الدقة في الهند جميع التفاصيل التي تتصل بتلك السياحة المهمة".



في خلال السنة التي كان برثولوميو دياز ماضياً فيه بسفنه في اتجاه الجنوب استبد القلق بالملك جون الثاني لتلهفه على أخبار القس يوحنا، فلم يطق الانتظار حتى يعود برثولوميو من رحلته واستقر رأيه على إيفاد رجلين بطريق البر، أحدهما راهب والآخر مدني، ليحاولا اكتشاف ما كلف باكتشافه برثولوميو دياز عن طريق البحر.

والواقع أن الملك أصبح أشد رغبة عن ذي قبل في طلب القس يوحنا وخاصة بعد زيارة بعض أمراء الحبشة لبلاطه، ولقد استقبلهم الملك ووجه إليهم الأسئلة التالية: أسلطانكم ملك أو بابا كما يقال؟ هل اسمه القس يوحنا؟ هل مملكته في آسيا؟

ولما كان الأمراء الأحباش يهمهم أن يدخلوا السرور على الملك، ولما كانوا يعلمون بما يفترض في أوروبا بوجه عام بشأن القس يوحنا فقد أدركوا أن من الكياسة السياسية أن يردوا على الأسئلة بالإيجاب. وكان الدافع لهم على ذلك عامل الأنانية إذ كانوا يأملون من وراء ردهم هذا أن يلقوا مزيداً من الحفاوة والترحيب.

أخذ رسولا الملك سمتهما شطر الحبشة ولكنهما لم يصلا إلى أبعد من بيت المقدس فقد حذرهما رهبان الدير في سيناء من محاولة المحال لاسيما وأن جهلهما باللغة العربية عقبة كأداء تحول دون تحقيق غرضهما، فعادا من حيث قدما لينهوا الملك سبب فشلهما.

فكر الملك في أن ما عجز هذان الرجلان عن عمله قد يستطيعه آخران غيرهما يتقنان اللغة العربية ويمكن الاعتماد على إخلاصهما وولائهما قدامهما، لذلك استقر رأيه على اختيار ألفونسو دي بايفا(١٨٩) وبدرو دي كوفلهام. كان هذا الأخير لا يزال متغيباً في فاس فأرجئ المشروع لحين عودته، وهو خادم أمين قضى أيام صباه في قشطالة ولكن

---

(١٨٩) **Alfonso payva**

عندما نشبت الحرب مع البرتغال فضل العودة إلى وطنه بتوصية حارة إلى دون مانويل[١٩٠] صهر الملك وابن عمه في نفس الوقت، وبعد فترة من الزمن عين رئيساً لأركان حرب دون مانويل. وأرسل الضابط الشاب في مهمة دبلوماسية إلى شمال إفريقية ليوقع معاهدة صلح مع ملك تلمسان. كان بدرو جندياً وسياسياً ورجل أعمال بارعاً أيضاً، لذلك فوضه دون مانويل في شراء عباءات صوفية وخيول من بلاد المغرب.

وبمجرد عودته إلى لشبونة أفضى إليه الملك بعزمه على إرساله إلى الهند لتنفيذ الأوامر التالية:

البحث في الهند عن مواطن التوابل التي يبتاعها الإيطاليون من مصر، وأن يبحث عما إذا كانت مملكة القس يوحنا تصل إلى البحر، وجمع كل ما يمكن جمعه من المعلومات بشأن مملكته.

ويقال أن الملك جون الثاني توسل إلى كوفلهام ألا يرفض القيام بهذه المهمة، وأن يرافق ألفونسو دا بايفا واعدا إياه بأعلى المراتب والمكافآت التي تضمن لخلفه السعادة والثروة إلى الأبد. ما الذي يستطيع أن يقوله في مثل هذا الظرف فارس مخلص سوى أن يؤكد لملكه أنه رهن إشارته في كل ما يأمر به؟ اغتبط الملك بدرو، وأصدر أمره من فوره بإعداد العدة لرحلة المبعوثين وتجهيزهما للسفر.

---

[١٩٠] **Don Manuel**

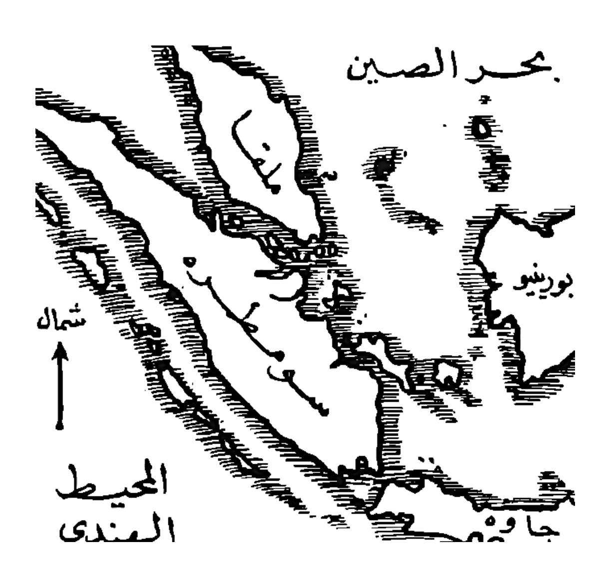
والواقع أن دون مانويل أصبح يتطلع لهذه الرحلة مثل تطلع الملك إليها، وراح يحضر الاجتماعات السرية التي كانت تعقد في منزل أحد أصدقائه حيث كان أطباء الملك المتبحرون في علم الفلك وغيرهم من كبار العلماء يتشاورون للوصول إلى أصلح الوسائل التي تضمن أوفر قسط من النجاح للبعثة، وأخذ كل واحد من المجتمعين يفضي إلى المبعوثين بكل ما عنده من معلومات قد تكون ذات فائدة لهما أثناء الرحلة، فاقتبست الفقرات المهمة من كتب ماركو بولو وسيرجون ماندفيل ومن تقارير بلانو دي كاربيني(١٩١) وربريكوس(١٩٢) وكذلك من قصة نيكولو دي كونتي (Nicolo di Conti) ودرست خريطة ماركو بولو دراسة مستفيضة إلى جانب خريطة فرامورو وهي أكثر أهمية، وقد عمل نسخة منها الأسقف فيزو بنفسه موضحاً فيها مواقع مصر وجزيرة العرب والحبشة.

وبرهن فرامورو أنه قد استطاع عمل خريطة دقيقة للحبشة لأن بعض الرهبان ممن زاروا الحبشة قاموا بعمل خرائط لها أثناء إقامتهم بها، وقد أعاروه هذه الخرائط لعمل خريطته الجامعة الدقيقة مسترشداً بخرائط الرهبان. ولكن ضيق المساحة قد حال دون تدوين أسماء كثير من البلدان والأماكن، لذلك عهد إلى مبعوثي الملك سرين في التأكد من صحة الخرائط التي أعطيت لهما وتصحيح ما قد يكون بها من أخطاء.

---

(١٩١) **Plano di Carpini**

(١٩٢) **Rubriquis**



وأعدت لهما بأمر الملك خطابات اعتماد لإبرازها كلما استدعت الظروف إلى ذلك، كما سلمهم الملك أقراصاً نحاسية نقش عليها بشتى اللغات بأن كوفلهام وبايفا مبعوثان من قبل ملك البرتغال جون الثاني الذي يعتبر نفسه "أخا لجميع الملوك المسيحيين" وكان على المبعوثين أن يكشفا عن شخصيتهما الرسمية للنجاشي يفضل هذه الوثائق النحاسية، ولم يسقط من الحسبان احتمال وقوع المبعوثين في الأسر، لذلك زودهما الملك بقطع من الأحجار الكريمة لافتداء شخصيهما واستعادة حريتهما عند مساس الحاجة، وزودا كذلك بخطاب اعتماد لاستعماله حينما يكونان "في خطر من الموت أو في حاجة إلى المال" وسلم الملك إلى كوفلهام مبلغ أربعمائة "كروزاد" أي حوالي مائة وخمسة وعشرين جنيها ليأخذ هو ورفيقه منها قدر حاجتهما لنفقات المرحلة الأولى من الرحلة بينما سلم ما تبقى إلى ممثل أسرة مديسيش ليدفعها إليهما أثناء مرورهم بإيطاليا، وبعد أن باركهما

الملك "ببركاته الشخصية وببركات الخالق" أخذ مبعوثا جلالته في طريق رحلتهما الخطيرة في اليوم السابع من مايو عام ١٤٨٧.

هبط لشبونة بعد رحيل المبعوثين بفترة وجيزة رسول موفد من قبل النجاشي إلى البابا؛ فاغتبط الملك جون بهذه الفرصة التي أتيحت له لبحث مشروعاته مع رجل عليم بمجريات الأمور كرسول النجاشي، فراح يفضي إليه برغبته في اكتشاف أقصر الطرق إلى الهند مؤكداً له بأنه ليس له مطامع استعمارية وإنما الذي يطمع فيه حقاً، هو الوصول إلى التوابل والذهب والأحجار الكريمة.

عندئذ كتب القس إلى النجاشي بكل ما أفضى إليه به الملك جون الثاني كما كتب إليه بكل ما ترامى إلى علمه مما حققته البرتغال في ميادين التجارة والملاحة والاكتشاف. وقد كتب هذا الخطاب من عدة نسخ أرسلها الملك إلى بيت المقدس لتوجه من هناك إلى القس يوحنا بصحبة أي راهب من الرهبان الأحباش يكون في طريق العودة إلى وطنه.

عاد برثولوميو دياز إلى لشبونة بعد مغادرة بايفا وكوفيلهام لها بستة أشهر، وكانت عودته عقب غيبة طالت ستة عشر شهراً أو سبعة عشر يوماً قطع خلالها ٥١٧٥ فرسخا. كان القبطان الهمام مهموماً يرين على قلبه الحزن لأنه لم يكن يحمل لمليكه شيئاً مما يتعلق بأنباء الهند أو بالقس يوحنا والسبب في ذلك – نقلاً عن الراوي – أن سكان الشاطئ كان معظمهم من المتوحشين.

وعندما مثل بين يدي الملك قدم إليه برثولوميو دياز خريطة ملوثة ذكر لنا هذا الخبر صانع الخرائط برثولوميو كولومبس[١٩٣] الذي اشترك في الرحلة، على ما يقال، وكان القبطان قد سجل على خرائط مستقلة كل جزيرة وشاطئ مر بهما، فأمر الملك برسم خريطة تشمل الخريطة الملونة والخرائط الأخرى على أن يوضح فيها شاطئ إفريقية الغربية بأجمعه والشاطئ الجنوبي إلى نهاية النقطة التي وصل إليها دياز، وهي الخريطة التي تقرر استعمالها بعد ذلك. وقد قدم لهذه الخريطة بهذه الكلمة "هذا هو الشكل الحقيقي لإفريقية الحديثة حسب وصف البرتغاليين لها".

ومهما يكن من استياء الملك لعدم وقوف القبطان على شيء من أنباء ملك أثيوبيا إلا أن سروره بالرحلة كان يشعر بتقديره لأهميتها، ولا غرو فقد نتج عنها اكتشاف الطريق إلى الهند. وبالرغم من هذا النجاح الذي أحرزته البرتغال فإن الملك كان لا يزال يتطلع إلى اكتشاف طريق آخر إلى المحيط الهندي عبر إفريقية عن طريق السنغال ومالندي[١٩٤] التي قرأ عنها في كتاب ماركو بولو بأنها تضارع تنبكتو كسوق للذهب، فشرع يمهد لذلك بأن أرسل بدروفاز دي كنها[١٩٥] إلى إفريقية الغربية لبناء حصن عند مدخل نهر سنغال. وكان يعتقد في ذلك الحين أن نهر سنغال هو بعينيه نهر النيجر، نيل إفريقية. وكان يظن كذلك إمكان الوصول إلى تنبكتو بالسفر فيه صعوداً، ومن ثم إلى مالندي.

---

[١٩٣] شقيق خرستفر كولومبوس مكتشف أمريكا

[١٩٤] **Malindi**

[١٩٥] **Pedro vas de Cunha**

أبحر بدرو دي كوفلهام وألفونسو دا بايفا من برشلونة قاصدين إيطاليا. وفي نابولي سحبا نقودهما من بنك المديشيين ثم واصلا السفر إلى جزيرة رودس حيث التقيا ببعض مواطنيهما الذين دعوهما إلى الإقامة معهم. وهنا تحت سقف مضيفهما شرعاً في عملية التنكر، فخلعا عنهما لباس البلاط واتشحا بزي التجار واصطحبا معهما جراراً كبيرة ملأى بالعسل إمعاناً منهما في إتقان شخصيتهما الجديدتين. كانت تجارتهما في الإسكندرية غير سعيدة فقد انتابهما المرض وخيل للشرطي المصري أنهما فارقا الحياة فاستولى على جرارهما بما فيها من العسل.

ولما كان كوفلهام وبايفا قد لجأا إلى التنكر في سفرهما فقد تجنبا النزول في الفنادق أو وكالات الجاليات الأوروبية حيث يكونان بمأمن من عبث المصريين. ولكن كان التنكر شعارهما في تلك الظروف وخاصة إذ كان الغرض من رحلتهما اكتشاف الوسائل التي تمكن ملك البرتغال من أن يصبح بفضلها منافساً للأمم التي تتجر في التوابل.

كان تجار جنوة وفلورنسا وفينيسيا وقطالونيا وناربونيا المقيمين بالإسكندرية لشراء التوابل يمتلكون فيها الفنادق وهي وكالات مسورة خاصة بهؤلاء النزلاء تضم مساكنهم ومخازنهم وكنائسهم، وفي كل ليلة تقفل أبواب هذه الوكالات بأمر السلطان. وكانت إقامة الجاليات الأوروبية بالإسكندرية محدودة المدة فلا يسمح بها إلا لفترة ورود شحن التوابل من الشرق.

وكان لكل جالية فندق خاص بها بعهد في الإشراف عليه وعلى نزلائه إلى موظف من مواطني أصحابه لمراقبة المكوس والضرائب الجمركية كما كان لكل أمة من الأمم التي تتجر في التوابل قنصل، وظيفته الفصل في الدعاوى ورفع الطلبات إلى أولي الشأن في القاهرة. وإذاً فنظام الامتيازات الأجنبية كان قائماً في ذلك العهد وكان من حق القنصل أن يتقدم إلى السلطان بالشكاوى عدداً محدداً من المرات في العام.

ومن أسباب الاحتكاك، بين التجار العرب والمصدرين الإيطاليين رفض البيوت التجارية في ألمانيا شراء التوابل غير المفروزة رغماً من أن الإسكندرية كانت المدينة الوحيدة التي تباع فيها التوابل، وكان على المصدرين أن يقبلوها كما هي وبنفس التعبئة التي وصلت بها من جزائر ملوك وسيلان والهند.

لم تكن إقامة الأوروبي في مصر بالأمر الذي ترتاح إليه النفس غير أن الأرباح الباهظة التي كان يجنيها التجار من وراء ابتياع التوابل وتصديرها جعلتهم يصبرون على الإهانات وكل ضرب من ضروب الذل.

ولقد وصف كل هذا بعض الحجاج أثناء مرورهم بالإسكندرية والقاهرة في طريقهم إلى بيت المقدس ودونوه في تقاريرهم، كما احتجوا على هذه المعاملة لدى السلطات سفراء الدول، فقبل أن يسمح لأي سفينة أجنبية في الاتصال بالشاطئ يقوم موظفو الجمارك المصرية بتفتيش المسافرين والبضائع تفتيشاً دقيقاً دون أن يكتبوا قائمة، لا بأسماء

المسافرين، ولا بالبضائع. بعد ذلك ينزعون الأشرعة والصواري ويحملونها معهم إلى الشاطئ ثم يصعد إلى السفينة بعد ذلك مندوبو السلطان من الخبراء والقنصل الفرنسي فيأخذون الركاب إلى الميناء حيث يقوم الموظفون المختصون بعدهم وتدوين المجموع في سجلاتهم كما لو كانوا بعض السائمة. وبعد أن يفتشوا بمنتهى الدقة "حتى الجلد" يسلمون إلى القنصل الفرنسي ليكونوا في عهدته. وفي هذه الأثناء تكون البضائع قد نقلت إلى الجمارك حيث تفحص بدقة. ويقول أحد الفلورنسيين في وصف هذه العملية بأنه يفرض على كل مسافر دفع اثنين في المائة من جميع ما يحمله معه من النقود والذهب والأمتعة إلى جانب "دوكت" واحد عن كل شخص بمثابة خراج. بعد ذلك يصحب القنصل الفرنسي الركاب كلا إلى قنصل بلده حيث يقومون بتقديم ما معهم من خطابات التوصية.

***

ولنعد إلى صاحبينا البرتغاليين، فقد انتهى أمرهما بسلام، لأنه بمجرد أن اقتنع الموظف المصري بأنهما لم يقضيا نحبهما بل على العكس قد أبليا من مرضهما رد عليهما جرار العسل.

سافر المبعوث من الإسكندرية إلى القاهرة في قارب عن طريق النهر، فوصلاها بعد خمسة أيام، وفي القاهرة باعا ما معهما من العسل وابتاعا بثمنه سلعاً أخرى. كانت القاهرة، وما زالت تبهر السواح الأوروبيين بشوارعها المزدحمة وبألوف حمالي المياه وهم يهرولون بقربهم الجلدية،

وبمطابخ الهواء الطلق المنتشرة فيها لبيع الطعام المطهي والتي لا يحصرها العد، وبقطارات الإبل التي لا تنتهي وحرس السلطان المكون من عشرة ألف مملوك. فلا عجب أن يتفق جميع من زاروا القاهرة خلال القرنين الرابع عشر والخامس عشر على وصفها بالعاصمة النابضة بالحياة. فهنا مركز تجارة التوابل وهو في قبضة السلطان. وهنا الأسواق تموج بالسلع وينبعث من أزقتها الضيقة أريج العطور والأفاويه والبخور.

وكان التجار الأجانب للمسلمين من أتراك ويمنيين ومغاربة وهنود فرس وكالاتهم وخاناتهم الخاصة كما كان لهم حق الإقامة الدائمة. وكان بالقاهرة أيضاً عشرة آلاف من المسيحيين بين سوريين وأقباط.

ولم يفت الوافد على مصر أن يركب – كما يفعل السواح اليوم – إلى الهرم وأبي الهول لمشاهدتهما وما من حاج إلى بيت المقدس إلا وقد زار أثناء مروره بالقاهرة ذلك البستان المسور الحافل بأشجار البلسان. وكانت تقوم على جانبي الطريق من القاهرة إلى البستان أشجار البرتقال والليمون والرمان والنخيل فكان بهجة للأعين ومسرة للأنفس.

وفي القاهرة التقى كوفلهام وبايفا بجماعة من المغاربة قادمين من فاس وتلمسان في طريقهم إلى عدن فانضما إليهم وقطعا الطريق معهم حتى الطور على ظهور الجمال.

وفي سواكن أبحرا على سفينة غريبة الشكل والتكوين مما يستعمل في تلك النواحي، شدت ألواحها بعضها إلى بعض بحبال فتلت من ليف

أشجار جوز الهند فليس بها شيء من المسامير بتاتاً، بينما طلي الهيكل بليف النخيل بعد نقعه في زيت السمك أو زيت الخروع. وكانت الأشرعة مصنوعة من حصير متخذ من ألياف أعشاب المستنقعات ولكنهما ما كادا يصلان جدة حتى انتقلا إلى سفينة أخرى قدمت من الهند ببعض السلع.

لم تكن السفن تسير شمالاً إلى أبعد من جدة نظراً لصعوبة الملاحة بسبب الصخور التي لم تكن ترتفع فوق سطح الماء إلا بقدر يسير جداً. يضاف إلى هذه الأخطار أن الشاطئ كان غير مأهول إلا من اللصوص، لذلك كانت السفن الماخرة في البحر الأحمر تلجأ ليلاً إلى أماكن تعتصم بها من عدوان البشر والطبيعة معاً مما زاد من مشاق الرحلة إلى أقصى حد وخاصة لأن حرارة الجو في هذه المنطقة تكفي "لإذابة الإنسان حياً". ولقد تعرض صاحبانا لمثل هذا القيظ المميت في عدن أيضاً حيث كانت الأسواق تقام أثناء الليل تجنباً لحرارة الشمس المحرقة وفي أسواق عدن شاهدا كثيراً من الرقيق – رعايا النجاشي – تعرض للبيع.

علم صاحبانا البرتغاليان في عدن مما ترامى إلى سمعهما بأنه يوجد إلى جنوب مصر ملك مسيحي يسيطر على عدد غير قليل من الملوك، وأن مملكته عظيمة شاسعة الأرجاء مترامية الأطراف؛ فرجح البرتغاليان أنه لا بد وأن يكون هذا الملك هو "القس يوحنا" أو الذي قيل بأنه إمبراطور أثيوبيا وأنه مسيحي يسيطر على شعوب مسيحية؟

ولكن الذي حير الصديقين هو أن الملك أرسلهما للبحث عن ذلك الملك في الهند بينما أن القطر المقابل لجزيرة العرب ليس بالهند. ومما زاد الأمور تعقيداً أنه قد أصبح من المحقق بعد ما وقفا عليه من المعلومات في عدن أن إمبراطور أثيوبيا لم يكن قسا ولا كان اسمه يوحنا. فكر الرفيقان في الأمر مليا إلى أن استقر رأيهما على أنه من الحكمة أن يفترقا هنا فبأخذ ألفونسو دا بايفا طريقه صوب الحبشة بينما يرحل بدرو دي كوفلهام إلى الهند للبحث عن هذا الملك وليتقصى في الوقت نفسه مسألة التوابل، وقبل أن يفترق الصديقان تواعدا على اللقاء بمدينة "طيبة" قرب القاهرة.

انتظر كوفلهام إلى أن اعتدلت الرياح الموسمية في النهاية ثم أبحر إلى الهند في سفينة لنقل الخيول.

قامت على طول الشاطئ الشرقي منذ قرون عديدة مستعمرات عربية، ولا غرو فالعرب كانوا هم الوسطاء لمنتجات الشرق وتجارته، وكانت سفنهم دائبة الرواح والغدو بين عدد وشاطئ الهند. وكانت هي أيضاً مصنوعة من ألواح ضم بعضها إلى بعض بالحبال إلا أن أشرعتها كانت من القطن.

وصل كوفلهام بعد شهر من مغادرة عدن مدينة غنية منتعشة الحركة اسمها كانانور[١٩٦] ومن ثم واصل السفر في السفينة إلى كلكتا[١٩٧] – التي تعتبر للهند بمثابة الإسكندرية لمصر – حيث شاهد فيها نحواً من ألف

---

[١٩٦] Cananor
[١٩٧] Calicut

سفينة رأسية بمينائها. وعن هذه الميناء كتب سفير فارسي تصادف وجوده بها حوالي العهد الذي نحن بصدده فكان مما كتبه: "أن الأمن والعدالة يسودان هذا الميناء حتى أن التجار الأجانب ليتركون بضائعهم في السوق بدون أن يكلفوا أنفسهم عناء إعلان قيمتها المادية، لأن موظفي الجمرك مسئولون عن حمايتها وصيانتها، فإذا بيعت البضاعة تقاضوا من صاحبها قيمة ربع الثمن وإذا لم تبع لم يتقاضوا شيئاً إطلاقاً.

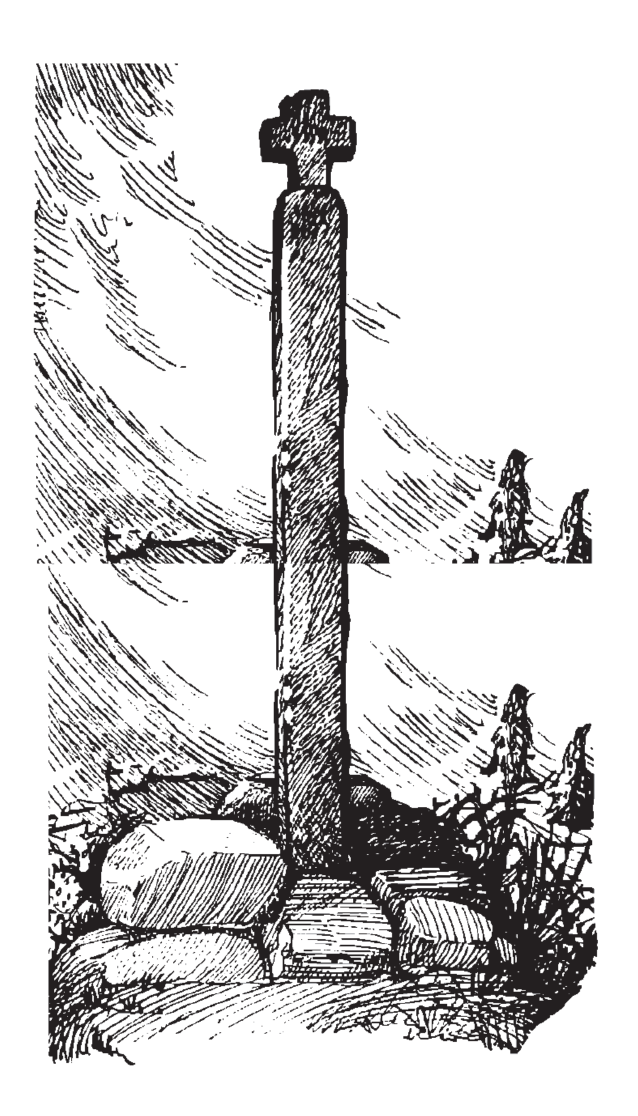
ومن كلكتا أبحر كوفلهام شمالاً إلى جوا(١٩٨) مستقصياً أينما حل عن التوابل.

كان ما يهمه معرفته بصفة خاصة هو – أي أنواع التوابل تنبت في الهند وأيها ينبت في غيرها من الأصقاع وما اسمها؟ فمصدر التوابل بأنواعها المختلفة كان لا يزال حتى ذلك العهد سراً من الأسرار يكتنفه الغموض ولكن كوفلهام توصل بعد لأي إلى معرفة مصدر الفلفل والجنزبيل والنيلة والبردين، وهي جميعاً تنبت في "ملابار" أما القرفة فتستورد من سيلان، وسمع أيضاً عن جزائر ملوك وسومطرا وبورنيو وجاوة بأنها موطن القرنفل وجوزة الطيب والبهار والكافور والفلفل. وعلم أيضاً أن من الصين يأتي الكافور والمسك والراوند وخشب الصبر وأن من هذه البلاد البعيدة تأتي منها كذلك الألوان والأصباغ والراتينج الصمغي ذو الرائحة الحلوة وخشب الصندل واللاكيه(١٩٩) "الورنيش".

---

(١٩٨) **Goa**

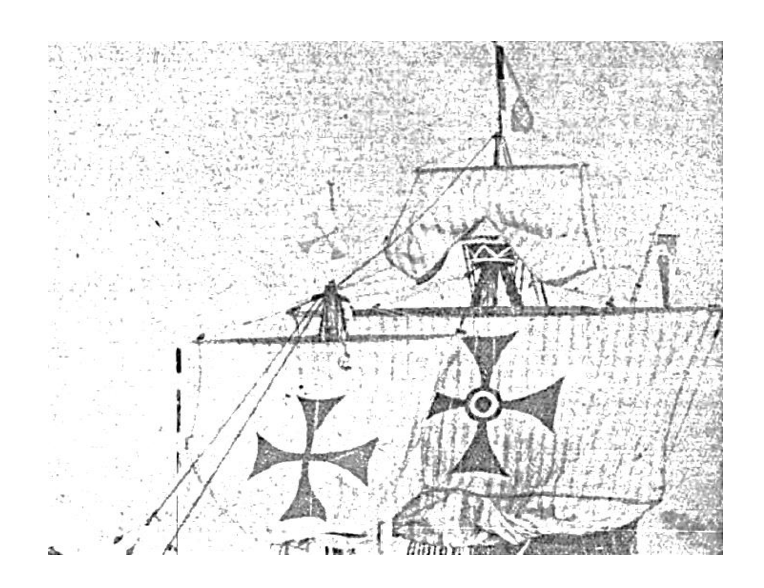
(١٩٩) **Lacquer**

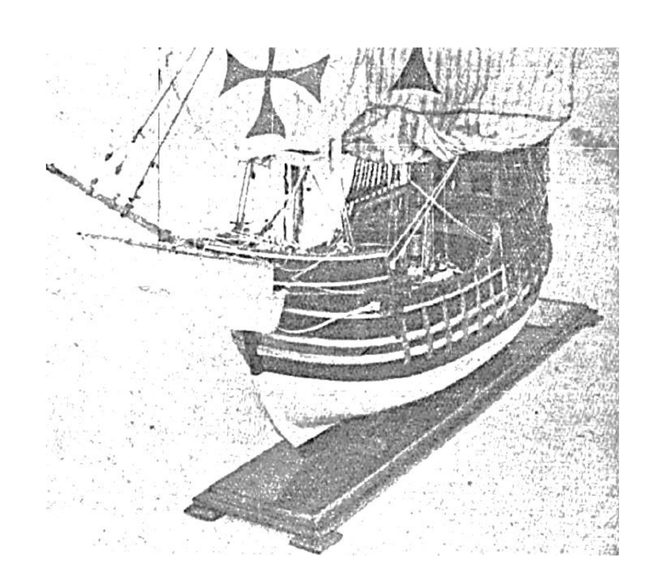


صليب أقامه برثولوميو دياز على شاطئ إفريقية الجنوبية



خريطة كاتالونيا عام ١٣٧٥ المهداة إلى شارل الخامس ملك فرنسا





سانتا ماريا عام ١٤٩٢

وعرف كوفلهام من أين تأتي الأحجار الكريمة ومن أين يأتي اللؤلؤ والماس. وكان الذهب في تلك النواحي من المعادن العادية حتى أن التجار كانوا لا يقبلونه ثمناً لسلعهم في كلكتا حيث كان التعامل وقفاً على عملية التبادل والمقايضة. أما فيما يتعلق بالقس يوحنا فلم يكتشف كوفلهام شيئاً ذا غنى عن شخصيته وكل ما استطاع أن يجمعه نتيجة محادثاته مع الهنود المسيحيين أنه كان يوجد في عهد من العهود المندثرة قس ملك كالذي يستفسر عنه، تقوضت دعائم مملكته على أيدي التتر، وفيما عدا ذلك لم يذكر له أحد شيئاً عن هذا الملك بتاتاً– غير أنه وجد كثيراً من المسيحيين النسطوريين في الهند وخاصة في ترافنكور(٢٠٠) يأخذون بتعاليم الحواري توما

(٢٠٠) **Travancore**

الذي كان يدعو إلى إنجيله في تلك النواحي، وإليه ينتسبون فيطلقون على أنفسهم اسم "مسيحي توما".

أدرك كوفلهام في النهاية أن البحث عن القس يوحنا في آسيا مضيعة للوقت ليس إلا ووهم باطل، ولما كان يعلم أن الفونسو دا بايفا موجود بأثيوبيا لم يجد ما يدعو إلى ذهابه إليها هو أيضاً، ومن ثم استقر رأيه على أن يبحر جنوباً إلى أقصى ما يستطيع بمحاذاة شاطئ إفريقية الشرقي لما سمعه عن وجود الذهب والعنبر والبخور بتلك المنطقة، ثم هو يستطيع أن يزور في طريقه موجادكسا(٢٠١) إذا كانت من البلاد التي كلف بزيارتها ورفع تقرير عنها.

سافر كوفلهام من شاطئ مالابار مع طائفة من التجار العرب حتى هرمز كبرى المستودعات لتجارة الشرق.

كتب رحالة إنجليزي يصف أهمية هذا المركز التجاري العظيم فقال:

"لو أن جميعاً العالم صيغ خاتماً   لكانت هرمز ماسه وجواهره

فهنا تجد تجار القاهرة والإسكندرية قدموا لابتياع التوابل وكنوز الصين والهند التي يبيعونها للإيطاليين والمغاربة. وكانت هرمز مركزاً لتجارة الخيول أيضاً، وكان المغاربة المقيمون بها أغنياء يرتدون القمصان البيض والأقبية الحريرية ويتمنطقون بأحزمة مزركشة بالذهب ولكن تكاليف

---

(٢٠١) **Mogadoxa**

المعيشة فيها مرتفعة لأنه ليس به مياه وإنما تحمل المياه إليها من مكان يبعد عنها مسافة اثني عشر ميلاً. وتقوم خارج أسوار هرمز تلال من الملح الصخري خالص ناصع البياض يصدر منه إلى الحبشة حيث يتداوله الناس فيما بينهم وفي الأسواق، مثله في ذلك العملة النقدية وكذلك الحال بالفلفل.

ومن هرمز واصل كوفلهام السفر إلى عدن ثم عبر منها إلى زيلع وهي كبيرة للرقيق، ومن ثم واصل السفر جنوباً بمحاذاة الساحل الإفريقي ماخراً في البحر الأخضر، وهو الاسم الذي كان يطلقه العرب على هذا الجزء من المحيط الهندي، وفي الطريق زار مقديشو وممبسا وزنجبار وسوفالا من بلاد الزنج، وأما أبعد من هذا فلم يسافر أحد مطلقاً، وهنا ترامى إلى سمعه وجود جزيرة كبيرة تسمى "جزيرة القمر" يقال أنها لا تبعد كثيراً من بلاد الزنج وأن بساحليها الغربي والشمالي منازل أقوام من العرب بينهم وبين الهند معاملات تجارية.

كل هذا استرعى اهتمام كوفلهام إلى حد بعيد وخاصة ما نبينه من أن سكان سوفولا من الجنس الأسود كسكان غانا، وقد استنتج من هذا بعد التأمل والتفكير العميق أنه لا بد وأن يكون البلدان بلد واحد، فلو أن مواطنيه المنحدرين بمراكبهم جنوباً بمحاذاة شاطئ إفريقية الغربي استمروا في طريقهم لوصلوا في النهاية، بلا أدنى ريب إلى سوفالا، ومن ثم استطاعوا الوصول إلى الهند. لم يغفل كوفلهام أبداً تدوين كل ما اكتشفه على الخريطة التي أعطاه إياه الملك.

على الساحل الإفريقي الذي اقتضت مشيئة الله أن يخضع لسيطرة لوزيتانيا[1].

انظروا هذه الجزائر فيها الصخور القائمة المغبرة.

يحمل البحر في سخاء إليها، من كل مكان مجهول.

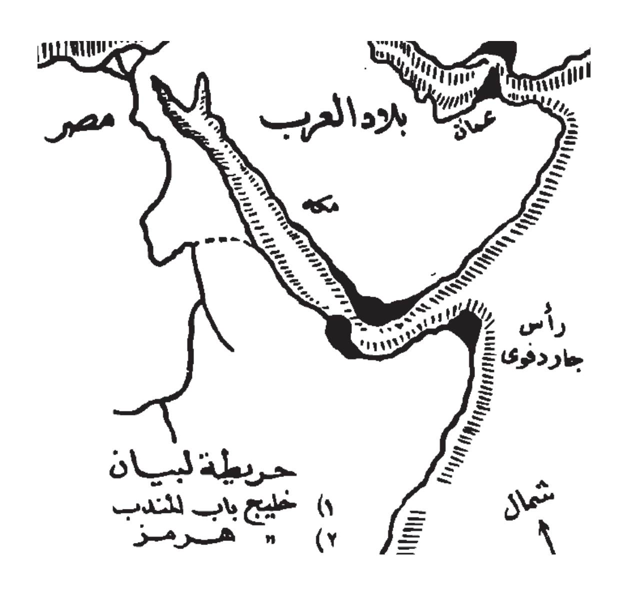
هداياه إلى شواطئها الرملية من شذا العنبر والعطور.

اغتبط كوفلهام للنتيجة التي حصل عليها واستبد به الشوق إلى لقاء زميله، ليطلعه على ما وصل إليه من نتائج وما استفاد من معلومات وليقف هو أيضاً على ما فعل زميله، فاستقر عزمه على العودة إلى مصر، ولكنه وجد نفسه مضطراً إلى الإبحار إلى الهند أولاً، ففعل، ومن ثم أبحر إلى هرمز وعدن مرة أخرى حتى إذا ما وصل إلى مصر في النهاية وجد زميله دابايقا قد وافاه أجله المحتوم منذ فترة غير طويلة.

وبينما كان يفكر كوفلهام في العودة إلى البرتغال توجه لمقابلته يهوديان أحدهما حاخام والثاني إسكافي يبدو أن الحاخام كان قد أخبر الملك جون الثاني بما ترامى إلى سمعه عن هرمز وعن حركة تجارتها العريضة مع الهند. سلم اليهوديان كوفلهام خطاباً من الملك جون الثاني يعبر فيه عن أمله في أن يكون كوفلهام وزميله دابايافا قد توصلا إلى اكتشاف مقر القس يوحنا فإذا كانا قد وفقا إلى ذلك فعليهما أن يعودا في الحال إلى البرتغال حتى ينالا ما ينتظرهما من المكافأة العظيمة، وإذا كان مسعاهما لم يكلل بعد بالنجاح فعليهما مواصلة البحث والاستقراء كما عليهما في

الوقت نفسه أن يرسلا عن طريق الإسكافي تقريراً عن كل ما شاهداه وكشفا عنه؛ فقرر كوفلهام مرافقة الحاخام إلى هرمز.

كان كوفلهام يعتقد أن برثولوميو دياز لا يزال ماضياً في البحث عن الطريق إلى المحيط الهندي، لذلك طلب إلى الملك في رسالته أن يكلف أي سفينة تكون في طريقها إلى الشاطئ الغربي بنقل الرسالة الآتية إلى دياز "إذا واصلت السفر في البحر جنوباً فلا بد لك من أن تصل إلى نهاية القارة، وحينئذ تكون قد أشرفت على المحيط الهندي، وفي هذه الحال مر رجالك أن يسألوا عن بلدة سوفالا وعن جزيرة القمر فسوف يجدون فيهما ربابنة يقودون سفنك إلى الهند.



أخذ كوفلهام والحاخام طريقهما إلى هرمز ومن ثم إلى بغداد وإلى كثير غيرها من البلاد، ينقبان ويدرسان كل ما من شأنه أن يكون موضع اهتمام ملكهما. انقضت ثلاثة أعوام أو قريب من ذلك منذ مغادرة كوفلهام

للبرتغال دون أن يكون قد وقف على شيء ذي غنى بشأن القس يوحنا وفي النهاية استقر رأيه على رد الحاخام إلى البرتغال بتقرير يرفعه إلى الملك عن تفاصيل رحلاتهما الأخيرة معاً، بينما يتوجه هو إلى أثيوبيا ليتبين بنفسه ما إذا كان إمبراطورها هو الشخص الذي يبحث عنه.

على أنه قبل أن يشرع في تنفيذ الخطة التي اعتزمها سافر لقضاء فريضة الحج إلى بيت المقدس ومنه إلى سيناء حيث زار ضريح القديسة كاترينا. وعندما وصل الطور أبحر منها إلى عدن زائرا مكة والمدينة في طريقه إلى أن وصل زيلع حيث أنبئ بأن النجاشي موجود في الوقت الحالي غير بعيد من الشاطئ.

وفي عام ١٤٩٠ حصل رسول ملك البرتغال الأمين، في آخر الأمر على الأذن بالمثول بين يدي إمبراطور الحبشة فطاب لذلك نفساً وقر عيناً. سر النجاشي إسكندر غاية السرور لما تبين له من اهتمام ملك البرتغال كل هذا الاهتمام بأمره حتى أوفد إلى الحبشة أحد ضباطه.

وسر النجاشي كذلك بكوفلهام وأعجب بشخصيته وحسن شارته وتوقد ذهنه واتساع خبرته بالرجال والأحوال ورغب في استبقاء مثل هذا الرجل الشهم ببلاطه فعرض عليه المناصب والممتلكات ترغيباً له في البقاء عنده لفترة كم الزمن كما عرض عليه إهداءه زوجة تلد له الأبناء "حتى إذا ما عاد إلى وطنه خلف وراءه ذرية صالحة تخلد ذكراه". ولكن كوفلهام لم يكن له هم سوى العودة على جناح السرعة إلى لشبونة ليفضي إلى الملك

جون الثاني بجميع مكتشفاته، لذلك رفض كل ما عرضه عليه النجاشي من هبات وممتلكات ورئاسة وموال وخدم ودخل سنوي يضارع دخل الملوك. ولكن النجاشي لم يتركه ينصرف، متعللا شتى الأعذار والحجج مماطلة وتسويفاً، فكان توسل كوفلهام بأن عليه أن يرفع لملكة تقريراً عن رحلته يقابل بالرفض وبعرض من النجاشي في أن يعهد إلى أحد خدمه المسافرين إلى روما بإيصال أية رسالة إلى ملكة في لشبونة بعد انصرافه من روما.

تضايق كوفلهام أشد الضيق من كل هذا ولكن لم يكن له فيما عدا ذلك ما يشكو منه سوى أن أمله في الرحيل قد أرجئ ليس إلا، ولسوء حظه توفي النجاشي إسكندر فجلس على العرش أخوه نحوم وكان يبغض كوفلهام ويتهمه بالجاسوسية لذلك رفض أن يأذن له في العودة إلى وطنه رفضاً باتاً. وكذلك رفض النجاشي داود الذي خلف نحوم على العرش أن يأذن له في العودة إلى البرتغال، ولكن لسبب يختلف كل الاختلاف عن سبب الجاسوسية الذي بنى عليه سلفه رفض الإذن له بالعودة إلى وطنه. فالنجاشي الجديد كان شديد التقدير لذكاء كوفلهام وصفاء ذهنه وحسن صفاته الخلقية، فأغدق عليه الهبات من أراض زراعية ومناصب عالية كما أهداه زوجة ولكن على الرغم من كل هذه المنح والهبات وما تشعر به من عظيم تقدير النجاشي لكوفلهام فإن هذا الأخير قد تأكد لديه بأنه أسير ما في ذلك شك، وأنه قد حرم من رؤية وطنه إلى الأبد.

وكثيراً ما أرسل كوفلهام عدداً غير قليل من الخطابات بصحبة اليهود المسافرين من الحبشة إلى مصر رجاء تسليمها لأحد المسافرين إلى البرتغال

لإيصالها فكانوا يعدون بتنفيذ رغبته ولكنه لم يعلم شيئاً أبداً عن مصير هذه الخطابات إذ لم يصل إليه أي رد عليها. لقد أوقعه بحثه عن التوابل وعن مقر القس يوحنا أسيراً في هذه المملكة التي يكتنفها الغموض، بيد أن ما أبداه من الولاء لملكة جون الثاني ومن التفاني في خدمته قد أتى بنتائج مرضية.

الفصل الخامس

خرستفر كولومبس والتوابل

"إني أشعر بأن لديك الرغبة الشديدة النبيلة لجوب البلاد التي تنضج فيها التوابل"

من كتاب أرسله توسكانللي إلى خرستفر كولومبس

بينما كان بدرو كوفلهام ماضياً في البحث عن طلبته كان برثولوميو دياز قد بلغ مكانة مرموقة من الشهرة. أما خرستفر كولومبس فلم تكن الأمور قد جرت بعد بما يحب ويهوى. انقضت أربعة أعوام على يوم خروجه من قاعة المجلس الملكي في بلاط جون ملك البرتغال حزيناً غارقاً في بحار من الأفكار، ولكن دون أن يفقد الأمل أو يستبد به اليأس أو يعتوره الوهن وفقدان الثقة بالنفس. أربعة أعوام داعبته فيه الآمال الكبار وذاق فيها مرارة الخيبة العميقة، أم خلالها بلاط الملك فردناند وزوجة الملكة إزابللا مترقياً تحسن الأحوال وإقبال الأيام.

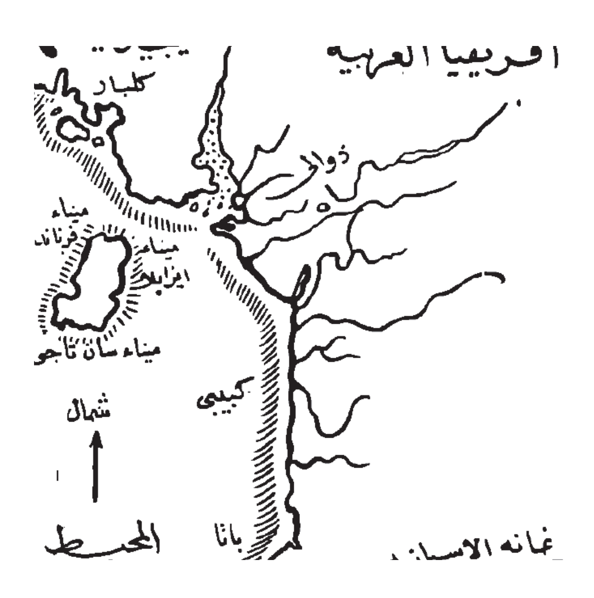
وقد أبدى جلالتهما شيئاً من العطف على هذا الجنوي الملحاح وأفهماه بأنهما قد يدرسان مشروعه جدياً بمجرد انتهاء الحرب مع غرناطة. على أن الجنتا (Junta) مجلس الملك في سلمنكا، كان صريح العداوة له لأن أعضائه كانوا يناهضون في ذلك الوقت النظرية القائلة باستدارة

الأرض وهي النظرية التي بنى عليها كولومبس مشروعه، بيد أن بعض أصحاب النفوذ في الدولة استعطفوا عليه الملك والملكة.

ولكن كولومبس لم يلبث أن استولى عليه الملل من طول ما انتظر وقرر فيما بينه وبين نفسه الاتصال بملك البرتغال مرة أخرى؛ فكتب إليه معتذراً عن مغادرة مملكته مجدداً في الوقت نفسه عرضه للسفر إلى الهند مستكشفاً لحساب جلالته.

رد الملك على خطابه بعبارة رقيقة مرحباً بعودة إلى البرتغال، ولكنه لم يزد على ذلك شيئاً فمجلسه الاستشاري (الجنتا) لم يكن قد غير رأيه بعد ولا تنازل عن فكرته، بأنه لا يوجد ذهب ولا ثروة تستفاد من الغرب" ولما كانت المغامرات في إفريقية كثيرة التكاليف والأعباء فقد تحاشى الملك أن يضيف، إليها بالإنفاق على رحلة يرى مستشاروه أن مآلها للفشل.

ولم يكن إعراض الملك ناجماً عن عدم تقدير لأهمية الاستكشاف فطالما منح المستكشفين "ملكية ما قد يكتشفونه" في شتى المناسبات عندما تقدموا إليه بمقترحات مماثلة، فمثلاً في الأعوام ١٤٧٥ و ١٤٨٥ و ١٤٨٦ منح بعض الربابنة المقيمين بجزيرة "الآزور" حق ملكية ما قد يكتشفونه ولكنهم لم يوافقوا إلى شيء.



كان كولومبس يختلف عن أولئك جميعاً اختلافاً بيناً لجسامة مشاريعه واتساع نطاقها وللرغبة الملحة التي كانت تستبد به لتحقيق ما كان يحلم به قدماء الجغرافيين والفلاسفة، بل إن رغبته كانت تذهب به إلى أبعد من هذا فيتطلع حتى إلى اكتشاف الفردوس الأرضي.

كانت روح هذا الملاح الجنوي ورجال الأعمال المتزن تحترق بلهب الثاني[٢٠٢] الطموح الديني. وكان ما قرأه من كتب الكاردينال بيير دبي[٢٠٣] والبابا نيوس وقوداً يؤجج من نيران خياله. أما ماكينة ماركو بولووسير جون ماندفيل ونيكول دي كونتي عن كنوز الشرق فكان الأساس الذي بنى عليه كولومبس محراباً متين القواعد يطلق فيه العنان لأمانيه ومطامحه السامية النبيلة. لقد كان يتحرق لهفة للوصول إلى الهند عله

---

(٢٠٢) **Pius II**
(٢٠٣) **Pierre d'Ailly**

يصيب من الذهب ما يكفل نفقات تجريد حملة صليبية أخرى. أما الجوابون الآخرون الذين اتصلوا بملك البرتغال فلم تكن تسمو بهم آمالهم لغير الحصول على مركب كبيرة توضع تحت تصرفهم ووعد من الملك يضمن لهم ملكية ما يكتشفوه لأنفسهم.

***

رأى كولومبس بثاقب فكرة أنه لا أمل له في إقناع لا الملك جون الثاني ولا ملك أسبانيا بقبول عرضه فاستقر عزمه على الاتصال بملكي فرنسا وإنجلترا، وأن يعهد إلى شقيقه برثولوميو في التوسط لتمهيد الطريق لهذه الغاية. قد سبق له الإقامة بفرنسا، بل لقد نزل مرة من المرات ضيفاً على الوصية على العرش آن دي بوجو (Anne de Beaujeu). ولكن للأسف لم يلق برثولوميو قبولاً لدى ولاة الأمر بفرنسا لمشروع شقيقه فقرر أن يولي وجهه شطر إنجلترا، غير أن المصائب حلت به أثناء عبوره المانش إذ وقع أسيراً في أيدي القراصنة الذين أبوا إطلاق سراحه حتى يدفع الفدية. فلبث في الأسر مدة طويلة قبل أن يقبض له الله الوصول إلى لندن.

ولما كان قد جرد من كل ما كان يحمله معه من مال ومتاع فقد اضطر إلى أن يعمل رساماً وواضعاً لتصميمات خرائط الملاحة ليحصل على قوت يومه، واستمر يعمل بها في البلاط. وما أن تم له ذلك حتى التمس الإذن بمقابلة الملك إدوارد الرابع، فأجيب إلى سؤاله وما أن مثل

بين يدي الملك حتى أخذ يشرح له المشروع العظيم الذي وضع أخوه خطته.

اختلف المؤرخون في وصف ما حدث أثناء هذه المقابلة فمن قائل بأن إدوارد الرابع اغتبط بالمشروع وطلب إلى رسام الخرائط أن يحضر إليه أخاه على جناح السرعة بينما يقول فريق آخر بأن الملك رفض المشروع على أن الأمر الذي لا شك فيه ولا يقبل الجدل هو أن برثولوميو كولومبس ما كاد يعود إلى فرنسا حتى فاجأه الملك شارل السابع بنفسه بنبأ اكتشاف أخيه خرستفر للهند فعلاً وفي نفس المكان الذي ذكر أن الهند تقع فيه.

في استطاعة القارئ تصور الشعور الذي تلقى به الأخ الأصغر هذا النبأ العظيم، فها هو خرستفر بعد سبع سنوات قضاها في كفاح مرير ومثابرة وصبر قد كللت جهوده في النهاية بالنجاح وارتقى إلى قمة الشهرة بفضل سقوط غرناطة.

***

إن قصة خرستفر كولومبس ملك التاريخ ولكن التاريخ لا ينبئنا عما إذا كان قد دار في خلده ما سوف يترتب عليه من أحداث جسام – قيام ملك غرناطة المنهزم بتقبيل يدي الجالسين على عرش أرغون وقشطاله المنتصرين فردناند وزوجه إزابللا؛ فهذه قبلة رمز هزيمة ملك غرناطة كانت

السبب في تحقيق كولومبس لمشروعه. فقد كان في المعسكر الإسباني أثناء المعركة وشاهد بنفسه تسليم غرناطة سنة ١٤٩٢

فمنذ ذلك اليوم اتسع الوقت أمام الملك فردينا ندو الملك إزابللا لدرس مشروع "ذلك الملح الجنوي اللحوح الذي استبقياه ببلاطهما طيلة مدة انشغالهما بمعركة غرناطة كأسير للأمل الذي كان يداعب خيالهما. وأخيراً حانت الساعة التي كان يترقبها ويشرئب إليها فقد خلت الخزائن الملكية من الأموال بسبب الحرب مما حدا بوزير مالية جلالتهما إلى التوطيد لهما بأن نفقات البعثة التي يقترحها كولومبس لن تكون فادحة على حين أنه لو قدر لها النجاح كان المغنم عظيماً والربح وفيراً. وهكذا مكن خرستفر كولومبس من الإبحار باسم إسبانيا مكلفاً من الملك بأن يحمل إليه توابل وذهباً. حمل كولومبس معه عينات من جميع النفائس التي أمرها بجلبها فبإظهارها لسكان أنتيليا وسيبانجو قد يستدل منهم على مواطنها إذ كان لا هو ولا أحد من ملاحيه يعرف حرفاً واحداً من لغة أولئك القوم. أما عينات النفائس التي حملها معه فكانت من الذهب والفضة والنحاس والأحجار الكريمة واللؤلؤ والتوابل. وفي يوم ٣٠ إبريل ١٤٩٢ وقع الملك والملكة أمر التكليف باكتشاف "تلك الجزائر التي يعرف سرها".

وسلم جلالتهما لكولومبس – بعد أن أنعما عليه برتبة الشرف وبعد أن عيناه أميرالا – خطابًا ليوصله إلى خان الصين الأعظم، وفي اليوم الثالث من أغسطس ١٤٩٢ غادر الأميرال شواطئ أسبانيا معتزماً سلوك

بحار لم تكن قد سلكت بعد مستعيناً بخريطة توسكانللي التي لم يكن له من مرشد سواها.

عندما أخذ خرستفر كولومبس في طريق العودة كان مقتنعاً كل الاقتناع بأنه عائد من الهند، حتى أنه كثيراً ما ذكر التوابل في مذكراته التي كتبها فيما بعد عن زيارته إلى الهند. وهي التي أمر بأن يعود بها إلى إسبانيا، فكان طبيعياً أن ينظر إلى النباتات والأشجار التي تنمو في الجزائر التي اكتشفها بعين الجد والاهتمام. وقد حمل معه في طريق العودة عينات من الفاكهة وغصون أشجار وأوراقها ليثبت بها نجاح بعثته، على أنه لم يكن مقتنعاً في نفسه بصورة قاطعة بأن هذه العينات التي أتى بها معه هي المطلوبة على وجه التحقيق، وشد ما كان أسفه لتسرب التعفن إلى معظم الفاكهة مما اضطره إلى إلقائها في اليم وإن يكن قد بقي لديه شيء منها.

في غضون شتاء سنة ١٤٩٢ وسنة ١٤٩٣ ألحقت العواصف والأنواء أضراراً بليغة بحركة الملاحة على طول شاطئ أوروبا الغربي لم يشهد الملاحون حتى أكبرهم سنا موسما أشد هولاً، فاجأت إحدى هذه العواصف مركب كولومبس ففي الرابع من شهر مارس، بينما كانت الأعاصير تهب عاتبة فوق البحر وقعت أعين الناس في ميناء كاسكاس[٢٠٤] الصغيرة الواقعة إلى غرب لشبونة ببضعة أميال – سفينة شراعية تحاول عبثاً دخول الميناء. ظل الناس يراقبون السفينة في محاولتها اليائسة لدخول الميناء بقلوب والهة تعصرها الشفقة على أولئك الأشقياء التعساء بينما ركع فريق

---

[٢٠٤] **Cascaes**

منهم وأخذ يبتهل إلى الله أن ينعم على ركاب السفينة بالنجاة والكل يتوقع حلول الكارثة من لحظة لأخرى. وفجأة عدلت السفينة عن محاولة اللجوء إلى ميناء كاسكاس وراحت تشق طريقها بين الأمواج الصاخبة المتلاطمة والريح الثائرة العاتية صوب مصب نهر تاج حتى وصل راستيلوا فألقت مرساها وفي الحال صعد إلى ظهرها موظفو الجمارك، وما كان أعظم دهشتهم عندما أعرض عن طلبهم فحص الوثائق كما تقضي به العادة المتبعة عندما تجاهل الربان النزول معهم إلى البر حسب نص اللوائح، وما لبثوا أن تضاعفت دهشتهم عندما شرح الربان سبب رفضه التسليم بمطالبهم وهو أن دون خرستفر كولومبس أميرال المحيط لا يسأل أسوة بزملائه من أمراء البحار عن أوراق أو يطلب إليه النزول إلى الشاطئ.

غادر موظفو الجمرك السفينة وعليهم سيماء الارتباك ليرفعوا الأمر إلى قائد ثغر لشبونة برثولوميو دياز الذي أسرع إلى السفينة بنفسه بمجرد وقوفه على جلية الأمر.

كانت المقابلة بين هذين الرجلين فذة فريدة في بابها فهنا قبطان برتغالي خلد التاريخ اسمه للأجيال القادمة كأول من وصل إلى أقصى زاوية من جنوب القارة الإفريقية ودار حولها، وهنا ملاح جنوي يزعم أنه وصل إلى الهند من المحيط الأطلسي. أحدهما فتح الطريق إلى حيث التوابل، والآخر فتح الطريق إلى حيث الذهب. أطلع كولومبس برثولوميو دياز على أوراقه ومستنداته عن طيب خاطر ولم تكن في الواقع سوى خطابات التكليف ممهورة بإمضاء ملك وملكة إسبانيا. وما أن انتهت المراسيم

الجمركية بسلام حتى شرع في استقبال الأميرال استقبالاً حافلاً اختلطت فيه المزامير بالأبواق والصبح وخرجت جميع لشبونة على بكرة أبيها لرؤية أولئك الهنود الذين أتى بهم معه وليسمعوا قصص البحارة عن مشاهدتهم وتجاربهم.

***

وفي الحال أوفد برثولوميو دياز الرسل إلى قصر الفردوس لينبئوا الملك بوصول خرستفر كولومبس. رحب الملك بمقدم الملاح الناجح ودعاه لزيارته في قصره وهناك احتفى به حفاوة لا تصدر إلا من عظيم لعظيم. وكان طبيعياً أن تستبد بالملك جون الثاني الرغبة في الوقوف على تفاصيل الرحلة فأطلق نفسه على سجيتها وراح يمطر ضيفه بوابل من الأسئلة ذاكر له في معرض المحادثة كما لو كان عن غير تعمد أن الجزيرة التي اكتشفها قد يكون من حقه – أي الملك – أن يضيفها إلى ممتلكاته بموجب المعاهدات المعقودة. فأجاب الأميرال بأنه شخصياً لا علم له بشيء عن هذه المعاهدات وكل ما هنالك أنه قام برحلته صدوعاً بأوامر ملك وملكة إسبانيا ثم هو قد تجنب الذهاب إلى غانا لكونها تحت سيطرة البرتغال.

كانت المقابلة بين الملك جون الثاني وبين الرجل الذي ساد الاعتقاد بأنه عائد من الهند، ودية أهملت فيها الرسميات تقديراً للضيف العظيم وعرفاناً بعمله الجليل الخطير. ولما كان خرستفر كولومبس مقتنعاً كل الاقتناع بأنه وصل الهند في رحلته – وهي التي كانت تعرف باسم "أوفير"

في أيام سليمان بن داود – فقد راح يسهب في الكلام عن الذهب والتوابل واللؤلؤ والأحجار الكريمة.

وكان يأمل أن يصل في رحلة قادمة إلى القارة نفسها ومن ثم إلى اكتشاف الجنة التي وضعها الله في الشرق. وفي الرحلة القادمة أيضاً كان يفترض أنه سوف يدخل تلك الثغور الغنية التي كتب عنها ماركو بولو ويذهب لزيارة الخان الأعظم. أما في الوقت الحاضر فقد كفاه فخاراً ومجداً أنه وصل إلى الهند في بضعة شهور. أو لم يقم الحجة والبرهان القاطع على صحة ما ذهب إليه من أن الوصول إلى الهند من إسبانيا ليس بالأمر العسير.

أبحر "الأميرال" – كما كان يلقب كرستفر كولومبس دائماً – من لشبونة إلى بالوس[٢٠٥] حيث خرج الناس في نشوة من الفرح تقرب من الهذيان بمجرد سماعهم أنه اكتشف الهند، وما أن انقضى أسبوعان على ذلك حتى جاء الإذن بالمثول بين يدي الملك والملكة اللذين استقبلاه في برشلونة بحفاوة وتكريم ملكين. أنعم قلب كولومبس سروراً بما أبداه الملكان الأسبانيان نحوه من عطف وما أظهراه من شديد الاهتمام بأخبار رحلته، فانطلق لسانه عن طيب خاطر بتفاصيل تجاربه حتى تركهما في ذهول مما سمعا وقد غمراه بكل ما يمكن أن يغمراه به من حسن التقدير ونبيل الشعور فأغدقا عليه النعم والرتب بكرم وسخاء.

---

[٢٠٥] **Palos**

ومما يستحق الذكر أنه كان من بين الذين شاهدوا هذا الحدث العظيم وكتبوا عنه فوراً إلى روما رجل يدعى بيتر مارتير دي أنغيير(٢٠٦) من أهل ميلانو ومن رجال الكردينال أسكانيوس سفرزا(٢٠٧) ووكلاء أعماله، كما كان مؤدباً لأبناء الملك. اشتهر بيتر مارتير بخطاباته الفكاهية الحديثة المسامرة التي كانت يتهافت عليها الناس في روما حتى البابا إسكندر السادس بورجيا الذي وإن يكن يحمل اسماً إيطالياً إلا أنه إسباني بحكم مولده، فكان حريا أن يعنى بكل ما يحدث في وطنه الأصلي إسبانيا. وكان الكردينال سفرزا قد طلب إلى صديقه هذا الذي كان له طبائع مراسلي الأنباء الخارجية من الطبقة الأولى ومواهبهم، أن يوافيه دائماً بأحدث الأنباء من إسبانيا. فلا جرم كانت أنباء حصار غرناطة مادة كافية لتقارير لها أهميتها. وفي أثناء هذا الحصار توثقت عرى المودة والصداقة بينه وبين كولومبس. وبينما كان هذا الأخير يقطع الساعات الطويلة عاكفاً على رسم خريطة للعالم الذي يأمل اكتشافه كان صاحبنا الميلاني يرصد الحوادث ويتتبع مجريات الأمور ثم يكتب عنها لصديقه الكردينال – كثر اللقاء بين الرجلين وتكررت المقابلات بينهما في برشلونة حتى أصبحت أطماح كولومبس وخططه ومشروعاته معروفة لبيتر مارتير تمام المعرفة، فكان في خطاباته للكردينال يتحدث عن الملاح الجنوي كما لو كان يتحدث عن "صديق حميم".

---

(٢٠٦) **Peter Martyr d'Anghiera**
(٢٠٧) **Ascanius Sforza**

والآن تقابل الرجلان مرة أخرى، ولكن لم يكن كولومبس في هذه المرة ذلك الحالم بما لا أمل في تحقيقه، بل كان الممثل الأول على مسرح تمثيلية عظيمة، تمثيلية اكتشاف الهند. أفضى بيتر مارتير إلى صديقه بكل ما حدث ولا غرو فها هي طائفة من الأنباء تستحق أن يكتب عنها إلى روما من فوره. وكأنما أحس بيتر بصديقه الكردينال يسأل! هل من جديد في إسبانيا؟.. فسبق بالجواب قبل السؤال! أنباء عظيمة! أحدثها، عودة خرستفر كولومبس أمير البحر، أمير المحيط من بلد يزعم أنه الهند. لقد اكتشف جزيرة تسمى جواديلوب[٢٠٨] وأخرى أطلق عليها اسم هسبانيولا[٢٠٩]، وقد أتى معه بأربعة ببغاوات أكبر حجماً من الدراج.

وفي الخطاب أخبار عن وجود الذهب في كوبا (Cuba) وعن أشجار تحمل ثمار التوابل، وعن حمل أمير البحار معه لطائفة من العينات يظن أنها للقرفة ولخشب الصبر ولجوزة الطيب وللرواند وللراتينج ولبعض الأعشاب العطرية. ثم أضاف مرسل الخطاب: "أما الذهب فقد رأيته كما رأيت قطعة ضخمة من مزيج الذهب والفضة تزن ثلاثمائة وثلاثين رطلاً، ولكنني لم أر شيئاً من التوابل لأن جميع ما جلب منها تلك الجزائر ألقي في البحر لما أصابه من التعفن خلال الرحلة".

ويبدو أن موضوع التوابل كان له أهمية خاصة لدى الكردينال ومراسله فتراه في إحدى المناسبات يرسل للكردينال عينات من لحاء شجرة

---

[٢٠٨] **Guadelupe**
[٢٠٩] **Hispaniola**

ومن خشبها ومن بذورها يتجه الظن إلى أنها جميعاً لشجرة القرفة. ثم يخبره بأن هذه العينات أعطاها له صيدلي في إشبيلية مؤكداً له بأنه لا ضرر منها البتة، إلا أن البذور – نظر لشدة حرارتها تحدث بثوراً في اللسان لذلك يستحسن شرب ماء بارد بعد تذوقها مباشرة. أما فيما يتعلق "بخشب الصبر" – وقد كان أرسل إليه قطعة منه في نفس الوقت – فالأفضل أن تجزأ إلى قطع صغيرة عند أكلها فتصير حلوة المذاق طيبة الرائحة. حدث كل هذا بينما كان خرستفر كولومبس قد انتهى من إعداد تقرير رفعه إلى خازن الملك عن تفاصيل رحلته التي ذكر أنها استغرقت مائة واحد وسبعين يوماً ،كما عدد في التقرير منتجات الجزائر التي اكتشفها من توابل وذهب ومعادن ورقيق ورواند وقرفة وراتينج وألف مادة أخرى من المواد القيمة من بينها القطن. أما الفلفل الأحمر الذي عثر عليه رجاله فسرعان ما أدرك أمير البحار بأنه يختلف كل الاختلاف عن الفلفل المجلوب من الهند ولكنه قريب من فضيلة الفلفل المستورد من غانا.

وتكلم الملاح الموفق بلهجة الواثق عن التوابل والأفاويه التي يعتقد أنه عثر عليها وحتى عن جوزة الطيب، ولكن بما أن ثمار هذه الشجرة لم تكن قد نضجت بعد فهو لا يستطيع الجزم بأمرها. وأما فيما يتعلق بالقرنفل فهو وإن لم يرسل منه شيئاً إلا أنه عثر على شجرة لأوراقها رائحة القرنفل تماماً. وقد عثر على كميات كبيرة من الشمع يؤخذ من شجرة معين لا من النخل، وهو يحترق تماماً مثل الشمع المتخذ من النخل، وأن من دواعي الأسف عدم استطاعته تقديم عينات جميع هذه المواد، ومهما يكن من الأمر فقد سلم بصحة كل ما قاله كولومبس دون أي تحفظ.

ولما كانت رحلته الأولى قد بلغت كل هذا المبلغ من التوفيق والنجاح فقد طلب الملك والملكة من أمير البحار أن يبادر بالعودة إلى الهند جهد المستطاع لاكتشاف بلاد أخرى وجلب التوابل.

***

الفصل السادس

مغامرة عظيمة

فلنقذف السماء باللهب والنار

ولتأتمر على الحروب ولتتجمد البحار

إنني أتحداها جميعاً

ليت بدل الحياة حياتين فأبذلهما جميعاً

"**المقطع الخامس**"

أصبح الملك جون الثاني يدرك الآن عظيم أهمية اكتشاف كولومبس كما أصبح يخشى على الممالك التي اكتشفها رجاله فيما وراء البحار، والتي يطمع في أن تكون له من مزاحمة أبناء عمومته الإسبان خشية أن يدعوها لأنفسهم. أما الملك فرديناند والملكة إزابللا فراحا يحلمان من جانبهما بممتلكات لا حد لها وراء المحيط الأطلسي ورغبا في تثبيت شرعية ملكيتهما لتلك الآفاق الجديدة بمقتضى رسم باباوي يمنحهما حق الملكية؛ فكتبا فوراً إلى البابا يلتمسان اعتبار جميع ما اكتشف وما قد يكتشف من الأراضي ملكاً حلالا لهما، وجاءهما الرد وفيه يعرب البابا عن استعداده لجعل وطنه إسبانيا يستفيد من هذه المكتشفات جميعاً وكانت استجابة البابا في أسلوب بسيط موجز، فبجرة قلم ألغى جميع القرارات البابوية

التي أصدرها من سبقوه لصالح البرتغال وبجرة قلم أخرى وقع على قرار جديد لصالح إسبانيا.



على أن هذه المنحة البابوية كانت مشروطة بشرط واحد هو تحطيم الوثنية أينما وجدت وبذل أقصى الجهود لنشر تعاليم المسيحية. فهذا القرار البابوي الصادر في الرابع من مايو سنة ١٤٩٣ ضمن لإسبانيا ملكية "جميع الأراضي التي قد تكتشف في الغرب إلى مدى نقطة الالتقاء بشرقي ممتلكات أي عاهل مسيحي كان يملكها قبل عام ١٤٩٣.

لم يكن ملك البرتغال ليرضى بهذا القرار دون أن يحتج عليه، فأصدر تعليماته إلى سفيره ليحتج لدى البابا ولكن لغير طائل، وهنا سنحت الفرصة أمام الملك لاستخدام فطنته وذكائه فقرر فيما بينه وبين نفسه أن يرغم منافسه بالمكر والدهاء السياسي على الاتفاق معه. وكان الملك فرديناند والملكة إزابللا يحسبان لدهاء الملك جون في تجهيز أسطول قوي لانتزاع جزر الهند الغربية منهما حتى أسرعا بإيفاد ثلاثة من مستشاريهما إليه لمباحثته في الأمر. وكان على هؤلاء المستشارين أن يهدئوا خاطر الملك جون جهد طاقتهم وأن يبدد مخاوفه بأن يؤكدوا له بأن ممتلكات إسبانيا

الجديدة ليست قريبة من غانا الجديدة. اقترح المستشارون الثلاثة عقد مؤتمر للوصول إلى حل لهذه المسألة الحيوية للمملكتين عن طريق الاتفاق الودي المتبادل. وفي حالة تعذر الوصول إلى حل يرضاه الطرفان، يعرض الموضوع برمته على روما لتحكيم البابا.

ولكن هذا العرض الأخير لم يرق للملك جون وخاصة إذ كان البابا اسكندر السادس قد أصدر قراراً آخر في شهر سبتمبر لصالح إسبانيا قبل قيام خرستفر كولومبس برحلته الثانية.

ولم يقبل المستشارون الإسبانيون من جانبهم ما عرضه الملك جون من أن الأراضي التي قد تكتشف شمال جزائر كناريا تكون ملكاً لإسبانيا وما يقع جنوبيها يكون ملكاً للبرتغال.

كانت نتيجة هذه المفاوضات أن استقر الرأي على عقد مؤتمر لفض النزاع ينوب فيه عن كل طرف من الطرفين ثلاثة مستشارين، ووقع الاختيار على تورديسلاس(٢١٠) لعقد المؤتمر فيها وهي مدينة قرب فلادوليد(٢١١) التي لملكي ليون وقشطالة قصور فيها. هنا على ضفاف نهر دورو(٢١٢) المرتفعة دارت المناقشة شهوراً عديدة حول تقسيم ما لم يكشف بعد من الأراضي قسمة عادلة. وكانت نقطة البداية في المناقشة الحد الذي قرره الباباوات في أيام الأمير هنري الملاح وهو خط يقع على مسافة مائة

---

(٢١٠) **Tordesillas**
(٢١١) **Valladolid**
(٢١٢) **Duro**

فرسخ إلى غرب جزائر أزور. فجميع الأراضي التي تقع شرقي هذا الحد تعتبر من ممتلكات البرتغال. رجحت براعة الملك جون الدبلوماسية كفة الميزان لصالحه؛ فقد كان الاحتفاظ لنفسه بالطريق إلى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح أحب أمانيه وأعزها عليه لذلك شدد على مندوبيه أن يتظاهروا بالتمسك بالطريق الغربية فأثار هذا بطبيعة الحال من اهتمام مندوبي إسبانيا ومن رغبتهم في التمسك بتلك الطريق.

كان وجود أعضاء المؤتمر في torديسلاس وأسباب عقد المؤتمر مثار اهتمام السكان كبيرهم وصغيرهم؛ فيروى أنه بينما كان المندوبون الستة يتنزهون ذات يوم إذ استوقفهم صبي صغير على الجسر ثم رفع إليهم بصره في شيء من السخرية متسائلاً وعلى وجهه ابتسامة عريضة: أأنتم الرجال القائمون بتقسيم العالم؟

كان مكسمليان يحمل لقب ملك الرومان بوصفه الابن الأكبر لفردريك الثالث إمبراطور ألمانيا "وهو ابن عمة ملك البرتغال أو ابن خالته" وقد كان من أعز أمانيه أن يكون للملك جون الثاني ملك البرتغال نصيب متعادل متساو مع الملوك الآخرين في سباقهم للسيطرة على ثروة العالم الجديد. لذلك كلف طبيباً وفلكياً ألمانيا اسمه هير ونمس متزر(٢١٣) أن يكتب باسمه وبالنيابة عنه خطاباً للملك جون الثاني يحثه بكل الأدلة المنطقية على متابعة عملياته الاستكشافية، وخاصة في الصين، ذلك البلد الغني، معدداً المؤلفات التي تأثر بها خرستفر كولومبس وأن يحث الملك

(٢١٣) **Hieronymus Muntzer**

كذلك على ألا يدع الفرصة تفلت من يده لمضاعفة شهرته التي وكد له أنها انتشرت وذاعت في جميع دول أوروبا بما في ذلك بلاط أرشيدوق المسكوف[٢١٤].

وذكر مكسمليان الملك جون بأنه "الملك الوحيد الذي توجد تحت تصرفه ثروة ضخمة وملاحون مجربون محنكون يتطلعون إلى ارتقاء درجات المجد وتخليد أعمالهم".

ورغبة من مكسمليان في مساعدة الملك جون على الاضطلاع بما حثه على القيام به، عرض أن يرسل إليه مارتن بهايم ليعلم الملاحين البرتغاليين وخاصة المقيمين منهم بجزائر أزور كيفية الملاحة عبر الأطلسي "بواسطة المزولة (ربع دائرة) والأسطوانة والإسطرلاب وغيرها من الآلات".

لم يكن هنالك في الواقع أي داع لتقديم مارتن بهايم إذ سبق للملك استخدامه في الجنتا (المجلس الاستشاري) وفي بعثة دبلوماسية إلى فلاندرز (بلجيكا) الخ.

وقد رقي هذا العالم الجغرافي إلى مرتبة فارس في جماعة المسيح البرتغالية، وبعث إليه الملك عقب عودة برثولوميو دياز بالخرائط الذي رسمها هذا الأخير ليدرجها جميعاً في خريطة رئيسية كان قائماً بعملها. وفي عام ١٤٩٠ أتم بهايم جميع عناصر الخريطة الطريقة مثبتاً فيها بأحجام

---

[٢١٤] الروسيا

صغيرة وبألوان زاهية أشجار التوابل بثمارها الناضجة والأشخاص والحيوانات وما إلى ذلك، فكانت حدثاً في تاريخ فن الخرائط وفي عالم الجغرافيا.

وفي عام ١٤٩٤ زار هيرونمس منتزر الملك جون الثاني في إفورا[٢١٥]حيث راحا يتناقشان – وكلاهما من عشاق الاستكشاف – احتمال القيام برحلات جديدة وما قد يتيحه الإتجار مع الشرق من فرص للربح والغنم. ثم قال الدكتور للملك: "جرب هذه المغامرة وسوف يقرنك الناس بهرقل"[٢١٦].

***

وفي هذا العام بالذات وقعت اتفاقية تور ديسيلاس[٢١٧] وقعها ملك إسبانيا في شهر يونيو ١٤٩٤ ووقعها ملك البرتغال في فبرار سنة ١٤٩٥ رضي كل من الفريقين بنصوص الاتفاقية ولكنها للأسف كانت تحمل في ثناياها جراثيم الشقاق والخلاف وذلك بسبب الفرق بين مقياس الفرسخ، فالإسبانيون يحسبون كل درجة ارتفاع بستة عشر فرسخاً وثلثي فرسخ بينما يحسبها البرتغاليون بسبعة عشر فرسخاً ونصف فرسخ.

منذ عودة برثولوميو دياز والملك لم تبرح مخيلته ضرورة القيام برحلات استكشافية أدق تفاصيلا. فأخذ تاجر إيطالي على عاتقه – تلبية لطلب

---

[٢١٥] **Evora**
[٢١٦] **Hercules**
[٢١٧] **Tordesillas**

الملك – أن يبحر بتجارته جنوباً إلى أقصى الجنوب الإيطالي إلى الملك بأن مراكبه الشراعية من النوع الخفيف لا تستطيع الصمود في وجه عواصف المحيط الجنوبي الشديدة ونصح الملك ببناء مراكب خاصة تصلح لمثل هذه الأسفار فأخذ الملك بنصيحة الإيطالي وأصدر أوامره فوراً بقطع الأخشاب اللازمة وشرع النجارون وبناؤو السفن في صنع سفن نوع جديد وقد ساهم برثولوميو دياز بنصائحه في بنائها.

ولكن للأسف حالت طائفة من الظروف المعاكسة دون تجريد الملك أية حملة جديدة فعودة خرستفر كولومبس ترتب عليها إصدار البابا لقراره المشئوم وتلك المناقشات الطويلة بشأن تقسيم العالم، والشهور العديدة التي استغرقها المؤتمر في تورد يسيلاس لحل المسألة الحيوية.. كل هذه الأمور كانت عوائق غير هينة حالت دون تنفيذ الملك جون لخطته. أضف إلى ذلك أن تدهور حالة الملك الصحية زادت الأمور تعقيداً، فالملك جون الثاني كان قد أحال تنفيذ مشروعه الكبير الذي كان يحلم به إلى ولي عهده دون ألفونسو – الذي أنعم عليه بصورة الكرة الأرضية لتكون شعاراً له – ولكن للأسف توفي ولي العهد وهو في السادسة عشرة، عقب سقوطه عن ظهر جواده عام ١٤٩٢ تاركاً خلفه أرملة شابة هي إزابللا كبرى بنات الملك فرديناند والملكة إزابللا دون أن يعقب منها. وكان الذي أخلفه في ولاية العهد ابن عم الملك دون مانويل، ولا بد أن الملك كان يشعر بالارتياح لولايته للعرش لما كان يأنس فيه من رغبة مماثلة في مواصلة السعي لاكتشاف الطريق إلى الهند، ولما كان يشعر به من الاطمئنان كذلك إلى أنه سوف يعمل على تنفيذ مشروعاته جميعاً عند سنوح الفرصة.

مات الملك جون الثاني بعد مصادقته على اتفاقية تورد يسيلاس بزمن قليل مأسوفاً عليه من رعاياه الذين أطلقوا عليه اسم "الأمير الكامل"، حتى أن أحد الذين وقعوا الاتفاقية – واسمه دورت باتشيكو(٢١٨) كتب عن الملك الراحل "كاد عرفانه ونصائحه أن تكون سماوية وكان حكمه على الأشياء وذكاؤه لا نظير لهما في عصرنا" كان دون مانويل في السادسة والعشرين من عمره حينما ارتقى العرش وحينما ورث ما لا يقدر ولا يحصى من الاحتمالات والفرص لتدعيم إمبراطورية فيما وراء البحار مهد لها الطريق وعبده سلفه الراحل.

وفي ذات يوم بينما كان يفحص أوراق سلفه الراحل عثر الملك مانويل على خطاب استرعى التفاته، إذ ظهر من سياق الخطاب أنه رد من تاجر فينيسي على خطاب مرسل إليه من الملك جون يكشف فيه عن قلقه لعدم ورود أنباء منذ فترة طويلة من الزمن من بدرو دي كوفلهام والفونسو دابايفا. ويستنتج من رد التاجر الفينيسي أن الملك كان قد طلب إليه أن يكلف وكلاءه في الإسكندرية بأن يستعلموا عن أمر هذين المبعوثين ومصيرهما.

ويستدل من سياق الخطاب كذلك على أن تبادل المراسلات كان متواصلا بين الاثنين إذ كان روح الخطاب وأسلوبه يدلان على مكاتبة صديق لصديق. وبعد أن وعد التاجر الملك جون في الخطاب بأن يبذل كل ما في وسعه للوقوف على أنباء المبعوثين، انتقل إلى موضوع التوابل فوصف

(٢١٨) **Duerte Pacheco**

في عبارات خلابة وفرة الربح الذي تدره هذه التجارة، وأبدى أسفه لأن هناك مسألة لا يعلم من أمرها شيئاً فهو لذلك عاجز عن الإخبار عنها وهذه المسألة هي "أين تقع الهند؟" بيد أنه استحث الملك على الاضطلاع بعبء الكشف عنها. "بإرسال سفنه لفتحها حتى ولو كان في هذا تعريض عرشه وسلطانه للضياع، إذ أن في فتح الهند المجد والثروة".

لو أن للعالم أبواباً تفتح أمام أحد من الملوك في عصره فقد انفتحت أمام هذا الملك الشاب صاحب عرش البرتغال. فلم يكن عليه لولوجها سوى مواصلة سياسة من سبقوه من ملوك دولته. على أنه لحسن الحظ كان لديه رجال وقفوا في خدمة الملك جون الثاني ليكونوا أهلا لكل عمل يتطلب البسالة والإقدام.

اعتزم الملك إرسال أسطول لاجتياز المحيط الشرقي المجهول، ولكنه قبل أن يفصح عما أضمره استدعى المنجم الملكي زاكوت الفلكي الأستاذ بجامعة سلامنكا سابقاً؛ كان الملك شديد الاعتقاد في قدرة المنجمين على التنبؤ بالأحداث. وفي سكون الليل عكف الملك والمنجم على دراسة مصير الحملة التي اعتزم تسييرها.

كانت أوضاع النجوم والكواكب تشير إلى حسن طالع ما اعتزمه الملك فاغتبط الملك والمنجم معاً بالنتيجة، وما أن شعر الملك بالاطمئنان إلى ما اعتزمه حتى أسرع بالمضي في إعداد المشروع مستشيراً برثولوميو دياز

عن عدد السفن التي تلزم لهذه الرحلة مفوضاً إليه تصميمها بصورة تضمن مقاومة ثورة البحر وهياجه عند رأس الرجاء الصالح.

***

لم يعد للناس من حديث في دوائر البلاط إلا الحملة المزمع تجريدها، وبدا لكثير منهم أنها مشروع لا يقبله العقل. واعترض عدد غير قليل من مستشاري الملك على المشروع وعلى إقدام الملك على القيام بمغامرة مقضي عليها بالفشل لا محالة، وجادلوا الملك بكل أحكام المنطق ليثنوه عن عزمه وعن انتهاج خطة "هي من نسج الخيال وتصوير الأوهام" وذكره المستشارون وقد استبد بهم القلق بالأخطار التي سوف تقوم في سبيله وببعد الطريق الشاسع إلى الهند وبالعمل الجبار المضني الذي ينتظر الملاحين وما يحتمل من اضطراره قواده إلى الدخول في حرب مع سلطان مصر "وهناك قد تطور إلى متاعب مع الملوك المسيحيين".

فإذا كان الملك يطمح إلى ما يكسبه المجد والشهرة فيستطيع أن يعمل هذا بالقتال في إفريقية، وإذا كان المغنم والثروة ما يريد – كالفلفل والذهب والرقيق – فهذه توجد في أثيوبيا[٢١٩] التي يمتلك جزءاً منها بينما تدين له الأجزاء الأخرى التبعية.

---

[٢١٩] كانت جميع إفريقية جنوب الصحراء توضح على الخرائط باسم أثيوبيا

ليس بعسير على الإنسان أن يتصور ابتسامة السخرية التي ارتسمت على وجهه وهو يستمع لتحذير أولئك المتعاقلين، فتركهم يسكبون مخاوفهم كما يشاءون ولكنه ظل كالصخرة التي تتكسر عليها صغار الأمواج الملحاحة اللجوج. ولا جدال في أن الملك كان لا يزال يذكر تلك النتائج المشئومة التي ترتبت على رصوخ الملك جون لما أشاروا من رفض العرض الذي تقدم به كولومبس.. كانت الخطوة الثانية أن يجد الملك من يسند إليه قيادة الحملة الخطيرة فوقع اختياره على فاسكودا جاما وهو قبطان محنك ملحق ببلاطه، وكان كما كان أبوه من قبل من أكثر ملاحي الملك جون موضع تقدير وثقة، فكان فيما عرضه على الابن لفتة وفية إلى ما كان يختلج في صدر الملك جون من نية إسناد هذا العمل إلى والد فاسكو.

كان يجري في عروق الملك وفي عروق قبطانه دم من أصل واحد فهما ينحدران من سلف واحد هو الملك ألفونسو الثاني، وقد مضى على عهده قرابة مائتي عام، انتقل الدم الملكي إلى أسرة دا جاما عن طريق ابنة غير شرعية لذلك الملك.

***

أسقط الملك مانويل جميع الرسميات في تصرفاته مع فاسكو دا جاما حينما دعاه للاضطلاع بعبء قيادة الحملة. وقد نقل إلينا المؤرخون وصف الجو الذي تمت فيه هذه المقابلة والروح التي سادته. فالملك

والقبطان كانا في سن الثامنة والعشرين، تلك السن التي يتقد فيها التحمس للعمل النبيل بلهب مئتذرين، وكان الاحترام والتقدير متبادلاً بين الطرفين، الملك وتابعه، فمن جانب الأول الثقة التامة ومن جانب الثاني الولاء الخالص – وهي اعتبارات ضرورية لضمان التعاطف وحسن التفاهم وانسجام العمل.

سجل المؤرخ وصف المشهد الخطير حين عبر الملك عن رغبته، والرغبة من الملوك أمر. قال الملك لفاسكو دا جاما: "يسرني لو أنك قمت بتأدية خدمة أتطلبها منك. ولكنها شاقة تقتضي جهوداً جبارة".

وها نحن نرى رجل الحاشية الملكية الشهم يتقدم فيقبل يد مليكه، وها نحن نسمعه يرد في غير تردد "مولاي". أنا خادم على أتم استعداد لأداء أي عمل قد ترغب في أن تعهد إلي به وبما أنك ترومني القيام بخدمتك فسوف أبذلها طالما أنا على قيد الحياة".

وما أن تم الأمر على هذه الصورة حتى أخذ الملك يباحث قائده المختار في موضوع الرجال الذين يرغب في اتخاذهم زملاء له. كانت المشاورة من القلب إلى القلب في جو من الصراحة التامة والمودة، وكان من المشاهد التي ينشرح لها الصدر وتطيب لها النفس ذلك المشهد الذي لثم فيه فاسكوبين يدي الملك وبصحبته أخوه الأكبر باولو، كل منهما يتوسل إلى الملك أن يعقد قيادة الحملة للآخر، وأصر فاسكو على أفضلية باولو في حمل العلم الملكي والاضطلاع بمنصب القائد.

ولكن الملك يقطع العقدة (الجوردديانية)[٢٢٠] حين التفت إلى باولو وعلى وجهه ابتسامة هادئة قائلاً: "إنني اخترت أخاك لهذا الأمر واخترتك لمعاونته ولكنه كالأخ الوفي الأمين الذي يشعر أنه يدين لك بالطاعة أراد أن يتنحى لك عن القيادة. ولكني أرغب في أن يكون هو القائد. أما من يحمل منكماً العلم فأنتما وشأنكما، سأرضى بما تتفقان عليه".

وتعطف الملك فقبل تعيين نكولا كويلها[٢٢١] في منصب القائد الثالث للحملة إذ كان الأخوان داجاما قد قدما هذا الشاب الشهم للملك كصديق حميم لهما عزيز عليهما كما لو كان شقيقاً لهما.

ولما كانت ثقة الملك بقائده الذي اختاره لا حد لها فقد أطلق يده في أمر إعداد العدة للحملة. فكل طلب له مجاب، وكان لفاسكو مطلق الحق في مقابلة الملك كلما أراد، وكان الملك من جانبه يسر بمثل هذه المقابلات لما تتيحه من الفرص لدراسة تفاصيل الحملة وبحثها معه وخاصة إذ كان مرجع الأمر والنهي في أمر هذه الحملة والاستعداد لها من حق فاسكو وحده ولكنه كان عاقلاً ذكياً فلم يستأثر برأيه في كل شيء وإنما دعا زملائه وذوي الخبرة للاشتراك معه في الرأي ومعاونته فترك لبرثولوميو دياز مهمة الإشراف على بناء السفن التي كان هو واضع تصميمها مستبدلاً السفن الشراعية الخفيفة بأخرى مربعة الأشرعة، مفرطحة القاع حمولتها أكثر من

---

(٢٢٠) **Gordian Knot** = معناها عقدة عسيرة الحل إشارة إلى عقدة كانت بمركبة جورديوس أحد ملوك فريجيا **"Phyrgia"** قطعها الإسكندر الأكبر بضربة من سيفه عندما سمع العراف يقول كأن من يحلها يسيطر على قارة آسيا كلها.

(٢٢١) **Nicola Coelha**

الأولى، مربعة المؤخرة، عريضة المقدمة ولها أبراج في المقدمة والمؤخرة تمكن البحارة من الاحتماء بها كآخر مراكز للدفاع أمام العدو إذا ما استطاع الوثوب إلى ظهرها. وكانت سلامة البحارة وتوفير الراحة لهم أهم الاعتبارات، وقد روعي ذلك في تصميم هذه السفن، على أنها كانت بطبيعة الحال أقل سرعة من الأولى. ووضعت على جدران السفن الجانبية ألواح إضافية من الخشب تقلل من تأرجحها عند مخورها أمام الرياح.

وبنيت السفن الثلاث على نسق واحد وزودت بقطع غيار مماثلة حتى إذا اضطرت الحملة إلى تحطيم إحداها استطاعت استعمال قطع الغيار للسفينتين الأخريين، وكان بكل سفينة ما يلزمها من قطع الغيار كالسكان والسارية والهلب الخ. وزودت السفن بالسلاح كذلك لمواجهة أي اعتداء وإن لم يكن هدفها القتال أو الفتح فكان بها النبال والنشاب والرماح والفؤوس والسيوف والقنابل الخ.

***

اختار فاسكو بحارة سفنه بمنتهى العناية واعتبر كل من وقع عليه الاختيار مجنداً في خدمة الملك، ومنحهم القائد مرتبات إضافية على شريطة أن يتعلم كل منهم حرفة خلال فترة الانتظار إلى أن يتم إعداد السفن، وقد اغتبط البحارة بهذه الفكرة وراحوا يتعلمون عن طيبة خاطر حرف النجارة والطلاء وفتل الحبال والحدادة، واختير مرشدو السفن من

بين أكثر رجال البحر مهارة وتجربة، وكان من بين من وقع عليهم الاختيار مرشد زامل برثولوميو دياز في رحلته الخالدة.

ودعي الأستاذ الفلكي العجوز زاكوت لتدريب مرشدي السفن ومساعديهم على استعمال إسطرلاب ليكونوا أكثر استعداداً من الوجهة الفنية لمواجهة ما قد يطرأ على الحملة من التقلبات الجوية أثناء الرحلة، وأعطى زاكوت لكل مرشد خريطة كبيرة بها خطوط بألوان مختلفة تبين أسماء الرياح واتجاهها. ولا يخفى أن هذا العالم الفلكي كان أستاذاً لفاسكو داجاما فلا عجب أن يهتم كل هذا الاهتمام بمثل هذه الحملة الخطيرة التي يقودها تلميذه وأهدى إليه نسخة من كتابه المشهور "التقويم الدائم".

وزود المرشدون بكل أنواع الآلات التي لا يستغنى عنها في الملاحة ومن بينها بوصلة تعرف ببوصلة التغيرات، وهي بوصلة وساعة شمسية في وقت واحد ولها عقرب ممغنط. وساهم كل عضو من أعضاء الجنتا في التبرع بشيء أو آخر مما قد يلزم الحملة في سياحتها فنياً وعلمياً.

وزود فاسكودا جاما بنسخة من مؤلف بطليموس في الجغرافيا وبفقرات مقتبسة من مؤلفات وتقارير بنيامين دي توديلا وماركو بولو ونيكولا دي كونتي، وكان من أهم ما زود به نسخة من تقرير بدرو دي كوفلهام وخرائطه التي رسمها للأماكن التي زارها على الشواطئ.

وبالاختصار وضع تحت تصرف قائد هذه الحملة المسافرة إلى الهند جميع ما يحتاج إليه مما اكتشفه الجغرافيون ومما تمخضت عنه الاستكشافات من معلومات ومقترحات وما يمكن أن يفترض علمياً.

فرغ فاسكودا جاما من استكمال رجال حملته باختيار دياجو دياز مشرفاً على حسابات سفينته ومرشداً له وهو الذي رافق برثولوميو دياز في رحلته، كما ضم إلى رجاله بعض القسس والحلاقين والصيادلة. وكان هناك مجموعة خاصة من الرجال لهم أهميتهم، ضموا إلى الحملة للقيام على خدمة أفرادها. وأعضاء هذه المجموعة من الرجال الذين سبق الحكم عليهم بالإعدام، فكلما احتاج الأمر إلى الاتصال بالمتوحشين في الشواطئ، أرسل واحد من أولئك المجرمين للاتصال بهم أولاً فإذا ما قتل لم تكن هناك أية خسارة تذكر إذ كان قد سبق الحكم عليه بالإعدام من قبل، فكان عليه لاستعادة حريته أن يدعو للبرتغال والحملة ويمجد أعمال وطنه وينوه بعلو مركزه إلى أن تعود السفينة لحملها معها إذا بقي على قيد الحياة ونجح في اكتساب صداقة سكان الشاطئ الذي أنزل إليه، فبهذا وحده يلغي حكم الإعدام الذي سبق أن حكم به عليه.

وبعد استجابة الملك لطلب فاسكو داجاما في اصطحاب ثمانية عشر شخصاً من هؤلاء المحتقرين، كما كانوا يسمون، روعي في اختيارهم أن يكونوا من بين الذين لهم شيء من المعرفة باللغة العربية أو بلغة من لغات إفريقية الغربية وأن يكون لهم ما يؤهلهم لما قد يلزم الحملة من خدمات نافعة.

أما فيما يختص بالموظفين عامة فقد عين لكل سفينة مرشدا ومساعد مرشد ورئيسا للبحارة ومشرفا وعشرين بحاراً ممتازاً وعشرة من العاديين، وصبيان وثماني من قاذفي القنابل وأربعة رجال للأبواق وضباطا لفض المنازعات وأمين حسابات" وحلاقا يعمل جراحاً في نفس الوقت وترجمانين، وقس، وستة من مهرة العمال، وعشر من الخدم من بينهم ستة من المحتقرين الذين سبق الإشارة إليهم.

وكان من المسائل المهمة تموين هذه الحملة المؤلفة من مائة وثمانين رجلا بما يكفيهم لمدة ثلاث سنوات، وكان حساب تموين كل شخص في اليوم كالآتي: رطل ونصف رطل من البسكويت، رطل من اللحم البقري أو نصف رطل من لحم الخنزير، ولتران من الماء، ولتر وربع لتر من النبيذ وقليل من الخل ونصف رطل من الزيت. وفي أيام الصيام يعطى كل رجل نصف رطل من الأرز أو من السمك أو الجبن بدلاً من اللحم وجملة مؤن إضافية تعتبر ضرورية لاحتفاظ رجال الحملة بصحة جيدة طوال الرحلة. واحتفظ بهذه المؤن على ظهر سفينة صغيرة صنعت لهذا الغرض خاصة وألحقت بسفن الحملة الثلاث وتتكون هذه المؤن من الدقيق والعدس، والسردين، والبصل والثوم، والبرقوق المجفف واللوز والمستردا، والسكر، العسل، والملح واشتملت المؤن أيضاً على أنواع من الفاكهة المحفوظة في محلول السكر والعنب المجفف والحلوى لاستهلاك قواد السفن الثلاثة خاصة، كما سمح لهؤلاء الثلاثة يحمل ما يحتاجون إليه من منازلهم كالأدوات الفضية والصحاف والملاعق والشوك والأكواب البللور المذهبة والملاءات

والمفارش والسجاجيد وكل ما يضمن وسائل الراحة لهؤلاء الملاحين الشجعان أثناء إقامتهم في هذه القصور العائمة.

واهتم باولو داجاما بالمسائل الصحية بصفة خاصة فأشرف بنفسه على حمل كل ما يحتاج إليه من أصناف العقاقير والأدوات الطبية والأجهزة وكل ما يصلح لعلاج البحارة في حالة المرض.

***

وكان من بين المسائل الحيوية الأخرى مسألة اختيار السلع التي تصلح للتبادل مع سكان الشواطئ أو المدن إذ لم تكن للبرتغاليين معاملات حتى الآن سوى مع سكان شاطئ إفريقية الغربي، وليس كل ما يقبله سكان هذه الشواطئ يقبله سكان الشواطئ الأخرى في الشرق وفي الهند، لذلك روعيت الدقة في اختيار مجموعة من السلع الرخيصة التي تصلح للهبة والإهداء كالمرايا والأجراس والطرابيش المراكشية والأقمشة التي تنتج في "فلاندرز" (بلجيكا الآن) "وروون[٢٢٢]"وبعض الأقمشة المخملية الغالية الثمن.

وأمر الملك بأن تسجل أسماء زوجات البحارة وذويهم ومحل إقامتهم في سجل خاص حتى إذا مات أحد منهم أثناء الرحلة دفع إلى أهله أو أقاربه ما كان يستحقه من الأجر وأودع هذا السجل في "دار المنجم" أي

---

(٢٢٢) **Rouen**

وزارة البرتغال للمستعمرات. وفي هذه الوزارة حفظت حسابات تكاليف الحملة المقبلة من إنشاء وتموين وآلات وسلع ومرتبات الخ.

***

وأخيراً استكملت جميع المعدات واستأذن فاسكودا جاما الملك في الإبحار أول ما تعب رياح الشمال، وكلف برثولوميو دياز بمرافقة الحملة حتى "منجم القديس جورج" على ساحل غانا حيث كان قد عين حاكماً لها مكافأة له على رحلته الاكتشافية المشهورة.

توترت أعصاب الناس في لشبونة إلى أقصى حد، فكل واحد فيها من الملك إلى أحقر شخص لم يكن يفكر إلا في شيء واحد خفقت له القلوب والتهبت الأخيلة. فطائفة من الناس كانت تنظر بعين الحسد إلى أولئك الذين قد يبتسم لهم الحظ فيجمعون الثروة ويرتقون أدراج المجد، وطائفة راحت تهز رؤوسها راثية لأولئك الذين دفعهم الجشع وحطام الدنيا الزائل إلى المساهمة في مثل هذه المغامرة الجنونية، فخير المرء أن يموت ميتة هادئة فوق سريره من أن يقبر تحت مياه هذا البحر الرهيب الذي روى برثولوميو دياز وزملاؤه ما صادفوه فيه من أهوال تنخلع لها القلوب وترتعد الفرائص.

وفي اليوم السابق على مغادرة الحملة استقبل الملك قوادها استقبالاً رسمياً، وليس من شك في أن منظر هذا الحشد الحافل كان رائعاً يبعث على الرهبة فقد احتشد جميع رجال الدولة وهيئة كبار القسس والكهنوت

بملابسهم الرسمية مصطفين حول الملك وكان هو أيضاً بملابسه الملكية وأمامه فاسكو وباولو دا جاما والشاب نيكولا وكويلها وعليهم الدروع والزرد والحديد.

ها هم يقفون أمامه تملأ الثقة قلوبهم ويغمرهم السرور، ولكن منظرهم يشعر بخطر المهمة العظيمة التي ألقيت على كواهلهم ولكن دون أن يبدو على وجوههم أثر لخشية أو فزع. وخطب الملك مانويل في هذا الجمع المتألق فكانت نبرات صوته تدل على أن كلامه صادر من قلبه فشرح الغرض من "هذه المغامرة النبيلة والمنافع التي ترجى من ورائها مرضاة الله.." فما هو إلا أن تفتح العند حتى تبلغ رسالة سيدنا وألهنا يسوع إلى أولئك اللذين لا يعلمون عنه شيئاً، على أن تبليغ الرسالة المسيحية وإن تكن هدف الملك الأول إلا أن ذلك لم يمنعه من توصية قواده بضرورة البحث في الوقت نفسه عن أحسن الوسائل وأصلحها للحصول على ثروة الشرق وذكر لهم ما كتبه ماركو بولو ومن تقدموه عن تلك البلاد الوفيرة والتي كانت السبب في رفع فينيسا وجنوة وفلورنسا إلى مرتبة القوة والعظمة.

وشرح الملك بمنتهى الوضوح كيف أن الجمهوريات الإيطالية إنما تدين بعظمتها وغناها لتجارة التوابل وأنه لمن الجحود والكفران بنعمة الله أن يتقاعد عن تنفيذ الخطة التي رسمها أسلافها والتي أصبحت وديعة في عنقه.

كان الناس يسمعون كلمات الملك تخرج من بيت شفتيه في نبراتها رنة العزة والفرح وكانوا يرون وجه يتألق نوراً وهو يقول هذه الكلمات: "لقد جهزت أربع سفن هي اليوم على وشك الرحيل واخترت لقيادتها رجلاً مجرباً من رجالي الأوفياء قد ترهن على شجاعة وإقدام في كل ما أسندته إليه من الأعمال في الماضي فهو جدير بأن تستند إليه مسئولية هذه المغامرة النبيلة الشريفة.

ثم نظر الملك إلى الرجال الثلاثة الواقفين أمامه في حنان وعطف قائلا لهم في لهجة عميقة النبرات. أوصيكم بالتضامن والاتحاد والمحبة فمنها تتولد القوة وبها تستطيعون مواجهة جميع الأخطار والتغلب عليها وبها تستطيعون النهوض بعبء العمل الذي ألقى على كواهلهم وهي خير عون لكم في رحلتكم هذه التي أرجو من الله ألا تكون كثيرة الأخطار والمشاق وما أن فرغ الملك من خطابه حتى تقدم أحد كبار رجال الحاشية وهو يحمل لواء جماعة المسيح فسلمه إلى فاسكو دا جاما الذي تناوله ولفه حول ذراعه ثم نطق بهذا القسم "أنا فاسكو دا جاما المكلف من مليكي باكتشاف بحار الشرق وبلاد الهند الشرقية أقسم برمز هذا الصليب الذي أضع يدي عليه بأن أرفعه عالياً مطوياً أو منشوراً في سبيل خدمة الله وخدمتكم أينما حللت سواء في بلاد المغرب أو في بلاد الشعوب الأخرى من أي جنس ولون. وأقسم أنني سأدافع عنه حتى الموت لا تمنعني عن تلك الأخطار مهما يكن مبلغها وأينما كانت في البحر أو البر ومهما أصلى بنار الحروب، وأنني سأصدع بجميع الأوامر الصادرة إلي وأطيع جميع التعليمات في جميع الظروف".

وهنا سلم الملك فاسكو دا جاما نسخة من الأوامر المكلف بتنفيذها خطاب اعتماد رسمي كما سلمه رسالة موجهة إلى "القس يوحنا" وملك كلكتا. وما إن انتهت هذه الرسميات حتى أخذ الملك سمته صوب الميناء وخلفه جميع من شهد الحفلة.

كان الساحل يموج بالجماهير وكانت السفن مزينة بالأعلام، ما أن وصل الملك إلى الميناء حتى رفع العلم الملكي على سفينة باولو داجاما لأن فاسكو داجاما كان قد قرر أن تكون سفينة أخيه الأكبر هي حاملة العلم بالرغم من أنه هو شخصياً كان مسئولاً عن قيادة الحملة، وما أن أطلقت المدافع حتى أقلعت السفن الأربعة قاصدة بلم (Belem) بينما ذهب الملك عن طريق البر إلى الدير الموجود بها.

وهنا أيضاً احتشد أقارب هؤلاء المسافرين إلى الشرق الأقصى وأصدقاءهم وازدحمت بلم (Belem) بالغادين والرائحين لأنها كانت تقع غير بعيد من لشبونة. وفي كنيسة بلم التي بناها الأمير هنري الملاح لاستعمال البحارة خاصة قضى فاسكودا جاما وزميلاه طيلة الليل يصلون لله ويضرعون إليه. أما الذي قالوه في صلاتهم وتضرعوا به إلى الله فقد سجله الشاعر في العبارات الآتية:

نجنا اللهم وسط هذه المياه العميقة من هول العبور.

حيث يبدو لعين البحار في ثنايا الأمواج قاع القبور.

وكن اللهم من عواصف اليم حامياً وكفيلاً.

وارعنا اللهم بعينك وكن لنا مرشداً ودليلاً

***

نحن أقلعنا عن شاطئ الوطن الحبيب.

وتحدينا من البحار كل مجهول رهيب.

ولقد يدهمنا قضاء الله في البلد الغريب.

وفي مطلع الفجر وصل الملك يحف به رجال حاشيته وجاء، القسس في موكب رهيب انضم إليه أصدقاء البحارة وأقاربهم، والتفت الجماهير الحاشدة حول موكب القواد الثلاثة عند الشاطئ لا فرق بين كبيرهم وصغيرهم وقد اختلجت في صدورهم شتى العواطف والمشاعر ثم ركعوا وقد أمسك كل واحد منهم مشعلاً في يده. ولم يعكر سكون هذه اللحظة الرهيبة غير صوت البكاء، وأخذ رئيس القسس يرتل بصوت مدو قداسي الاعتراف العام، ثم نطق بالمغفرة وفقاً للعهد الذي قطعه البابا على نفسه للأمير هنري الملاح بأن يمنحها كل أولئك الذين هلكوا أو قتلوا في الفتوح أو في الكشف عن البلاد النائية السحيقة وأن يعتبروا من الوجهة الروحية كما لو كانوا من بين رجال الحروب الصليبية وأن يمنحوا مثل ما منحوا من الغفران.

ثم نهض الجميع وبأيديهم الشموع وأخذوا في السير نحو المرسى، وكان يخيل للرائي أنه موكب جنائزي ولا غرو، فكثير من الحاضرين كانوا

يشعرون في قرارة نفوسهم بأن هناك في ثنايا الأمواج قبور تنتظر أولئك البواسل الشجعان الذين أوشكوا على السير في الطريق المجهول. ويصف كموين المشهد بالكلمات الآتية:

تألقت الرمال كاللجين من كثرة الدموع.

فالجبال والشواطئ حزينة لمصيرنا المنتظر.

ولكننا نسير بقدم ثابتة لا نلقي نظرة يميناً أو يساراً.

على أب باك وأم تقطعت أوصالاً.

فنحن وإن شغفت قلوبنا بحب المجد إلا أننا.

نعرف الحب والعطف وما تخفق به القلوب.

وحان وقت الرحيل؛ فودع المسافرون ذويهم وصعد القواد الثلاثة إلى سفنهم وعليهم الزرد والدروع وتبعهم البحارة وعلى أكتافهم وظهورهم وعلى صدورهم صفائح الحديد ونشرت القلوع وأخذت الرياح تداعب الملكي فوق سفينة القيادة، ثم سارت السفن الأربع تشق المياه وقد بدت أشرعتها البيضاء كأجنحة طيور ماردة جبارة[٢٢٣]

وكانت السفن قد سميت بأسماء الملائكة الثلاثة: جبريل ورفائيل وميكائيل تيمناً بها، بينما أخذت عيون المحتشدين على الشاطئ تتبعها إلى أن توارت عن الأنظار. وظل الملك يراقب أسطوله الصغير من قاربه الملكي حتى اختفى وراء الأفق.

---

[٢٢٣] كان مسطح الأشرعة أربعة آلاف قدم مربعة من القماش.

الفصل السابع

الطريق المفتوحة إلى الهند

من شاطئ أوروبا تتبعت الطري المزدوجة

بحثاً عن المناطق التي سوف يتمخض عنها النهار في مهده

"المقطع الخامس"

نفخت أبواقها ربة الليل خمس مرات

أبواقها اللامعة في ضوء القمر الفضي

وفجأة دوت صرخة من فوق برج السفينة

الأرض – الأرض – وردد البر صداها

"المقطع الخامس"

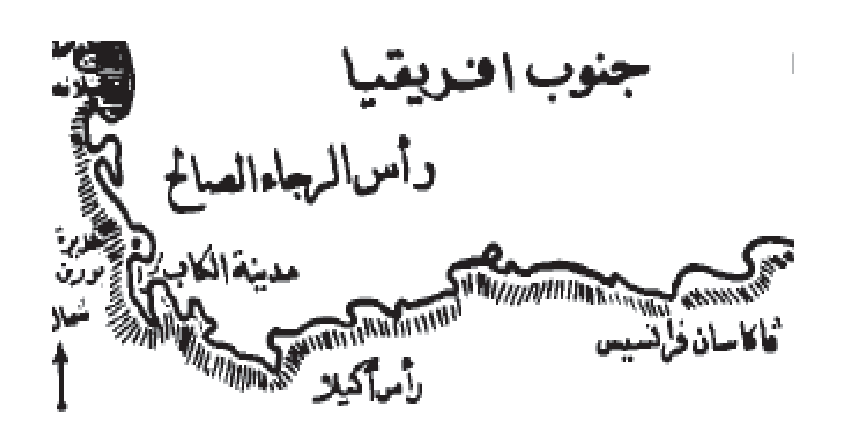
انقضت خمسة أشهر على مغادرة فاسكو داجاما للشبونة حينما قرر الإرساء عند الشاطئ ليستوضح الجهة التي بلغها فقد حال تأرجح السفن دون إمكان الاستفادة من الإسطرلاب الذي زُود به. ولما كان يريد أن يقيس ارتفاع الشمس بالإسطرلاب فقد وجد نفسه مضطراً للجوء إلى البر في خليج أطلق عليه اسم "مرسى سانت هيلينا" فأمر بعض رجاله بحمل

الآلة الخشبية (الإسطرلاب) وحمالته المثلثة الأرجل إلى تل ليقوم بالرصد اللازم لتحقيق درجة خط العرض، وهنا رأى بعض الأهالي منهمكين في جمع "الشهد" فأسر واحد منهم وحمل ظهر السفينة حيث أطعم طعاما فخما وكسي كساءاً حسنا ثم أعيد إلى الشاطئ.

وقد تمخضت هذه المعاملة الطيبة عن النتيجة المنشودة فما بزغت شمس اليوم التالي حتى هرع إلى الشاطئ ومعه آخرون فقدمت الهدايا إلى الجميع ثم اطلعوا على عينات الذهب واللؤلؤ وبذور التوابل فأنكروا معرفتها.

كان السؤال الدائم على ألسنة الملاحين والذي لم يبرح رؤوسهم هو: "كم بقي من المسافة بينهم وبين رأس الرجاء الصالح". وخيل إلى المرشد أن المسافة لا تزيد على ثلاثين ميلا. ولكن ما كادت السفن تخرج إلى عرض البحر مرة أخرى حتى ذاق الملاحون شيئا مما سوف يتعرضون له من المشاق إذا ساءت الأحوال الجوية.

وما هي إلا فترة قصيرة حتى هبت عليهم عاصفة هوجاء ظهرت لهم فيها الأمواج وكأنها الجبال الشامخة وشعروا كما لو أن السفن ترتفع إلى السحاب لتهبط بعد ذلك إلى الحضيض وسط الدوامات فيمتصها البحر ويجذبها إلى قاعه، وزاد الظلام شعور الخوف في قلوبهم وكانت الرياح تهب عليهم باردة كالثلج فيغرق أزيزها أصوات المرشدين فلا يسمعها البحارة.



عندما يلتقي البحر والسماء تؤلف العاصفات دوامات تكتسح المحيط فيدَّوي قاعه المترنح وتثور الأعاصير ولكننا واصلنا قدماً فنجونا من الأنواء بيد أن أخطار جديدة تتهددنا من جميع الجهات

فتخاذلت سفننا مغلوبة على أمرها وأطلقت الرياح الهوجاء من كهوفها الجنوبية فالتحمت بالأمواج العاتية في صراع رهيب وباتت تئن تحت لطمات العواصف ساريات السفين ويمرق فوق التيار الجارف أسطولنا الصغير.

المقطع الخامس

ركع البحارة وقد استولى عليهم الفزع وكأنما فتح الجحيم أبوابه ليلتهمهم وراحوا يضرعون إلى الله ويطلبون منه الرحمة وينذرون النذور إذا هم نجوا من الموت وتجمعوا حول فاسكو داجاما يتوسلون إليه أن يعود بهم إلى الوطن. وذكروه بأنه قد أمِّر عليهم لراحتهم والسهر على حياتهم لا ليعرضهم لمثل الميتة الشنيعة، ولكن القائد رفض أن يتحول عن هدفه

وصاح فيهم وهو كالصخرة الصماء "رسوخا" بأنه سوف يستمر في مسيره حتى يبلغ رأس الرجاء الصالح ويدور حوله ولو اضطر إلى تكرير المحاولة مرة بعد أخرى؛ لذلك ما كادت تبدو للعيان قمة الرأس من بعيد حتى انقلب شعور الخوف الذي استبد بهم إلى ارتياح عظيم كاد يخرجهم عن طورهم فنفخوا في البواق وراحوا يرقصون ويهللون والغبطة تملأ قلوبهم.

لم يبق معهم من الماء إلا قليل، فقرر فاسكو دا جاما أن ينزلوا إلى البر في جزيرة لوس فاسكيروس ولكن المرشد حذر القائد من احتمال عدوان الأهالي كما حدث لبرثولوميو دياز عندما حاول أن يتموّن من الماء وكيف أمطر الأهالي رجاله وابلا من الحجارة، ولكن ما كان أشد فرحهم حينما أحسن الأهالي مقابلتهم.

ويرجع السبب في ذلك إلى أن الأنباء تنتشر في إفريقيا بسرعة البرق، وكان قد ترامى إلى سمع هؤلاء ما كان من كرم البرتغاليين عندما نزلوا الخليج الذي أبحروا عنه منذ قليل، وعلم الأهالي بأن البيض لم ينالوا أحدا بسوء البتة، بل أنهم راحوا يغدقون عليهم مما كان معهم ومنذ ذلك الحين أصبح البحارة يلقون كل مودة حينما أرست السفن حتى لكان رحلتهم أنشودة من الأناشيد.

وكان فرح قبائل اللهوتنتوت بما قدمه لهم البرتغاليون من الأجراس والطرابيش المراكشية عظيما وأرادوا أن يكافئوهم على كرمهم فقدموا لهم الخراف والفاكهة عوضا عنها ثم راحوا يرقصون على نغمات الناي والمزمار،

ولم يشأ البرتغاليون أن يكونوا من المتخلفين في هذا الميدان فراحوا يرقصون بدورهم على نغمات الأبواق وكان فاسكو دا جاما قد أصدر إليهم الأمر بذلك ولم يترفع عن الاشتراك معهم في رقصهم. وما كان أشد شعورهم بالغبطة والارتياح عندما شاهدوا في جزيرة سانتا كروز"Santa Crus" الصغيرة صليبا مرفوعا كان دياز قد نصبه فيها.

استمر الأسطول الصغير في مسيره حتى بلغ أرضا تبعد سبعين فرسخا عن أقصى موضع وصل إليه دياز، وكان وصول الأسطول إلى هذه الأرض في اليوم الخامس والعشرين من ديسمبر فأطلقوا عليها اسم أرض المولد إكراما لعيد الميلاد.

***

كان العالم الفلكي زاكوت قد حذر داجاما قبل مغادرة البرتغال من خطرين قد يحولان دون نجاح الحملة وهما تفرق السفن، وتمرد البحارة، أما الخطر الأول فلم يحدث لحسن الحظ أن تفرقت السفن بعضها عن بعض لسوى فترة وجيزة جدا، أما الخطر الثاني فقد قام فجأة في وجهه.

كان الفضل في اكتشاف المؤامرة لنيكولا كويلهام المرح الظريف الذي وقف على سرها واشتراك المرشدين مع البحارة للقيام بها، وكان المزمع تنفيذها بمجرد اكتساب بحارة السفن الثلاثة إلى جانب المتآمرين.

غير أن هذا القائد الشاب أصغر الربابنة الثلاثة استطاع أن يحذر فاسكو دا جاما بواسطة رسالة شفوية أرسلت من مركب لأخرى روعي الغموض في عبارتها حتى لا يفهمها البحارة، وكان مضمون الرسالة أن الربابنة سيؤخذون في السلاسل ثم يشرع في طريق العودة إلى البرتغال.

كانت هذه الرحلة هي الفرصة التي أتيحت للرجل الذي اختاره الملك ليبرهن على مواهبه كقائد وزعيم، فاحتال فاسكو دا جاما لحضور المرشدين ومساعديهم ورؤساء البحارة إلى سفينته ومعهم آلات الملاحة والخرائط. ولكن ما كان أشد غضبهم حينما رأوا قائد الحملة يلقي إلى البحر بجميع الآلات والخرائط، كان في هذا العمل فصل الخطاب، ثم التفت بعد ذلك إلى البحارة وإلى المرشدين المذنبين ورؤساء الملاحين وخاطبهم متحديا بهذه الكلمات النبيلة: "إنني غير محتاج لمساعدة مرشد أو بحار أو أي أحد ليرشدني، إن الله وحده مرشدي ودليلي فهو الذي سوف يوجهنا ويتولانا برحمته فلتكن مشيئة الله.. فليس لأحد بعد اليوم أن يكلمني في العودة وليكن في علم كل منكم أنني لن أحيد عما قررته من مواصلة هذه الرحلة حتى النهاية، فإذا عجزت عن القيام بها على الوجه الأكمل فلست بعائد إلى البرتغال. سوف يمضي أسطولي إلى الأمام متحديا مخاوف الطريق حتى يعثر على المناطق التي لا تزال في المهد"

"المقطع الثامن"

***

وضع الحديد في أيدي المرشدين ورؤساء البحارة على أن يظلوا كذلك حتى يقدموا إلى الملك ليرى فيهم رأيه، ولكن هذا العقاب الصارم لم يستمر طويلا لأن المذنبين وقد ذلت نفوسهم، توسلوا إلى باولو داجاما أن يتوسط لدى شقيقه في أمر العفو عنهم؛ أطلق سراحهم ولكن على شريطة أن يوضع الحديد في أيديهم مرة أخرى فور العودة إلى لشبونة ليحكم الملك في أمرهم بما يشاء.

مرت الأيام بعد ذلك أكثر هدوءًا فاطمأنت النفوس التي كان قد أثارها غضب الطبيعة، وذلك من فضل الله، واضطرت الحملة بعد ذلك إلى طهي طعام لعدة أيام بماء البحر إذ كانت تنقصهم المياه العذبة، ولكن كان من حسن حظهم أن نزلوا بشاطئ بلاد قابلهم فيها أهلها بالمودة والترحيب، وقد سمي المكان تخليدا لتلك الذكري "أرض القوم الصالحين" "Tierra de Boa Gente"

ولكن للأسف لم تطل فترة الهدوء لأن الأسطول سرعان ما ووجه ببلاء من نوع آخر دهم البحارة وأودي بحياة نفر منهم، وهنا خلال هذه المحنة ظهرت صفات باولو دا جاما النبيلة وخلاله الحميدة فقد كان رجلا طيب النفس لطيف المعشر رحيم القلب وقد بذل مجهودا جبارا في تخفيف آلام المرضى الذين أصيبوا بالداء المسمى في البرتغال "بالبِربر" (٢٢٤) ذهب ثلاثون من البحارة فريسة له وكان باولو يواسي المرضى ويقدم لهم ما معه من أصناف الحلوى التي جاء بها من منزله الخاص.

---

(٢٢٤) داء البلاجرا

وزاد الطين بلة ما كان يعانيه رجال الحملة من نقص في الماء العذب وساءت صحتهم من أكل اللحوم المملحة على الدوام فاشتدت وطأة المرض بسبب سوء التغذية وازدادت المضاعفات بسبب عناصر الهبوط الدبي والملل والتشوق إلى الأهل والوطن، واستبد الألم بالمرضى بصورة فظيعة فكانت لثة المريض تتورم إلى حد تختفي معه أسنانه وتغور بين كتل من التدرن، وكانت الرائحة لا تطاق. لكن الراحة النسبية التي كان يحصل عليها المريض لفترة وجيزة من الزمن كانت تحدث عقب شق اللثة لتسيل الدماء السوداء المجمدة وتنظف بعد ذلك بمزيج من الخل والنبيذ الأحمر. وكان الداء ينفذ إلى الأعضاء والأطراف فكانت تتقلص عضلات السيقان إلى درجة تمنع المريض من مدها، واسودت العجز والسيقان كما لو كانت مصابة (بالغرغرينا)، فتشرط كل يوم بالمشارط لتصريف ما يمكن تصريفه من الدماء المتعفنة. ويشعر المريض بآلام قاتلة في جنبيه ويفقد الشهية للطعام بالرغم مما يشعر به من الجوع الشديد.

وكانت تحدث الوفاة عادة بسبب تحريك المريض لذراعيه بعد أن يكون قد شرَّط لتصريف الدماء الفاسدة فتنفجر الدماء من العروق بسبب تحرك الذراعين. وكان يصاب المريض بالحمى وهو على هذا الحال ويستبد به الظمأ فيصرخ طالبا الماء وتشقق شفتاه وتجف حتى تحدث الوفاة [٢٢٥].

أرسى أسطوله الصغير على نهر أطلق عليه البرتغاليون اسم "نهر الرحمة" لأنهم وجدوا في هذا المكان كل ما ينعش المريض ويجدد قوي

---

[٢٢٥] هذه الفقرة منقولة من وصف الطبيب الفرنسي جان موكيه في عام ١٦٠٠م

الجميع – وجدوا اللحوم ومختلف الفاكهة من موز وبرتقال وليمون وتين – فكل هذه الأصناف كانت أنجع علاج للمرضى فاستعاد الصحة كل من لم تكن حالته قد ساءت إلى درجة لا يرجى معها الأمل في النجاة. وأطلق على النهر اسم آخر كذلك هو "نهر العلامة الطيبة" لأنهم وجدوا في هذا المكان قوما متأنقين في ملبسهم غاية التأنق وأحاطوا رؤوسهم بلفائف حريرية مزركشة بالذهب.. هذه كانت هي العلامة الطيبة فعلا وهي التي أوصى بدرو دى كوفلهام برثولوميو دياز يبحث عنها ليستدل منها على أن مدينة سوفالا لا تبعد كثيرا عن هذا المكان.

وهنا عفا فاسكو داجاما عن المرشدين ورؤساء البحارة والمذنبين لما أبدوه من الهمة والنشاط في عملية إصلاح السفن وتنظيفها، وقد اضطروا إلى تحطيم إحدى السفن إذ كانت قد أصبحت غير صالحة للاستعمال والسير في البحر، وعبّر لهم فاسكو عن تقديره ووعدهم بالتوسط لدى الملك للعفو عنهم.

وما أن فرغ فاسكو من إصلاح سفنه وإعدادهم من جديد وما أن استعاد المرضى صحتهم حتى نصب فاسكو عمودا من الرخام كتب عليه اسم القديس رفائيل استجابة لطلب الملك الذي كان قد أمر بإقامة هذه العمد كلما سمحت الظروف ورسم شعار ملك البرتغال على وجه كل منها. وعلى الوجه الآخر رسمت كرة أرضية كتبت تحتها هذه العبارة "لعاهل البرتغال – مملكة المسيحيين". انتهز فاسكو داجاما فرصة العشرين يوما التي قضوها بهذا المكان لتبادل الرأي مع زملائه فكان من أهم رغباته أنه

إذا حدث أن قابلوا أحد من المغاربة وجب عليهم أن يفسروا ضآلة أسطولهم بأنه طليعة للأسطول الكبير المقتفى أثره والذي سوف تنضم وحداته إليهم في كلكتا. والواضح أنه كان يخشى أن تعتبر سفنه فريسة هينة للأعداء.



أبحر البرتغاليون وهم يأملون الوصول إلى موزمبيق.

وما كان أعظم فرحهم عندما لمحوا شراع قارب، إذ استدلوا من ذلك على قربهم من بلاد مسكونة وسرعان ما أدركوا القارب فوجدوا فيه مغربيا (٢٢٦) وبعض الزنوج الذين قفزوا إلى البحر من الفزع. وحمل المغربي إلى ظهر سفينة القائد وكان مهيبا حسن الملبس نظيفا واستُدعي أحد البحارة ممن يعرفون العربية ليقوم بوظيفة المترجم ولكنه اتضح أن المغربي لا يعرف من اللغة العربية إلا قدرا يسيرا لا يغني لأنه كان هنديا لا عربيا، على أن

([٢٢٦]) اعتاد المؤلفون البرتغاليون إطلاق هذا الاسم على جميع المسلمين ومن يرتدون مثل ملابسهم.

الجدير بالذكر في هذا الأمر أن أواصر الصداقة سرعان ما توطدت بين البرتغاليين والهندي بمجرد ما علم هذا الأخير بأن الذين أسروه إنما ينشدون التوابل ليس إلا.

ولا جدال في أن الأقدار نظرت بعين العطف إلى البرتغاليين فساقت إليهم الرجل الذي يستطيع أن يساعدهم على الوصول إلى هدفهم، فقد كان هذا الهندي واسمه دافان من سماسرة التوابل ومن سكان كامباي، وما أن علم هذا الهندي عما يبحث عنه فاسكو حتى وعد بأن يملأ سفنه بالتوابل من كل نوع، وبذلك أصبح رجل الأعمال الهندي الحكيم مستشارا لهؤلاء الغرباء الذين تعلم أن يحترمهم ويحبهم، وبادله البرتغاليون احتراما باحترام وحبا بحب لما آنسوا فيه من الشرف والصدق حتى عرف بينهم باسم "المغربي الصالح"

افتقر فاسكو إلى خدمات المغربي فور وصول سفنه إلى موزمبيق إذ كان بمينائها ساعة وصولهم أربع سفن موسوقة بالتوابل والفضة والحرائر المستوردة من الهند؛ فهنا لم يبصر البرتغاليون زنوجا عراة كالذين كانوا يجدونهم في الموانئ الإفريقية الأخرى ولكنهم وجدوا قوما من جنس آخر يرتدي بعضهم ملابس قطنية ملونة بينما يرتدي البعض الآخر الملابس الحريرية وقد تدلت سيوفهم وخناجرهم من أحرمتهم العريضة. وقد دعا البرتغاليون بعض هؤلاء الهنود إلى مأدبة على ظهر السفينة قدموا لهم فيه أجود الأنبذة التي أقبل عليها الضيوف بشهية واستحسان، وظهر أن

موزمبيق هذه نقطتها طائفة من التجار يتعاملون مع الهند، فيصدرون إليها الذهب ويستوردون منها التوابل واللؤلؤ والأحجار الكريمة.

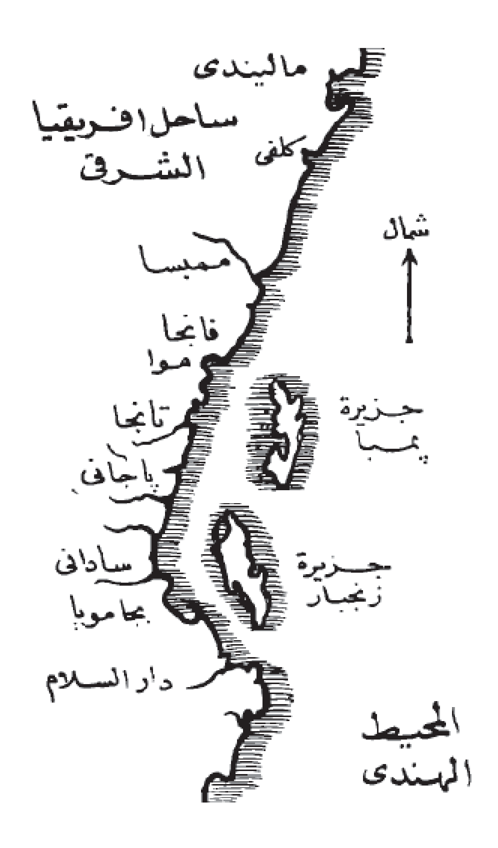
وكان كويلو ملك هذه الجزيرة يقيم غير بعيد عن الثغر وقد أناب عنه أحد المشايخ في مباشرة أمور الجزيرة، وكان لا بد لفاسكو أن يتعامل مع هذا الشيخ دون سواه، غير أن هذا الشيخ الحاكم كان قد أضمر الغدر بالبرتغاليين على الرغم مما كان يظهر نحوهم من مودة، ولكنه لم يفلح فيما أضمره بفضل تحذير دافان؛ فمن جهة أثار وجود البرتغاليين غيرة التجار، ومن جهة أخرى كان مذهبهم الديني حافزا للشيخ وهو المسلم المؤمن أن القضاء عليهم.

وكان بالثغر بعض الأحباش، وما أن رأوا علامة الصليب على الأشرعة وصور الملائكة على مقدمة السفن حتى خروا ساجدين.. كان اغتباط داجاما بالعثور على هؤلاء الأحباش من رعايا القس يوحنا عظيما فدخل معهم في محادثات طويلة وعلم منهم أن الحبشة لا تبعد كثيرا عن هذا الثغر ولكنها في الداخل والوصول إليها ميسور على ظهر الإبل. ولسوء حظ قائد الحملة البرتغالية أنه لم تسنح له فرصة أخرى لمقابلة هؤلاء الأحباش نظرا لأن الشيخ الحاكم كان قد وضعهم في السجن.

وجد فاسكو داجاما في جون متشادو وهو من طائفة الرجال الموسومين "بالساقطين" أو "المنبوذين" خير وكيل يمثل مصالح البرتغال في موزامبيق التي تركه فيها، وكان هذا الأخير يتكلم العربية، وهو رجل مثقف

حسن المنظر كان قد قتل أحد السادة أثناء وجوده بمتنزه لشبونة ولعله كان مزاحما له في حب إحدى الغواني، وهنا في موزمبيق أتيحت له فرصة للتكفير عن جرمه واستعادة مركزه الاجتماعي. والواقع أنه أحسن انتهاز هذه الفرصة لأنه قضى آخر أيامه كرجل محترم من أفراد الجالية البرتغالية في "جوا" (Goa)، وقد ترتب على ما أفضى به إلى الشيخ المسيطر على حكومة هذه الجزيرة عن مدى قوة البرتغال ما جعل هذا الأخير يتأسف على ما كان قد دبره للبرتغاليين، فوطد العزم على عقد أواصر المودة مع فاسكو حين عودته من الهند، وأوفد متشادو إلى الملك كويلو، أثار في قلبه الخوف من قوة البرتغال حتى أنه هو أيضا استقر رأيه على أن يخطب مودة البرتغال.

ومن ثم أرسل الملك كويلو متشادو إلى ملك ممبسا وكان صهرا له فقرر هذا الأخير أيضا أن يكون صديقا للبرتغال. حدث كل هذا قبل أن يصل فاسكو داجاما إلى ممبسا، ولكن الرسالة التي أمر الملك كويلو بإبلاغها إلى ملك ممبسا كانت رسالة تحذير وتآمر على الغدر بالبرتغاليين، غير أن فاسكو داجاما كانت تساوره الشكوك والريبة فأرغم المرشد الذي أعاره إياه الملك على إفشاء سر المؤامرة بصب بعض الشحم المغلي على ذراعيه وفى الحال أمر القائد العام بالإبحار في نفس الليلة.



وما أن وصلت لحملة إلى مالندي على الطريق الرئيسي وعلى بعد بضع فراسخ من الزنجبار حتى استقبلوا استقبالا كريما إذ كان السمسار الهندي قد كلم عنهم بالحسنى مؤكدا لحاكم المدينة أن البرتغاليين رجال مسالمون حسنوا المعشر وأنه قد ربط مصيره بمصيرهم.

نزل دافان إلى الشاطئ مصطحبا معه أحد "الساقطين" الذي برهن على عظيم نفعه، وبعد هذا بقليل استقبل ملك مالندي نائب القائد العام نيكولا كويلها وهو رجل ظريف حسن الشَّارة. أما الملك فكان كهلا رقيق الجانب كثير العطف دعي إلى زيارة الأسطول فاستقبل استقبالا رائعا

وأُعدت السفينة التي صعد إليها إعدادا خاصا بعد أن غسلت وعطرت وزينت بالمطارد والأعلام وفرشت أرضها بالسجاجيد ووضعت السيوف والحراب وما إليها من أسلحة القتال هنا وهناك فوق ظهر السفينة لإشعار الملك بقوة الحملة وعظمة البرتغال.

أما القارب الذي أرسل لحمل الملك إلى السفينة فكان يخفق فوقه علم جماعة المسيح وهو مصنوع من الدمقس الأحمر والأبيض وسط إطار قرمزي ذهبية، وصدحت الموسيقى القومية، وقرعت الطبول على الشاطئ بينما أطلقت المدافع من السفن حينما اقترب القارب منها فصعد الملك إلى ظهر السفينة على نغمات الأبواق.

كانت لحظة رائعة بالنسبة للجميع وأعجب الملك بمفارش المائدة والفوط المزركشة بالذهب وبالكؤوس الفضية والطشوت المخصصة لغسل الأيدي وبالأكواب البلورية المذهبة، واستساغ طعم اللوز المحفوظ ومربى البرتقال والزيتون بحجميه الكبير والصغير وقد قدم في جرار زجاجية صغيرة أنيقة.

وكان قد عرف استعمال الشوكة لأن فاسكو كان قد أهداه في يوم سابق قدحا بداخله كمثري محفوظة في محلول السكر مقسمة إلى أربعة أقسام وقد غرزت شوكة فضية إحداها وأمر الرسول أن يشرح للملك كيفية استعمال الشوكة لوضع قطعة الكمثرى في فمه.

كانت الصداقة والمودة ترفرفان على العلاقات المتبادلة بين الملك وبين فاسكو الذي استأذن الأول في إقامة عمود من الرخام فوق التل القائم خلف المدينة، وقد أعير البنائون لإقامته.كان هذا العمود يختلف عن جميع الأعمدة الأخرى التي اعتاد البرتغاليون إقامتها لأنه فضلا عن شعار البرتغال الرمزي المحفور فيه كان يحمل اسم الملك مانويل، وعندما رفع العمود نصبت خيمة إلى جانبه وضع فيها محراب باركه القسس ثم نفخ في الأبواق وأطلقت المدافع إيذاناً بإقامة رمز المسيحية في تلك المدينة، وبعد ذلك رتل القداس واعترف كل من أراد بخطاياه وأخيرا حانت ساعة الرحيل للمخور في المحيط الهندي بغية الوصول إلى الهند.

كان الدليل العربي الذي عهد إليه الملك في إرشاد الأسطول البرتغالي الصغير ملاحا ماهرا ينحدر من سلالة امتهنوا حرفة إرشاد السفن، وقد حاز شهرة عظيمة بعد ذلك بسنوات بفضل تأليفه أحسن دائرة معارف للملاحة باللغة العربية وكانت مفاجأة كبيرة للبرتغاليين أن يجدوا في حيازة هذا العربي خريطة للهند.

ودهش المرشد من جانبه لرؤية الإسطرلاب إذ لم يكن قد رأى مثل هذه الآلة قبل اليوم فجميع المرشدين في البحر الأحمر يستعملون – على حد قوله – آلات نحاسية مثلثة أو مربعة يقيسون بها ارتفاع الشمس، أما المرشدون الهنود فغالبيتهم يسترشدون بالنجوم.كل هذا أقنع فاسكو داجاما بأن هؤلاء المرشدين لا ينقصون عن البرتغاليين في فن الملاحة شيئا. وبرهن المرشد العربي على أنه مستشار حكيم حتى أن قواد السفن

البرتغالية أخذوا بنصائحه واهتدوا بهديه، وقد أوصاهم بأنهم عندما يبلغون الهند يجب أن يستعملوا الرقة في حديثهم وألا يؤذوا أحد إلا دفاعا عن النفس وألا ينزلوا إلى الساحل إلا أخذوا رهائن من الأهالي في سفنهم وأن عليهم أن يحافظوا على مستوى الأسعار في معاملاتهم التجارية وأن لا يفسدوها وأن في استطاعتهم أن يسترشدوا (بالمغربي الصالح) حيث أنه خبير بجميع الموازين والمكاييل. وبعد قطع ستمائة فرسخا في ثلاثة وعشرين يوما من مغادرة الحملة لميناء مالندي.

انبثق الفجر هادئا صافيا رمادي اللون وبدت الأمواج شاحبة تحت الأشعة الذهبية وارتفعت الجبال شامخة زرقاء تطل على طوفان اللجين حيث نهر الجانجيز يتدفق وقد توج ضفافه النخيل ووقف البحارة فوق البرج يلوحون بأيديهم صارخين ودوي صوت مرشد مالندي مرددا!! أنظروا أيها الربابنة.

ها هي شواطئ الهند ترتفع فركع البطل على ركبته القوية حانيا رأسه "ما أرحمك أيتها السماء" رافعا يديه إلى السماء الرحيمة وارتج عليه من الفرح فلم تنفرج عن حرف شفتاه ثم وثب قائما وسرح البصر فيما حوله وعيناه تنقدان بنار الرغبة الجامحة التي لا تعرف للمغامرات حدودا

"**المقطع الخامس**"

اضطرب ملك كَنَوُر اضطرابا عميقا حينما بلغه وصول طائفة من الرجال البيض في السفن إلى شواطئ مملكته فاستشار الكهان بسبب نبوءة انتشرت من أربعة قرون خلت بأن الهند سوف يأتي عليها يوم تخضع فيه لسلطان ملك يحكمها من مسافة بعيدة، رعاياه من الجنس الأبيض وأنه سيلحق أضرار بالغة بكل من يعاديه.

وبعد أن استشار الكهان أصنامهم أكدوا للملك بأن الرجال البيض الذين وصلوا شاطئ مملكته هم بعينهم الذين عنتهم النبوءة، على أنه لن يصيبه أي أذى ولن يلحق بمملكته أي ضرر إذا هو تصرف معهم بحكمة وعاملهم معاملة ودية.

عرض الملك على مستشاريه فخروا من فكرة النبوءة واستبعدوا أن تتحقق اليوم بعد أن مضى عليها أربعمائة عام. وذكروه بأن آلاف السفن قد ألفت مرساها بكنتور دون أن يحاول أحد من أولئك الأجانب في أيّ مرة من المرات أن يقهر الهند أو يستولي عليها. ظل الملك في حيرة من أمره، بينما راح عرافه يستحثه على مسألة البرتغاليين في الحال مدللا على صواب خطته بقوله "لا بد لمن في البر أن يخضع لسلطان سادة البحار" مضيفا إلى ذلك قوله بأنه إذا لم يظهر صواب ما أشار به في غضون خمس سنوات فإن للملك الحق في أن يفصل رأسه عن جسده.

حدث كل هذا بينما كان فاسكو داجاما يواصل رحلته صوب كلكتا دون أن يمس شاطئ منتور، وما أن ألقى مرساه بكلكتا حتى أعلم

الملك بوصول قوم غرباء في طلب التوابل وأنهم من رعايا ملك مسيحي عظيم انفصلت سفنهم عن بقية قطع الأسطول البالغ عددها خمسين سفينة، وكانوا يأملون أن يجدوها بكلكتا، وأنهم يرغبون في الحصول على بعض الفلفل والعقاقير في مقابل الذهب وغيره من العروض.

ربما سارت الأمور على خير ما يرام لولا حقد التجار العرب على القادمين ومبادرتهم لهم بالعدوان، فقد أدرك العرب أن احتكارهم لحركة تصدير التوابل قد أصبح في خطر؛ فجميع المصائب التي حلت برجال الأسطول البرتغالي، وحتى وقوع فاسكو في الأسر يرجع إلى تحريض العرب وبذلهم الرشوة لوزراء الملك. صحيح أن الملك أذن في إمداد سفنهم بالتوابل ولكن من النوع الرديء فقط على أن البرتغاليين قبلوا كل ما يبيع لهم دون اعتراض ودفعوا الثمن الذي طلب منهم مما أثار استياء صديقهم السمسار الذي اعتبر عملهم هذا ضربا من الجنون المطبق، ولكن فاسكو كان يعلم ما يفعل فقد كان عليه أن يحصل على التوابل بأي ثمن ولكن للأسف أيد تصرفه على هذه الصورة ما حام حوله وحول زملائه من أنهم جواسيس لا تجار.

***

كانت لحظة خطرة تلك التي مثلوا فيها بين يدي الملك، فقد شاهدوا على شخص هذا الملك الهندي مجموعة منقطعة النظير من الجواهر والأحجار الكريمة. كان الملك جالسا فوق أريكة غطاؤها موشَّى بالذهب

تحت حجلة من الحرير الملون وعليه ملاءة من قماش أبيض ليس إلا تنسدل من خاصرته على قدميه ولها أطراف مدببة شبكت فيها خواتم من الذهب مرصعة بالياقوت وحول إحدى ذراعيه ثلاث أساور من الذهب مرصعة بالأحجار الكريمة وبالسوار الوسطي ماسة في سمك الإبهام. وكان حول رقبته عقد من اللؤلؤ يلتف حولها ثلاث مرات ويتدلى إلى خاصرته، كل لؤلؤة في حجم البندقة وفيه زمردة في حجم الفولة. وكانت أذناه مُحلتان بكريّات ذهبية بينما وقف وصيفان على جانبي الأريكة في يد أحدهما ترس من الذهب مرصع بالجواهر وفى يد الآخر ملصقتان من الذهب.

ما أشد التناقض بين هذا اللباس الفخم البربري وبين لباس فاسكو الهادىء الوقور، معطف طويل من الساتان تضرب صفرته إلى الغبرة مبطن بالحرير المشجر ينسدل فوق جاكتة من الساتان الأزرق وفى قدميه حذاء عال أبيض، وعلى كتفيه ياقة بيضاء من الخيط المشغول وفى حزامه خنجر فاخر، وقد وضع على رأسه قبعة تنسدل من جانبيها قطعتان من المخمل الأزرق شبكت فيها ريشة طائر بيضاء بمشبك ثمين.

وبالرغم من حفلة الاستقبال الباهرة هذه، توالت المصائب والنكبات على البرتغاليين الذين تنفسوا الصعداء أن استطاعوا النجاة بحياتهم وبما اشتروه من السلع والهروب إلى كنتور حيث كان ملكها قد استقر عزمه على العمل بنصيحة الكهان وعقد أواصر الصداقة مع أبناء الجنس الأبيض هؤلاء إذا أتوا لزيارة عاصمة ملكه، لذلك ما كادت تصل سفن البرتغاليين ميناء مملكته بعد أربعة وعشرين يوما من ذلك التاريخ حتّى رحب

بهم وأكرمهم وذهب الملك بنفسه لزيارة فاسكودا داجاما في سفينته وأهداه على سبيل التذكار ورمزا لصداقته سيفه الخاص في غمده من المخمل. وأرسل هذا العاهل الهندي بصحبة فاسكو هدايا ثمينة إلى ملك البرتغال وملكتها وخطابا مكتوبا على صفحة من الذهب.

سجل أحد الفلورنسيين ممن صرح لهم بمرافقة بعثة فاسكو ما شاهده من الحوادث في كلكتا، فذكر إن أكبر تجار كلكتا الذين يسيطرون على تجارة الصادر ينحدرون من مدينة كمباي [٢٢٧] (Cambay)، وذكر أيضا بأن الجيد من نبيذ ملمزاى [٢٢٨] (malmsey) من إنتاج كنديا (Candia) والذي يصدر عن طريق القاهرة، يباع في كلكتا وهي "مدينة أكبر من لشبونة" وذكر كذلك أن القطع الذهبية المصرية والفينيسية متداولة في كلكتا.

وأن مشاهدة مجموعة من السفن ما بين ستمائة أو سبعمائة سفينة في آن واحد أمر عادي بالنسبة إلى ميناء كلكتا، وأن المكوس الجمركية تبلغ من خمسة إلى ستة في المائة، وأن جميع التوابل تباع بالأردب [٢٢٩] وسعره من عشرة دوكات [٢٣٠] إلى اثنتي عشرة دوكة بينما ثمن الأردب في الجزيرة

---

[٢٢٧] مدينة في الهند على شاطئ بحر عمان حيث خليج كمباي.

[٢٢٨] نبيذ قوي حلو المذاق. يصنع الآن في جزائر كناريا وفى مادبرا (وهو نوع من الكروم).

[٢٢٩] في الأصل الإنجليزي (**Hundred weight**) من ١٠ إلى ٢١١ رطلا

[٢٣٠] قطعة ذهبية فلورنسية تساوي من ١٠ إلى ١٢ فرنكا.

التي تستورد التوابل منها لا يتجاوز ستة دركات وأن الربح الناتج من بيعها في القاهرة يبلغ ٢١٠ في المائة.

وأغلى السلع ثمنا: المسك والراوند، ويأتي بعدها القرنفل وخشب الصبر والصمغ والقرفة وجوزة الطيب والفلفل وبخور اللبان وأقلها ثمنا والجنزبيل، وعلم الفلورنسي بأن تستورد من جزيرة تبعد ١٦٠ فرسخا إلى جنوب كلكتا بينما يستورد القرنفل من جزيرة أقل بعدا. وعلم الفلورنسي أيضا من مرشد السفينة أن الرياح في هذه المنطقة تهب من جهتين فقط: من الجنوب أثناء الصيف ومن الشمال أثناء الشتاء.

أما عن جزيرة ترابوبين (Trabobane) التي ذكرها بلليني؛ فالظاهر أنه ليس لها وجود، وأما فيما يتعلق بالقس يوحنا فليس لأهل كلكتا أي علم بأمره إلا النذر اليسير وهو غامض ملتبس وذلك بسبب قصور نشاطهم على الرحلة إلى مكة.

***

أقلع البرتغاليون عن شاطئ الهند في العشرين من نوفمبر سنة ١٤٩٨ نزولا على نصح سمسارهم لهم بالرحيل قبل وصول أسطول العب الضخم الذي حان موعد قدومه وفى كمباي تخلف صديقهم "المغربي الصالح" فودعوه آسفين على مفارقته. وفى طريق عودتهم صادفوا كثيرا من السفن الموثوقة بشتى السلع ولكن فاسكو أبى أن يستمع على إغراء مرشديه بأسر هذه السفن تعففا وتبلا قائلا في أنفه "إننا لسنا لصوصا".

أرسى الأسطول الصغير بـ "مالندي" في طريق العودة فاستقبلهم ملكها العجوز بالبشر والحبور وتبادل الفريقان الهدايا، فكان من بين الهدايا المخصصة لملكة البرتغال كتلة من العنبر الند طولها (٢٣١) ياردة وربع ياردة وعرضها كعرض خاصرة الرجل، ولما كانت الهدايا المقدمة من هذا الملك العجوز إلى ملك البرتغال وملكتها ثمينة جدا، رأي فاسكو أن يقابل هذا الكرم الحاتمي بمثله فأرسل إلى الملك عشرة صناديق تحتوي على معظم السلع التي كان قد تخيرها بعناية فائقة في البرتغال قبل سفره لاستعمالها في عمليات التبادل في الأسواق ولكنه لم يكن قد تصرف في الهند إلا فيما كان معه من الأقمشة، فقد اضطر إلى دفع ثمن ما اشتراه من التوابل ذهبا بينما حصل بعض بحارته على قليل منها مقابل قمصانهم.

طلب الملك إلى فاسكو أن يسمح لاثنين من مرشدي سفنه بمرافقته إلى البرتغال ليتمكنا من دراسة الشاطئ وملاحظة معالمه لمساعدة من يأتي بعدهم في المستقبل؛ فاستجاب فاسكو لسؤال الملك واصطحب معه المرشدين العربيين اللذين كانا له أكبر عون في المنطقة الواقعة بين رأس الرجاء الصالح وبين جزائر أزور نظرا لخبرتهم في الاهتداء إلى الطريق السوية في البحر مسترشدين بنجوم الجنوب ليس إلا.

غادر فاسكو داجاما، مالندي في العشرين من شهر يناير سنة ١٤٩٩ مارا برأس الرجاء الصالح بعد مضي ثلاثة أشهر من ذلك التاريخ.

---

(٢٣١) في الأصل الإنجليزي "**Ell**" وهو مقياس تقاس به الأقمشة يختلف طوله باختلاف البلاد فهو مثلا في إنجلترا ياردة وربع (أي حوالي ١١٤ سنتيمترا) وهو المقصود هنا

لم يشعر البرتغاليون بالغبطة تْغمر قلوبهم مجرّدة من كل شائبة إلا حينما أبصروا نجم القطب، لأنهم جميعا – ربابنة وبحارة – كانوا قد استبد بهم الشوق للعودة إلى حظيرة الوطن، غير أن بوادر الحزن العميق أبت إلا أن تعكر صفو هذا الذي شاع فيه السرور فأصيب باولو داجاما بعلة خطيرة انتقل فاسكو بسببها إلى سفينة أخيه وملازمته ولا غرو فقد جمع الحب الأخوي الخالص بين قلبي هذين الشقيقين.

أما السفينة التي كان يقودها نيكولا وكويلها فقد انفصلت عن سفينة فاسكو فوصلت ثغر لشبونة في العاشر يوليو سنة ١٤٩٩.

***

كان سرور الملك مانويل بالنبأ الذي أفضى إليه به كويلها أعظم من سروره – على حد تعبيره – يوم دعي إلى ارتقاء عرش البرتغال. ساور الملك شيء من القلق وهو ينتظر قدوم فاسكو داجاما، ولكن هذا الأخير كان قد أرسى سفنه بجزائر تراسير (Terecra) فدفن بها.

لم يستطع فاسكو مواصلة الرحلة في الحال إلى أرض الوطن لخلل طرأ على سفينة، فعرض عليه حاكم الجزيرة أن ينقل شحنة سفينته إلى أخرى ولكن فاسكو أبى إلا أن يعود إلى البرتغال على نفس السفينة التي غادرها على ظهرها ويفرغ حمولتها من التوابل بمينائها، لذلك لم يصل لشبونة إلا بعد مضي شهرين وكان ذلك في الثامن عشر من سبتمبر سنة ١٤٩٩.

انقضت عدة قرون على عودة فاسكو داجاما إلى وطنه، ولكن وصف ذلك الحادث الخطير ما برح حتى اليوم يتردد صداه في الجو وينبض بالحياة حتى لتهتز له مشاعر القارئ في عصرنا هذا فلا يسعه إلا أن يشارك بعاطفته شعور الفرح الممزوج بالروعة والرهبة الذي استولى على الجماهير عظيمها وحقيرها، غنيها وفقيرها وقد هرعوا إلى الشاطئ ليشاهدوا البحارة يهبطون من سفنهم وكأنهم بعثوا من ظلمات القبور. ولكن للأسف لم ينج من براثن الموت سوى ثلث عدد الذين أقلعوا عن الشاطئ من ستة وعشرين شهراً قبل هذا التاريخ.

نقل إلينا المؤرخ "كوريرا" (Coreira) صورة حية لتلك الأيام الخالدة حتى ليستطيع القارئ أن يتخيل الملك وهو يستقبل فاسكو داجاما، وأن يتخيل الحفلات التي أقامها الملك تكريما له واحتفاء به وتمجيدا لأعماله وبطولته. وها هو الملك يكافئ قواد الحملة بتوزيع الذهب والتوابل عليهم وبرفع مراتبهم، وها هي الجماهير تبادر إلى الكاتدرائِية لتقديم الشكر لله على ما منّ به عليهم من خيرات.

وفى بلاط الملك استولى الذهول على الحاضرين عند رؤية الهدايا الثمينة التي بسطها فاسكو أمام الملكة التي أعجبها منها بنوع خاص كتلة العنبر الند وبعض الخزف الصيني كان قد ابتاعها لها القائد العام بنفسه في كلكتا، ووزع القائد العام على بحارته المكافآت والهبات والتوابل ليحملوها إلى زوجاتهم وذويهم.

وعملت الترتيبات اللازمة، بأمر الملك لتمكين المرشدين العربيين من مشاهدة لشبونة وكل ما فيها من معالم كما دعيا إلى الحفلة الساهرة الراقصة حيث سنحت لهم الفرصة لمشاهدة الملك والملكة ورجال الحاشية في ملابسهم الفخمة وهم يسمرون ويرقصون وقد سرهما كذلك منظر الكاتدرائية والقصور ومصارعة الثيران.

واسترعى اهتمام الملك وجود يهودي بولندي الجنسية من مدينة بوزن (Posen) كان فاسكو قد أحضره معه من الهند وقد طلب إليه الملك أن يقص عليه كل ما شاهده في رحلاته وتنقلاته، وكان هذا اليهودي على استعداد لاعتناق الدين المسيحي فعُمد وسمي "جبار داجاما" نظرا لأن فاسكو قام بدور الكفيل له في حفلة التنصير.

كتب الملك مانويل فور وصول نيكولا وكويلها إلى حمويه ملك إسبانيا وملكتها يعلمهما بنبأ نجاح فاسكو دا جاما: "أليس في العبارة الآتية ما يشعر بشيء من الشماتة؟" حيث أننا نعلم أن رفعتكما سوف تسمعان عن هذه الأشياء فإن من دواعي سرورنا وارتياحنا — حسبما يبدو لنا — أن نبادر فنفضي إليكم بهذه المعلومات"

قد يتساءل الإنسان عن شعور الملك فريناند والملكة إزابيللا عندما أدركا أن البرتغال قد أصبح في استطاعتها استيراد التوابل والأحجار الكريمة إلى أوروبا من مصادرها.

وقع الملك الخطاب مضيفا إلى لقبه المعتاد – ملك البرتغال – ألقابا أخرى، بحكم ما كان يأمل في المستقبل من قوة ومجد، هي: ملك الفتح والملاحة والتجارة للحبشة وجزيرة العرب وفارس والهند.

الفصل الثامن

الفلفل والسياسة

والآن تخفق رايتها وتنتشر كلما هبت عليها الرياح فوق عروس الشرق ببركة ملوكها الحكماء الأذكياء ومنها تدفقت إلينا التجارة في كل صباح ومساء.

"المقطع السابع"

لم يشأ ملك البرتغال أن يضيع الوقت سدى دون الاستفادة مما كان يسميه "الباب المفتوح لدنيا جديدة، وكانت إسبانيا في ذلك الوقت ماضية في نشر نفوذها وتدعيمه في جزر الهند الغربية كما كان خرستفر كولومبس قد شرع في القيام برحلته الثالثة. لذلك كان لا بد لملك البرتغال من أن يستقر على سياسة معينة بشأن جزر الهند الشرقية، فدعا مستشار لدرس الموضوع والاتفاق على الخطة التي يجب أن تدعم أسسها ليعلم كل إنسان أن البرتغال قادرة على مواصلة المشروع الذي بدأته.

وكان من بين الأمور التي تقرر العمل بها في هذا الاجتماع أن كل بعثة استكشافية ترسلها البرتغال في البرتغال في المستقبل يجب أن يرفرف فوقها علم جماعة المسيح شعار البرتغال الروحي والمدني.

بعد عودة فاسكو داجاما بستة أشهر أرسل الملك أسطولا مكونا من ثلاث عشرة قطعة إلى الهند بقيادة بدرو ألفارز كابرل (Pedro Alvarez Cabral) وكان البحارة الذين وقع عليهم الاختيار للسفر في هذا الأسطول من المشهود لهم بالدراية والحنكة، وكان برثولوميو دياز قد عاد من منصبه في إفريقيا الغربية منذ فترة قصيرة وهو يلتهب شوقا لاقتحام البحار ومواجهة المارد أدامستان مرة أخرى، ولا غرو فقد كان أول من اقتحم عليه حرمة مملكة ألمانية.

وكان دياجو دياز، ونيكولا كويلها قد أعربا عن استعدادهما للسفر ضمن هذه الحملة بالرغم من أنه لم يمض غير وقت قصير على عودتهما للوطن وكان عدد الجنود الذين تكونت منهم الحملة هذه المرة ألفا وخمسمائة جنديّ عدا البحّارة ومهرة العمال وسبعة عشر قسيسا. وكان مضمون التعليمات التي أصدرها الملك لقائد هذه الحملة تهدف إلى غرضين أساسين، فكان على كابرال أن يؤسس المصانع بالوسائل السلمية كلما استطاع إلى ذلك سبيلا وإلا فبقوة السلاح. وكان عليه أيضا أن يبدأ بالدعوة إلى المسيحية فإن لم تأت الدعوة بالنتيجة المنشودة (فليحتكم إلى السيف).

وعندما حان وقت الإبحار للقيام بهذه المغامرة عمَّ الفرح لشبونة، ولم يذرف أحد الدموع كالمرات السابقة، ولم يشعر أحد بالحزن على الأرواح التي قد يكون مآلها إلى الفناء، بل على النقيض من ذلك كان الحسد يأكل صدور المتخلفين لحرمانهم من فرصة جمع الثروة لأنفسهم، وراح المبحرون

ينفخون في الأبواق ويقرعون الطبول زيادة في التشجيع للناس على الاحتفاظ بهدوئهم وإثارة روح المغامرة إلى حدها الأقصى

وفى اليوم المحدد لرحيل الحملة أقيم قداس بالكاتدرائية وقام بتلاوة القداس ذلك الرجل المغرم بعلم الفلك الأسقف أوف فيزي، فهنا سنحت الفرصة لتمجيد الأمور الحبيبة إلى نفسه – الجغرافيا والمكتشفات وحمل الوثنيين على اعتناق الدين المسيحي – ولا بد أن يكون قد ترك لنفسه العنان تسبح في آفاق هذه الموضوعات، ولا بد أن يكون قد ركز وعظه على الموضوعات العلمية والدينية والمغنم الذي ينتظر أن يحقق نتيجة هذه الحملة لأننا نرى في السجلات أن المجتمعين لسماع القداس كانوا قد بدءوا يملون من طوله.

ومن الكاتدرائية أخذ الجموع سمتهم في مواكب منتظمة إلى الميناء حيث كانت السفن مزينة بالمطارد والأعلام حتى ليبدو سيف البحر وكأنه حقل ازدهرت فيه الأزهار، وبعد أن قبل الربابنة يد الملك باركهم الأسقف وأطلقت المدافع ورفعت المراسي ونشرت القلوع وهتف المودعون بحسن تمنياتهم.

أي تناقض بين حفلة الوداع هذه وبين توديع فاسكو داجاما يوم إبحاره، فهنا إيمان بالتوفيق بالمجد والثروة، وهناك خوف كادت تنخلع له القلوب وترعد له الفرائص..

***

وقع حادثان جديران بالذكر أثناء هذه الرحلة، أحدهما عاد بالريح والمنفعة والآخر كان مأساة أليمة، لمح كابرال وهو يبحث عن بعض السفن التي انفصلت عن الأسطول أرضا إلى الغرب منه، فدخل إلى الميناء وأطلق اسم أرض القديس كروز Tierre Santa Cruz. لقد اكتشف البرازيل عن طريق الصدفة وكان هذا الجزء من أمريكا الجنوبية يقع داخل خط الحدود التابعة للبرتغال فكانت صدفة سعيدة.

ومن سانتا كروز أخذ كابرال سمته صوت رأس الرجاء الصالح الذي برهن على جدارته باسمه الأصلي، رأس العواصف، فكانت شتى النذر تشعر باقتراب الكارثة، فمن هذه النذر ظهور مذنب في السماء ظل ظاهر للعيان عشر ليال. وبعد ذلك هبت عاصفة هوجاء آلهة العواصف من معاقلها في الكهوف القاتمة مختلف الرياح، تحلق بأجنحتها، وامتطت الآلهة جوادها ومضت تقود العواصف وترشدها بصوتها المدوي إلى حيث السطول لنصب عليه جام غضبها، فترى الشواطئ أولا ممزقة الأديم ويلف ظلام الليل الحالك هواء الفضاء المغبر ولكن البريق الخاطف لا يزال يلوح من بين ثنايا الجبال

المقطع العاشر

كانت التجربة رهيبة قاسية وكان لون الماء كلون النار ليلا وأسود بالنهار، وكانت العاصفة من القوة بحيث شتتت السفن فابتلع البحر الجائع منها أربعاً، وكان من بين الذين هلكوا في هذه الأعاصير برثولوميو دياز الذي غرقت سفينته بكل من عليها. هذه بالتأكيد نهاية جديرة بذلك

الملاح الشجاع الذي كان أول من قهر أمواج بحر الجنوب ومخر حيث لم يمخر إلا الآلهة (٢٣٢).

لم يصل مدينة سوفالا سوى ثمان سفن من السفن الثلاثة عشر.

رأينا أن أربعاً ابتلعها البحر ولكن ماذا عن السفينة الخامسة؟

هذه السفينة فصلت عن الأسطول أثناء العاصفة الشديدة ودفعتها الرياح في اتجاه الجنوب ولم يلبث قائدها دياجو دياز أن لمح أرضا في الاتجاه الغربي فتبادر إلى ذهنه أنها قد تكون ساحل موزمبيق، ولكن للدهشة انتهت معالم الأرض دفعة واحدة فأدرك أنه كان يسير بحذاء سيف جزيرة كبيرة.

حدث هذا في العاشر من أغسطس عام ١٥٠٠ فأطلق عليها دياجو دياز اسم سان لورنزو San Loreinzo تبركا باسم هذا القديس الذي وافق مولده ذلك اليوم. وعندما عاد إلى لشبونة وعلم الملك مانويل بخبر هذا الاكتشاف اعتقد أنها نفس الجزيرة التي قال ماركو بولو بأنها توجد في تلك المنطقة وأطلق عليها اسم مدغشقر وهو تحريف منطقي لاسم موجادوكسا التي تقع على شاطئ الصومال. والواقع أنها الجزيرة التي يسميها العرب جزيرة قمر كما ذكر بدرو دي كوفلهام في رسالته لبرثولوميو دياز.

---

(٢٣٢) في الأصل الإنجليزي **Tritons** وهو في الأساطير نصف إله من نافخ أبواق فيقيون إله البحر نصفه رجل ونصفه حوت.

وبعد مغادرة السطول البرتغالي ثغر سوفالا مر برأس أروماتا (Aromata) الذي أطلق عليه البرتغاليون اسم رأس جارد فري Gardefiu واستمر الأسطول في الإبحار شمالا حتى وصل مدينة بربرة في مملكة "القس يوحنا".

وحينما وصلت السفن الثمان إلى كلكتا استقبل القائد العام استقبالا رسميا وقدمت الهدايا المرسلة من ملك البرتغال إلى الملك الهندي في الحال، ولكن لم تلبث أن تصادمت المصالح ولم يكن هذا غير متوقع.

لقد كلف الملك مانويل خادمه الأمين بمهمة شاقة محفوفة بالمخاطر إذ كانت التعليمات التي أصدرها إلى بدرو ألفريز كابرال تنص على أن يطلب من ملك كلكتا أن يحرم على التجار العرب الإقامة داخل حدود مملكته وعرض ملك البرتغال من جانبه أن يمون كلكتا بكل ما كانت تستورده عن طريق التجار العرب وبثمن أقل، فإذا لم يستجب ملك كلكتا لرجائه وإذا لم يسمح بإقامة مركز تجاري فليعلن عليه الحرب ويقاتله.

ولكن أمام مقاومة التجار العرب لم يستطع ملك كلكتا أن يوافق على هذه المطالب، وبهذا فشلت مهمة كابرال ولم يشأ أن يعلن الحرب. ولحسن الحظ صادفه التوفيق في كوشن (**Cochin**) وكنتور إذ أبدى حكامها كثيرا من المودة نحوه وأظهرا استعدادهما لعقد صلات تجارية بينهما وبينه.

كان هذا والأمور تجري بين ملك البرتغال وملكي إسبانيا على خير ما يرام من المودة والانسجام في كل ما يتعلق بالفتوحات لما وراء البحار يدل على هذا خطاب موجه من الملك فرديناند والملكة إزابيللا إلى خرستوفر كولومبوس عشية إبحاره في رحلته الرابعة لجزر الهند الغربية.

وكان المتفق عليه أن تكون الطريق الغربية من حق الإسبانيين بينما تكون الطريق الشرقية من حق البرتغاليين، لذلك كتب [الملكان الكاثوليكيان في الرابع عشر من مارس عام ١٥٠٢] أننا قد أخبرنا ملك البرتغال بأنك إذا قابلت أحداً من قواد أسطوله في البحر فواجب كل منكما أن يعامل الآخر بكل مودة كما هو جدير برعايا الملوك الذين تربط بينهم أواصر القرابة والحب والصداقة، وسوف تتخذ جميع التدابير اللازمة لتؤكد على ولدنا ملك البرتغال بضرورة إرسال خطاب مماثل لقواد أسطوله.

***

لم ينتظر الملك مانويل عودة كبرال قبل أرسال أسطول ثان إلى الهند ففي عام ١٥٠٢ أبحر فاسكو داجاما بعد أن استراح واستعاد نشاطه إلى الشرق، وكانت عودته إلى لشبونة قبل انقضاء عام على مغادرته لها.

وفى هذه المرة وقف مواطنوه من مجرى المور في الهند أكثر مما علموا من أمورها بعد عودته من رحلته الأولى، والواقع أنه عاد محملا بالهدايا الثمينة المرسلة من ملكي كنتور وكوشن إلى ملك البرتغال وبالجزية من ملك

كبلي الذي أصبح تابعاً لملك البرتغال، ولم يكن هذا كل ما عاد به ولكنه عاد بالغنائم المنتزعة من سفن ملك كلكتا العدو اللدود.

وكان من بين الأشياء الثمينة العجيبة التي عاد بها فاسكو داجاما صنم صغير من الذهب الخالص زنته ستون رطلا عيناه زمردتان جميلتان وعلى صدره ياقوتة في حجم الجوزة وكانت تتألق كأنها قطعة من النار المتوهجة وكانت ملابس الصنم من الذهب المطروق، أما المعطف فكان من النسيج المموه بالذهب ومزركشا باللؤلؤ والجواهر.

وأما فيما يتعلق بالتوابل فقد أحضر منها داجاما كميات ضخمة ولكن كان أهم من هذا وذاك موافقة ملك كنتور على تأسيس مركز تجاري برتغالي في مملكته كما تعهد بأن يملأ جميع السفن التي يرسلها ملك البرتغال إلى مملكته بالتوابل.

طاب الملك مانويل سماع هذه الأنباء وغمره الفرح إذ أصبحت توابل الشرق منذ اليوم في قبضة يده يغترف منها كيفما شاء وعندما يشاء ولكن تحقيق هذا الأمل لم يكن بالشيء اليسير فمنذ تلك الساعة أصبح مطلب التوابل سلسلة من الحروب والفتوحات.

فجذور الجنزبيل وحبات الفلفل وجوزة الطيب والقرنفل أصبحت من الأشياء التي يطمح ملوك البرتغال إلى الحصول عليها أكثر من أي شيء آخر على وجه الأرض نظرا لأن أولئك الذين كانوا يحتكرون التوابل نهضوا

للدفاع عن حقهم في مصادر هذه الثروة العظيمة، وهكذا أصبح الفلفل والجنزبيل وجوزة الطيب والقرنفل من أهم العوامل في ميدان السياسة.

وفى عام ١٥٠٦ أرسل الملك مانويل أحد جنوده المجربين وأكثرهم خبرة إلى الهند هو ألفونسو دلبوكيرك (Alfonso d'albuquerque) الذي أبحر بأسطول مكون من ست عشرة قطعة تحمل ألفين وثلاثمائة جنديّ تحت قيادة ترستان داكيها. وكان فرانسيسكو دالمبدا نائبا للملك على الهند.

وحدث أثناء الرحلة أن دفعت الرياح إحدى السفن عن طريقها وهي التي كانت تحت قيادة روي بربرا فوصلت إلى شاطئ مدغشقر ونزل قائدها إلى البر في عدة مواضع من الشاطئ، وفى أحد هذه المواضع شاهد كومة من القرنفل. وحملت الأهالي على الاعتقاد بأن في بلدهم تنبت كل أنواع التوابل وأن بها كذلك مناجم للفضة.

لحق القائد الشاب أسطول الأميرال في موزمبيق وسرعان ما أفضى إلى رئيسه العام بقصة اكتشافه.

اغتبط ترستان داكنها بما سمع ولما كانت لديه فسحة من الوقت إذ كان ينتظر هبوب الرياح المواتية لمتابعة السفر إلى الهند فقد رأى أن يعدل إلى مدغشقر بنفسه واعتزم المرور بأقصى طرف الجزء الشمالي رغم تحذير روي بربرا وتوكيده بأن الرياح ستكون عقبة في سبيل الملاحة. غير أن الأميرال تمسكه بنظريته، ولكنه فشل في تنفيذ خطته وذهبت جميع محاولاته

أدراج الرياح بعد أن استغرقت ثلاثة شهور. غير أن ترستان داكنها أصر على اعتقاده بأن مدغشقر ربما استطاعت توريد جميع ما قد يحتاج إليه من التوابل لا سيما وأن هذه الجزيرة قد يكون فتحها أيسر من فتح الهند، نظرا لمسألة الأهالي وروحهم الودية. والواقع أن البرتغاليين لم يجدوا شيئا من التوابل في مدغشقر فهذه الكومة من القرنفل لم تكن سوى شحنة أنقذت من سفينة جاوية تحطمت في اليم.

على أن هذه الجزيرة الكبيرة القائمة في الطريق إلى الهند كانت عظيمة النفع للسفن الذاهبة إلى الشرق، فهنا بعد الرحلة الطويلة من البرتغال سُرّ الركاب بما وجدوه من المأكل والمشرب بينما قدمت لهم نفس الخدمات جزيرة سانت هلينا الصغيرة الكثيفة الغابات والتي اكتشفت عام ١٥٠٢.

ولما كانت المياه متوفرة في هذه البقعة، ومناخها هادئ معتدل فقد أراد ملك البرتغال استعمالها مصحة في الهواء الطلق فغرست فيها بأمره أشجار الفاكهة ومختلف الخضر واستجلب إليها الماعز، فكانت السفن الماخرة شمالا تنزل مرضاها إلى شاطئها إلى أن يستعيدوا صحتهم فتحملهم سفن أخرى تكون وجهتها شطر الوطن، ولم يؤذن لأحد أن يقيم بها بصفة مستديمة حتى لا يكون للأفراد حق ادعاء ملكية أي شبر منها..

***

زار دلبوكيرك مدينة هرمز حتى لا يكون وقته قد ضاع عبثا ويكون في الوقت نفسه قد أخذ فكرة عنها للمستقبل، كما زار جزيرة سكوترا التي

أمر الملك بأن تحصن جيدا. أدرك مانويل الثالث تمام الإدراك أنه لاحتكار تجارة التوابل يجب عليه احتلال مواقع إستراتيجية إلى جانب الفتوح ومعاهدات الصداقة. وقد عهد الملك في تنفيذ الجزء الأول من البرنامج إلى دالبوكيرك الأمين أما الجزءان الباقيان من البرنامج فعهد في تنفيذهما إلى ترستان داكنها.

***

خلد اسم تري سنان داكهنا إلى الأبد بوضعه على خريطة العالم، فقد سميت مجموعة الجزائر الصغيرة التي اكتشفها في الطريق إلى الهند باسمه، بينما يحتل اسم ألفونسو دلبوكيرك مكانا أكثر اتساعا يتصل بتاريخ إمبراطورية البرتغال في الهند التي وضع أساسها. وكان لهذا الجندي العظيم الخبير بفنون الحرب صفات أدبية تعادل مواهبه العسكرية، فالولاء والكرامة والرغبة في مجد مليكه والتعفف عن المنفعة الشخصية كانت من أخص مميزات هذا الجندي العظيم، ابن لوزيتانيا.

لم يقع اختيار الملك مانويل على زعيم لتدعيم سياسته أصلح من ذلك الرجل، على أنه كان هناك بعض الخلاف في الرأي على أحسن الوسائل لتحقيق الهدف المنشود وتدعيم سعادة البرتغال من رأس جاردفوي إلى رأس كومورن وخليج ملقا؛ فقد أكد نائب الملك بأن من يسيطر على البحار يقبض على زمام الساحل، وأن إقامة الحصون غير ضرورية في هذه الحالة، يبد أن دلبوكيرك كان مقتنعا من ناحيته بأن إقامة الحصون في المراكز

الاستراتيجية المهمة من الضرورات التي لا غنى عنها، لا من حيث المركز التجاري فحسب بل لتكون أيضا قواعد حربية وبحرية. وكان الملك مانويل يشارك دلبوكيرك رأيه، لذلك حثه على جوب البحر الحمر والخليج الفارسي بفكرة تنفيذ هذه الخطة، فصدع القائد بالأمر.

في خلال السنوات التسع التالية، نشر هذا الجنرال العظيم سيادة ملك البرتغال على المحيط الهندي، وأصبح يُنعت البرتغاليون بأنهم أرباب هذا المحيط، على أن دلبو كيرك لم يكتف بذلك، بل دعم لملك البرتغال السيطرة على مداخل هذا المحيط، في السويس ومصوع وسواكن وجدة وبريم (Perim) التي هاجمها وقهرها، ثم أجلي عنها ثم عاد فقهرها من جديد، وقام بعد ذلك باحتلال هرمز ومسقط.

وباحتلال ملقا تمّ للبرتغال السيطرة على طرق التجارة في البحر، فلم يسمح بعد ذلك بتصدير التوابل من ملقا بدون إذن مندوب الملك. ولكن غفل عن الملك مانويل في تشوه سيطرته على مداخل الملاحة لسوق التوابل ومخارجها أنه بعمله هذا، قد فتح الباب لطوفان التعقيدات السياسية إذ لم يكن من المنتظر أن نترك الجمهوريات الإيطالية مصادر ثروتها ينضب معينها.

فقد ظهرت بوادر التبرم المرير عندما عُلم أن برثولوميو دياز قد استدار حول رأس الرجاء الصالح، وكانت الصدور تحترق بنار الغيرة والحسد حينما عاد فاسكو داجاما من الهند وقد وسقت سفنه بالتوابل،

وأمام هذا الخطر كُوّن مجلس التوابل في فينسيا لمعالجة الموقف ودرء الخطر الذي يهدد تجارتها.

وكان سلطان مصر أيضا غير راض عن الموقف، ويأبى أن يحرم من الدخل الذي كانت تدرُّه عليه التوابل دون أن ينهض للدفاع عن مصالحه، وخاصة بعد أن أدرك مدى ما أصاب تجارة التوابل من ركود، نتيجة عمل دلبوكيرك فأقسم [٢٣٣] بأنه لن يدع أحدا يجرده من حق الامتياز الذي يتمتع به. وأدرك من كان يتجر في توابل الشرق الأقصى أن سلطان البرتغال في الهند قد قلب ميزان تجارة التوابل في المشرق بعد كل هذه القرون الطويلة.

---

[٢٣٣] في الأصل "برأس التَّيس" وهو خطأ فاحش من السكانية فمثل هذا القسم يتنافى مع تقاليد المسلمين.

الفصل التاسع

القرن الذهبي

إن أعمالك يا دلبوكرك العظيم يأيها الفرس المغوار سوف تتوج توابل ملقا وكنوزها الذهبية.

المقطع العاشر

واصل السير شرقا بعض قواد دلبوكرك فزاروا: سيلان وسومطرا وبرنيو وجاوه وبالي وعددا من جزر الملوك.

تلك الجزر التي حرصت الطبيعة الغيورة على إخفائها ظهرت الآن لعيون العالم المذهول من وراء الحجاب في عام ١٥٠٩ وصل ملقا "القرن الذهبي" عند الإغريق. وكان البرتغاليون قد أدركوا أهمية هذه المدينة كأكبر مركز لتجارة التوابل. كانت حقيقة مدينة فسيحة مترامية الأطراف كثيرة الأرباض يقيم فيها مندوبو التجار، كل جالية في ربض، فهنا يجد الإنسان الصينيين والسياميين والجاويين والهنود وكثيرا غيرهم من مختلف الأجناس.

انظروا هنا في ميناء ملقا الحصين جُمعت من كل فج بعيد ووجين كنوز الشرق تتضوع بالعطر الثمين.

المقطع العاشر

كان حاكم ملقا مسلما، وكانت سياسته تقوم على الظلم وإرهاق الأهالي بالمكوس وابتزاز أموالهم مهد الطريق لسيطرة البرتغاليين، ولكن للأسف لم يخل الاتصال الأول بهذه المدينة الشهيرة من المآسي، فقد نجم عنه فقدان بعض أبناء البرتغال ووقع بعضهم في أسر ملك ملقا وقبل أن يقرر دلبوكيرك توقيع العقاب على هذا الغدر، عقد اجتماعا استشاريا حضره قواده وضباطه للمناقشة في موضوع الهجوم على هذه المدينة المحصنة تحصينا قويا، وقد أعرب لزملائه عن وجهة نظره بهذه الكلمات "إنني مقتنع كل الاقتناع بأنه منذ اللحظة التي تنتزع فيها تجارة التوابل من أيدي العرب تنهار القاهرة ومكة إذ يضطر تجارهما إلى شراء ما يعرضونه للتصدير من البرتغال"

وافق غالبية الأعضاء على صلاحية الهجوم فنزل دلبو كيرك على رأيهم، بيد أنه تردد عن الهجوم لحظة أو بعض لحظة بسبب رسالة وصلته من الملك ينذره فيها بأنه إذا حاول محاصرة المدينة فإنه سوف يقتل القائد الأسير والذي هو من أصدقاء القائد العام المقربين.

ولكن سرعان ما تبدد كل أثر للشك أو تبكيت الضمير عقب وصول الرسالة الآتية من الأسير المذكور "لا تقيموا أي اعتبار لشخصي بل فكروا فقط في مجد البرتغال ومصلحتها، وبما أنني لا أستطيع أن أساعد على تحقيق النصر فلا أكون، على الأقل، عقبة في طريقه"

بدأ الهجوم وحالف البرتغاليين التوفيق وهرب الملك ذكر ابن دلبوكيرك وهو يكتب تاريخ أبيه العظيم بعد مضي سنين عديدة على الحوادث التي نحن بصددها دهشة البرتغاليين من عثورهم في المدينة على ألفي قطعة من المدفعية بعرباتها، وكانت جميعها أصلح من مدفعية البرتغاليين وقرر المؤرخ أن مصانع المدافع في ملقا لم تكن تقل دقة وإنتاجا ومستو عن مصانع ألمانيا.

برهن دلبوكيرك على أنه فاتح وغداري بارع في نفس الوقت فقد عمد إلى إعادة الحياة النظامية في ملقا بعد انتهابها وتخريبها وكانت النتيجة مرضية إلى حد جعل الثقة تعود إلى النفوس في أقل ما يمكن من الزمن، فعاد إلى المدينة الصينيون وغيرهم من التجار وانتشرت شهرة الجنرال حتى وصلت بكين حيث أعرب الإمبراطور عن رغبته في مصادقة البرتغال، ولهذا رفض أن يمد يد المساعدة إلى ملك ملقا الذي أرسل عمه من المكان الذي اعتصم به سفير إلى الإمبراطور يطلب من المعونة. وتوفي المبعوث الفاشل في الطريق أثناء العودة وأمر قبل موته بأن يكتب على مقبرته هذه العبارة "يؤسفني أن أموت قبل الانتقام من أسد قرصان البحار".

حدث هذا بينما أرسل ملوك سيام وبيجو وسومطرا وجاوه سفارات لتأسيس الاتصالات التجارية الودية وحمل السفراء معهم إلى الفاتح الهدايا من الراتنج الحر والذهب والتوابل؛ فملقا ثغر مهم للغاية، ولقد قال عنها ابن دلبوكيرك في مذكراته "بأنها نقطة الالتقاء بين الرياح الموسمية المنتهية وبين الرياح الموسمية المبتدئة وأن جميع تجار الشرق يجتمعون فيها".

وإنني أعتقد جديا بناء على المعلومات التي جمعتها عن ملقا وسير العمال فيها أنه لو كان هناك عالم، آخر وطريق ملاحة آخر لاجتمع الناس بالرغم من ذلك كله في ملقا لأن بها توجد جميع العقاقير وجميع التوابل التي قد تخطر للإنسان على بال"

أرسل دلبوكيرك ثلاثة من قواده ليفضحوا مجموعة الجزائر التي يسميها الأهالي ملوك، والتي أطلق عليها البرتغاليون اسم جزر التوابل تحت جناح الصباح البنفسجي المنتشر انظروا الجزائر التي يكللها بريق هذه البحار اللامعة انظروا جزيرة ترنيت قائمة بين عشرات الجزر المجهولة الاسم تلالها تشق سحب النهار القائمة.

قد ازدهر قرنفلها العبق على أيدي البرتغاليين فهنا جزائر بندا المزركشة الأديم بأنواع الفاكهة السماوية، بيضاء أو حمراء ورافق البعثة تاجر جاوي ذو يسار ليعلم البرتغاليين طريقة التعامل مع سكان هذه الجزر، وأصدر الجنرال من جانبه الأوامر المشددة لرجال البعثة على وجوب معاملة الأهالي باللين والرفق، وحرم على القواد أن يصعدوا على ظهر أي سفينة أجنبية، وكما حرم على البحارة أيضا النزول إلى الشاطئ سوى أولئك الذين يرافقون وكيل الأعمال والكاتب، وأوصاهم بإرسال الهدايا إلى ملوك الجزر ولكن نهاهم عن قبول أي هدية من أحد وأوصاهم أيضا باحترام عادات البلاد وعدم أخذ جزية أو أي شيء من هذا القبيل فخلاصة أوامر الجنرال هي اكتساب الحكام وشعوب جزائر ملوك بالكرم والمعاملة الطيبة والمودة.

ووصل أحد الربابنة بسفينته واسمه أنطونيو دبريه حتى جزائر بالي وبندا وامبودا حيث وسق بالقرنفل وجوزة الطيب والبهار، وسافر كذلك إلى ترنيت التي قال عنها أنطونيو جلفانو في وصفها "تنحدر من أعلى مركز في جداول كأنها نيران تتوقد حتى تصل إلى البحر".

ويواصل قصته – وهو الذي عين فيما بعد حاكما لجزائر ملوك – بأن منظر الجبل وهو يقذف بالنيران من فوهته أبهر الملاحين إلى حد الفضول حتى أنهم راحوا يحاولون الاقتراب منه، ولكن ذهبت محاولاتهم أدراج الرياح ووجد جلفانو بالقرب من هذا الموقع نهرا مياهه باردة للغاية حتى أنه لم يستطع أن يضع يده فيه أو يشرب منه رغما من أن هذا المكان يقع تحت أشعة الشمس المحرقة مباشرة وبصورة مستمرة

وإلى جانب هذه التجارب الشخصية يذكر جلفانو في مؤلفه التاريخي ما عبر عنه، فمثلا يخبرنا بأن من بين الأهالي من كان لأعقابهم مهاميز كالديكة وبأن جزيرة تيدور أخبره بأنه يوجد بين أهالي بتشيان رجال لهم ذيول.

ولقي أنطونيو دبريه حتفه في طريق العودة، وكان يحمل معه خرائط للجزر المكتشفة حديثا والتي أطلق عليها بيتر مارتل "فيما كتبه عن هذا الأرخبيل اسم ربض من أرباض الصين" واستعمل هذه الخرائط اثنان من رسامي الخرائط البرتغاليين كانا في خدمة ملك إسبانيا. وقد قام دبريه في سنة ١٥١٦ بعمل خريطة جامعة ظهرت فيها لأول مرة جزر ملوك والجزر

الأخرى التي زارها دبريه غير أن هذه الرسومات الزاهية الألوان الغريبة الأشكال تمثل في مجموعها صورا منفصلة أكثر منها وحدات جغرافية.

وباكتشاف جزر ملوك أصبح العثور على التوابل حقيقة واقعة بالنسبة إلى البرتغاليين، وقد ترتب على هذا امتلاء خزائن القصر الملكي في لشبونة بالتوابل من جميع الأنواع؛ ففي غضون عام **١٥١٣** وصلت لشبونة من جزر ملوك مباشرة شحنة من جوزة الطيب زنتها مائة واثنا عشر رطلا وحوالي ألف رطل من البهار.

وما أن بلغ الملك مانويل نبأ الاستيلاء على ملقا حتى أوفد من فوره رسولا إلى البابا ليفضي إليه بالنبأ السعيد وبأن "القرن الذهبي قد أصبح الآن ملكا للبرتغال"، وأقام البابا ليو العاشر بمناسبة "هذا الانتصار العظيم" انتصار ملك مسيحي على الكفار والوثنيين قداسا خاصا للشكر وأمر بتيسير موكب رسمي اشترك فيه بنفسه أخذ طريقه سمت كنيسة سانت ماريا دلبوبولو ومن ثم إلى سان اجو ستينو حيث كانت مجموعة من أفصح الكرادلة ينتظرون الموكب وألقوا عليه كل بدوره قداسا شاملا لخصوا فيه كل ما عمله البرتغاليون بجرأة وشجاعة لم يشهدها التاريخ من قبل مذيلين جميع العقبات مقتحمين جميع الأخطار في سبيل القيام بواجباتهم التي أخذوا على عواتقهم عبء تنفيذها طواعية.

وكان مما قاله الواعظ عند الكلام عن ملقا القول: "أبانا المقدس، هذا هو القرن الذهبي الذي يعتبر أشرف الأماكن في الهند وليس على وجه الأرض شيء يرغب في الحياة إلا وهو يوجد بوفرة عظيمة في ذلك المكان".

كان ليو العاشر كثير الاهتمام بكل ما يتعلق بهذا العالم في كل ميدان من ميادين الحياة فيه، ففي مدة ولاية هذا البابا على روما ازدحمت هذه الأخيرة بالسكان مرة أخرى فارتفع عددهم من أربعين ألفا إلى تسعين ألفا بينما راح ميشيل أنجلو ورافائيل ينتجان من روائع الفن ما خلد ذكراهما.

وشهدت روما مشهدا فذا حيثما قدم على البابا ليو العاشر ترستان داكنها من قبل الملك مانويل حاملا إلى البابا هدايا منقطعة النظير مما لا يوجد إلا في الهند وحدها بينما قدم له عن نفسه عددا من الوحوش الضارية علما منه بما انطوت عليه سجية هذا الصياد العظيم من حب للحيوانات وتقدير لها.

وكانت الجماهير الخفيرة قد احتشدت لمشاهدة سفير الملك والترحيب به، وقد استقبله الملك عند مدخل المدينة حيث انتظم موكب فخم سار بين شوارعها حتى انتهى إلى القصر البابوي.لم تخل نافذة من نوافذ المنازل الواقعة على طريق الموكب من النظارة وغصت الشوارع بالجماهير حتى لم يعد هناك موضع لقدم، والحق أن روما لم تشهد مشهدا مماثلا منذ أيام القياصرة. وكان من بين الحيوانات المهداة للبابا فيل ضخم

وفهدان ونمر وغيرها من الفصائل النادرة (٢٣٤). كان البابا ينتظر الموكب في شرفة قصره، وما أن وصل الفيل تحت الشرفة حتى ركع الحيوان العظيم وأحنى رأسه ثلاث مرات.

كان ابتهاج الناس بمنظر الفيل شديدا وازداد فرحهم عندما نهض الفيل وملأ خرطومه بالماء من إناء كبير وجده إلى جانبه ثم أخذ يرش الحضور غنيهم وفقيرهم على السواء، ويقال إن البابا قد طرب كثيرا لهذا الحادث.

وكان فرح الجمهور واغتباطه عظيما للغاية حتى أن الموكب كرر مسيره مرة أخرى تلبية لطلبه، وبعد انتهاء الموكب استمتع ليو العاشر بمشاهدة النمر في حديقة الفاتيكان وهو يقفز فوق ظهر أحد الخيول ويطارد ظبيا من الظباء، وقد تناول المؤرخ هذا العمل بالنقد الجارح ذاكراً أنه يتنافى مع أعمال قداسته، ولكنه أضاف إلى ذلك ما يبرره وما كان دلبوكيرك منهمكا في تدعيم سيادة البرتغال على القرن الذهبي في الطرف الآخر من المعمور اكتسب هذا الجنرال قلوب الناس بفضل حكمته ورزانته في معاملتهم لذلك عندما قرر مغادرة مدينة ملقا بعد قضاء عام بها حزن التجار لفراقه وعرضوا عليه الذهب والفضة ليبقى ولكنه شعر بأن الواجب يحتم عليه مواصلة فتوحاته بشاطئ ملبار.

---

(٢٣٤) للأسف مات وحيد القرن أثناء الطريق، وكان من بينها أيضاً فرس فارسي مطهم بكامل عدته يحف به سياسة وهم بملابسهم التقليدية.

وحينما أقلع دلبوكيرك عن الشرق الأقصى أخذ معه إلى جانب الكنوز الأخرى الشيء الوحيد الذي احتفظ به لنفسه أثناء إباحة ملقا، وهو عبارة عن ستة ليوث كبيرة مصنوعة من البرونز كان يعتزم نصبها على قبره، ومن الهدايا التي حملها للملك طائفة من البنات تمثل مختلف الأجناس المقيمة بملقا وهو بهذا العمل لم يخرج عن التقاليد التي تقضي على كل زائر من بلاد أجنبية أن يحمل معه إلى ملكه طائفة من السكان ليدلل على زيارته لبلادهم.

ولكن مما يؤسف له أن السفينة غرقت في البحر أثناء الطريق بما عليها من الأسود والكواعب الحسان أما الجنرال فقد نجا بحياته. ولم تغب عن ذاكرة دلبوكيرك لحظة واحدة أوامر الملك بوجوب البحث عن مملكة القس يوحنا وجمع ما أمكن من المعلومات عنه، لذلك انتهز كل فرصة لجمع المعلومات عن الحبشة.

وأمَّا ما كان يدور بين الناس مما يتعلق بهذا الموضوع فهو أن القس يوحنا كان أعظم ملك في جميع إفريقيا وأن مملكته تمتد من مدخل البحر الأحمر إلى جزيرة سبير تحت مدار السرطان [٢٣٥] تحدث دلبوكيرك مع أحد المغاربة في إحدى المناسبات كان قد كلفه ترستان من قبل أن يجتاز هذه المملكة حتى يصل إلى غانا، فأفضى هذا الرجل إلى دلبو كيرك بأنه قد اجتاز فعلا جميع إفريقيا من أرجون (Arguin) على موزمبيق وأنه مستعد لإعادة الكرة، بيد أنه يرفض اصطحاب أي برتغالي معه كما فعل "دَاكنُها"

[٢٣٥] المثوتن سنة ١٥٩٨.

لأنه الرجل الذي اصطحبه معه، وإن يكن قد اختتن ليوهم الناس بأنه مسلم. إلا أنه كان ثرثاراً، ومن هنا كان مصدر الخطر.

كان من دواعي سرور دلبوكيرك، أن يستقل في مركز رئاسته العام في "جُوَا" سفيرا من قبل الملكة الوصية على عرش الحبشة، كان قد وفد على الهند بغية السفر إلى البرتغال على ظهر إحدى السفن البرتغالية العائدة إلى موطنها، ولكنه لم يجد أثناء الطريق من يشجعه على تحقيق غرضه، لأن الضباط البرتغاليين الذين قابلهم أثناء الطريق لم يقتنعوا بأنه صادق في قوله، ولكن ما أن سلم المبعوث إلى دلبوكيرك خطابا موجها إلى ملك البرتغال حتى اهتم بالموضوع من فوره. اعترف المبعوث بأنه أرمني الجنسية، ولكنّه ادعى بأنه شقيق أبونا [٢٣٦].

دهش البرتغاليون من اختيار أرمني ليكون سفيراً للحبشة بينما يوجد في بلاطها بدرو دي كوفلهام، الذي كان في استطاعة الملكة الوصية إرساله، وكان المفهوم أنه لا يزال في الحبشة. وحينما وجد الأرمني أنه قد أصبح موضع شك وارتياب، اقترح على الجنرال أن يفتح الخطاب ويقرأه، ولكن الأخير رفض هذا الحل.

وحينئذ أسرَّ المبعوث إلى الجنرال بمضمون الخطاب، وهو اقتراح من الملكة بالتزاوج بين أبناء الأسرتين المالكتين، وعرض رسمي من الحبشة بإرسال الجنود والمؤن لمعاونة البرتغاليين في كسر شوكة السلطان في القاهرة

---

[٢٣٦] أبونا هو رأس الكنيسة الحبشية.

مدينة مكة. راق كل هذا لدلبوكيرك لأنه يتمشى مع خطته إذ كانت تلتهب في رأسه فكرة المسير السريع من المدينة إلى مكة لاختطاف رفات النبي ثم عرضها على المسلمين بعد ذلك مقابل التخلي عن فلسطين. وكان من بين الخطط التي اعتزمها تحويل النيل عن مجراه حتى تحرم مصر من خصوبة أرضها فيتم هلاكها. وعبر النجاشي عن استعداده ورغبته في القيام بهذا العمل، ولكن كانت تنقصه الوسائل لتنفيذه. وبناءً على هذا، طلب دلبوكيرك من الملك مانويل أن يرسل إلى الحبشة صناعا من أزور لمهارتهم في القيام بمثل هذا العمل، إذ كان عليهم أن يفتحوا ثغرة بين سلسلة التلال الصغيرة التي تجري بجانب نهر النيل داخل مملكة القس يوحنا.

وأطلع السفير دلبوكيرك على قطعة صغيرة من الصليب الحقيقي، سلمتها إليه الملكة الوصية على عرش الحبشة لتسليمها للملك مانويل؛ فأمر الجنرال بصنع علبة من الذهب لوضع قطعة الصليب فيها. ولكن بالرغم من سموّ قيمة هذه الهدية، لم تبرح الشكوك والريبة تحوم حول شخصية الحبشي في بلاط روما وبلاط البرتغال، وكان كل ما لاقاه من النجاح هو ما قرره الملك مانويل من إيفاد سفير برتغالي إلى النجاشي. غير أن السفير مات في الطريق، فأرسل دون رود ريجودي ليما (٢٣٧) خلفا له، فوصل أكسوم عام ١٥٢٠.

وكان من بين حاشيته الأب فرانسيسكو ألفارز الذي كتب بعد ذلك تقريرا عن هذه الرحلة العظيمة وعن أول زيارة رسمية تقوم بها البرتغال

---

(٢٣٧) **Rodrigo de lima**

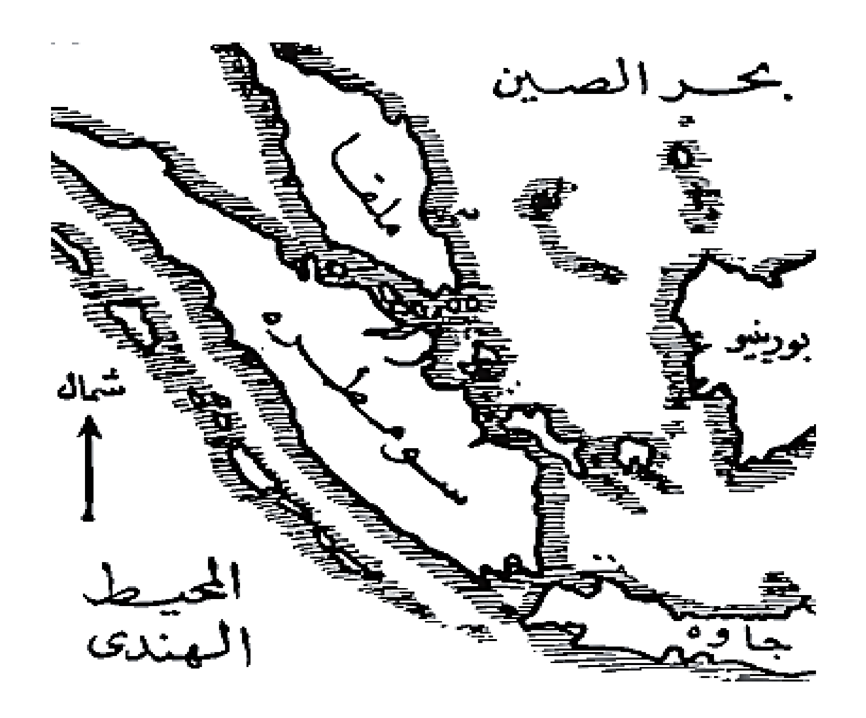
للحبشة: وذكر الأب فرانسيسكو ألفارز في تقريره بأنه اجتمع بيدرو دي كوفلهام فقص عليه هذا الأخير كل ما حدث له منذ مغادرة البرتغال حاملا أمر الملك بالبحث عن القس يوحنا.

كان اغتباط كوفلهام بمقابلة مواطنيه لا حد له، فقد انقضت ثلاثون عاما على مغادرته الوطن، وزاد اغتباطه أضعافا حينما علم بما ترتب على رحلة دياز من النتائج العظيمة، وإن يكن للخرائط التي أرسلها صحبة الإسكافي اليهودي من ثمانية وعشرين عاما خلت بعض الفضل في تحقيق ما حققه فاسكو داجاما.

توفي دلبوكيرك عام ١٥١٥ دون أن يضع الخطط التي كان اعتزمها بشأن مصر موضع التنفيذ، وكتب إلى الملك وهو على سرير الموت يرجوه أن يعترف بابنه غير الشرعي وريثا له، وأن يمنحه جميع المكافآت التي وعده بها الملك. أما عن الأمور في الهند فقد كتب الرجل المحتضر "إن مجريات الأمور فيها سوف تتكلم عن نفسها وعني"، وقد كان.

ورغما من أن ألفونسو دلبوكيرك طلب من الملك أن يسمح بنقل رفاته إلى البرتغال لتدفن فيها، إلا أن الملك لم يستجب لهذا الطلب، فقد كان يشعر بأن ممتلكاته الشرقية آمنة سالمة طالما أن رفات فاتحها مدفونة بها إذ كان الهندوكيون والمسلمون على السواء يحترمون دلبوكيرك ويعتبرون

إدارته عادلة منصفة حتى أن المسلمين كانوا يقولون بأن دلبوكيرك العظيم لم يمت حقيقة وإنما استدعاه الله إلى جواره ليجعله على رأس الملائكة [٢٣٨].



(٢٣٨) هذا زعم باطل، فالمسلمون لا يصدر عنهم مثل هذا السخف والهراء.

الفصل العاشر

في صحبة الشمس

ما لا يعلمه الفن تهدي إليه الصدفة.. لمبين

كان من بين أفراد الطبقة الراقية الذين تطوعوا لخدمة الملك مانويل في الهند رجل يدعد فرنان ماجلان، أحد الحجاب السابقين للملكة – زوجة الملك جون الثاني – وقد رقي فيما بعد إلى رتبة فارس من حملة قلادة سان ياجو. وعندما كان يعمل في البلاط الملكي كان يتتبع باهتمام بالغ جميع مناقشات الملك حول موضوع المكتشفات والملاحة، وسمح للحاجب الملكي بالاطلاع على جميع الخرائط الموضوعة من عهد هنري الملاح والمحفوظة في خزائن الدولة.

افتتن الشاب ماجلان بخريطة مارتن بهايم أكثر من افتتانه بالخرائط الأخرى، وحار في تفسير بعض الخلجان المبينة معالمها في نفس الموضع الذي تقوم فيها أمريكا الجنوبية، ذهب ماجلان بعد ذلك إلى الهند مع فرانسيسكو دلميدا [٢٣٩] ثم عمل تحت إمرة دلبوكيرك، فأقام بالهند سبع سنوات، ربى لنفسه أثناءها مركزاً ساميا وسمعة طيبة كجندي باسل ورجل ذي قلب رحيم: وقد برهن في إحدى المناسبات أثناء غرق إحدى السفن على شجاعة فذة وبر ببحارته وصون لأرواحهم مما طوق أعناقهم وأطلق

---

[٢٣٩] **Francisco d'Almeida**

ألسنتهم بالشكر. غير أن الزعيم الأكبر، كان يضمر له بعض الحقد، لأنه رفض الموافقة على بعض خططه في إحدى المناسبات حينما طرحها على معاونيه ومن تحت إمرته من الضباط لأخذ الأصوات

كان ماجلان قد أبحر مع أنطونيو دابري [٢٤٠] في رحلته الخالدة حينما هبط لأول مرة خليج الملايو وجزائر ملوك، وبينما كان ماجلان مرابطا بملقا كان صديقه فرانسيسكو سيرانو يقيم في ترنات وكان الصديقان يتراسلان من حين لآخر فذكر سيرانو في إحدى رسائله إلى صديقه بأنه يرى إمكان الوصول إلى جزائر ملوك بالإبحار غربا من البرتغال ثم الأخذ في السير صوب الجنوب، وقد يكون من حسن الرأي تجربة هذه الطريق فربما كانت أقصر من غيرها وهذه في الواقع هي نفس النظرية التي أبداها خرستفر كولومبوس للملك.

وما أن عاد ماجلان من الهند حتى اشترك في الحرب المراكشية التي أصيب فيها بجرح بالغ ترتب عليه عاهة العرج المستديم. ولما أصبح غير صالح للخدمة العسكرية، ولما كان قد فقد جميع ما يملكه حينما تحطمت السفينة المشار إليها آنفا، فقد توسل إلى الملك أن يزيد المرتب الذي يصرفه له البلاط بوصفه من رجاله نصف دوقة في الشهر (حوالي ثلاثين قرشا مصريا) ولكن الملك مانويل كان ممسكا غاية الإمساك، مشهورا بذلك، فلم يكن سؤال ماجلان، مآله الرفض فحسب، بل أخبر أيضا بأن الملك لم يعد في حاجة إلى خدماته. وكان الاعتقاد السائد أن دلبوكيرك هو

---

[٢٤٠] **Aanterriod' Abru**

المسئول عن إيغار صدر الملك على ماجلان، ولكن عزي رفضه إلى تخوفه من سابقة غير مرغوب فيها

كان لماجلان من النشاط والشغف بالملاحة والاستكشاف ما أبغض إليه حياة الخمول والاستكانة، ففكر مليا فيما اقترحه عليه صديقه سيرانو في رسائله، وفكر مليا في زيارته لجزائر ملوك، وفكر مليا كذلك في تلك الخلجان المرموقة على خريطة بهايم والمثيرة للفضول، فقرر من وقته وضع خطة للعمل تتفق مع نشاطه ورغبته، فغادر البرتغال قاصدا مدينة أشبيلية حيث يقيم نفر من أصدقائه، من بينهم دياجو باربوزا[٢٤١] – الذي أصبح فيما بعد حماله – وخرستفر دي هارو من أغنياء التجار والذي يمثل في لشبونة بيتا من بيوتات أنتورب[٢٤٢] ولكنه انتقل إلى الإقامة في أشبيلية بسبب حقده على ملك البرتغال.

---

[٢٤١] **Diego Barbosa**
[٢٤٢] **Anturp**



كان هذا التاجر قد قضى سنوات عديدة في الهند كما كان يتعامل مع الصين فهو يعلم الشيء الكثير عن شئون هذا الجزء من العالم، يشاركه في هذا بريوزا. لذلك عندما شرح ماجلان لهذين الراجلين خطته لاستكشاف الطريق الغربية الموصلة إلى جزائر ملوك عن طريق الإبحار من أقصى نقطة في جنوب أمريكا الجنوبية، أنصتا إليه في عطف وتقدير وحينما أفضى هذان الرجلان – وهما من ذوي النفوذ في دوائر الأعمال – إلى أولى الأمر في وزارة المستعمرات الإسبانية بما يعتقد ماجلان إمكان تحقيقه، أجابوا بأنهم على الرغم بذلك وأن الملك على علم بذلك أيضا ولكن الملك ليس له سفن في تلك المياه، وأنه لا بد للوصول إلى تلك المياه من اجتياز بحار تقع داخل حدود المنطقة التي تسيطر عليها البرتغال.

ولكن عندما وقف ماجلان على ما أجاب به أولو الأمر صاح قائلا "لو كنت إسباني الجنسية ووضعت بعض السفن تحت تصرفي لبرهنت لكم جميعا على أنه في استطاعتي تنفيذ المشروع دون انتهاك حرمة أي جزء من الأجزاء الداخلة ضمن المنطقة المخصصة لملك البرتغال".

نقل "المشرفون على شئون التجارة والملاحة، إلى الملك تصريحات ماجلان الجزئية فأرسل إليه يقول "سرني ما سمعت ولكن العمل يسرني أكثر".

كان الجالس على عرش إسبانيا في ذلك الوقت شارل الأول حفيد الملك فرديناند والملكة إيزابللا وكان لا يزال غلاما في السادسة عشرة من عمره، وكان للعرش وصيان من كبار رجال الكنيسة هما أسقف أبراشية طليطلة الذي عرف فيما بعد باسم أكزيمنس(٢٤٣) المفتش الأعظم (٢٤٤) وأدريان دي لوفان (٢٤٥) مؤدب الملك الشاب والذي ارتقى فيما بعد إلى عرش البابوية باسم البابا أدريان السادس.

وقبل أن يسمح لماجلان بتقديم مشروعه للملك عقدت عدة اجتماعات بينه وبين أسقف طليطلة الذي استشار الفلكي "ريفاليرو"

---

[٢٤٣] Ximines

[٢٤٤] إشارة إلى أنه كان كبير محاكم التفتيش التي أسسها الكاثوليك الرومان لمعاقبة كل مخالف لمذاهبهم وقد اشتهرت بالظلم وإرهاق الناس واضطهاد الأبرياء.

[٢٤٥] Adrian de Louvain

[٨] Ruy Faleiro

فوجده يتحرق رغبة لإخراج هذه المحاولة من حيز القول إلى حيز العمل وراح يقنعه بذلك والبوصلة في يده حتى اقتنع. وساعد على قبول المشروع ما عرضه خرستفر دي هارو من تحمل نفقاته، إلى جانب ما صادفه المشروع – على غير انتظار – من تأييد أسقف ديفونكو(٢٤٦) وهو الذي قاوم خرستفر كولومبوس مقاومة مريرة حينما تقدم إليه من قبل، بنفس الاقتراح الذي تقدم به ماجلان.

تردد شارل الأول خشية تكدير مزاج عمه الملك مانويل ولكنه وافق في النهاية على قيام ماجلان برحلته المقترحة، فعمد هذا الأخير إلى التجنس بالجنسية الإسبانية حتى لا يرمى بعدم الولاء، وعندما بدا كل شيء وكأنّه على أتم استعداد وأوشكت الحملة على الرحيل وإذا بالمؤْعد يؤجل على غير انتظار وإذا بالتأجيل يمتد عاما بأكمله فقد علم ملك البرتغال بطبيعة الحال من سفيره بما اعتزمته إسبانيا فأبى إلا أن يضع إسفينا في عجلة الرحلة وإلا أن يمنع سفر البعثة يجمع الوسائل. فهو لا يطيق لحظة واحدة فكرة قيام إسبانيا باستيراد التوابل مباشرة من جزائر ملوك. وخشي المنافسة؛ فالكميات العظيمة الضخمة التي استوردها البرتغال من الفلفل قد كانت من العوامل التي ساعدت على هبوط الأسعار فيها هبوطا كبيرا.

ومن الناحية الأخرى نرى أن جوزة الطيب والبهار والقرنفل قد أصبحت تستورد بكميات ضخمة زادت في حصيلة دجلة زيادة مستمرة، وحتى التجار الإيطاليون والهولنديون يبتاعون حاجتهم من هذه التوابل في

---

(٢٤٦) **Fonesco**

البرتغال لإعادة بيعه إلى تجار "هنزا" (٢٤٧) وكان لأهم البيوتات التجارية التابعة لمدن أوجز برج وفوجر ووزلر وكلاء مستديمون في لشبونة. أيعرض كل هذا لخطر المنافسة الإسبانية؟

إنه من الممكن أن يوضح لذلك شارل الأول وهو ذلك الغلام الحدث والذي يَكِنُّ لعمه أعظم الحب ما تنطوي عليه مثل هذه المغامرة من الإضرار بمصالح العمّ لذلك أمر الملك مانويل سفيره في إسبانيا أن يحتج لدى ملكها وأن يقنعه بأنه غير جدير به أن يستمع إلى أقوال إنسان لا ضمير له، غدر بوطنه وبملكه. إن الملوك يجب أن تحتقر الخونة الغادرين وتزدريهم. ولما كان شارل الأول "رقيقا بطبعه ولا يميل إلى المنازعات" فقد تأثر بما أدلى به السفير من حجج وأدلة في المناقشات حتى كاد أن يعدل عن الحملة المعتزمة. ولكن حدث في الاجتماع التالي للمجلس أن ألقى أحد أعضائه بيانا شديدا أثر في الملك فكان مما قاله إما أن يكرم ماجلان وإما يُقتل لأنه إذا لم توفده إسبانيا لمحاولة تحقيق مشروعه فإن البرتغال هي التي سوف تستفيد من إعدامه".

وكان هذا الذي أشار إليه عضو المجلس شيئا واضحا ملموسا لأن ملك البرتغال كان قد أرسل في الوقت نفسه مندوبه ليناقش ماجلان

---

(٢٤٧) تألفت في شمال غربي ألمانيا رابطة ضمت عدداً من المدن التجارية على رأسها مدينة لوبيك منذ ١٢٤١ تهدف إلى صيانة مصالحها التجارية وحمايتها من قراصنة البلطيق والإمارات المجاورة وكانت أهم مراكز هذه الرابطة هامبورج كومالوبيك وكولونيا وقد عظم أمر هذه الرابطة حتى بلغ أعضاؤها في نهاية القرن الخامس عشر أربعا وستين مدينة.

ويتوسل إلى وطنيته أن يعدل عن مشروعه لأن نجاحه يفيد الملك شارل الأول ويَضُرّ ضررا بالغا بحصيلة دخل ملك البرتغال وفى هذا إضرار بمصالح كل برتغالي.

ولما لم ينجح الملك في إقناع ماجلان بالعدول عن خطته عرض عليه أن يعيده إلى سابق خدمته في البلاط ولكن ماجلان رد بأن هذا العرض قد جاء بعد فوات الوقت وأنه قد قطع عهدا على نفسه لملك إسبانيا.

وأما الذي دعا الملك شارل الأول في النهاية إلى الموافقة على تنفيذ مشروع ماجلان هو مطالبة أعضاء المجلس له بإجماع الآراء في العمل على تنفيذ المشروع، لأن من واجبه أن ينتهز كل فرصة لتوسيع رقعة الإمبراطورية الإسبانية.

إزاء ذلك أصدر الملك قرار بتعيين ماجلان وري فاليرو حاكمين على جزائر التوابل وعلى كل القارات التي قد يكتشفانها، ووعدهما بشتى المكافآت إذا هما وفقا إلى اكتشاف أكثر من ست جزر، ووعد الملك بأنه لن يأذن لأحد في القيام برحلات استكشافية سالكا نفس الطريق الذي سوف يسلكانها خلال السنوات العشر التالية، وكان مضمون الأوامر الصادرة لهما "عليكما إذا حالفكما التوفيق أن تكتشفا ذلك الجزء من المحيط الواقع ضمن الحدود المخصصة لنا، وألا تحاولا الاستكشاف في منطقة ملك البرتغال عمنا المحبوب العزيز علينا وأخينا وألا تضرا بمصالحه". وقع هذا العقد" الأمر" في الثاني والعشرين من مارس عام ١٥١٨.

وصلت أنباء البعثة المعتزمة إلى روما حيث أثارت اهتماما كبيرا، وحدث حينما اعتزم البابا ليو العاشر إيفاد سفير فوق العادة إلى إسبانيا بعد عام من ذلك التاريخ بمناسبة اختيار الملك ليكون إمبراطورا للدولة الرومانية المقدسة أن تقدم شاب من رجال البلاط البابوي اسمه أنطونيو بيجافتا من مواليد فينسيا إلى البابا متوسلا إليه أن يسمح له بمرافقة السفير فوق العادة إلى إسبانيا لعله يوفق إلى مرافقة ماجلان في رحلته.

أجيب بيجافتا إلى سؤاله وسافر إلى إسبانيا حيث نزل ضيفا على وكيل من وكلاء أعمال البابا فيها. وفى بيت مضيفه سنحت له الفرص في مناسبات عديدة لسماع ما يدور من المناقشات حول المكتشفات والملاحة فكان ما سمعه من عجائب المغامرات حافزا له في الإبحار مع ماجلان. وقد صرّح بأن الدوافع له في الحقيقة إلى مرافقة هذه البعثة ثلاثة:

"أولا: رؤية عجائب البحر والبر إشباعا لرغبة ملحة ملكت عليه مشاعره وليكون في مركز يسمح له بقص مغامراته على ذويه وأصدقائه في المسامرات.

ثانيا: رغبة في أن يكون معاونا للمضطلعين بأعباء هذه الحملة.

ثالثا: ليكسب لنفسه شهرة ترويها الأجيال القادمة.

سافر بيجافتا إلى برشلونة ليتوسل إلى الملك في أن يأذن له بالإبحار مع ماجلان، فأذن له الملك ومن ثم سافر بيجافتا إلى إشبيلية. وأخيرا كان

كل شيء على أتم استعداد للرحيل، بعد أن انقضى عام ونصف عام على تاريخ موافقة الملك شارل على القيام بها، واستقر رأي زعماء البعثة على أن يستفيدوا من أخطاء البرتغاليين والإسبانيين فيما كانوا قد أعدوه لرحلاتهم الاستكشافية، فيجهز الأسطول بكل ما خطر على بال القائمين بأمره، وساهم خرستفر هارو في نفقات الحملة بواقع الثلث، بينما قامت الدولة بتحمل الثلثين.

وعين ماجلان والفلكي فاليرو قائدين عامين للحملة بالاشتراك، مما أثار حقد القواد الآخرين، فقد كان الإسبانيون يكرهون العمل تحت أمرة البرتغاليين، وعندما أوشك الأسطول على الإبحار قرر الفلكي عدم السفر لأنه استدل من النجوم على أن طالع الرحلة محفوف بالأخطار، ولكن صهر ماجلان دوارت بربوزا، انضم إلى رجال الحملة الذين بلغ عددهم ٢٧٠ عضوا من بينهم ٣٧ برتغاليا و٣٠ إيطاليا و١٩ فرنسيا وإنجليزيا واحدا وألمانيا واحدا، أما الباقي فكانوا من الإسبان.

تملكت الملك سورة من الغضب حينما أدرك أن ماجلان لن يعدل عن خطته وأنه مبحر إلى جزائر الهند الشرقية في خدمة الإمبراطور فقال الملك في نفسه "هذا لن يكون" ولما كان يعتقد أن الأسطول الإسباني يهدف إلى الوصول لجزائر ملوك عن الطريق البحرية المعتادة، فقد أرسل سفنه لصده عند رأس الرجاء الصالح. ولكن حينما علم أن ماجلان قد سلك طريقا جديدة غير الطريق المعتادة أرسل أمرا إلى نائبه في الهند

بإرسال أسطول لمقاتلته في جزائر ملوك، ولكن من حسن حظ السفن الإسبانية أن الرياح والتيارات قضت على مشروع ملك البرتغال هذا.

سجل أنطونيو بيجافتا في يومياته كل ما حدث للحملة من يوم مغادرتها شاطئ إسبانيا إلى يوم عودتها إليه فكل ما رُوي عن رحلة ماجلان العظيمة مستمد من يوميات هذا الشاب الإيطالي ومن التقرير الذي كتبه عن الرحلة، وهو مدين بسجله هذا التاريخي إلى ما أوصاه به البابا من وجوب الانتباه لكل صغيرة وكبيرة وتسجيلها بعناية ودقة في يومياته. كتب بيجافتا قصة الرحلة في أسلوب سهل يمكن القارئ الفطن من متابعة بطولة الحملة وبسالتها أثناء بحثها عن جزائر الملوك في سهولة ويسر؛ فهو يخبرنا كيف أن الأسطول وصل بعد اجتيازه المحيط الهادي إلى طائفة من الجزائر أطلق عليها ماجلان اسم "سان لازار"، ثم استبدله فيما بعد باسم الفيليبين تخليدا لاسم ولي عهد إسبانيا. وهنا توفي الملاح العظيم في سن مبكرة وما أن حصلت الحملة على بعض الأنباء التي ربما ساعدت على تعرف. وضع جزائر ملوك بالضبط حتى أبحر الأسطول تحت قيادة سبستبان دل كاو.. وفى انحراف الأسطول إلى الجنوب أبصر ملاحوه في النهاية طائفة صغيرة من الجزائر الجبلية التي قال لهم مرشدهم الهندي بأنها الجزائر التي يبحثون عنها، فعبر رجال الأسطول عن فرحهم واغتباطهم بإطلاق المدافع، ويفسر بيجافتا هذا العمل بقوله "ليس عجيبا أن يبلغ منا الفرح هذا المبلغ حين وقع بصرنا على هذه الجزائر بعد أن قضينا في البحر سبعا وعشرين شهر أو يومين زرنا حلالها ما لا حصر له من الجزائر ونحن دائبون في البحث عن جزائر ملوك.

وبعد العودة إلى إسبانيا استقبل الإمبراطور في قصره بمدينة فالادوليد بيجافتا هذا الذي وصف لنا المقابلة بقوله: "لم أهد الإمبراطور شيئا من الذهب أو الفضة ولكي أهديته شيئا أجدى من كل هذا في نظرة، فقد قدمت له من بين ما قدمت كتابا من خط يدي سجلت فيه كل ما حدث أثناء الرحلة يوما بيوم".

كان بيتر مارتل أول من أرسل إلى إيطاليا أنباء عودة خرستفر كولومبس، وها هو يتناول قلمه ليكتب الآن عن رحلة ماجلان العظيمة في خطابه للبابا أدريان السادس الذي خلف البابا ليو العاشر، وفى خطابه لدوق أوف ميلاني نجده يقول بأن الشيخوخة وإن تكن قد جعلته يخلد إلى الكسل إلا أن الأنباء التي يكتب إليهما عنها تستحق محاولة استعادة نشاطه السابق، وهذا ما كتبه "في السادس من سبتمبر عادت السفينة – النصر – إلى إسبانيا وعلى ظهرها ثمانية عشر رجلا لا غير محملة بالأخشاب الثمينة والعقاقير والأطياب والتوابل".

ويُذَكِّر بيتر مارتل البابا باجتماعات المجلس الاستشاري لشئون الهند إلى رأسها هذا الأخير بوصفه أحد الوصيين على العرش حينما دارت المناقشات حول عرض ماجلان الوصول إلى جزائر ملوك عن طريق جديدة. "لقد بر ماجلان بوعده" ولكن لسوء حظه لم يكن هو الذي كتب له أن يعود ليروي بنفسه قصة رحلته وما قام به من جلائل الأعمال لأن الموت أغلق شفتيه في السادس عشر من أبريل عام ١٥٢١ في إحدى جزر المحيط الهادي".

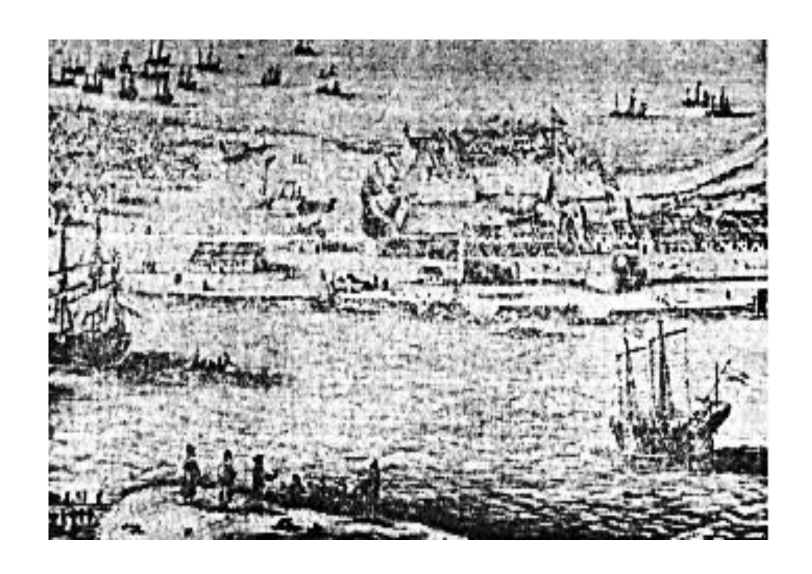
وقف بيتر مارتل على هذه الأنباء التي أرسلها إلى روما من شفاه من بقي من البحارة على قيد الحياة وذلك عن طريق استجوابهم بوصفه عضوا بالمجلس الاستشاري للهند.

وسرد مارتل كذلك تفاصيل الرحلة العظيمة في خطابه إلى فرانسيس سفورا دوق أوف ميلاني فذكر ما تعرض له البحارة من العواصف القاسية والأعاصير الجبارة وما عانوه من نقص في الطعام والشراب حتى كانت نشارة الخشب والفئران تعتبر من الأطعمة النادرة. وذكر اكتشافه تلك المضايق التي اكتشفها ماجلان والتي أصبحت تحمل اسمه، وكيف أن رجال الحملة قابلوا قوما ذوي هيئة عجيبة يلتحفون الفراء، أطلق عليهم البحارة اسم البنتاجون وكيف أنهم اكتشفوا بلدا يقذف بالنار فأطلقوا عليها اسم أرض النيران وما كان اجتيازهم المحيط الفسيح المترامي الأرجاء حتى وصلوا جزائر الفلبين، كما ذكر شيئا عن الأحداث التي وقعت في هذه الجزائر والتي انتهت بموت ماجلان الذي ذهب ضحية أمة متوحشة أهلها عراة لا يستر عوراتهم شيء.

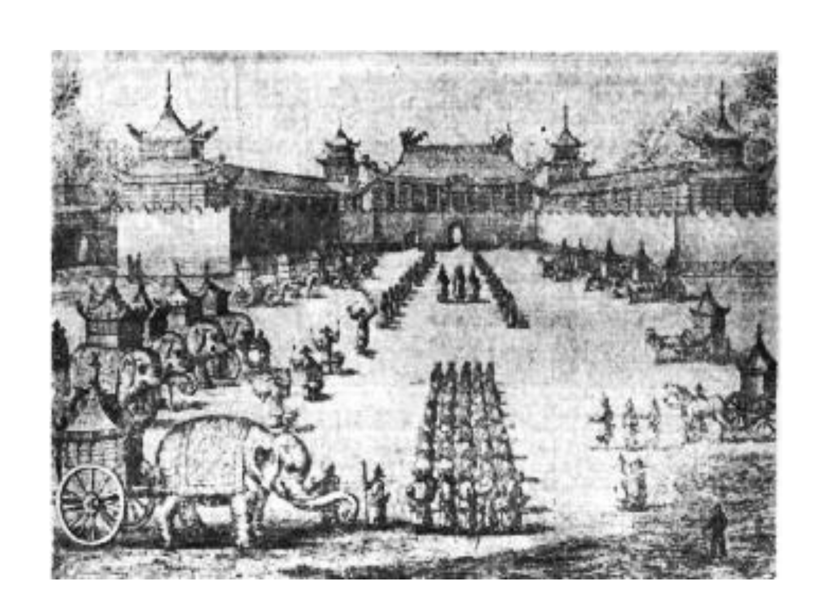
ويروي بيجافتا قصته الطريفة عن عطف ماجلان على الأهالي وعن طيبة قلبه الرحيم وكيف أنه كان قد أعد كل شيء لتعليم الأهالي مبادئ الدين المسيحي.

كان حكم بيجافتا على أخلاق الزعيم المأسوف عليه صادرا من أعماق قلبه ولا غرو فقد كان يكن له أعظم الحب وأخلص الولاة، ومما

قاله عن أهم خلال ماجلان الكريمة "ثباته في الملمات وقدرته على تحمل الجوع أكثر من أي شخص آخر في عرض البحر. وكان ماجلان أكثر خبرة من سواه بفن خرائط الملاحة وغيرها من الفنون البحرية تشهد بذلك عبقريته ومهارته الفذة ومحاولته دون أية خبرة سابقة الاستدارة حول العالم وقد كان أتمها لو أنه قد مدّ له في الأجل".

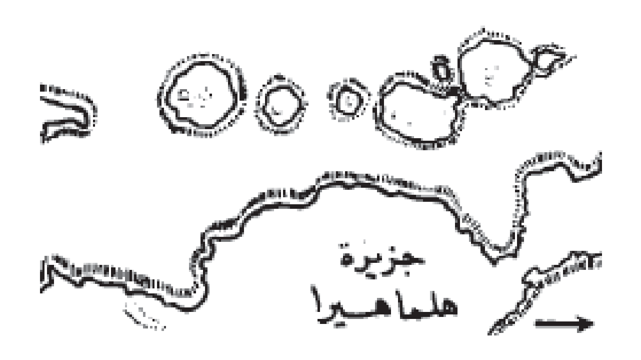


تايوان بلرموزا – من الخرائط السرية لشركة الهند الشرقية عام ١٦٧٠



سلير روسي يقدم أوراق اعتماده إلى امبراطور الصين عام ١٦٠٠

وكتب بيتر مارتل فيما كتبه لأصدقائه بأن ماجلان كان يسأل الأهالي في كل مكان أرسى به للتزود منه بالمياه والطعام، عن التوابل ومصدرها وقد عثر على مصادر كثيرة للذهب والمواد الراتنجية الغالية كما أخبرنا عن مصادر اللآلئ الكبيرة الحجم والأحجار الكريمة ولكنه صرف النفس عنها مرجئا ذلك إلى مرة أخرى، فقد كان مقتنعا كل الاقتناع بأن في الاستطاعة كسب ولاء الأهالي بالمعاملة الحسنة والهبات، ولكن للأسف عندما أوشكت هذه النظرية أن تبرر وجودها وجدارتها لقي ماجلان حتفه ولم يكن هنالك أي سبب ظاهر للعدوان، ولعل عند ماجلان هو الذي أغرى ملك جزيرة زيبو بالإسبانيين "وأفهمه بأن الفتح هو حقيقة ما يهدفون إليه، أو ربما كان ذلك بسبب الغيرة من إعجاب رجال الحملة بنساء الجزيرة".



وذكر بيتر مارتل أسماء الجزائر التي تعتبر مصدر التوابل نقلا عن أنطونيو بيجافتا وهذه الجزائر هي ترنات، وتيودور، وطوالي، ومنجان، وبتيان كما نقل عن نفس المصدر ما يعتقده الأهالي من أن السحب تغطي قمم التلال التي تنمو فوقها أشجار القرنفل ثلاث مرات في اليوم، ومن هنا كان مصدر الخصوبة، ويدلك على صحة القول ما يرويه الأهالي من أن الأشجار التي تنمو عند سفح التلال لا تنضج ثمارها أبدا.

درس بيجافتا موضوع التوابل النادرة وطريقة نموها دراسة خاصة في جزيرة جيلولو شاهد أشجار القرنفل التي يصفها بهذه الكلمات "سمك جذوعها كسمك جسد الإنسان وإنما تقل عن هذا الحجم وفقا لسنها. وتأخذ أغصانها في الانتشار من منتصف الشجرة، ولكنها تكوّن بالقرب من الشجرة شكلا هرميا وأما اللحاء فهو في لون الزيتون وتشبه أوراقها أوراق الغار وتظهر ثمار القرنفل عند نهاية غصون صغيرة في مجموعات ما بين العشرة والعشرين. وهذه الثمار بيضاء اللون في أول ظهورها وتأخذ في الاحمرار كلها قاربت النضوج ولكن لونها يسود عندما تجف. وتقطف الثمار مرتين في العام، مرة قرب موعد عيد الميلاد ومرة قرب مولد القديس

يوحنا. ولأوراق القرنفل ولحاء الشجرة والخشب رائحة الثمرة نفسها وقوة شاذاها طالما هي خضراء.

وأما عن أشجار جوزة الطيب فيقول بيجافتا أنها تشبه أشجار الجوز كما أن أوراق أشجار النوعين مماثلة، وجوزة الطيب عندما تقطف تشبه ثمرة السفرجل في الشكل واللون والغطاء الذي يكسوها من الخارج لكنها أصغر من السفرجل حجما، وغلافها الخارجي في سمك قشرة الجوز الأخضر وتحته غشاء رقيق يوجد من تحته البهار وهو شديد الحمرة ويغطي قشرة البندقة التي بداخلها والتي هي جوزة الطيب الحقيقية. ولكن الذي حار في أمره بيتر مارتل فيما يتعلق بجزائر ملوك هو أن يكون نمو أشجار جوزة الطيب والقرنفل الغالية مقصورا على هذه الجزائر وحدها فيقول متسائلا (م١٦ – في طلب التوابل) "لابد أن يكون هناك في العالم مثلها! أترى الطبيعة قد أفنت كنوزها حتى لم يعد شيء من هذه الأشجار إلا في تلك الجزر.. نعم لا بد وأن تكون هناك جزائر أخرى لا تقل تربتها خصوبة تلك الجزر". على أن هذا الإيطالي العجوز لم يكن ممن تستهويهم التوابل لأننا نقرأ فيما كتب "من اليوم الذي وجدت فيه التوابل طريقها إلى روما والمجتمع في تدهور مستمرّ وقد كان من نتائج حياة الترف والتنعم بالطيوب أن أصبح الرجال مخنثين معدومي الفضائل".



الجنزبيل

وهو إن كان حكمه على مستهلكي التوابل قد بلغ هذا الحد من القسوة والصرامة إلا أن ذلك لم يمنعه من أن يعرض على صديقه عينات التوابل وغصون بعض الأشجار وعليها ثمارها ومن أن يعلق على ما يجده رجال البلاط من اللذة النَّاجمة عن رائحة جوزة الطيب بينما هو لا يجد لأي فارق بين رائحتها وبين رائحة المباع منها في الصيدليات.

وكان من بين ما كتبه عن سفينة النصر وبحارتها قوله "خرَّمت هذه السفينة نتيجة أصابتها بالرصاص حتى أصبحت وكأنها المصفاة الدقيقة وكان بحارتها الثمانية عشر منهوكي القوى أكثر من الخيول الرازحة تحت أحمالها ولاغرو فقد قطعت في سباحتها ١٤٠٤٦٠ فرسخا مع أن محيط الأرض لا يزيد على ثمانية آلاف فرسخ، ولكن هذا يرجع إلى جهل البحارة بموضع جزائر ملوك حتى عندما كانوا على مقربة منها. ويعتزم الإمبراطور الاستفادة من هذه المغامرة التي كانت بدايتها طيبة صالحة. ثم يُذكر الكاتب قداسة البابا بموضوع الحدود، فالبرتغاليون مقتنعون بأن جزائر

ملوك من نصيبهم وأنها داخل منطقة نفوذهم، على حين يعتزم الإسبان مما يرى من الشواهد على ادعاء ملكيتها لأنفسهم.

ومهما يكن من أهمية هذا السؤال بالنسبة للإمبراطور والملك على السواء، فإن هناك شطرا آخر للموضوع أثار جانبا غير قليل من الاهتمام وهي ظاهرة لم تكن غير مفهومة فقد حدث أن سقط يوم من حساب الحملة خلال السنوات الثلاثة التي استغرقتها سياحته فبالرجوع إلى يوميات بجافتا نرى أن الحملة وصلت جزيرة رأس فرد في يوم أربعاء، ولكن قيل لهم في تلك الجزيرة أن اليوم يوم الخميس فاستحوذ القلق على جميع رجال البعثة من هذا الاختلاف غير المفهوم في تقدير يوم الوصول. ودارت المناقشة حول هذا الموضوع من جميع جوانبه المنطقية وبحثت الأسباب والعلل لهذا الاختلاف في الأيام فلم يهتد إلى حل قاطع. وأخيراً طرح بيتر مارتل المشكلة على بساط البحث في مجلس سفير فينسيا وكان خبيراً بعلم الفلك ففسر الظاهرة تفسيراً معقولا وهو أن البحارة عندما تتبعوا الشمس في رحلتهم فقدوا يوما بالنسبة لمن تركوهم خلفهم أي في البرتغال أو في ذلك الجانب من العالم الذي تقع فيه البرتغال، فلو أن البعثة اتبعت الطريق العكسي في الرحلة حول العالم لكانوا قد اكتسبوا يوماً بدلا من أن يفقدوا مثله. وكانت هناك مشكلة أخرى سببت شيئاً من الضيق لبيتر مارتل فقد وجد صعوبة في تفسير الأبعاد التي سجلها الملاحون وهي تختلف عن الأبعاد التي كانت معلومة في ذلك العهد، ولما كان بيتر مارتل مؤلفاً قبل كل شيء، كان طبيعيا أن يهتم بالوقائع أكثر من اهتمامه بأناقة الأسلوب، لذلك نراه يختم كلمته في هذا الموضوع بالعبارة الآتية: "فليفهم من يشاء

أما أنا فقد عيبت بالآمر" ثم يضيف إلى ذلك قوله: "وإذا نحن تركنا جميع الافتراضات جانباً فإن الذي يسترعي الإعجاب في أمر هذه الرحلة هو قيام السفينة النصر بالسياحة حول العالم وهو ما لم تقم به سفينة قبلها" وهو يقترح على البابا أن يتتبع رحلتها على إحدى الكريات الأرضية الصناعية ليستطيع تقدير ما قامت به البعثة على الوجه الأكمل فيقول.

"فلتبدأ قداستكم من أعمدة هرقل إلى جزائر رأس فرد، فجزائر جورجو نمدوزا ثم تنبع طريق البرتغاليين شرقا حتى القرن الذهبي الذي يسمونه "ملقا" فحينما تصل إلى هذه الجزائر تكون قد قطعت منتصف الطريق حول العالم، أي أن اثني عشرة ساعة من الساعات الأربع وعشرين التي تقطعها الشمس في رحلتها حول العالم على حد قول علماء الجغرافيا والفلك تكون قد انقضت. ولإتمام النصف الثاني من الرحلة يجب على قداستكم أن تبدءوا من رأس فرد وظهركم هذه المرة إلى السفن البرتغالية. ولكن الأسطول الإسباني تتبع في رحلته غروب الشمس بينما اتجهت السفن البرتغالية في رحلاتها دائما نحو شروقها ووصل كلاهما إلى جزر ملوك وعادت السفن الإسبانية بعد وصولها إلى القرن الذهبي سالكة الطريق التي سلكها البرتغاليون في إبحارهم نحو الشرق، وبهذا تكون السفينة "النصر" تلك العروس بين عرائس البحر، قد عادت من هذا الطريق. لجأ بيتر مارتيل في خطابه إلى استعمال التورية في كثير من الفقرات تناسب هذه الظروف وخاصة لأن الإمبراطور كان أقام حفلة رسمية قبل إبحار ماجلان ببضعة أشهر لتسليم الرتب والنياشين إلى من أنعم عليهم بها من مرتبة "الصوف الذهبي".

أسهب بيتر مارتيل في خطابه بأسلوب بليغ حول موضوع الرحلة البحرية حول العالم، وقارن بينها وبين الحفل الرسمي، قائلا في استنكار: ماذا يهمّ البابا بوكسينوس من أمر هذه الرحلة؟ إن أي طفل من أطفال أحقر الطبقات يعلم مبلغ المسافة. فلو أن الذي قام بهذه الرحلة، رحلة السفينة "النصر" المنقطعة النظير كان من أبناء الإغريق لقامت اليونان وقعدت للحدث الفذ ولتبارى الكتاب وتنافسوا فيما يكتبون.

إن ذكرى ماجلان قد كتب لها الخلود، ولقد قال مواطنه المشهور لويس دي كموينزفي هذه الرحلة التاريخية التي تمخض عنها اكتشاف الطريق في المحيط الهادي:

سوف يحذو حذوك ماجلان يا كولومبس

في كل شيء إلا أمر الولاء فهو بارٌ بأمه الوطن لوزيتانيا

لن يقعده الخوف ولا الأخطاء عن بلوغ هدفه

فمن هذه المناطق المتوهجة كالجمر

حتى أعماق الجنوب، سوف يمضي متحديا المجهول

بينما يمسك في راحة يده مفتاح الطريق الغربية

إلى تلك الممالك التي تشرق عليها الشمس

***

هذه المضايق المائجة بالزبد، سوف تقدس للأدب

ذكرى البطل، وتحمل اسمه الذي لن يمحوه الزمن

وهذه البحار الرحبة الصدور المجهولة الأطراف

سوف تستقبل سفنه وسط التيار المرعب

وتحت السماء القاتمة المغيرة حيث لم يتطرق إلى الآذان من قبل

هدير مثل هدير هذه الأمواج. إنه يتحدى كل شاطئ مجهول

المقطع العاشر

ولكن للأسف، لقي ماجلان حتفه قبل أن ينال جزاء عمله العظيم في هذه الحياة، هذا الجزاء الذي آل إلى سبستبان دل كانو الربان الذي اضطلع بمسئولية قيادة السفن في عودتها إلى البرتغال؛ فقد أغدق عليه الإمبراطور النعم الجزيلة وخصص له معاشا يتقاضاه طول حياته، ومنحه حق اتخاذ شعار على صورة كرة أرضية فوق هذه الكلمات "أول من دار حول العالم". وكانت صورة الكرة الأرضية المشار إليها تقزم على يدي ملكين من ملوك الشرق، يحمل كل منهما في يده الأخرى غصنا من غصون أشجار التوابل، بينما صور على الدرع عودان من القرفة وثلاث وحدات من جوزة الطيب واثنتا عشرة حبة من حبوب القرنفل أي رمز يكون أكثر ملائمة لتسجيل المحاولات الجبارة في طلب التوابل.

الفصل الحادي عشر

المنافسة

خرج من مدينتنا الطيبة دبيب في مختلف العصور ربابنة وملاحون من أكثر الناس خبرة بالملاحة وأمهرهم بشئونها وأقدرهم على تحمل المشاق؛ فأبناء تلك المدينة كانوا أول من قاموا باكتشاف البلاد البعيدة السحيقة.

"خطابات مسجلة بتاريخ ١٧ أغسطس سنة ١٦٦٨"

كان الحقد والمرارة يملآن صدور بحارة نورماندي وتجارها من رؤيتهم البرتغال وإسبانيا قد اقتسمتا العالم فيما بينهما فهؤلاء النورمانديون أبناء الفيكنجز القدماء الذين جابوا البحار في العهود الماضية لم يرضوا بمثل هذا التقسيم دون معارضة أو مقاومة فقد تحدوه بأعمال القرصنة على غرار ما عملته إسبانيا والبرتغال. فإذا لم يقدر لسفنهم أن تذهب للتزود من توابل جزائر الهند وذهبها فسوف يحصلون عليها في عرض البحار.

كان أوسع هؤلاء القراصنة شهرة قراصنة مدينة دبيب، وكلمة دبيب معناها "العميق" وهو الاسم الذي أطلقه الغزاة النورمانديون على البلد الحصينة التي بناها شارلمان في عام ٨٠٩ وبتاريخ هذه المدينة ترتبط أسماء عدة ملوك من ملوك النورمانديين، فقد جعلها ولو ثغره الحصينة. ومنها حملت السفن المسلحة جنود وليم الفاتح إلى إنجلترا، وفى دبيب حوصر

الملك ريتشارد قلب الأسد، حاصره فيليب أوجست الذي أحرقها عن آخرها وحطم كل سفينة بمينائها، على أنه لم تمض سنة على هذا الحريق والتدمير حتى كانت هذه المدينة قد ازدهرت مرة ثانية وما لبثت أن صارت أهم سوق تجارية يتبادل فيها تجار فرنسا وإنجلترا السلع، وكانت أشرعة السفن النورماندية تنشر أمام الريح وكأنها أجنحة الطيور الضخمة الهائلة تسير بها فوق الأمواج حاملة بحارة دبيب، متعمقة في البحار، فتصل في كل رحلة إلى أبعد مما وصلت إليه في الرحلة السابقة. وقد سجل شارل السادس ملك فرنسا بأن دبيب مهد الملاحة الفرنسية فيقول:" لقد خرج الربابنة والملاحون المجربون من مدينة دبيب الطيبة في جميع العهود وجميع الأزمنة كما أنها تخرج فيها أمهر رجال الملاحة في أوروبا وأكثرهم خبرة بطرائق البحار. والواقع أنهم كانوا أول من اكتشف البلاد النائية السحيقة.

وهذا الزعم الجريء حقيقة واقعة؛ فسياحات البرتغاليين كانت منذ أول أمرها تنفذ بأمر ابن الملك الجالس على عرشها في ذلك الوقت؛ فكان نبأ الرحلة معروفا لدى جميع الدول الأوروبية، أما رحلات الربابنة الفرنسيين فكانت سرية لا يقوم ملك بحمايتها ولا يباركها البابا قبل خروج السفن من دبيب وروين وسمانمالو وهنفلير. وقد ترتب على الشجاعة والجرأة التي أبداها المكتشفون – مقرونة إلى حسن معاملة الأهالي في ساحل إفريقيا الغربية – أن فتحت أمامهم أبواب الذهب وغلال الفردوس.

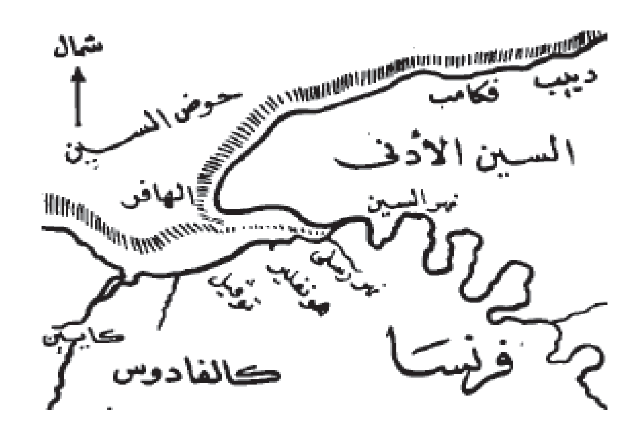
وحدث عام ١٣٦٠ أي قبل خمسين سنة من إبحار فرسان الأمير هنري الملاح إلى غانا أن سبقهم إليها قراصنة دبيب وعادوا منها بعناقيد الفلفل التي صرح أطباء المدينة بأنه جيد لا ينقص في شيء عن الفلفل الذي يستورده الإيطاليون، وبذلك أصبح فلفل غانا منافساً لفلفل الهند، وترتب على ضخامة كميات العاج المستوردة من إفريقيا تأسيس صناعة جديدة تستهدف تحويل هذه المادة والانتفاع بها في عدة وجوه حتى اشتهر في ميدان هذه الصناعة مهرة العمال في دبيب شهرة عالمية. وكان للاتحادات التجارية وكلاء في وجهات متعددة على طول ساحل غانا من أشهرها دبيب الصغيرة، باريس الصغيرة".

وكان هناك عدو آخر على ضفاف نهري جميعا وسنغال.

رحب الأهالي بالفرنسيين لما لاقوه من حسن معاملتهم، وبمرور الوقت فُضلوا على البرتغاليين مما أدى إلى منافسة مريرة بينهم وبين الفرنسيين. لاحظ تجار روين ما يجنيه تجار دبيب من الربح الوفير باستيراد فلفل غانا "المعروف باسم "ملاجا"، وعاجها وجلودها، فاستقر رأيهم على أن يحذوا حذوهم فأرسلوا عام ١٣٨٠ سفينة اسمها "نوتردام دي بون فوَياج" إلى ساحل إفريقيا الغربي فكان ما عادت به من السلع بداية لازدهار التجارة في روين.

***

كان البرتغاليون شديدي الغيرة على شئون تجارتهم واحتكارهم لها وعلى حركة الملاحة في المحيط الأطلسي ومن هنا كان سوء معاملتهم لبحاري دبيب كلما عثروا عليهم في تلك المياه مما حدا بتجار دبيب وأصحاب السفن في تلك المناطق أن يعدوها للدفاع إعداداً طيباً وليس بين الدفاع والاعتداء سوى خطوة ضيقة فكانت الحرب منذ ذلك الوقت سجالا بين الملاحين الفرنسيين والبرتغاليين فوق عباب البحار مهما يكن من قيام السّلم بين فرنسا والبرتغال، وقد سجل خرستفر كولومبس في يومياته أنه أبحر عن طريق جديدة إلى ماديرا حتى يتجنب اعتداء السفن الفرنسية عليه.



ولم تكن السفن الفرنسية وحدها هي المعرضة للعدوان، فقد كانت كل سفينة إنجليزية أو إسبانية معرضة أيضاً لاعتداء البرتغاليين باعتبارها سفينة معادية ما لم تحمل رخصة بالملاحة من ملك البرتغال، وكان ربابنة تلك السفن وبحارتها يعاملون معاملة المهربين والقراصنة، والدليل على أن كل محاولة للاتجار خلسة مع إفريقيا الغربية كان يعاقب عليها بشدة

وقسوة ما جاء في وصف من يدعى بوستاس دى لافوس وهو من مواطني مدينة بروج، سافر عام ١٤٩٩ على ظهر إحدى السفن الإسبانية لما أطلق عليها اسم غلال ساحل الذهب فكان وصفه لما حدث أسلوبه البسيط السهل منها للعقبات التي تقوم في طريق التجار الأجانب أثناء تلك الحروب التي قامت في البر والبحر حول الفلفل.

وهذا الوصف الذي تركه لنا يوستاس يدلنا على نوع آخر من الصفقات التجارية وكيف كان الزنوج يبيعون عن طيب خاطر نساءهم وأولادهم للتجار وكيف كان هؤلاء يستبدلونهم في أخرى من البلاد القائمة على الشاطئ الأفريقي بالذهب والعاج والفلفل كما كان يحمل الرقيق إلى جنوب أوروبا حيث يباعون بأثمان باهظة. ووصف بوستاس أيضا كثيراً من المشاهد التي تأثر بها فكتب مثلا عن تلال "الفردوس" بأنها جميلة المنظر تبهر العيون بطريقة وهي التي تشبه إلى حد كبير حشيشة الدينار في وطننا، وأوراقها في حجم الجماص.

أما عن سوق الرقيق وأثمانهم فنعلم مما كتبه أن الأم وطفلها يشتريان بالحق الذي يضع فيه الحلاق الماء وثلاث أو أربعة خواتم من النحاس ويبيعهما التاجر بدوره في سوق الذهب باثنتي عشرة كرة إلى أربعة عشر كل منها تزن ثلاثة بنسات من الفضة، وهو ربح وفير لا شك في ذلك. كانت رحلة يوستاس البلجيكي سائرة على خير ما يرام حينما اعترضت السفينة الإسبانية أربع سفن برتغالية أطلقت عليها النيران، ولم يكن أمام يوستاس إلا أن يسلم نفسه، وعندما أدرك قواد السفن البرتغالية أن أسراهم من

الرجال المرموقين ذوي المكانة والأهمية قسموهم فيما بينهم واحتجزوهم بينما صرحوا لبحارة السفينة الإسبانية ومن كان عليها من رقيقي الحال بالعودة إلى إسبانيا على ظهر إحدى السفن الإسبانية.. عومل البلجيكي معاملة حسنة ولكنه أنف في مرارة من إرساله إلى الشاطئ ليبيع بضاعته لصالح آسريه، وكان عليه أن يقدم لهم حسابا يوميا بمبيعاته للأهالي. لم يكن الأسر مبعث مضايقة لا يطيقها الأسري وهم في البحر، ولكن الحال تغيرت تغيرا كليا بمجرد وصولهم البرتغال، فهنا وضع بوستاس في الحديد وقدم إلى المحاكمة بتهمة دخول إفريقيا الغربية بدون إذن من الملك فقضي عليه بالإعدام شنقا، غير أن السجان مكنه من الهروب عشية تنفيذ الحكم بفضل ما أغراه به السجين من الوعد بإعطائه مبلغا كبيرا من المال. ويقص فلمنج ما صادفه من التجارب المثيرة أثناء هربه حيث كان الملك قد أمر بنشر نبأ هروبه في جميع الأنحاء لذلك كانت حياته في خطر مستديم. وما أن وضع قدميه سالما على أرض أشبيلية حتى عمد في الحال إلى إرسال مائة دوقية أي حوالي مائة جنيها أو تزيد إلى سجانه الذي كان سببا في إنقاذ حياته.

***

صارت دبيب فيما بعد للبحارة النورمانديين مثل ما كانت سجرس ومارجوركا للبرتغاليين، ففيها كان دي سليه القس والرياضي والعالم بجغرافية البحار يعلم مجموعة منتخبة من مرشدي السفن والربابنة علم الملاحة وفن

رسم الخرائط وصنع الكريات الأرضية، وكان له الفضل في تكوين أول مجموعة من أبناء وطنه اعتزموا ركوب البحر لاستكشاف بلاد بعيدة.

وكان من تلامذته – على ما تناقلته الروايات – الربان كوزان الذي اكتشف في عام ١٤٨٧ مصب نهر كبير تبين فيما بعد أنَّه برالاموزن وقد سافر كوزان بحرا إلى الكفو وواصل الإبحار جنوباً حتى وصل إلى مكان أطلق عليه اسم (الأبر) شرح كوزان لديسليه وأصحاب السفن عقب عودته بأن في رأيه، بعد الدرس والتفكير أن كل ما يجب عمله للوصول إلى الهند هو مواصلة السفر إلى ما وراء تلك "الأبر".

اقتنع أصحابه بنظريته إلى حد أن أسندت إليه بعد مضي عام من عودته قيادة ثلاث سفن ليبرهن على صحة نظريته. ولقد عاد إلى دبيب بعد مضي سنتين من بدء رحلته وصل خلالها إلى الهند وقد عزي نجاح الرحلة إلى ما درسه على معلمه ديسليه.

احتفظ في دبيب بسرية استكشافه ولم يكن هذا بالأمر العسير، نظرا لأن الحكومة الفرنسية لم تكن تطالب برفع تقارير لها عن النشاط البحري.

حتى هذا الاكتشاف المهم، اكتشاف الطريق البحرية إلى الهند لم يكشف تجار دبيب عن سره، فهم لم ينشدوا مجداً ولا شهرة ولا كان أمر ذلك يعنيهم طالما أن ربابنتهم ماضون في الكشف عن بلاد جديدة، لذلك كان شرف اكتشاف الطريق إلى الهند يعزى دائما إلى برثولوميو دياز.

وكان في طليعة ملاك السفن في دبيب رجل اسمه جان أنجو حمل إليه ربابنته ثروات عظيمة من كثير من البلاد النائية كما حملوا إليه الرقيق من مختلف الأماكن حتى أنه كان من المناظر العادية أن يرى الزنوج في شوارع دبيب. كان جان أنجو هذا من مواليد روين ولكنه استقر بدبيب وسرعان ما أصبح من كبار تجارها، يبني السفن ويمتلكها وبعد فترة من الوقت أصبح أغنى رجل في دبيب، وخلف لابنه ميراثاً ضخما ورغبة منه في إعداد ابنه للاضطلاع بالمسئوليات الجسام في مستقبل أيامه كأحسن ما يكون التثقيف في ذلك الوقت، فدرس الغلام العلوم التقليدية كما تعلم علم الملاحة تحت إرشاد ديسلييه وحينما تخرج استخدم كثيراً من زملائه في عهد التلمذة كمرشدين للسفن وربابنة لها وقد أصبحت هذه المجموعة المؤلفة من الشبان بعد وقت قصير مفخرة مدينة دبيب.

لم تكن دبيب الميناء الوحيدة لإرسال السفن في بعثات استكشافية ففي هونفلير استقر عزم بعض المواطنين على إرسال سفينة إلى الهند لاستجلاب التوابل. وكانت الروح الحافزة لهذه الحركة رجلا يدعى بينو بولمبير دي جونيفيل الذي كان قد شاهد وهو في لشبونة كميات التوابل الضخمة التي أتت بها سفن فاسكو دا جاما من الهند، فاستقر عزمه منذ ذلك الحين هو وصديقان له أحدهما إنجليزي على إرسال سفينة لحسابهم الخاص. واتفقوا على استخدام مرشدين برتغاليين ليقودا السفينة إلى جوا بالهند على شريطة أن يكون قد سبق لهما السفر إليها، ولكن قلة المال حالت دون تنفيذ مشروعهم. بيد أن السيد جونفيل وفق فيما بعد إلى جمع المال اللازم لهذه الرحلة من طائفة من رجال هونفلير واشترك هو بنفسه في

هذه الرحلة لمجرد المغامرة، كان من المنتظر أن تستغرق "اسبوار" أي الأمل وحمولتها ٦٢ طناً سنتين في هذه الرحلة، فحملت إلى ظهر السفينة المؤن اللازمة لهذه الفترة من الزمن، قوامها البسكوت والقمح والدقيق والبازلاء والفاصوليا المجففة واللحوم المملحة والمجففة ولحوم الخنزير والأسماك وملئت خزانة الجراح المرافق للسفينة بالعقاقير والآلات اللازمة، كما حملت معها السفينة مقداراً كافيا من الذخيرة الحربية والأسلحة للدفاع عند اللزوم وكميات من مختلف السلع للتبادل التجاري.

كان الرحيل إلى البلاد الواقعة خارج محيط المسيحية من المخاطرات العظيمة، ولما لم يكن من بين الرجال الستين الذين تتكون منهم البعثة أحد من القسس فقد اعترف الأعضاء جميعاً أمام القسس في الكنيسة قبل الإبحار، وكان ذلك في اليوم الموافق لمولد القديس يوحنا من عام ١٥٠٣.

كانت الرحلة شاقة للغاية، محفوفة بالمتاعب فأصيب الملاحون بجميع الأمراض التي يختص بها المناخ في إفريقيا الغربية، وكان من شدة وطأة هذه الأمراض أن مات خمسة من البحارة متأثرين بها بعد اجتياز خط الاستواء من بينهم السيد كوستي ديهارفلير الذي كان انضم إلى الحملة بدافع حب المغامرة والفضول، على أن المستقبل كان يخبئ للبحارة مصائب أخرى، فما كاد المرشد البرتغالي يؤكد لرجال البعثة بأنهم قد أصبحوا غير بعيد من رأس الرجاء الصالح حتى هبت عليهم ريح مضادة أمالت السفينة عن طريقها. وكان أدهى من ذلك وأمر أن قضى كبير المرشدين نحبه. ولنقتبس

هنا من يوميات سجل السفينة العبارة الآتية "ليس هناك ما يمكن عمله سوى أن نفوّض أمرنا للبحر يفعل بنا ما يشاء".

وبعد مضي أيام عديدة قضاها البحارة في قلق ويأس لاح لهم البر في النهاية ودخلت السفينة "اسبوار" أي الأمل في نهر يذكر الفرنسيين بنهر أورم بالقرب من دبيب.

كان الأهالي – الذين وصفهم البحارة بأنهم كالهنود – مسالمين للغاية "غرضهم الوحيد أن يعيشوا في أمان وسلام وحبور" وقد نصب صليب كبير بموافقة ملك تلك الناحية حفر فيه أسماء البابا وملك فرنسا وأمير بحارها وأسماء أعضاء البعثة جميعا حتى أقلهم مرتبة.

قضى رجال البعثة في ذلك المكان الذي وصفوه بالمكان العظيم، بضعة شهور على أتم وفاق مع ملك أركوزا وشعبه، وفشل الربان والتجار فيما اعتزموا من مواصلة السير بعد ذلك لرفض البحارة أن يسيروا في بحار مجهولة دون مرشد بحري. وكان أن أبدي السيد جونيفيل رغبته في اصطحاب بعض الأهالي إلى فرنسا فلم يسع ملك أركوزا إلا أن صرح لأبنه "أسمرك" بمرافقة لأن هذا الأمير الصغير عبر عن رغبته في تعلم صناعة المدافع والسكاكين والمرايا.

أبحر الأمير الصغير إلى فرنسا بعد أن وكل أبوه أمر العناية به إلى كهل من الأهالي يدعي "نعوم" وبعد أن وعد الربان الملك بأن ابنه سوف يعود إليه بعد عشرين شهرا على الأكثر.

كانت الرحلة حاشدة بالأحداث التي تلقي شعاعا من النور على عقلية أولئك الملاحين، فنشأت مثلا مشكلة الطريقة التي يجب أن يعالج بها الهنديان بعد أن أصيبا بمرض أشرف بهما على الموت، ثم نشأت مشكلة أخرى أقلقت بال الملاحين، وهي: هل تعمل لهما الطقوس الدينية المسيحية على الرغم من وثنيتهما أم لا تعمل، وأخيراً وبعد مناقشة الموضوع واشتراك جميع رجال البعثة في المناقشة استقر الرأي على تعميد الأمير الصغير وحده دون مرافقيه، إذ كان يتعين على البالغين الاعتقاد في المسيح قبل تعميدهم لم ينته الأمر عند هذا القرار، فقد نشأت بعد ذلك مسألة اختيار من يتولى رعاية الأمير ويكون إشبينا له، ولكن سرعان ما ذللت هذه العقبة بانتخاب السيد جونفيل، وكان أكثر رجال البعثة علما وثقافة ليكون الإشبين الأبوي للأمير الذي سمي باسمه، بينما قيل أدريان دلمار أن يكون إشبينه من ناحية الأم، وكان فرح الجميع بنجاة أسمرك من براثن الموت عظيما وما لبث أن استرد صحته بينما قضى نعوم نحبه.

سار كل شيء على خير ما يرام حتى الخليج الإنجليزي "بحر المانش" بالقرب من جزيرة جرزي حيث هاجمت السفينة "أمل" سفينةُ قراصنة من الإنجليز، واشتبكت في القتال سفينة قراصنة فرنسيين وسفن إنجليزية أخرى من سفن القراصنة فأغرق الإنجليز السفينة "اسبوار" بعد أن نهبوا ما فيها ومات أربعة من رجالها على شاطئ الجزيرة. وفى النهاية لم يعد من الرجال الستين الذين أبحروا في بداية الرحلة سوى ثمانية وعشرين رجلا، وكان مما أنف منه ربان السفينة الفرنسية أكثر من أي شيء آخر أن الإنجليز سرقوا سجله وخرائطه، والرسومات التي رسمها لتلك البلاد النائية ولأهاليها،

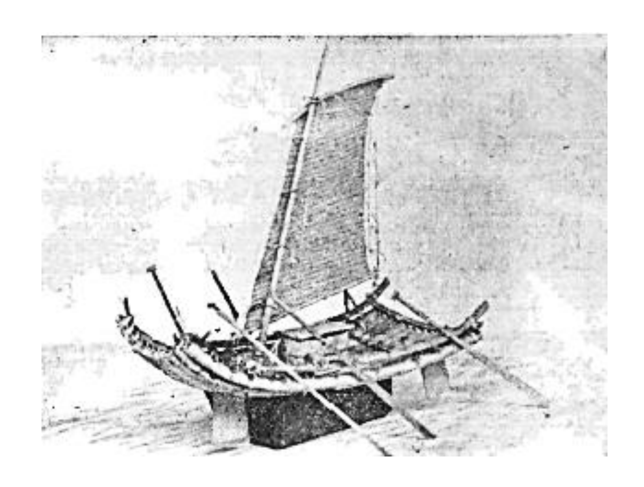
والواقع أن القراصنة أخذوا كل ما كان في السفينة من المنقولات حتى الطيور النادرة ولم يتركوا وراءهم إلا الأمير أسمرك. قُدم احتجاج في لندن على هذا العمل ولكن بدون نتيجة.

لم يكن لدى ربان السفينة بعد ما حل بها من دليل ملموس على وصوله إلى "جزائر الهند الجنوبية" وهو الاسم الذي أطلقه على المكان الذي وصل إليه، إلا ابن الملك أركوزا.

ولم تتح للسيد جونفيل فرصة لإعادة أسمرك لأبيه كما وعده؛ فعمل ما شعر بأنه من أقدس الواجبات عليه فتبنى الأمير الصغير ومنحه اسمه ورمز شعاره الاجتماعي وزوجه من وريثة إحدى الأسر الغنية. ولم يستطع الربان الفرنسي تعيين موطن الأمير أسمرك على وجه التحديد وكل ما استطاع توكيده أنه من جزيرة تقع وسط البحار جنوبي خط الاستواء.

حينما مات جون أنجو خلف لابنه جان أنجو الأصغر ثروة ضخمة وقواعد متينة لتنميتها تفوق الحصر والعد وقد أحسن جان أنجو الصغير استغلال تركة أبيه بحكمة واتزان، ولا غرو فقد أعدَّ أحسن إعداد لمواصلة أعمال أبيه وتوسيع نطاقها، فجمع الشاب العاقل حوله عدداً من أصدقائه وزملائه من عهد الدراسة ليعاونوه في إدارة أعماله الواسعة. وسرعان ما أصبح ملكا للفن في أيامه حتى أن ملك فرنسا شرفّه بالنزول في داره ضيفاً عليه وقد ازداد نفوذا وثروة بفضل ما منح من ألقاب الشرف والامتيازات والمناصب في خدمة الملك حتى أن هذا الأخير رفعه إلى رتبة فيكون دبيب

مكافأة له على إخلاصه وولائه وما أداه ويؤديه للوطن من عمل نافع صالح.



كان ما عمله ملك السفن هذا لربابنته شبيها بما عمله الأمير هنري البرتغالي لفرسانه ولقد اعتزم أن يحتل هذا التاجر النورماندي مكانة مماثلة المكانة التي احتلها رجال أسرة مدشيس، أمراء التجارة في فلورنسا، والواقع أن القصر الذي ابتناه جان أنجو لنفسه في مدينة دبيب والدار العظيمة التي شيدها في فرنجفيل أصبحا متحفين من المتاحف النادرة جمعت فيها أروع اللوحات والقطع النادرة الفنية النادرة.

في كل مرة يعود ربابنته من رحلاتهم كانوا يحملون إليه قطعا جديدة تضم إلى مجموعة القائمة كما كاوا يحملون إليه السلع الغالية كالفراء والسمك من نيوفودلاندو الأخشاب الثمينة من البرازيل ولم يكن ربابنته يجلبون إليه الذهب والتوابل من جزائر الهند فهذه المواد كانوا ينتزعونها من السفن البرتغالية والإسبانية التي يأسرونها وسط البحار.

وحدث في مناسبة من تلك المناسبات أن استولى ربابنته على ثلاث سفن قادمة من جزائر الهند الشرقية وأخذوا ما بها من شحنات تحتوي على ستمائة ألف كرة من الذهب وألفين وخمسمائة لؤلؤة وعشرة آلاف من جلود البقر كل هذا سلم إلى جان أنجو

وكان أوسع ربابنة دبيب شهرة وأكثرهم إثارة للرعب في القلوب رجلا يسمي جان فلوري فوت أنزل على ملكي البرتغال وإسبانيا جانباً عظيما جداً مما كان يدخل خزانتهما من الأموال، فمثلا أرسل فرناندو كورتيز في إحدى المناسبات سفنا تحمل من الجواهر والذهب ما قيمته ثلاثة وثلاثون ألف قرش تسلمها جميعا ملك الملاحة في دبيب بدلا من ملك إسبانيا. وفى مناسبة أخرى كان من مصائب ملك البرتغال أن يعلم بدوره بأن شحناته الغالية من التوابل قد أفرغت في دبيب بدلا من لشبونة.

وكان الإسبان والبرتغاليون ينتقمون من بحارة سفن جان أنجو بطرق وضعية دنيئة فيعاملونهم بقسوة ووحشية كلما سنحت لهم الفرصة سواء كان ذلك في البحر أم في البر. وكان أن أصدر ملك البرتغال أمراً في ذلك الوقت بإغراق كل سفينة فرنسية. يقصد من ذلك سفن دبيب. وكان أهل الفلاحين النورمانديين يصرخون بأعلى أصواتهم أمام مقتل ذويهم بمثل هذه الوحشية مطالبين بالانتقام ومقابلة الشر بالشر، ولكن السلام بين فرنسا والبرتغال كان لا يزال قائما فلم يجد فرانسوا الأول ملك فرنسا وجها للتدخل بصورة فعلية، بيد أن الموقف كان يزداد تأزما وتحرجا من يوم لآخر وخاصة بعدما وصلت الأنباء إلى نورماندي بأن الفرنسيين المقيمين برنمبوكو

قد سلمهم الإسبانيون إلى الأهالي. حدث هذا في عام ١٥٢٢ وكانت النتيجة أن عقد مؤتمر في بابون لبحث الموقف، ولكن بدون نتيجة إذ أصر ممثلوا فرنسا على حرية الملاحة في البحار بينما عارض البرتغاليون والإسبانيون الفكرة من أساسها.

وبما أنه لم تكن لملك فرنسا رغبة في إعلان الحرب على البرتغال فقد طلب أنجو حق مقابلة العدوان بالمثل، فوافق الملك على طلبه ومنحه رخصة بذلك وأعلم حكام أقاليم فرنسا البحرية بأمر ذلك الترخيص. ولما كان أمير البحار في فرنسا صديقا لجان أنجو كما أنه كان يستفيد ماديا من تجارة هذا الأخيرين الفينة والقينة كان من الطبيعي أن يمد يد المساعدة إلى الفيكونت دى دبيب كلما هاجمت سفنه سفن البرتغال والإسبان.

أعجب فرنسوا الأول إعجابا شديدا بصراحة صدقة أنجو وتمجيده للمبدأ القاتل بأن الله عندما خلق البحار لم يهدف إلى أن تكون ملكا لأمة واحدة لا يشاركها أحد فيها. غير أن الملك بوصفه من أبناء الكنيسة البررة لم يستشعر في نفسه القدرة على تجاهل قرارات البابا بصدد هذا الموضوع. ومهما يكن من أمر فإن مبدأ حرية البحار أصبح قبل مضي سنوات قليلة مبدأ معترفاً به بفضل اعتناق ملكة إنجلترا البروتستانتية له ولم تكن ممن يقمن وزنا للقرارات البابوية.

بدأ النزاع يدب بين البرتغال وإسبانيا حول جزائر ملوك التي أصبحت مثار خلاف بينهما كتفاحة آدم وأصبحت التوابل مسألة سياسية في المرتبة الأولى من الأهمية.

كانت اتفاقية تودرسيلاس تعتبر يوم توقيعها انتصارا لملك البرتغال ولكنها أصبحت اليوم في نظره أقل من أن ترضي مطامحه، فراح يدعي بأن الحدود التي استقر عليها الرأي في ذلك العهد كانت تنقصها المعلومات الجغرافية الصحيحة ومن هنا كانت غبنا له وهضما لحقوقه وبناء على هذا فهو يرغب في تعديلها والرجوع إلى الحدود التي اقترحها في الأصل الأعضاء الإسبانيون وقت انعقاد المؤتمر، ولكن الإمبراطور رفض قبول اقتراحات الملك فما كان من هذا الأخير إلا أن أعلن بأن كل إسباني يعثر عليه في جزائر ملوك سوف يهدر دمه. عندئذ اقترح شارل الخامس – حلا للمشكلة عن طريق التصالح – التنازل للبرتغال عن حقوقه في البرازيل نظير تنازل البرتغال لإسبانيا عن سومطرا وجزائر التوابل، ولكن الملك جون الثالث رفض هذا العرض وثار هو والشعب البرتغالي لمجرد فكرة التخلي عن تجارة التوابل، وأجمعت الأمة على المطالبة بوجوب عقد اجتماع ثان لوضع الأمور في نصابها على ضوء الحقائق الواقعة. كان الموقف بين البلدين يحمل على الاعتقاد بأنه لا مناص من الاشتباك بين سفن الدولتين كلما تقابلت في البحار الشرية فتزهق الأرواح وتسفك الدماء.

كان شارل الخامس متأكدا من شرعية حقوقه، لذلك لم يعارض في عقد الاجتماع المقترح ثقة منه بتأييد قرارته لحقوقه إذ كان الفريقان قد

اتفقا على التسليم لقرارات المؤتمر ولم يكن انتخاب أعضاء المؤتمر في هذه المرة قاصرا على مشاهير رجال الملاحة ولكنه امتد إلى كبار رجال الحكومة والمستشارين الملكين وكبير القضاة ومدير مصلحة الموازين وغيرهم من الرجال ذوي الخبرة والحنكة من المدنيين ورجال الدين.

ولا بد أن شعور الفريقين كان ملتهبا أشد الالتهاب، يستدل على ذلك من القواعد التي وضعت لتسير بمقتضاها أعمال المؤتمر. فقد حرم على المندوبين أن يتقابل أحدهم بالآخر إلا داخل حظيرة المؤتمر عند انعقاده، وخصصت مدينة باجادوز لإقامة أعضاء الفريق الأول بينما أقام أعضاء الفريق الثاني في مدينة إِلبِزْ. ولقد استغرت جلسات المؤتمر شهرين بسبب كثرة النفط التي كان يثيرها الفريق البرتغالي أثناء الجلسات، ولكن قرارات المؤتمر النهائية جاءت مؤيدة لحقوق إسبانيا.

أنهى المندوبون الإسبان المؤتمر وأخبروا الإمبراطور بأن المؤتمر قد أيد القرارات السابقة، وفى الحال أمر شارل الخامس بأن يُوضح فوراً على جميع الخرائط خط الحدود الفاصل بين دائرة نفوذ إسبانيا ودائرة نفوذ البرتغال.

عندما رأى ملك البرتغال نفسه عاجزا عن مقاومة حقوق إسبانيا في جزائر ملوك توسل إلى الإمبراطور أن يمتنع عن إرسال سفنه إلى تلك الجزائر مقترحا بعض العروض للنصائح على هذا الوضع.

ولكن الملك شارل الخامس كان قد استقر عزمه يومئذ على أن يستغل إلى أقصى حدود الاستغلال من إمبراطوريته الفسيحة الأرجاء والتي

لا تغرب عنها الشمس لذلك جهز عدة أساطيل وأرسلها تضرب في البحار، وكان من بين قواد تلك الأساطيل الملاح الإيطالي سبستبان كابوت الذي أبحر عام ١٥٢٥ إلى "أوفير"، وجزائر ملوك، وسيبانجو وكاثاي فلم يصل إلى واحدة منها بسبب العواصف الشديدة التي ألفت به على شاطئ أمريكا حيث اكتشف نهر بليث وبدلا من أن يعود بالتوابل التي أمر بجمعها، عاد بالذهب

***

اعتزم ربان إسباني في ذلك الوقت الذي نحن بصدده أن يجعل عملية نقل التوابل أقل تعرضا للأخطار وفى زمن أقصر مدة اكتسابا للوقت، وذلك مجمل القرنفل وجوزة الطيب والبهار من جزائر ملوك إلى مدينة "باناما"ومن ثم تنقل عبر الخليج إلى الشاطئ الآخر حيث تشحن في السفن إلى إسبانيا، ولكن هذه المحاولة الفذة لم تنفذ لموت القائد صاحب الفكرة.

وفى نفس العام الذي أرسل فيه سبستبان كابوت إلى سومطرا كان بعض ربابنة جان أنجو من أصحاب بارمنتبيه قد أبحروا للقيام بنفس الرحلة فزاروا أثناء سياحتهم الملتفة الكثيرة التعاريج شاطئ فلوريدا، وجزائر الهند الغربية والبرازيل ومدغشقر.

وبعد هذه الجزيرة الأخيرة بألف فرسخ وصلوا في النهاية إلى ثغر (تبكر) في مملكة بيدير بسومطرا تلك الجزيرة العظيمة التي كان يعتقد بأنها أوفير المتصلة بأنباء الملك سليمان والتي أنشد فيها الشاعر كموينز.

سومطرا – هنا من أشجارك سال الصمغ ريتان الشذا

وبيد الطبيعة سال زيت الكافور البرتغالي

من عيون أشجارك الباكية حارا

ينبض بالحياة ويشفي من الأمراض والأسقام.

"**المقطع العاشر**"

وجد ملاحو دبيب الأهالي هنا على جانب من الرقة وحب السلام ولكن وجدوهم أيضا على جانب من الدهاء في المعاملات التجارية، وهنا يخبرنا جان بارمنتبيه كيف أنه توثقت عرى المودة بينه وبين اثنين من كبار موظفي ثغر تيكر أحدهما قائد الحرس الملكي والآخر المدير المسئول عن الحركة التجارية، وهذا التقرير وإن يكن هدفه في الأصل سرد تفاصيل الرحلة البحرية إلا أنه يكشف لنا مصادفة عن ضخامة ميدان الاستكشاف والتنقيب الذي فتحه الملاحون الفرنسيون كما يكشف عن المصادر الأجنبية لمستوردات جان أنجو.

وعبر الكاتب كذلك عن رأيه في البرتغاليين في شدة وعنف فكتب عن صلفهم وغيرتهم وسوء معاملتهم للأهالي في البلاد التي يفتحونها فيقول:

"لو أن البرتغاليين الذين يدعون السيادة على السيادة على هذه البلاد جعلوا تمجيد الدين والدعوة له نصب أعينهم بدلا من الطمع في

الربح والتكالب على النعم لاعتنق المسيحية نصف هؤلاء الناس على الأقل، لأن غالبيتهم يتطلعون في قلق إلى تعرف ديننا ومشاركتنا عقيدتنا عن طيبة خاطر، ولكن البرتغاليين يفضلون ترك الأهالي في جهل من معرفة الدين المسيحي حق المعرفة لما في ذلك لهم من نفع وربح".

ونرى من العبارة الآتية مبلغ نفور الفرنسيين من جشع البرتغاليين وطمعهم:

"إن هذه الأمة التي تعتبر أصغر دولة على وجه الأرض ترى أن العالم بأسره غير كاف لإشباع نهمهم، ولا يمكن تفسير هذا الجشع الذي لا يحد إلا بأنهم لا بد وأن يكونوا قد ابتلعوا قطعة من قلب حطام الإسكندر الأكبر".

واختتم التقرير بهذه الكلمات: "وبعد أن وسقنا مراكبنا بالفلفل وغيره من التوابل أبحرنا مستهدفين العودة لدبيب حيث وصلنا بسلام بعد رحلة شاقة مضنية اضطلعنا بها ابتغاه، مرضاة الله وملك فرنسا. ولم يهتم هؤلاء الملاحون الفرنسيون بالنزاع القائم بين البرتغال وإسبانيا حول مسألة جزائر ملوك فلم يتحيزوا لفريق أو آخر، على أن ظروفا معينة لم تلبث أن أعادت بين الملكين شيئا من صفاء الجو تضاءل أمامه الاهتمام بمسألة جزائر ملوك. فقد تزوج جون الثالث من أخت الإمبراطور شارل الخامس وكان يحدث أحيانا أن يحتج الأول لدى صهره على منافسته له في جزائر

ملوك ولكن في غير إصرار أو غضب إذ كانت ثورة نفسه قد لانت شكيمتها بعد المصاهرة.

على أن المشاعر كانت لا تزال ملتهبة في البحار الشرقية وكثرت المعارك الدموية بين الإسبانيين الوافدين على جزائر ملوك وبين المحتلين لها من البرتغاليين، وظلت الحال على هذا المنوال إلى أن بلغت الأنباء مسامع شارل الخامس فاستبد به الغضب حينما علم أن رعاياه قد أسروا وجردوا مما كان معهم من التوابل وترتب على هذه الحوادث في الشرق الأقصى أن احتل الخلاف من جديد مكانته الأولى من الأهمية بين شئون الدولتين، ولكن سرعان ما اهتدى الملكان إلى حل للمشكلة بالنسبة لشخصهما فقط.

كان شارل الخامس يستعد في ذلك الوقت لحفلة تتويجه، وهي مسألة تتطلب نفقات كثيرة وكان التاريخ المحدد لها عام **١٥٢٥** ولم يكن لديه المال الكافي لذلك، ومن الناحية الأخرى كانت تجارة التوابل مسألة ذات أهمية حيوية لملك البرتغال، لذلك عندما أفضى إليه صهره بأنه على استعداد لأن يرهن عنده جزائر ملوك وتوابلها مقابل مبلغ **٣٥٠.٠٠٠** دوقية قبل جون الثالث ما عرضه عليه الإمبراطور وتمت عملية القرض ولم يحدد موعد معين للسداد.

وهذه العملية وإن يكن قد ارتاح لها الملكان إلا أن ربابنة السفن الإسبانية والتجار استنكروها أشد استنكار واعتبروا تصرف الإمبراطور

تصرف من به عتّه أو لوثة واستندوا في حكمهم هذا إلى أنه كان من اليسير على الإمبراطور أن يمنحهم امتياز تجارة هذه الجزائر مدة عامين مقابل ستة أضعاف المبلغ الذي اقترضه. وحدث أثناء انعقاد مؤتمر دعي إليه القواد وأصحاب السفن وبحارتها أن صرح أحدهم بأنه خير للإمبراطور أن يرهن استرا مدورا وسريرنا أو غيرها من العواصم الكبرى والمقاطعات من أن يرهن ملقا وسومطرا وجزائر ملوك.

وعرض فعلا بعض التجار على الجمعية الوطنية سداد ما أقرضه ملك البرتغال إلى الإمبراطور مقابل أن يسمح لهم باستغلال مصادر التوابل مدة ثلاثة أعوام يعود بعدها الامتياز إلى العرش؛ فحولت الجمعية الوطنية عرض التجار إلى المجلس الإمبراطوري الذي تولى إبلاغه إلى الإمبراطور. أما ما حدث بعد ذلك فملخص في عبارة أحد المعاصرين كالآتي: أرسل الإمبراطور من فلاندرز حيث كان يقيم في ذلك الحين رسالة إلى المجلس بعدم الاستجابة إلى رجاء الجمعية العمومية وبأنه لا يود أن يسمع بعد ذلك شيئا في هذا الموضوع. عجب الناس من هذا الرد فاستنكره بعض الناس وتألم منه بعض الناس ولكن الناس جميعا أمكروا عن الخوض في الموضوع.

حدث هذا في عام **١٥٢٩**، وفى نفس العام أرسل نائب الملك في المكسيك ثلاث سفن للبحث عن طريق إلى جزائر ملوك فوصلت إحداها إلى ملوك سالمة ومن ثم عادت إلى بناما موسقة بشحنة طيبة من القرنفل وجوزة الطيب. وقد ترتب على هذه الرحلة تمهيد الطريق أمام الإسبانيين

لفتح الفلبين وبمرور الأيام طالب التجار الإمبراطور شارل الخامس بالتحرر من وعده باسترداده والترخيص للإسبانيين في وضع يدهم على تجارة التوابل ولكن ملكهم كان في شغل عما يطلبون وأخيرا أراد أن يضع حدا لهذا الموضوع فباع حقوقه في جزائر ملوك لصهره مقابل ١٥٠٠٠٠ فلورين وهو ما ذكره بيتر مارتل.



كروم الفلفل وأشجار الفاكهة

الفصل الثاني عشر

الشاعر والملاح

أنا في اجتياز المحيط الغربي ماضٍ

إن أسعفتني الرياح لن يسوق اجتهادي

خطر البحر، لا ولا سيوف الأعادي

إنما أنا لانتزاع سر ذلك الشرق ماضي

"جان بارمنتييه"

ترجمة إلى الإنجليزية: هاردي واليس(٢٤٨)

كان غالبية ربابنة سفن جان أنجو من القراصنة إلَّا أن بعضهم وبخاصة جان بارمنيبيه كانوا من نوع آخر، وكان من حق دبيب أن تفخر بجان بارمنتيبه، هذا الملاح المتفوق النابه الذي ذاعت شهرته كشاعر من أكبر شعراء عهده حتى أنه توج زعيما لشعراء نورماندي في عدة مناسبات. وصادفت قصيدتاه: "التراتيل المرحة"، "الموكب الهزلي" التي ألفها تمجيدا لاتفاقية عقدت بين فرنسيس الأول ملك فرنسا وهنري الثامن ملك إنجلترا فقد اجتذبت جماهير الناس إلى دبيب لمشاهدتها حتى البارسيين الذين

(٢٤٨) N' Hardy Walles

هرعوا إلى دبيب كان العرض باهرا فتانا ولا غرو فقد كانت متاحف جان أنجو، بكل ما فيها من كنوز وملابس تحت تصرفه.

***

كان جان بارمنتييه قد درس على دي سيليه ومهر في رسم الخرائط وصنع الكريات الأرضية وخرائط الملاحة التي برهنت فيما بعد على عظيم نفعها للملاحين. وكان صاحبنا هذا الشاب الشاعر رسام الخرائط البحرية شغوفا بالأدب التقليدي فطبع له في عام ١٥٣٠ ترجمة تاريخ كتلونيا من تأليف سالوست وفى إهدائه الكتاب لجان أنجو طلب المترجم إلى المهدى إليه أن يترفق في الحكم على أسلوبه إذ أنه صدأ بعض الشيء نتيجة السنوات الست الأخيرة التي قضاها فوق أمواج البحار، ولكن حب الجغرافيا الكونية – على حد قول بارمنتييه – قد أرغمني على إطاعة أوامره فوق أمواج المحيط المضطربة التي لم تكن، لا رقيقة ولا مصدر للرضا والغبطة.

وبالرغم من هذا التبرم الظاهر بالمحيط، فإن جان بارمنتييه كان شديد الولع ركوب البحر، وهو أسعد ما يكون حينما يواجه الأخطار وحينما يلقي الأوامر على رجاله، وكان غاية ما يطمح إليه أن يكسب مجد المملكة ولوطنه فهو أول ربان فرنسي يزور فلوريدا ومدغشقر وسومطرا، وكان يصحبه في تلك الأسفار صديق وفىّ يدعى بييركرينبون يشبهه من وجوه عديدة فهو مثله في تعدد النشاط والاتجاهات، تزاملا في مدرسة دي سيليه

وقاما في المباريات الأدبية ثم هما بعد هذا كله يتزعمان حركة الغناء الشعبي في نورماندي.

***

لم يكد ينقضي عامان على عودة جان بارمنتييه، وبيير كرينيون إلى دبيب عام ١٥٢٧ بأول مجموعة فرنسية من السفن بعد وسقها بتوابل سومطرا حتى صرح جان بارمنتييه بأن الوقت قد حان للسفر إلى الشرق مرة ثانية، وكان هدفه هذه المرة الإقلاع إلى الصين ليكون أول ربان فرنسي يزور كاثاي على أنه يقلع بعد زيارة الصين إلى المحيط المتجمد الشمالي لاكتشاف الطريق الشمالية الغربية.

رحب جان أنجو بما اقترحه عليه صديقه من آمر هذه الرحلة الجديدة "لاكتشاف ما يوجد وراء الهند" وأسند إليه قيادة المركب "الذكري" وحمولتها ثلاثمائة طن بينما أسند قيادة السفينة "القدس" وهي تصغر الأولى قليلا إلى أخيه الأصغر راؤول وألحق بكل سفينة قس وترجمان بارمنتييه برتغالي الجنسية أما ترجمان رؤول فكان فرنسيا له سابق خدمة تحت إمرة البرتغاليين.

والواقع أن هذه كانت أول مرة يقلع فيها الربابنة الفرنسيون وهم يستهدفون غرضا معينا، يستهدفون الوصول إلى بحار الشرق الأقصى بغير أن يمروا بجزر الهند الغربية. ومهما يكن من فرح ربابنة هذه البعثة وبحارتها

بالمغامرة الجديدة فإن زوجاتهم كانت على النقيض من ذلك، يملأ الأسى قلوبهن ويكاد الحزن يقتلهن.

كان جان بارمنتييه في السابعة والثلاثين من عمره وكان أخوه يصغره بسبع سنوات، وكان كلاهما متزوجا غير أن جان لم يكن قد مضى على زواجه غير عام ونصف عام، زوجته غادة في مقتبل العمر، فسبب لها الفراق وما يحتمل من تطاول مدته حزنا عميقا يقرب من اليأس والقنوط. بذلت كل ما في جهدها لتحويله عن عزمه. أليس لديهما ما يكفل لهما العيش في بحبوحة وراحة؟ أصحيح أنه مفارقها بعد هذه الفترة الوجيزة التي نعما فيها بمباهج الزواج وتاركا طفليه؟ على أنها كانت تعلم في أعماق قلبها أن سفر زوجها لم يكن سعيا وراء الثروة وكانت تدرك تمام الإدراك أن إغراء البحر وطلب المجد للملك والوطن وشهوة القيادة كل ذلك كان أقوى من روابط الحب الرقيقة.

***

صور كرينيون مشهد الوداع الأليم المحطم للقلوب بين الحبيبين بهذه الكلمات: "كانت السفن على وشك الإبحار ورجال السفن يدعون الربابنة للصعود فقد حان وقت نشر القلاع ورفع الهلب ولكن ها هو جان بارمنتييه يقف بين ذراعي امرأته مسلوب الإرادة كأنه أسير يرسف في الأصفاد والدموع تجري على خديه، وها هي غافلة عن كل شيء سوي شعور الحزن الذي يملأ كيانها كأنما هي تتوقع فرقة أبدية، فراحت تندب

حظها العاثر، وها هو صوتها يدوي وكأنه يعبر عن مشاعر الزوجات جميعا عندما صرخت فجأة قائلة "أي سعادة تكون لنا نحن النساء لو أن العواصف ثارت ثورتها في هذه اللحظة فحطمت هاتين السفينتين قطعا صغيرة على أن يقيّض الله النجاة لمن عليها من الرجال".

ولكن العاصفة لم تهب لتحقيق رجائها ورغبتها الملحة الحبيبة إلى قلبها، كثيرا ما تبادلت الزوجات مع أزواجهن من بحارة دبيب كلمات الوداع قبل هذا اليوم ولكنها لم تكن تحمل في نبراتها مثل ما هي تحمل اليوم من رنة الحزن والأسى، ولكن هاتين السفينتين "الذكرى" و"القدس" أليس هما قد اعتزمتا السفر إلى نهاية العالم حيث لم يسمع أبداً أن أحدا عاد منها إلى أهله ووطنه.

كانت اليوميات التي كتبها جان بارمنتييه أثناء الرحلة تعتبر سجلا رسمياً للسفينة وقصة لكل ما حدث، قيد فيها ملاحظاته على الملاحة، ولكنها مع هذا كله كانت تنبض بخلجات قلبه وتردد صدى ما يشعر به من المرح حيناً ومن الألم والحزن حيناً، وحينما عمد بيير كرينيون فيما بعد إلى نشر يوميات صديقه أضاف إليها بعض الوقائع استكمالا لقصة الرحلة التي بدأت والحظ يبتسم لها وانتهت بمأساة محزنة مفجعة.

كان أسلوب جان بارمنتييه في تسجيل حوادث الرحلة سهلا صريحا لا تعقيد فيه، وكانت تتخلل اليوميات من حين لآخر انفعالات تجيش بها نفسه، تسبيحا بحمد الله جل شأنه لما يكون قد أنعم به من فترة هدوء

طويلة في البحر، فيروي لنا في أحدي المناسبات كيف كان بعض البحارة يقطعون الوقت بالغناء بينما يخلد البعض الآخر إلى تلاوة الإنجيل، وكيف أن الجميع كانوا يأخذون بعد ذلك في الرقص وقد ألفت بين قلوبهم روح الزمالة الصحيحة الطيبة. وكان جان بارمنييه يستغل وقت فراغه في نقل حياة بوجورتا [٢٤٩] إلى اللغة الفرنسية مهديا إياها إلى ملك فرنسا.

كانت الرحلة هادئة لا يعكر صفوها شيء خلال الشهر الثلاثة الأولى، ولكن هبت على السفينتين بعد ذلك عاصفة هوجاء رهيبة حتى أن ذلك الربان المشغوف بالأدب التقليدي [الكلاسيكي] لم يجد من الخيال ما يقارن به اضطراب السفينتين فوق الأمواج إلا بالرقصة التي رقصها "إيلوس" ابتهاجا بزواجه من "تيتس" وهو حينما أراد أن يرغم كل إنسان على الرقص أرسلت آلهة الرياح كل ما في وسعها من رياح هوجاء نكباء لتحقيق رغبته.

لم تصب السفينتان ولا بحارتها بسوء أو ضرر حتى ساحل مدغشقر المالي الغربي حيث بدا الأهالي مسالمين متوددين، ولكن ظهر غدرهم ووضحت خيانتهم فيما بعد فذهب ضحية رماح قبيلة سكلافا[٢٥٠] عدد من البحارة بعد أن مزقت أجسادهم بالحراب، فقرر القائد مغادرة هذه

---

[٢٤٩] كتبها المؤرخ اللاتيني سالوست المتوفى عام ٣٤ ق م

[٢٥٠] قبيلة من الزنوج تسكن شاطئ مدغشقر الغربي اتخذ الشاعر بعض الحرية في وقائع هذه القصة فهي تختلف ما سجلته الأساطير "المؤلفة".

السواحل الغادرة عند هبوب أول رياح مواتية، وقد تصادف أن هبت الرياح المنتظرة في اليوم التالي مباشرة.

لم يكد ينجو الملاحون من وحشية أولئك الرجال حتى وجدوا أنفسهم بين مجموعة من الجزر الصغيرة، مسالكها ملتوية كثيرة التعاريج غُطي سطحها بالأعشاب وهي تكاد ترتفع إلى سطح الماء.

وقبل أن تجرؤ السفينتان على مواصلة السير أرسل بعض البحارة في قوارب صغيرة لتعرف مدى عمق المياه حولها والكشف عن الأعشاب والنباتات المائية المستترة، وكانت أعصاب الجميع متوترة إلى حد كبير حتى لأنهم أطلقوا أسم جزائر الرعب "على تلك المجموعة من الجزر التي سميت أكبرها بالسجق بسبب شكل تكوينها نزلت بالفرنسيين في اليوم التالي مصائب جديدة فقد هدأت الرياح التي كانوا قد اعتمدوا عليها في الابتعاد عن هذه المياه الرهيبة وما صادفوه فيها من أخطار غير أن البحر استمر في هياجه بصورة مرعبة فارتاع البحارة من هذه الظاهرة العجيبة وسموا هذا البحر بالمجنون) لأن سكون الرياح بينما البحر يرغي ويزبد أمر لا عهد للبحارة به ولكن ما حدث بعد ذلك كان أدهى وأمر.

فبعد مرور السفينتين برأس الرجاء الصالح أصيب البحارة بحالة إعياء شديد وخمول وشرع داء البلاجرا يعمل فيهم بمخالبها لفتاكة كما أخذت قواهم المعنوية تهبط هبوطا شديدا، فساورت الهموم دان بارمنتييه لما حل برجاله من هذا المصير المحزن فكر كثيرا فيما يستطيع عمله للترفيه عن

رجاله وإنعاشهم فوثب فجأة كمن ألهم على غير انتظار، واعتقد أنه قد وجد السبيل إلى إسعاف بحارته وشحذ عزائمهم. ماذا لو ألهاهم عن آلامهم الممضة وخفف من بؤسهم فوق هذه الأمواج التي بدأت تستكن ويرتفع بهم إلى آفاق علوية يسبح فيها فوق أجنحة الخيال.

نظم لذلك قصيدة من خمسة وستين مقطعا كل مقطع يتألف من اثنتي عشر سطرا سبح فيها بحمد الله ومجد فيها كرامة الإنسان وعزته، مكرسا الجزء الأول من هذه القصيدة المستنهضة للهمم لوصف عظمة الخالق ورحمته: الذي لا يسع الإنسان حينما يرى أعماله الكاملة إلا أن يسبح بحمده ويمجد قدسيته فهو وحده الملك القدوس الجدير بولاء الإنسان وطاعته. وإذا كان العبد المؤمن الورع ينطق لسانه بتسبيح الخالق عند قراءة هذه الأشعار ويسجد متعبدا متَّهجداً، فإن البحارة لا شك واجدون متعة لما جاء فيها من وصف البحّار. فالبحّار هو الذي يمجد همّة الإنسان التي حفزته لركوب المحيط تحت قيادة مثل هذا الربان العظيم، بل أمير البحار القوي الجبار.

ونراه في الجزء الثالث من القصيدة فلكيا نابها يصف مجد السماوات المرصعة بالنجوم التي تتألق نوراً وجمالا، وهو يبدأ آيات تمجيده بشرح العوامل الدافعة له على مفارقة وطنه وزوجه وأولاده، وما تلك الدوافع إلا نداء البحر بما فيه من جاذبية لا تقاوم، وأخطار تحبب إليه مغامرة اقتحامها والطموح إلى مضاعفة مجد مليكه، ويختتم الشاعر قصيدته بالتعبير عن الحافز الشخصي لنظمها والسبب المزدوج لهذا التمجيد، أولا ما يجده من

المتعة والسرور في أن يكون وسيطا لتحقيق مثل هذه المبادئ النبيلة والسبب الثاني رجاؤه في أن يوفق إلى تبديد شعور الملل والسأم الذي دب إلى نفوس البحارة.

وقد يتساءل الإنسان عن مبلغ استجابة البحارة الذين أضناهم الوصب والسقم لجهود قائدهم الصادرة عن عاطفة الحب الخالص والقلق على مصيرهم وهم منتشرون فوق ظهر السفينة ما بين متمدد وبين جالس على الحبال الملفوفة منهوكي القوي، لا حراك بهم وإن تكن تشع من عيونهم نظرات التقدير وهم ينظرون إلى وجه قائدهم الوضاح وقد شعت فيه ابتسامة مضيئة وهو يقرأ عليهم كلماته الملتهبة في تمجيد الخالق وأعماله والمبادئ النبيلة التي سنْها لعباده

***

وأخيرا ملأت الرياح القلوع المنتشرة ودفعت بالفرنسيين شطر جزائر نومورو ولكن الخوف من الأهالي منعهم من إطالة المقام على تلك السواحل الخصبة.كانت الرحلة عبر المحيط الهندي رحلة حزينة أليمة فقد أسلم الروح رجل بعد رجل من بحارة السفينتين بعضهم بعد أيام طويلة ذاق فيها عذاب الموت وهو يتلوى وبعضهم لم يمهله المرض غير أيام قليلة. ويؤخذ من يوميات بارمنتييه أن عديدا من الجثث شرحت بأمره أملا في الوقوف على أسباب هذا الوباء القاتل، فأحيانا كان السبب تورما في المخ أو تدرنا في المفاصل، وأحيانا كان تورما في مواضع مختلفة من البطن أو

تسوسا في العظام. ووجد البحارة المصابون بعض الإسعاف والفرج من الضيق في جزائر مالديف التي رحب ملكها بمقدمهم.

صنعت الإقامة بين أهالي هذه الجزائر والمسالمين الوادعين للبحارة ما عجزت عنه عبارات العطف والتشجيع، فهنا وجدوا ما جدد نشاطهم من مأكل ومشرب وخاصة السكر والليمون، وما كان أشد ارتياحهم لشرب المياه العذبة تصب لهم في أوان نحاسية أثناء المأدبة التي دعاهم الملك إليها، وما كان أطيب تلك الدجاجات التي أطعموها مصحوبة بالأرز والحق أن ما جاء في يوميات القائد عن الإقامة بجزائر ملديف يطيب للإنسان قراءته في لذة وشوق إذ بعد أن تبادل الفريقان الرهائن نعم البحارة بالإقامة على الشاطئ برهة من الزمن.

سأل الملك الترجمان عن أمر هؤلاء الأغراب ومن أين قدموا فأجاب ترجمان بارمنتييه واسمه جان ماسون بأنهم غادروا وطنهم منذ ثمانية أشهر ليأتوه ببضاعتهم في مقابل الفلفل.

***

"أرجال حرب أنتم؟" كان هذا هو السؤال الثاني

"لا نحن تجار وكل ما ننشده السلام والصداقة".

فكان لهم ما أرادوا، ولم يحدث ما يعكر صفاء الجو سوى أن الملك أمر بأن ترسل النساء والأطفال إلى داخل البلاد خشية حدوث ما لم يكن في الحسبان.

ونجد في يوميات بارمنتييه ما يكشف عن نزعاته الخاصة، ففيها مثلا وصف لزيارته مسجد قديم، ويبدو أن المفتي كان يعطف على هذا القائد الرقيق الظريف لأنه استجاب لرغبته في مشاهدة المسجد من الدخل، وهنا بهر الفرنسي من روعة المنبر الخشبي وأعجب بمهارة صنعته الدقيقة وبما فيه من آيات محفورة وبتنسيق الدرج وجماله الفني، حتى أن نجار السفينة الذي كان يرافق القائد في هذه الزيارة دهش مما رآه من دقة الصنعة ومهارة الفن، ودارت ذات يوم مناقشة حول جزائر ملديف، فقد خيل إلى الفرنسيين أن لفظة مالديف لها وقع صوتي كلفظة ملوكو، فاعتقدوا أنها جزائر التوابل التي يبحثون عنها، ولكن المفتي أكد لهم بأن جزائر ملوك تقع على بعد مائتي فرسخ إلى الشمال.

وتذكر اليوميات أنهم قبل الوصول إلى سومطرا اكتشفوا مجموعة من الجزائر أطلق على اثنين منها اسم "لويز" و"مارجريت" على الترتيب تكريماً لوالدة الملك وشقيقته، أما المجموعة كلها فقد أطلق عليها البحارة اسم "ألبرمنتيير" (٢٥١) وهي تعرف اليوم باسم جزائر "باتول".

---

(٢٥١) **Les Parmentieres**

واصلت البعثة بعد ذلك سيرها إلى أن عثرت على جزيرة صغيرة عرض عليهم أهلوها الذهب للشراء، ولكن لم يكن لديهم شيء من الفلفل ليبيعوه، وأخبرهم الأهالي بأن الفلفل يوجد على بعد ثلاثة فراسخ في بلدة "تيكو" على الطريق العمومية.

أحسن أهالي تيكو استقبال القواد إذ كانوا قد أعجبوا بهم إبان زيارتهم السابقة من سنتين خلتا، وأقيمت الاحتفالات ووثق بين الفريقين روابط الصداقة، وما انتهت الحفلة حتى كان الجميع يهتفون "فرنسا – تيكو". "تيكو– فرنسا". نجحت عملية المساومة وحمل الفرنسيون إلى سفينتيهما كمية من الفلفل، ولكنهم وجدوا أهل "ملايو" يحسنون المساومة إلى حد بعيد يفوق كل ما عرف عن أهالي "اسكتلندا" من الدهاء في هذا الميدان.

ازداد اهتمام "جان بارمنتييه" بالمقيدة الإسلامية أثناء إقامته بجزائر "مالديف" لذلك كان يعقد مع المفتي أثناء إقامته "بتيكو" محادثات طويلة، وجاء دور "جان ماسون" لاختبار معلوماته عن أهل "الملايو" ولغتهم، فقد كانت حصيلة معلوماته من لغتهم في ذلك الحين مقصورة على الكلمات العادية التي تستعمل في المساومة على الأطعمة وما إليها، ولكن ها هو القائد ينتظر منه اليوم أن يترجم المناقشات الدينية بينه وبين المفتي.

وحدث ذات يوم، بعد اقتناع القائد بأن المفتي يؤمن بآدم وأنه يعلم بأمر يسوع المسيح أن أخذ في شرح مبادئ العقيدة المسيحية، فتشير

اليوميات إلى هذا الانفجار الديني، ولا غرو، فقد كان "بارمنتييه" شديد التمسك بمبادئ هذا الدين المسيحي، فاندفع يشرح تعاليم المسيح وسر التجسد والترجمان يجاهد مجاهدة جبارة في ترجمة هذا الحديث المعقد فكان عليه مثلا أن ينقل إلى المفتي الأكبر "أن الكلمة صارت جسدا وأن روح القدس أحلها في مريم العذراء أن الابن وُجد من الأب كما تتولد الكلمة في صدر الإنسان وفى عقله"..

وهنا انفجر الترجمان المرتبك محتجاً بأنه عاجز عن ترجمة مثل هذه الموضوعات اللاهوتية العميقة؛ فلم يكن بدّ من نقل الحديث إلى موضوعات أخرى.

***

كان من سوء حظ البحارة أن كثيراً منهم مرضوا من شرب المياه ومرض "بارمنتييه" كذلك وقضى نحبه فتولى "بيير كرينيون" استكمال اليوميات مسجلا فيها هذه الوقائع المفجعة فكتب:

"كان جان بارمنتييه أول من فارقنا إلى العالم الآخر فدفناه براً ثم أبحرت السفينتان بعد ذلك إلى عرض البحر أملا في إنقاذ المرضى الآخرين ولكن غالبيتهم قضوا نحبهم ومن بينهم "راؤول بارمنتييه":

في كل آونـــــة وكل عشيـــــة   نهدي إلى القبر الغريب زميــــلا

كم فوق شُطان البحار مقابر هي كل ما يهدي الوجين عليلا

وبموت القائدين انتقلت القيادة إلى بيير كرينيون الذي عقد اجتماعا للبحث فيما يجب أن يعمل، وضع أمام المجتمعين ثلاثة اقتراحات للعمل بأحدها، إما الإقلاع مباشرة إلى جاوا، وأما الإقلاع إلى إندرابويرا على شاطئ سومطرا حيث يوجد الفلفل بكثرة وإما العودة إلى الوطن، فإذا ما اختار المجتمعون العودة إلى الوطن وجب البت في هذا الموضوع دون تأخير إذ أن الرياح المعتدلة لن تهب ثانية قبل مضي ثمانية شهور. وبعد تناول الاقتراحات الثلاثة بالبحث والتمحيص عرضت على المجتمعين لأخذ الأصوات فكانت الأغلبية في جانب القيام بزيارة أندرا بويرا أولا. لم يكن في هذه الجزيرة الأخيرة شيئا من الفلفل بينما كان يكثر فيها الذهب، بما أن الغرض من البعثة هو جمع الفلفل أكثر من أي شيء سواه، فقد أمدهم التجار الوطنيون في النهاية بستمائة رطل من الفلفل في مقابل أحمر الشفاه من إنتاج باريس، والمرايا والسبح والأقمشة، ولكن نقص التموين الغذائي، وموت أربعة عشر رجلا آخرين واقتراب الموسم القاسي الرديء كل هذه العوامل دفعت إلى اتخاذ طريق العودة، وقد زاد من فجيعة أفرادها وفاة رجال آخرين، وران الحزن على قلب بيير كرينيون لمجرد التفكير في الأرامل العديدة اللواتي سوف يكن في انتظار أزواجهن على شاطئ دبيب وهن لا يعلمن من أمر وفاتهم شيئاً.

وفى ذات يوم بينما كان مضطجعا على الضفة وهو غارق في تأملاته حول نهاية البعثة المحزنة، شرد فكره إلى وقفة الوداع المثيرة بين جان

بارمنتييه وزوجه الشابة، وخيل إليه أنه يسمع صوت الزوجة الحزينة وتبرأته العذبة الشبيهة بالأجراس الصغيرة، وذكر كيف أنها كانت في تلك الآونة تشبه نغمات ترتيل القداس الحزينة في صباح الأسبوع المقدس. وسرعان ما استولى النعاس على الرجل المخلص الوفي وفيما يحلم نزلت السلوى على قلبه الحزين.

وفيما هو يغط في نومه ويسبح في أحلامه أيقظه من سباته تكسر موجة عاتية على جانب السفينة ولكن هذه الهزة العنيفة لم تنسه حلمه اللذيذ فالتقط ريشته في الحال وراح ينظم (مرثية) يندب فيها وفاة صديقيه. وفى هذه المرثية نرى الشاعر يصف في نغمات منسقة دامعة مشهد الوداع الأخير ويقص حلمه الذي انتشله من وهدة الحزن العميق ثم يسترسل إلى وصف طيف آلهة الشعر العاطفي التي أفضت إليه بأنها هي التي كانت تعنى به وبصديقيه وترشدهم، وهي الآن قد أرسلها إليه آلهة الأولمبي لتواسيه بإبلاغه قرارهم، فبمشيئتهم حولت جثة جان بارمنتييه إلى نخلة هي في نظرهم رمز لحياته، فهي توفر المأوي والغذاء والنبيذ والألياف التي تنسج منها الأشرعة وتفتل منها الحبال.

جوزة الهند وحدها هي الملبس والمأكل والملجأ المشرب والكوب والقارب والكيل والشراع والسارية والإبرة.. أجل جوزة الهند هي كل هذه الأشياء مجتمعة، أما راؤول بارمنتييه فقد حول آلهة البحار حطامه إلى دولفين يرشد جميع البحارة الفرنسيين أينما يكونون ظهر العباب، وجعلوا

لهذا الدلفين علامة مميزة في صورة وردة بيضاء تحت بطنه وعلامة الصليب فوق ظهره.

شعر بيير كرينيون بالغبطة تدب في جسده وهو ينظم أشعاره التي اختتمها بالضراعة إلى الله أن تكون الجنة مأوى صديقيه. وعند عودة هذا الصديق المحب الوفي لدبيب بعد أن شارك جان بارمنتييه طيلة سنوات عديدة أخطار البحار وويلاتها اعتزم أن يحتفظ جهد الاستطاعة بذكرى الشقيقين، وإن كان قبرهما بعيداً نائيا في سومطرا. لذلك نشر أشعار جان بارمنتييه "المواعظ" التي نظمها لتشجيع بحارته على الاحتفاظ بروحهم المعنوية كما نشر يومياته التي قام باستكمالها استجابة لرجاء أصدقاء الطرفين، مضيفا إلها مرثيته للأخوين وقد نشر الكتاب في دبيب عام **١٥٣١** وأرسلت النسخة الأصلية من اليوميات لفليب شابو أمير البحار الفرنسي بينما أهديت النسخة الأصلية لترجمة ياجورثا إلى الملك إذ كانت مهداة إليه كما جاء في مقدمة المترجم.

قرأ فرانسوا الأول اليوميات باهتمام بالغ لدرجة أنه قرر إتمام ما بدأه جان بامنتييه والواقع أن هذه الفكرة حدت به إلى إرسال مبعوث إلى الصين.

كان الملك قد علم من مصادر برتغالية بأن الإمبراطور قائم بإعادة تنظيم جيشه فاعتبر الفرصة سانحة للاتصال بخان الصين، وبناءً على ذلك غادر السيد قالواه مبناه دبيب في سنة **١٥٣١** ومعه أربعة مدافع صنعت

حديثا ليقدمها إلى إمبراطور الصين هدية من ملك فرنسا، وهكذا كانت دبيب أول ميناء تخرج منها سفينة تصل إلى الصين فتؤدي الأمانة وتعود مزودة من كنوزها بأنواع الخزف الصيني والحرائر والمسك والتوابل.

***

في هذا العام نفسه عام ١٥٣١ ارتفعت خسائر ملك البرتغال من جراء مناوأة جان أنجو إلى مليون كروسادس [٢٥٢] بينما أسر ربابنة دبيب التابعين له ثلاثمائة سفينة من سفن الملك. ضاق الملك جون الثالث ذرعا بهذه الحالة، فالحصار الذي ضربه جان أنجو حول لشبونة وتدميره المباني على طول نهر تاجس، أثار غضبه وذهبت جميع احتياجاته لدى فرانسوا الأول أدراج الرياح إذ لم يكن في نية ملك فرنسا الاستغناء عن هذا المواطن النافع من رعاياه والذي يعتبر بحق ملك السفن في دبيب. وحدث ذات مرة أمام سيل احتياجات ملك البرتغال وإلحاحاته أن ذكرت ملكة نافار أخاها ملك فرنسا بخدمات جان أنجو الجليلة في حروبه برا وبحرا وكل هذا على نفقاته الخاصة؛ فأرسل فرانسوا الأول تحت تأثير عبارة شقيقته إلى ملك البرتغال المحنق يقول، "إن المجلس هو الذي صرح للفيكونت دي دبيب بمقابلة العدوان بالمثل، وبما أن الأمر قد صدر عن المجلس فالمجلس وحده هو الذي يستطيع أن يلغي ما أمر به فالمسألة تعتبر لذلك خارجة عن اختصاص الملك فليس له أن ينهى عن شيء لم يأمر به".

---

[٢٥٢] حوالي ١١٥ ألف جنيها.

تبين للملك جون الثالث أنه من العبث أن يعتمد على ملك فرنسا، فاستقر رأيه على أن يحاول معالجة الأمر بالطرق الدبلوماسية، فإذا فشلت الخطة ركن إلى استخدام قوة المال، لذلك أرسل سفيرا إلى باريس يطالب بإلغاء التراخيص المعطاة لجان أنجو، فإذا فشل في هذا فليحاول شراء جان أنجو بناءً على ذلك طلب ملك البرتغال إلى صهره الإمبراطور شارل الخامس أن يستخدم كل نفوذه لمعاونته والتوسط له ببلاط ملك فرنسا فأمر شارل الخامس من فوره سفير إسبانيا في باريس أن يتوسط في الأمر لدى الملك وأن يستعين عليه بشقيقته "أي بشقيقة شارل الخامس" [وكانت زفت حديثا إلى ملك فرنسا بعد موت زوجته الأولى].

ولكن جميع هذه الوسائل السياسية أخفقت، فلا النفوذ العائلي ولا المحاولات الدبلوماسية نجحت في تحقيق الهدف المنشود. لم يكن جان أنجو بالغر المأفون، فقد أدرك بصائب فكره بأنه لا يمكن الاعتماد على الملك إلى الأبد ولا في دوام إعراضه عن هذا التوسط القوي، لذلك ما كاد المبعوث البرتغالي فوق العادة بمرض على الفيكونت أن يزوره في دبيب حتى أعد عدته لاستقبال السفير وغالى في الاحتفاء به.

كانت النتيجة التي ترتبت على هذا الاجتماع مرضية للطرفين، ولكن في سبيل الحصول على النتيجة المنشودة اضطر الملك جون الثالث أن يدفع خمسة أمثال المبلغ الذي كان يعتزم دفعه وهو إثنى عشر ألف كروساوس إذ رفض جان أنجو أن يتقاضي أقلّ من ستين ألف كروساوس.

راع سفير فينيسيا في باريس ما رآه في دبيب عندما زارها بعد مرور بضع سنوات على الحوادث التي ذكرناها آنفا، راعه دبيب الحياة والحركة المتواصلة، وراعه رواح السفن وغدوها على الميناء، ولقد أحصى الموجود منها في وقت واحد فبلغ عددها مائتي سفينة، وليس هذا مما يستغرب له فقد كانت دبيب في هذا العهد مهد الملاحين من ربابنة ومرشدين وبحارة كما كانت أهم مركز لتجارة فرنسا الخارجية ولكن سرعان ما دق ناقوس الموت فوق هذا الثغر المزدهر فاختفى مجده القديم وتقوضت دعائمه.

كان ملك فرنسا قد اقترض مبلغا من المال من ملك البرتغال، وكان سداد هذا المبلغ مبعث ضيق شديد له حتى اهتدى إلى حل كان يبدو بسيطا لعينيه، فبدلا من أن يسدد الدين نقدا اعتزم تسديده فلفلا وعاجا وتبرا وخشبا من البرازيل وذلك بطريقة فذة مبتكرة.

أرسل إلى صهره ملك البرتغال يعلمه بأنه قد اعتزم أن يسدد له ما عليه، ولكن بدلا من أن يدفع له نقدا يعد بالامتناع عن منافسته في تجارة التوابل وذلك بأن يحرم على السفن الفرنسية الإبحار إلى أي بلد اكتشفته البرتغال أو تدعي حق اكتشافه. قبل ملك البرتغال هذا العرض عن طيب خاطر فأصدر فرانسوا الأول قرارا يحرم على رعاياه زيارة إفريقيا غربيها وشرقيها وجزائر الهند الشرقية والبرازيل وأرخبيل الملايو، وكانت عقوبة مخالفة هذا الأمر مصادرة السفن بما عليها من بضائع وجلد المخالفين. دمر البرتغاليون المستعمرات الفرنسية في البرازيل عام ١٣٥٨ وأحرقوا مساكنها وقتلوا بعض سكانها بينما سلموا البعض الأخر إلى الأهالي ليأكلوهم،

وأعرض فرانسوا الأول عن صرخات الاحتجاج من رعاياه، فقد كان مثقلا بالدين، يتلوى بين براثنه فلم يجد له مخرجا من الضيق إلا أن يترك لملك البرتغال حق الاستمتاع باحتكار تجارة التوابل غير منازع فيها.

الفصل الثالث عشر

جامع قصص الجوابين

أي بلاء بعثت لنزع العالم المذعور يا بروميثيوس

ولأي مذبحة رهيبة صنعت كبرياؤك الإنسان

"المقطع السادس"

هذا يجود بنهر وهذا ببحر وذاك باسم يجود

ولكنهم ما يزالون وسط النار وفوق اليم يهيمون

ووراء الظلال الذهبية يهرعون فيغرقون

"المقطع السادس"

كان من بين الإنجليز المقيمين بمدينة إشبيلية في مستهل القرن السادس عشر رجل اسمه روبرت ثورن [٢٥٣] من مدينة برستول [٢٥٤] رأي السفير البريطاني ما آنسه فيه من الخبرة بالشئون التجارية أنه أصلح من يستطيع وضع تقرير عن تجارة التوابل يرفع لملك إنجلترا هنري الثامن وما

---

[٢٥٣] **Rogert Thorn**
[٢٥٤] **Bristol**

أن فاتح السفير المستر ثورن في هذا الموضوع حتى أظهر سروره واستعداده لوضع معلوماته وخبرته تحت تصرف مليكه، وشرع من فوره في وضع تقرير سنة ١٥٢٧ وضح فيه نشاط مملكتي البرتغال وإسبانيا في ميدان تجارة التوابل في الداخل والخارج.

ولم يكتف الإنجليزي بسرد الحقائق والوقائع فحسب، بل ذهب إلى أبعد من هذا فضمن التقرير كثيرا من مقترحاته، فكان مما ذكره مثلا أن "المسافة إلى جزائر ملوك عن الطريق الشرقية لا تقل عن ثلاثة وأربعين ألف ميلا فلماذا لا تحاول الوصول إلى تلك الجزر عن الطريق الشمالية الغربية"؟ واقترح إرسال بعثة من القوات الإنجليزية لاكتشاف هذه الطريق لأنها لو نجحت في هذه المحاولة تكون قد وفرت على السفن البريطانية ستة آلاف من الأميال في قطع هذه المرحلة.

وأرفق الإنجليزي بتقريره خريطة بعث بها إلى السفير رغبة منه في مساعدته على تفهم الموضوع على الوجه الأكمل، ولكنه توسل إليه في الوقت نفسه أن يكتم أمر الخريطة والتقرير غاية الكتمان لأنه لو ذاع أمرهما في البلاط لتعرض صاحبهما لما لا تحمد عقباه، إذ أن إعطاء أي خريطة لأجنبي أمر غير مشروع قانونا، وأضاف ثورن إلى رجائه هذا بأن مركزه سوف يتحرج كثيرا إذا ما تسرب السر وعُلم أنه قد وقف على أسرار تجارة التوابل، وسوف يزداد مركزه تحرّجا إذا علم الإسبان أنه قد كشف للبحرية البريطانية عن أقصر الطرق لمصادر التوابل.

ترك التقرير في نفس هنري الثامن أثرا عميقا، وخاصة اقتراح البحث عن الطريق الشمالية الغربية للصين التي أصبحت هدف الملاحين الإنجليز، فأخذ قواد السفن البريطانية منذ ذلك الوقت يضربون في البحر سالكين الطريق الشمالية الغربية، بينما راح فريق آخر يسلك الطريق الشمالية الشرقية أملا في الوصول إلى جزائر التوابل ولكن عبثا يحاولون.

***

كان احتفاظ البرتغاليين بساحل إفريقيا الغربي حتى ذلك الحين حائلا دون وصول السفن الإنجليزية إلى تلك المناطق، غير أن الذي كان مستحيلا في عهد إدوارد الرابع ربما لم يكن كذلك في عهد هنري الثامن وأن الأمر يستحق المحاولة على كل حال، فالقوانين التي أصدرها البابا لا تستطيع أن تقيد رعاياه وتمنعهم عن ركوب البحر إلى غانا كلما شاءوا لابتياع حبوب الجنة، والعاج والرقيق. هذا فيما يتعلق بهنري الثامن وأما فيما يتعلق بالبرتغاليين فقد تمّسكوا بحقهم المزعوم وبهذا تعرض ربابنة السفن والتجار على اختلاف جنسيتهم للشنق كلما أسروا. على أن خطر التعرض لهذا الجزاء الصارم لم يمنع أحدا من السفر إلى تلك المياه فكان بحارتها أحيانا يتبادلون الطلقات النارية وأحيانا يهرع بعضهم إلى مساعدة البعض الآخر حسبما تفتضيه الظروف.

ويقول رجل يدعى وليم تاورسن في تقريره أنه بعد أن استعد للقتال صرخ أحد البحارة قائلا:" نحن أبناء فرنسا" فصرخ واحد من الفريق

الآخر:" نحن أبناء لندن في إنجلترا". وعندئذ امتنع كل من الفريقين عن إطلاق النيران وزود الفرنسيون الإنجليز بالماء.

كان من بين قواد السفن الفرنسية الذين لم يأبهوا بوعيد الإسبان والبرتغاليين وتهديدهم رجل يسمى جان فونتناي لم يطق أن يتصور كيف تمنع فرنسا من أن يكون لها نصيب من كنوز العالم الطبيعية.

قضى جان فونتناي ثمانية وأربعين عاماً يضرب في البحار مكبا على دراسة فنون الملاحة أثناء رحلاته فاستطاع أن يضيف إليها من مبتكراته ومكتشفاته التي اكتسبها عن خبرة ودراية فاهتدى مثلا إلى ابتكار وسيلة لتحديد خطوط الطول كما اهتدى إلى تحسين السواري والقلوع وتيسير عملية ربط الحبال إلى الأشرعة السفلى. وكان أول من حدد الأبعاد بين نقطة وأخرى بخطوط الطول والارتفاع.

وضع فونتناي كتابا في الجغرافيا الكونية وزود الكتاب بخرائط بيانية وجعل الإهداء إلى الملك هنري الثامن عسى أن يكون في ذلك ما يستنهض همته للعمل. وكان من بين ما كتبه في كلمة الإهداء "يبدو لي أن لكم مثل ما لملكي البرتغال وإسبانيا من الحق في جوب البحار، كما أن لكم من رعايا مملكتكم من يعرفون أين توجد أغنى جزر العالم" ويذكر المؤلف أنه سافر هو بنفسه إلى الصين "مقر مملكة القس يوحنا".

وإلى جانب مؤلفه هذا في جغرافية الكون، وضع جان فونتناي سفراً عن "رحلاته ومغامراته، نشر عام ١٥٤٧ وأعيد طبعه خمس مرات في غضون الخمسين سنة التالية.

حدث كل هذا بينما ظهرت في إيطاليا طائفة من رجال ممتازين أخذ اهتمامهم بالمكتشفات والرحلات ينمو نمواً مطرداً وخاصة في كل ما يتعلق بتجارة التوابل التي سبق لها أن ازدهرت وراجت سلعها في طول البلاد وعرضها، وكان في مقدمة هؤلاء الرجال المولعين بالجغرافيا أحد مشاهير الأطباء في فيرونا يدعى هيرونيمو فرسكاتورو[٢٥٥] وكان حائزاً لعطف الملك وثقته إلى حد بعيد. كان هذا الطبيب مشهوراً بولعه بجمع قصص الجوابين، لذلك كانت تصله تقارير كثيرة من القواد والرحالة يسردون فيها تفاصيل أسفارهم ومشاهداتهم.

وكان لفرسكاتورو هذا صديق يزامله في بحوثه الجغرافية يدعى جيوفاني بابتستا راموزيو[٢٥٦] السكرتير العام لجمعية العشرة الفينيسيين. وله يرجع الفضل في جمع ونشر أول مجموعة من قصص الجوابين. وكان هذا الإيطالي المثقف قد أوفد إلى عدد من البلاد في بعثات دبلوماسية وكان له إلمام بعدة لغات كما كان يتقن اليونانية واللاتينية، فمكنت معرفته لهذه اللغات من أن ينقل إلى الإيطالية أهم ما كتب عن المكتشفات، ومن

---

[٢٥٥] Hieronimo Frascatoro

[٢٥٦] Glovanni Baptista Ramusio

بينها عشاريات [٢٥٧] بيتر مارتير التي نشرها مع غيرها من القصص الإيطالية. ونشر فيما بين عام ١٥٥٠، عام ١٥٧٣ ثلاثة أسفار ضخمة أودعها كل ما كتب عن المكتشفات والرحلات خلال القرون الخمسة عشر السابقة على نشره لمؤلفه. وحوت هذه المجلدات كل ما كان يعلم حتى ذلك اليوم عن البلاد التي "تولد فيها التوابل" على حد تعبيره في لغته الإيطالية.

ولم يكن سفر راموزيو مجرد مجموعة من الأخبار والتقارير، ما عرف منها وما لم يكن معروفاً حتى ظهور ولكنه سفر يحتوي على الشيء الكثير من محاوراته حول موضوعات كانت تحتل مكانة لها أهميتها في عصره. وألم المؤلف في أحد هذه الفصول التي كان يعقدها في كتابه بتجارة التوابل والرحلات التي تتصل بها خلال خمسة عشر قرنا، وينقل لنا عن بليني ما ذكره من أن حصيلة الدخل من تجارة التوابل كانت تقدر "بمئات الملايين من الذهب" غير أن غزو البربر للإمبراطورية الرومانية قوض دعائم الإمبراطورية وتجارة التوابل معا.

وواصل المؤلف قصة هذه التجارة المربحة فكان من بين ما كتبه: تطورت الأحوال كثيراً خلال نصف القرن الأخير، أي منذ رحلة البرتغاليين إلى الهند لاستجلاب الفلفل والقرنفل والجنزبيل وجوزة الطيب والبهار، تلك الأفاويه التي كانوا يأتون بها مباشرة من ملقا وجزائر ملوك.

---

[٢٥٧] كل عشر سنوات.

وفى كتبه الرائعة يتعرف القارئ على كثير من الرجال ممن اتصلت شهرتهم باكتشاف كنوز الشرق من جواهر التوابل، فمن بين الرجال الذين ينقل عنهم رموزايو القصص رجال مازالت تدوي أسماؤهم في آذان العالم مثل ماركو بولو، وجان كارتييه، وليو أفريكانوس، وبيتر مارتير، وكورتيز، زبيزارو، كما نقل عن طبقة تقل شهرة عن المذكورين. وبالكتاب تقرير لم يذكر اسم واضعه عن رحلة في طلب التوابل إلى جانب قصة أخرى بقلم أحد ربابنة دبيب العظام، وكيف أنه أبحر إلى جزر الهند الغربية، ومن ثم إلى البرازيل، فغانا، فجزيرة سان لورنز، فسومطرا. وتبين الخرائط الملحقة بنفس القصة سفنا عليها صورة الوردة [٢٥٨] الرمزية لشعار فرنسا ولكن قد عُلم الآن أن مؤلف هذه القصة هو جان بارمتييه الذي يأخذ مكانه في مجموعة راموزيو هذه إلى جانب كاداموستو وفاسكو داجاما وماجلان وغيرهم من القواد والرواد الذين جابو البحار بحثا عن البلاد التي تنبت فيها التوابل.

وبينما كان راموزيو يضع أمام جمهور القراء تاريخ الرحلات في طلب التوابل، كان أحد شعراء البرتغال ينظم القصائد في مدح أول من أبحر من أبناء وطنه إلى البلاد التي تنبت فيها التوابل.

فها هو دون لويس دي كمونيز يصف في "لويسياداياته" الخالدة وفى أسلوب أخاذ جميل كل ما حدث أثناء الرحلة التي قام بها فاسكو داجاما إلى الهند أول مرة. ولا غرو فقد خاض كمونيز جميع أخطار البحار وأهوالها

---

[٢٥٨] **Fleurs. de. lys**

بمرافقته لمواطنه الشهير إلى البلاد التي زارها، لذلك يعتبر وصفه مطابقا للطبيعة والحقيقة معا.

قدم الهند ذلك الشاعر البرتغالي بل أعظم شعراء البرتغال قاطبة كجندي، بعد أن رزئ في مستقبله، نتيجة هفوة ارتكبها تخالف ما جرى عليه العرف من آداب المروءة؛ فكثيراً ما أطلق عليه اسم "ضحية الحب" و"شاعر الحب والشرف"، وما كاد يصل إلى الهند حتى وجد سلطان البرتغال قد أخذ يتقلص ظله وأمعن أبناؤها في أعمال السلب والنهب، كل يعمل لمصلحته الفردية حتى شاع ذلك وانتشر في أنحاء المقاطعات التي حلوا بها. فعزم الشاعر على تخليد ذكرى مجد الوطن في ماضيه فنظم ملحمته وهو في شبه منفي بمكاو [٢٥٩] أول مستعمرة للبرتغاليين في الصين، كان قد قدم إليها لتقليد أحد المناصب الرسمية بعد أن قضي فترة من الزمن منفيا بجزائر ملوك عقابا له على قصيدة له سخر فيها من الموظفين في جوا.

وما زال الزوار حتى يومنا هذا يحجون إلى مكاو لزيارة الكهف الذي كتب فيه الشاعر لويسيادياته مخلداً أعمال أنبل أبطال البرتغال منذ العهد الذي تزوج فيه والد الأمير هنري الملاح ابنة جون أوف جونت دوق لانكستر، فهو يشبه من هذه الناحية هومير في تمجيده للآسيين. وعندما تحطمت سفينته في خليج سيام كانت مسودة ملحمته "اللويسياديات" هي كل ما استطاع إنقاذه من أدوات ومتاع، هكذا قدر العالم ألّا يحرم من أروع

---

[٢٥٩] **Macao**

ما أنتج شعراء البرتغال. وقد يتساءل المرء ما إذ كان الشاعر قد تنبأ بالمصير الذي كان ينتظره عند عودته فيقول:

مـال عـني السـرور وجـداً وحقـدا — وقطعـت الحيـاة للبـؤس عبـدا

سـاعة العمـر في السـرور تولـت — كجنـاح الظـلام عـدوا ووحـدا

وقريبـــــــا تمر فـوق رفـــاتي — أتراهـا تخـط لي اليـوم لحـــدا؟

توفي الشاعر عام ١٥٧٨ فأمر أحد أصدقائه بأن تحفر على قبره هذه الأبيات:

هنا يرقد لويس دي كمونيز.

الذي بزَّ جميع شعراء عصره.

عاش فقيراً بائسا ومن الفقر والبؤس تولي.

ولقي ديوانه رواجا كبيراً حتى أنه بيع منه في غضون خمس سنوات اثنتا عشرة ألف نسخة ووصف بالعظيم، ولكن كل الشهرة التي اكتسبها الشاعر جاءت بعد موته.

وإذا كانت شهرة البرتغاليين في فن الملاحة وفى البحث عن التوابل قد خُلدت شعراً فإن بيتر مارتير قد خلد كذلك بقصته بطولة الإسبان ومهارتهم في الملاحة نثراً لا شعرا. ولم يكن للإنجليز حتى ذلك الوقت من

يتغنى بأعمالهم، حتى أن مجموعة راموزيو خلت من ذكرهم أو الإشارة إليهم.

كان هذا الإغضاء عن الإنجليز في البحر بمثابة محنة حلت بالقس رتشارد هكلوت[٢٦٠] أحد من اشتهروا بغيرتهم الوطنية وشغفهم بعلم الجغرافيا الذي أولع به منذ صباه واستمر شغفه به وهو يتلقى العلم بجامعة أكسفورد فلم يترك سفرا مما ألف عن الرحلات والمكتشفات حتى الأسبوعية منها ألا وقرأه بإمعان. وحدث حينما كان يشغل وظيفة الواعظ الديني للسفارة البريطانية في عهد السير إدوارد اسنفرد[٢٦١] أن وجد للأمم الأخرى تمجيداً وذكراً على ألسنة الشعراء والكتاب لما اكتشفه من البلاد وما قامت به من المغامرات في البحار، وطرق سمعه في نفس الوقت تعريض ساخر بتخلف إنجلترا في هذا الميدان وتقريع لاذع لخمولها.. وما أن وقعت عينه على الفقرة الآتية في كتاب عنوانه أمير البحار الفرنسي حتى استقر عزم هكلوت على أن يبرهن للعالم بأن إنجلترا لم تكن متخلفة عن غيرها من دول أوروبا ولكن كل ما هنالك هو أن منطقة ملاحتها تقع في بحار أخرى:

"إن ما دعاني إلى النظر في الأسباب التي منعت الإنجليز عن السعي لاكتساب الحمد والشرف بين المسيحيين في حين أنهم عليهم لا ينقصهم شيء من الإقدام أو المال أو روح المغامرة. هو ما كان يجب عليهم من

---

(٢٦٠) **Richard Haklut**
(٢٦١)**Sir Edward Stafford**

المبادرة إلى هذا العمل مثل غيرهم. ولكن يبدو أنهم بحكم عنصرهم وطباعهم مرتاحون إلى الخمول قانعون بتفتيش السفن كالبوليس"

ثار غضب هلكوت عند قراءة هذه الفقرة: أما جاب الإنجليز البحار وزاروا جوا وشيلي وبيرو وضربوا بسفنهم في بحر الجنوب فعبروه عرضاً؟ ألم يعقد الإنجليز مع أمراء جزائر ملوك اتفاقيات محالفة وصداقة وتعاملوا معهم تجاريا؟ قرر ريتشارد هكلوت منذ ذلك الحين أن يزيل ما وصم به الإنجليز من عار التخلف، فأقبل بهمة ونشاط لا يضارعان على جمع التقارير والقصص عن سياحات الإنجليز. وكذلك نسخ خطابات الامتياز أو التراخيص الممنوحة للشركات التجارية والخطابات المرسلة من الملكة اليصابات إلى ملوك الشرق .... الخ

وليس من العسير أن نقف على ما يستهدفه جامع هذه التقارير والمصنفات إذا رجعنا إلى ما قدم به للمؤلفات العديدة التي نشرها مثل "كتاب مبادئ الملاحة" "والرحلات" "ومعاملات الأمة الإنجليزية في ميدان التجارة ومكتشفاتها". ولا جدال في أنه كان يهدف إلى غرض معين كما يستنتج من إهدائه هذه المؤلفات إلى عدد من زعماء الإنجليز في عصر الملكة اليصابات، فهو يقول في كلمة الإهداء أن غرضه الأول هو أن يصون ذكرى ما قام به الإنجليز في السنوات الأخيرة من أعمال جسام وينقذها من براثن النسيان. وكان في رأيه أن الوقت قد حان للإنجليز لكي يتباروا مع البرتغاليين يقول "إنه يتحتم على إنجلترا أن تبحث لها عن منافذ

لتجارتها وعن مناطق للاحتكار حتى تتجنب الأضرار المتعمدة التي تلحقها بتجارتها منافسة أسبانيا والبرتغال لها".

كانت فكرة ريتشارد هكلوت في البداية أن ينشر بين الناس ما حققه الإنجليز من أعمال البطولة ليس إلا، ولكن اهتمامه بالمسائل العالمية دفعه إلى سرد بطولة غيرها من الأمم لا سيما الأمة الفرنسية، فنقل إلى الأمة الإنجليزية قصص أبنائها كما نقل عن البرتغاليين والإسبان.

طبع ريشارد هكلوت وثيقة أعماله الأولى عام ١٥٨٢، ثم ظهرت الطبعة الأولى لكتابة "مبادئ الملاحة في عام ١٥٨٨"، ونقل عن اللغة البرتغالية كتاباً عنوانه اكتشاف بعض أجزاء هذا العالم والكلام عن الذين كانوا أول من ساحوا فيه، كان مؤلف هذا الكتاب أحد الحكام السابقين لجزائر ملوك اسمه أنطونيو جلفانو، وهو بلا شك من أنبل رجال البرتغال في القرن السادس عشر وإن لم يكن أوسعهم شهرة.

وكما يحدث كثيراً كان تمسك هذا الحاكم بمبادئ الشرف سبباً في اكتساب عداوة كثير من أصحاب النفوذ مما ترتب عليه قضاء آخر أيام حياته نزيل أحد الأديرة في بروج يتلوى من الألم على سرير المرض. ولكن روح أنطونيو جلفانو هذا تغلبت على جميع مصائبه فاستغل ما لديه من متسع في الوقت بين جدران الدير الذي لجأ إليه مغلوبا على أمره في تأليف كتاب عن تاريخ الملاحة مبتدئا بنوح حتى الوقت الذي يعيش فيه.

كان أنطونيو جالفانو هذا قد درس كل ما كتبه المؤرخون والجغرافيون عن الملاحة وواصل الدرس من حيث انتهي المؤلفون القدماء، حتى يوم مماته عام ١٥٥٥. ويعتبر كتابه من أهم ما كتب لأنه يحتوي على كل ما كان يعرفه معاصروه في ذلك الميدان ولكن في إيجاز وتلخيص.

وهو يعزو السبب الذي دعاه لوضع هذا الكتاب إلى رغبته في جمع المكتشفات القديمة والحديثة في البحر والبر مع تحديد العصور التي وقع فيها الاكتشاف، ولما كانت معظم المكتشفات المهمة قد حدثت إبان حياته وخاصة ما اكتشف منها عن طريق البحر فقد اشرأبَّ إلى معرفة المكتشفين الأول من عهد الفيضان.

ترك جالفانو في وصيته نسخته الأصلية الخطية لأحد أصدقائه بعد أن ضمنها سير الحوادث حتى يوم وفاته في عام ١٥٥٥، وقد عني هذا الصديق بنشرها لأن في رأيه كما جاء في مقدمته أن من حق المؤلف على مواطنيه أن يقوم أحدهم بطبع عصارة أفكاره، لأن مؤلفه يكشف عن شتى الوسائل التي استجلبت بها التوابل إلى أوروبا في الماضي، كما يكشف عن الرحلات البحرية والمكتشفات التي تزعم حركتها البرتغاليون في الماضي. ومما أثبته جلفانو في كتابه مجرى الحوادث التي شاهدها بنفسه في جزائر ملوك خلال السنوات العديدة التي أقام بها، والواقع أن هذا الموظف البرتغالي كانت له روح ملاك فقد شغل نفسه أثناء ولايته على جزائر

التوابل بقراءة الإنجيل على الأهالي وشرحه لهم كما أسس معهدا [٢٦٢] لتمكين المسيحيين من شبان الجزائر المبعثرة من أن يتلقوا العلم به.

ويعتبر ريتشارد هلكوت هذا الكتاب من أكثر الكتب نفعا للقراء من الإنجليز، فكتب في تقريره عن هذا الكتاب عند الإشارة إلى كلمة الإهداء التي توجه بها جلفانو إلى اللورد روبرت سيسل بأن يتكرم بقراءة الكتاب وأمامه خريطة العالم. قال هلكوت: إن الكتاب على صغر حجمه يحتوي على كثير من المواد النادرة النافعة ولا أعلم نظريا له على إيجازه، لأن فيه ألم الكاتب في تنسيق بديع بجميع من كان لهم فضل الاكتشاف على مر العصور منذ فيضان نوح، مبينا الطرق والوسائل التي نقلت بها توابل الشرق وعقاقيره ومنتجاته الأخرى إلى الغرب جيلا بعد جيل.

---

[٢٦٢] اتخذ معهد جزائر ملوك نموذجا لجميع المعاهد الأخرى بمقتضي قرار مؤتمر ترنت(**Trent**)

الفصل الرابع عشر

هنا يدخل الهولنديون

ها هو الجوّاب الأوروبي يفتح الأبواب للمكتشفات بمفاتيحه الخبيرة المرنة

فيزيح الستار عن العناصر الضرورية للتجارة

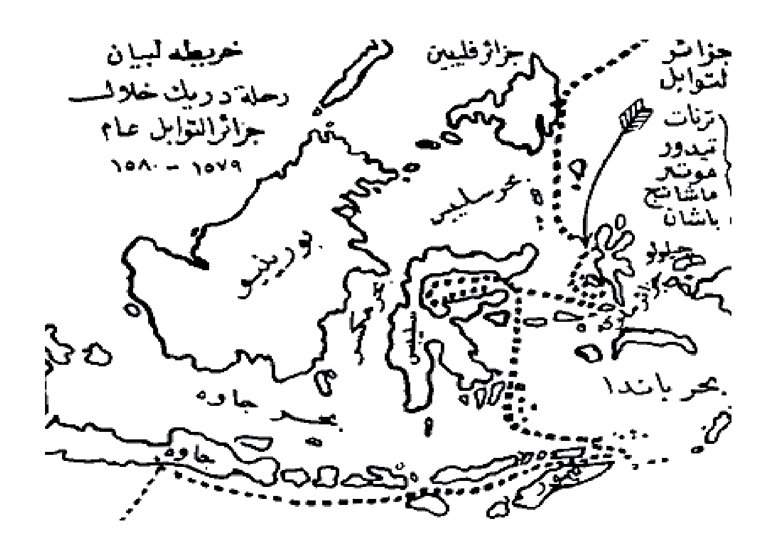
تلك القواعد التي يقوم عليها بناء الكون

جوردن ١٦٥٩

في عام ١٥٨٧ عاد من الهند إلى وطنه رجل هولندي يدعى "جان هويجن لان لونشوتن[٢٦٣]" وما أن استقر به المقام في هولندا حتى شرع يؤلف كتاباً عن مشاهداته في الهند أثناء إقامته الطويلة بها حيث كان يشغل منصب السكرتارية لكبير أساقفة جوا، ولقد قدر لهذا الكتاب أن يكون له أثر عميق في تنمية تجارة التوابل بالنسبة إلى هولندا وإنجلترا.

---

[٢٦٣] **Jan Huighen Van Linschoten**



طبع هذا الكتاب تحت عنوان "الحاوي" على نفقة الدولة، وهو كتاب يحوي طائفة كبيرة من المعلومات ليكاد أن يكون كشكولا لعلوم النبات والحيوان والأجناس البشرية ومميزاتها في البلاد التي زارها، كما أنه يعتبر دليلا فهو يضع أمام أعيننا مجموعة من الجواهر لا تضارعها في يومنا هذا إلا مجموعة الجواهر المعروضة بمتحف "حصن لندن [(٢٦٤)] واحضر لنشوتن معه خرائط ومشروعات اطلع عليها تجار هولندا مشجعاً إياهم على إيفاد سفنهم إلى الشرق الأقصى وخاصة إلى جاو، وهي جزيرة لا يتردد عليها البرتغاليون كثيراً على أن بها من الماس والأطياب والتوابل الشيء الكثير. والسبب الذي من أجله لا يتردد عليها البرتغاليون إلا فيما ندر هو ما اعتاده أهل جاوا من حمل بضاعتهم إلى ملقا بأنفسهم. وضع الدكتور بلورانس من جيران لنشوتن في مدينة إنخبوزن حاشية تفسيرية للكتاب المذكور ثم أخذ المخطوط إلى المدعو تيودور دي نري من أهالي

[(٢٦٤)] Tower of London

ليبج أصلا ومن المقيمين بمدينة فرنكفورت حيث كانت له مكتبة بها، وله شهرة واسعة في فن الحفر. أقنع الدكتور صاحب المكتبة بصدق لنشوتن فيما كتبه وأطلعه على نماذج من منتجات الشرق ومن منتجات المصانع الشرقية التي أتى بها معه ليهديها إلى بعض الأمراء الألمانيين.

اقتنع صاحب المكتبة بما أكده له الدكتور من إن محتويات الكتاب لم يسبق إلى تأليفها أحد، وكانت فكرة نشر مجموعة من أنباء الرحلات قد اقترحها عليه قبل الآن ريتشارد هلكوت.

قبل تيودور دي بري وهو رجل بعيد النظر راجح العقل أن يقوم بنشر مجموعة من أنباء الرحلات في وقت واحد باللغات الفرنسية واللاتينية والألمانية تحت عنوان "المشرقيات الندية" وزين الكتاب بشتى الصور والرسومات العديدة بعد أن زوده لنشوتن وهلكوت بالصور الأصلية للبلاد والشعوب. ولقد استطاع الناس بفضل هذا الكتاب أن يطّلِعوا على روعة الشرق وفتنته الخلابة بما فيه من توابل، لا في هولندا فحسب، ولكن في جميع البلاد التي يتكلم أهلها بالفرنسية والألمانية. وكان لبعض البيوت التجارية الكبيرة في ألمانيا مثل فوجرز[٢٦٥] وولزرس[٢٦٦] وكلاء في لشبونة وقادس، وكثيرا ما رافق بعض أعضاء هذه البيوت التجارية البعثات البرتغالية في رحلتها إلى الهند، ولكن لم يكن الشعب في مجموعة يعرف شيئاً ذا غنى عن تلك البلاد البعيدة التي يجلب منها الفلفل

[٢٦٥] **Fuggers**
[٢٦٦] **Welsers**

والقرنفل وجوزة الطيب حتى نشر تيودور دي بريه مجموعته القيمة عن الرحلات وأنبائها. وإن ما قد يقال على وجه التحقيق من أن كتاب ماركو بولو كان الحافز للأمير هنري الملاح والملوك البرتغال من بعده، للبحث عن الطريق إلى الهند بحراً لاستيراد الحجار الكريمة والتوابل يصح قوله كذلك عن كتاب لونشوتن بالنسبة إلى رجال الأعمال في هولندا وإنجلترا.

ونقل الكتاب إلى اللغة الإنجليزية أحد الناشرين في لندن اسمه جون وولف الذي صرح في مقدمة النسخة المترجمة بأنه طلب إلى قاضي المحكمة العليا للبحرية أن يدلي إليه برأيه عن كتاب لونشوتن إذا أنه أصلح من يؤخذ رأيه في مثل هذا الموضوع، كما صرح في الوقت نفسه بأنه أهيب به أن يطبع الكتاب بالإنجليزية لا لأن قراءته ممتعة فحسب بل لأنه ذو نفع عظيم لأمتنا الإنجليزية.

وفى ريتشارد هلكوت يقول جون وولف "إنه رجل عمل كثيراً على إعلاء سمعة إنجلترا والأمة الإنجليزية، وفي كتاب لونشوتن الذي ترجمه يقول إن كاتبه رجل له مركز محترم سام في "جوا" محبوب من سكانها جماعات وأفراداً".

وكانت عودة لونشوتن إلى هولندا في أثناء فترة عصيبة في تاريخ وطنه كان لها تأثير قوي على تجارة التوابل؛ ففي عام ١٥٧٩ أعلنت البلاد المنخفضة استقلالها، فأراد فيليب الثاني أن يعاقب الثوار بضربة موجهة إلى صميم تجارتهم تقوض دعائها فحرم على رعاياه من الإسبانيين

والبرتغاليين[٢٦٧] التعامل مع الهولنديين، كما صادر جميع السفن الهولندية التي كانت راسية بثغر لشبونة. في ذلك الحين لم تكن الفكرة جديدة على الهولنديين بل إنهم كانوا يتوقعونها، فطالما اقترح على بيوتات هولندا التجارية الكبرى وكلاؤها في لشبونة أن يرسلوا السفن إلى الهند لجلب التوابل مباشرة، ولكن شيئاً من ذلك لم يحدث.

لذلك ما كاد الملك يأخذهم بهذا العقاب الصارم حتى أفاقوا لأنفسهم أمام ما حل بهم من الضيق الشديد، على أن ما أريد بهم من الشر كان لهم خيراً وبركة "وعسى أن تكرهوا شيئاً وهو خير لكم". فقد استقر رأي الهولنديين أما هذه المحنة العصيبة التي شلت نشاطهم التجاري وآذتهم في أرزاقهم على أن يرسلوا أسطولاً إلى الهند وإن لم تكن كفة الميزان في ذلك الوقت تبشر بنجاحهم. فقد كان من أهم العقبات التي تحول دون نجاح هذه الرحلة تكتم البرتغالي كل ما يتعلق بالطريق البحرية إلى الهند من معلومات وما سنوه من قوانين تقضي بإعدام كل من يبيع خرائط بحرية للأجانب، ولكن من حسن حظ ولاة الأمور في هولندا أن أحد كبار موظفي الحكومة من الإسبانيين كان قد باع عن طريق المدعو "بيتر بلانشيوس" أحد طلاب الجغرافيا الكونية خمساً وعشرين خريطة من ذلك النوع المحظور بيعه، إلى أحد أصحاب المكاتب في هولندا، وقد قدمها هذا الأخير إلى حكومته هدية منه، بعد أن طبع نسخاً عديدة من هذه الخرائط والوثائق الثمينة على نفقته

---

[٢٦٧] من "١٥٨٠: ١٦٤٠ اجتمعت البرتغال وإسبانيا تحت تاج واحد.

على أن العامل الذي كان له الفضل الأكبر في استقرار الرأي نهائياً على قيام بعثة إلى الهند، عودة رجل يدعى كورنيليوس فان هوتمان إلى أمستردام بعد سنوات طويلة قضاها في البرتغال كجندي في مبدأ أمره ثم ترك الجندية للاشتغال بالتجارة، وكان هذا الرجل قد سافر مرات عديدة مع البرتغاليين إلى جزائر الهند الشرقية، فعرض على بعض التجار في هولندا أن يدلهم على الطرق السرية لتجارة التوابل نظير مبلغ من المال كان هو وشقيقه في أمس الحاجة إليه لتسديد غرامة فرضت عليهما في لشبونة، وقبل التجار العرض فورا وعن طيب خاطر، وكونت في الحال جمعية لجمع المبلغ المطلوب، وبعد أن دفعوا إلى فان هوتمان نصيبه المتفق عليه، أسّس تسعة من التجار شركة فيما بينهم وقاموا بإعداد أربع سفن لرحلة الهند في عام ١٥٩٥ مع تعيين كورنيليوس فان هوتمان مديرا تجاريا لهذا الأسطول.. وانضم إلى البعثة شاب مولع بحب المغامرة يدعى وليم لود فيجيكست[٢٦٨] وجد الفرصة سانحة للتمتع بمشاهدة العالم وقد سجل في مفكرته تفاصيل الرحلة كلها وما وقع خلالها من حوادث وصورها تصويرا حيا مطابقا للوقائع.

وصل الأسطول الصغير بعد مآس عديدة – وخاصة في مدغشقر حيث خلف وراءه سمعة سيئة شريرة – إلى سومطرا ومن ثم إلى جاوا. وهنا في ثبات تام نجح فان هوتمان في عقد اتفاقية مع سلطانها لا للشئون التجارية فحسب بل للمساعدة المشتركة أيضا حال وقوع هجوم على أحد

---

[٢٦٨] **Wilem Hodewigkest**

الطرفين. وما أن رأى التجار البرتغاليون ظهور منافسين لهم على المسرح حتى تملكهم الغضب وبينوا الشر لمنافسيهم وراحوا يدسون لهم بين الأهالي ويحضونهم على مناصبتهم العدوان وأقاموا في طريقهم العقبات من كل نوع.

أضف إلى ذلك أن كورنيليوس فان هوتمان كان قد تغول إلى الداخل قليلا فألقي القبض عليه وأسر ولم يفرج عنه حتى افتدى نفسه، وما أن أطلق سراحه حتى وجد أنه من الخير في هذا الظرف أن يقنع من الغنيمة بالإياب فنشر فيها الهولندي قلاعه وأبحر عن تلك المنطقة. وفى كل مرة يتصل فيها الهولنديون بأبناء الملايو كانوا لا يجدون منهم سوي الغدر والخيانة فنزلت بهم الكارثة بعد الكارثة حتى لم يبق من الرجال الذين بدءوا الرحلة وعددهم مائتان وخمسون رجلا إلا تسعين فقط قدر لهم أن يعودوا إلى وطنهم.

وما أن استقر بالشاب لودفيجكست المقام في وطنه حتى شرع في نشر ما كان قد دونه في مفكرته مؤيدا بالرسومات التي وصفها بأنها استكشافات ولكنها في نظر العصر الحديث تبدوا مجموعة دقيقة من النباتات والحيوانات والبشر في جدهم وفى لهوهم. طبع الكتاب المذكور في أمستردام في عام ١٥٩٨ دون أن يذكر اسم المؤلف تحت عنوان "أول كتاب عن تاريخ رحلة الهولنديين البحرية إلى جزائر الهند الغربية".

وبالرغم من أن نتيجة هذه البعثة كانت غير مرضية وبعيدة عن التوفيق إلا أنه تكونت شركة أخرى باسم "الشركة الجديدة" أرسلت أسطولا من جانبها في عام ١٥٩٨ إلى جزائر الهند الشرقية تحت قيادة جاكوب كورنيليوس فان تك. ولم تكن هذه السفن هي كل سفن الهولنديين المبحرة إلى أرخبيل الملايو فقد كان هناك تاجر من كبار تجار فيري في زيلاندة[٢٦٩] يدعى بلتزار مشرون أرسل هو أيضا سفينتين لحسابه الخاص، وكان هذا المغامر البروتستانتي المذهب قد أبدى استعداده قبل ذلك الحين، للمجازفة بأمواله في محاولة العثور على طريق شمالية غربية توصل إلى الصين، فأرسل ثلاث بعثات تباعا للبحث عن هذه الطريق فلم توفق واحدة منها، ولكنه الآن قد حول انتباهه إلى طريق رأس الرجاء الصالح متأثرا بما قرأه في تقرير لونشوتن، فأعد لذلك سفينتين "الأسد والأسدة" واستجاب لطلبه الحاكم العام فمنحه ما يلزمه من المؤن، وعين لسفينتيه قائدين هما الشقيقان كورنيليوس وفردريك فان هوتمان، كما عُين إنجليزيا اسمه جون ديفزر رئيسا للمرشدين. قد يستغرب اختيار بلتزار مشرون لرجل إنجليزي ولكن الحقيقة الواقعة هو أنه كانت توجد في تلك الأيام صلات طيبة بين البلاد المنخفضة وإنجلترا ولا غرو فقد مدت هذه الأخيرة إلى الأولى يد المساعدة الفعلية في كفاحها ضد إسبانيا.

ولما كانت ترابط بصفة مؤقتة حامية إنجليزية لم يكن من العسير أن تحاط الأوساط الرسمية في إنجلترا بما اعتزمه مشرون من إيفاد بعثة إلى جزر

---

[٢٦٩] **Veere in Zeeland**

الهند الشرقية لذلك قدم جون ديفز بناء على اقتراح الإيرل أوف أسكس إلى ملك الملاحة في زيلاند خدماته كمرشد للبعثة التي قبلت في الحال وعن طيب خاطر، ولا عجب فجون ديفز كان يعتبر في ذلك الوقت أشهر الجوابين الإنجليز في اكتشاف منطقة المتجمد الشمالي، وكان قد قام بثلاث محاولات قبل ذلك لاكتشاف الطريق الشمالية الغربية كما كانت له خبرة واسعة بقيادة السفن، وهو إلى ذلك كله يتصف بالنزاهة وكرم الأخلاق وله كتب قيمة في فنون الملاحة.

كان جون ديفز هذا حديث العودة من رحلة قام بها مع توماس كفندش(٢٧٠) إلى مضايق مجلان، فهو ينتمي إلى تلك الفئة من الأصدقاء الذين تتألق أسماؤهم في سماء المجد والمروءة والاستكشاف، كأسرة جلبيرت وسيروولتر رالي (٢٧١). كان ديفز وطنيا غيورا فلم يسعه إلا النزول على رغبة الإيرل أوف أسكس دون تردد، وجاء في خطاب كتبه فيما بعد إلى الإيرل. "إن الدافع له في قبول ما كلف به رغبته وأمله في أن يكون في الكشف عن هذه الأجزاء الشرقية من العالم ما يزيد من مجد جلالة الملكة ومن الخير للوطن"

ويستخلص من تقرير كتبه جون ديفز عن هذه الحملة مبلغ رقته الأهالي حتى أن السمعة السيئة التي خلفها في مدغشقر كادت تحول دون استطاعته البعثة أخذ ما يلزمها من التموين والمؤن. لذلك اضطر الأسطول

---

(٢٧٠) **Thomas Cavendish**
(٢٧١) **Sir Walter Raleigh.**

الصغير إلى قضاء أسبوعين في خليج سان أجستين وهو يحاول عبثاً ابتياع المؤن الضرورية بسبب هرب الأهالي عن الشاطئ حتى اضطر جون ديفز في النهاية إلى الابتعاد عن هذا الخليج الذي سماه بالخليج الجائع.

أقلعت السفينتان "الأسد والأسدة" إلى سومطرا بعد أن تزودنا بالمؤن التي كانتا في أشد الحاجة لها. وفى سومطرا رست البعثة أمام ثُغر آشين في أقصى غرب هذه الجزيرة العظيمة حيث كانت الأمور تبدو في أول الأمر على أحسن ما يرام؛ فرحب السلطان علاء الدين بمقدم الوافدين وبذل لهم كثيراً من التوابل حتى أن كورنيليوس فان هوتمان عاد من لدن الملك في قارب محمل بالفلفل، وقد وعده هذا الخير بفتح أبواب الإتجار الحر أمام البعثة.

بلغت أنباء وصول السفينتين الهولنديتين إلى مسامع ذوي المر من البرتغاليين في ملقا إذ يقول جون ديفز في تقريره "حضر برتغالي يدعى دون ألفونس ومعه أربع سفن من ملقا ليحول دون اتجارنا مع الأهالي كما سنوضح فيما بعد".

لم تكن السفن الإنجليزية قد أبحرت حتى هذا الوقت إلى جزر الهند الشرقية، على أننا نجد كثيراً من الأفراد الإنجليز قد وصلوا إلى تلك الجهات على ظهر السفن البرتغالية، لذلك لم يكن من غير الطبيعي أن يتوهم ملك آشين بأن القادمين الجدد إنما جاءوا من إنجلترا، والواقع أن الملك سأل فان هوتمان في أول اجتماعهما عما إذا كان قد قدم من إنجلترا

فاعتبر هذا الخير مجرد السؤال إهانة، وراح يمطر إنجلترا وابلا من الشتائم والسباب في حدة وغضب، وما أن عاد إلى سفينته حتى صب جام غضبه على بريئين من أبناء ذلك البلد هما جون ديفز المرشد وبحار آخر، ولم يكن مع البعثة غيرهما من الإنجليز.

فاض قلب القائد الهولندي بالمرارة والحقد حينما أصر الملك على سؤاله في المرة الثانية التي مثل فيها بين يديه عما إذا لم يكن إنجليزيا، وكان يود الملك لو أنه كان كذلك حتى أنه وعد بمنحه كيساً مملوءاً بالذهب إلى جانب صداقته لو أنه اعترف بجنسيته الإنجليزية، ولكن فان هوتمان رفض الذهب والصداقة في أنفة وإباء معلنا بأنه من فلاندرز (بلجيكا الآن)، فسأل الملك:

وأي بلد يكون؟ لقد سمعت عن إنجلترا ولكنني لم أسمع أبداً عن فلاندرز أي بلد تكون فلاندرز هذه؟ لم يفز الهولندي بمرضاة الملك على كثرة غلوه في تملقه وغطرسته وأصر الملك على مقابلة الإنجليز بين الذين سمع بوجودهما في السفينة، فبذل فان هوتمان كل ما في وسعه للتحقير من شأن الإنجليز بين في نظر الملك، ولكن جهوده ذهبت أدراج الرياح، وقد قبل الملك في النهاية عقد الاتفاقية الآتية على شريطة أن يؤتى بالمرشد الإنجليزي إليه، عرض الملك استعداده لملء السفينتين بالفلفل إذا تعهد الهولنديون بمساعدته في قتاله مع عدو له، كان العرض سخياً لا يمكن التغاضي عنه فقبل هوتمان على مضض. ولكن سرعان ما تعرضت هذه الاتفاقية لخطر الإلغاء لأن هوتمان حال دون مغادرة ديفز للسفينة ولكنه

اضطر في النهاية إلى السماح له بذلك حينما أدرك أن في منعه من مقابلة الملك حرمان له من الحصول على الفلفل.

وجد ديفز السلطان علاء الدين رجلا مفرطا في الطول مليء الجسم مرح الروح مقبلا على الحياة على رغم ما قيل من أنه قد جاوز المائة من عمره وأنه بدأ حياته صياد أسماك. وقد ضمن الإنجليزي تقريره كل ما قيل له عن حياة السلطان التي هي أقرب إلى الأساطير منها إلى الحقيقة، ويظهر أنه كان قد أبدى بسالة وإقداما في إحدى المعارك البحارية فسر الملك بذلك وزوجه من ابنته، ولكن سرعان ما اغتصب صياد السمك الأسبق عرش السلطان واحتفظ به بقوة السلاح، ما لا يقل عن عشرين عاما وهو الآن ينشد معاونة السفينتين الهولنديتين في قتاله مع ولي العرش الشرعي. ويقص علينا جون ديفز في تقريره عن هذه الرحلة ما قاله للسلطان أثناء مقابلاته المتكررة عن عظمة إنجلترا وملكتها الشهيرة، وكان يبدو أن السلطان يُكِنُّ لإنجلترا عظيم الاحترام لإقدامها على محاربة جميع أوروبا وحدها، فقد كان الملك يعتقد بأن إسبانيا وأوروبا شيء واحد أي إن إسبانيا هي أوروبا بأسرها.

ولكن لسوء الحظ كانت نتيجة تعريض البرتغاليين، بأن الهولنديين ليسوا إلا جواسيس انتحلوا صفة التجار، أن ثارت حفيظة الملك فغدر بالزائرين الهولنديين رغم مظاهر المودة والوعود بالمصادقة فقتل فان هوتمان وأسر أخاه ونجا بحياته كل من استطاع الهرب تاركين وراءهم جميع أمتعتهم إلى جانب كمية الفلفل التي استطاعوا شراءها وهي تبلغ مائة وأربعين

رطلا، ورثا جون ديفز في مذاكراته لبعض أولئك الأفذاذ من الملاحين الذين لقوا حتفهم بينما كانت جميع البوادر تبشر بالنجاح والثروة.

قام خازن البعثة وهو فرنسي يدعى "جيليفور" بعبء قيادة البعثة وفقا لأوامر تضمنها خطاب مختوم لم يكن ليفتح إلا في حالة وفاة القائد، فعاد بالسفينتين سالمتين إلى زيلاند في عام ١٦٠٠ وكان إبحارهما من هولندا خلال مارس ١٥٩٨، وبمجرد عودته إلى وطنه رفع "جون ديفز" تقريره إلى الإيرل أوف أسكس.

***

بينما كانت السفينتان التابعتان لبلتزار موشيرون تعصف بها الأحداث السالفة الذكر، كانت الشركة الجديدة التي سبق الكلام عنها قد أخرجت إلى البحر حملة مكونة من ثماني سفن تحت قيادة جاكوب فان نك تستهدف اجتياز البحار الشرقية، وقد لامست بعض السفن الحملة جزيرة مدغشقر في طريقها وجزيرة أخرى إلى جوارها غير مأهولة، كان البرتغاليون قد أطلقوا عليها اسم سِيرْن فغير القائد الهولندي اسمها إلى موريس تخليداً لاسم حاكم البلاد المنخفضة موريس أوف ناسو. وقبل أن يرحل الهولنديون عن هذه الجزيرة علقوا سبّورة على شجرة بالقرب من مدخل الميناء كتب عليها "المصلحون المسيحيون" ورسم على السبورة شعار هولندا وزيلندا وأمستردام ليبرهنوا لجميع الملاحين الذين قد يمرون بهذه الجزيرة على أنه قد مر بها من قبلهم نصارى هولندا

كانت نتيجة رحلة أمير البحر فان نك إلى أرخبيل الملايو رحلة موفقة فأحسن الأهالي استقباله، وقد أخذ سمته في طريق العودة بأربع سفن بعد أن ملأها بشتى أنواع التوابل والأفاويه، بينما واصل نائبه أمير البحر ويبراند فان وَرِكْ [٢٧٢] السير إلى جزائر التوابل. زارت هذه السفن جزيرة ترنات عام ١٦٠٠ حيث أخبرهم ملكها بأنه من العسير عليه أن يزودهم بما يطلبون من القرنفل وجوزة الطيب إذ سبق له أن وعد بها قائد إنجليزيا اسمه دريك [٢٧٣] فأفهمه ورك بأن الإنجليز قوم شريرون وأنهم وإن كانوا ينتحلون شخصية التجار إلا أنهم قد أتوا في مقابل مساعدة الهولنديين له على مقاتلة البرتغاليين.

وحوالي هذا التاريخ ١٥٩٩ وصلت سفينة هولندية جزيرتي بندا وأمبوينا حيث طلب الأهالي إلى قائدها أن يساعدهم على قتال البرتغاليين، فأبدى القائد استعداده للمساعدة إذ سمح له في مقابل مساعدته أن يبني له حصن، وسرعان ما بني الحصن ورابطت فيه حامية هولندية.

وبعد هذا التاريخ بفترة وجيزة من الزمن أسس قائد هولندي آخر هو أمير البحر جان فان همزكرك[٢٧٤] مركزين للتجارة في جزيرة بندا ثم بعد أن وسق سفينتين بالتوابل أقلع شطر وطنه. كان صاحبنا الشغوف بالمغامرات الذي سبق له مصاحبة فان هوتمان قد رافق هذا الأسطول: وكان آخر ما دونه في يومياته بإيجاز قوله: "وأخيراً وصلت هاتان السفينتان إلى تكسل

---

(٢٧٢)Wybrand Van Warwick
(٢٧٣) Jan Van Hemskerk
(٢٧٤)Darke

بعد مشاق مضنية وقلق وآلام وتعرض للأمراض بسبب نقص الطعام والماء، ومن ثم وصلنا أمستردام بربح وغنم وفير لكل من ساهم في البعثة، ومن اليسير تصور مدى هذا الربح إذ كانت جميع السفن الثمانية قد عادت بخيرات عميمة بحمد الله العلي العظيم الذي خصهم برعايته وسط البحار الطامية التي اقتحموها، ثم قدر لهم العودة سالمين إلى وطنهم". وقد حققت البعثة من هذه الرحلة وإن تكن الخسائر التي منيت بها في الأرواح جسيمة، ولم يسع ملك إسبانيا إلا أن يدرك بأن البلاد المنخفضة لم تعد تعتمد على قادس ولشبونة في متاجرها بالتوابل.

عظم اهتمام جميع الأوساط في هولندا بجزائر الهند الشرقية حتى رغب كل إنسان في أن يكون له نصيب من تجارة الشرق المربحة مما ترتب عليه أن عمد الأهالي إلى تكوين شركات صغيرة شرعت في إرسال سفنها إلى أرخبيل الملايو حتى بلغ عدد السفن الهولندية الراسية أمام بنتام في وقت واحد أربع عشرة سفينة.

وسرعان ما ظهرت الأضرار الناجمة عن عدم تنسيق الجهود في هذا المضمار فأمام تزاحم التجار والوسطاء على التوابل رفع الأهالي أثمان عروضهم بينما هبطت أسعار التوابل وغيرها من بضائع الهند في السوق الهولندية لكثرة المعروضات فيها حتى اضطر الحاكم العام أمام هذه الحالة غير المرضية أن يهيب بالشركات الصغيرة إلى الاندماج في شركة واحدة كبري تُمنح احتكار تجارة التوابل. فكان له ما أراد ومنحت الشركة الجديدة براءة خاصة للاحتكار، اغتبط بها الجميع حتى أكثر رجال الأعمال

طموحاً، ولا غرو فقد منحت الشركة حقوقاً وامتيازات بعيدة المدى لا تقل في شيء عن الامتيازات التي كان يدعيها لأنفسهم ملوك البرتغال وإسبانيا والتي كان يتبرم بها الهولنديون في مرارة ويصفون أصحابها بالصلف والإغراق في التعالي.

ولكن هذه الحقوق والامتيازات الممنوحة للشركة الهولندية لتجارة جزائر الهند الشرقية أصبحت في عيون الهولنديين الآن حقوقاً مشروعة لا غبار عليها بعد أن كانوا يطعنون على البرتغال وإسبانيا ويرون في استئثارهما لها غبنا فاحشاً بالنسبة لهم، ونصّت البراءة الممنوحة لهم على حق الملاحة لسفن الشركة في البحار الواقعة شرقي رأس الرجاء الصالح وغربي مضايق ماجلان مع منحها سلطة القتال أو المسألة وحق الاستيلاء على السفن الأجنبية ومصادرتها وحق إقامة الحصون وصك النقود.. الخ.

ولما كانت الشركة الجديدة صبغة المؤسسات القومية فقد طلب الحاكم العام إلى ست مدن من أكبر المدن الهولندية أن تساهم في رأس المال الذي حُدّد بستة ملايين فلوزن "أي ستمائة ألف جنيها بعملة اليوم". وخصصت لكل مدينة حصة معينة تتناسب مع أهميتها وثروتها، وطرحت الأسهم في السوق لتمكين كل فرد من رعايا البلاد المنخفضة من أن يكون له نصيب من الربح الذي تحققه تجارة الفلفل وجوزة الطيب والقرنفل.

اغتبط الهولنديون أشد الاغتباط بتأسيس هذه الشركة الجديدة وباتساع ميدان نشاطها ولكن فيليب الثاني لم تعجبه هذه الحال واعتبر

تكوين الشركة تحديا له ودعوة للقتال. قبل فيليب الثاني التحدي وقرر أن تكون مضايق ملقا ميداناً للنزال والمصاولة فأصدر إلى أسطوله الأوامر بمهاجمة كل سفينة هولندية يصادفها في تلك المياه بينما تبذل كل الجهود للقضاء على تجارة الهولنديين أو محاولتهم للاتجار براً عن طريق إثارة الأهالي ضدهم. على أن الجزء الأخير من هذه الأوامر يعتبر غير ذي موضوع إذ كان التجار البرتغاليون المحليون قد مضى عليهم زمن طويل وهم يلعبون هذه اللعبة أي منذ ظهور الهولنديين في تلك الأنحاء

ترتب على الموقف الجديد أن أصبح البرتغاليون والهولنديون يتنافسون على ثروة أرخبيل الملايو الغني ووجد البرتغاليون في منافسيهم مزاحماً خطيراً ذا دهاء وبصيرة بالأمور.

أثار ما كان يجري بين إسبانيا وهولندا حول تجارة التوابل اهتمام مدينة لندن ولا عجب فرحلة جون ديفز على ظهر السفينة الهولندية إلى مناطق الفلفل لم تكن من عبث الأمور، وقد علق أحد المعاصرين الإنجليز على البعثات الهولندية فوصفها بأنها "تشجيع لذوي المطامح من الإنجليز" وحثهم على انتهاز كل ما يسنح لهم من الفرص في محيط إمكانياتهم.

الفصل الخامس عشر

أعمال سير فرانسيز دريك الجليلة

إلى ألف مملكة سوف نمضي من بعيد

إلى ألف شعب مزقته الحروب الأهلية

هناك حيث عروس البحر بشمرها المشعث الكئيب

سوف تمضي سفننا ناشرة أجنحتها الجبارة

وتسحب أناجرها من وسط المحيط المزبد

وتهيم في كل مناخ واتجاه

مخضعة لسلطاننا كل بلد غير مسيحي

حيث يكاد اسم إنجلترا يكون مجهولا

"ميكلدرايتون ١٦٢٠"

اتصل الملاحون الإنجليز عام **١٥٥٣** بالإمبراطورية المسكوفية أثناء الرحلة التي قاموا بها لاكتشاف الطرق الشمالية الشرقية إلى الصين، وقد ترتب على هذه الرحلة إنشاء الشركة المسكوفية الموقرة.

وحدث بعد هذا التاريخ ببضع سنوات أن زار بعض موظفي هذه الشركة مدينة هرمز "حيث تباع جميع أنواع التوابل" فعلموا أنها على مسير ستة أيام من مقرهم. لذلك اقترح أحد التجار البريطانيين على مخدوميه في لندن بأنه "قد يكون من الخير لهم لو أرسلوا وكلاءً لهم من إنجلترا إلى هذه المدينة المهمة"، مضيفاً إلى ذلك توصيته بأن يحسنوا اختيار الوكلاء عنهم فلا يكونون من ذوي النفوس الشريرة ولا من السكيرين خشية الإساءة إلى سمعة إنجلترا كما حدث مع ريتشارد جونز، الذي ترتب على مسلكه اعتبار الإنجليز أسوأ طباعا ومسلكا من الروس. وأوصى المقترح كذلك بأن يحمل ما يبتاع من التوابل في هرمز إلى إنجلترا عن طريق استراخان بشاطئ البحر الأسود، ومن ثم إلى أركنجل على البحر الأبيض. وزار مدينة حلب في عام ١٥٥٠ إنجليزي كثير الأسفار يدعى أنطوني جنكنسون، حاول الاتفاق مع أولي الأمر من الترك على تيسير وسائل الإتجار لمواطنيه المقيمين في تلك المدينة، فيمنحون امتيازات مماثلة للامتيازات التي يتمتع بها التجار الفرنسيون والإيطاليون وحدهم. وكان الفرنسيون يتمتعون بامتيازات خاصة بناءً على اتفاقية عقدت مع الحكومة التركية عام ١٥٣١، وتبعهم تجار فينيسيا فعقدوا اتفاقية مماثلة كذلك بعد ما رأوه من الفوائد العائدة على التجار الفرنسيين.

عجب أنطوني جنكنسون أشد العجب من انصراف التجار البريطانيين في حلب عن الرغبة في عقد اتفاقية مماثلة لاتفاقية الفرنسيين والفينسيين، ولم يكن من العسير إدراك سبب اعتراضهم الناشئ عن كثرة الأخطار التي تعترض سبيل السفن في البحر الأبيض المتوسط لكثرة عدوان

قراصنة شمال إفريقيا، ففي رأي هؤلاء التجار الإنجليز أنه ليس هنالك أية فائدة من تكوين شركة لحمل التوابل في سفن خاصة بها يحل محل سفن فينيسيا، فمدينة سوثهامبتون[٢٧٥] هي السوق الرئيسية التي ترسل إليها بضاعتهم، وهي في نفس الوقت المدينة التي تحمل إليها السفن الفينيسية البضائع المستوردة من الهند وفارس وتركيا، وهي سفن صنعت خاصة لحمل الشحنات الكبيرة فليس من اليسير قيادتها. وفى هذه السفن تحمل من الإسكندرية توابل الشرق وكنوزه إلى الثغور الأوروبية، وهي من النوع الذي كان ينتظر "تاجر البندقية" وصول إحداها في قلق واهتمام. فكم من فينيسيا وظف كل ثروته في تجارة التوابل وكان ينطبق عليه ما وصف به شكسبير تاجر البندقية وهو ينتظر شحنته الغالية.

ينتف الحشائش ليعلم اتجاه الرياح

مكبا على الخرائط بحثا عن الثغور والمراسي والطرق

فعقلك هائم يتخبط فوق المحيط.

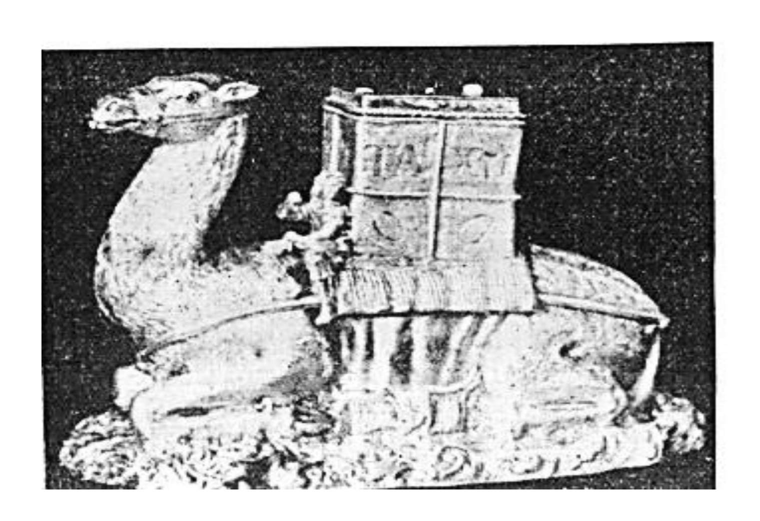
هناك حيث سفينتك العظيمة بأشرعتها الشامخة

كالقصور والآطام فوق العباب

يراقبها أصحابها الأثرياء وهي تسخر من الزوارق المتواضعة في غدوّها ورواحها.

---

[٢٧٥] **Southampton**



صندوق عام ١٧٩٠

حدث ذات مرة أن غرقت إحدى هذه السفن بحمولتها الغالية وبكل رجالها على مقربة من جزيرة ويت[٢٧٦] فقرر الفينيسيون أمام هذه الكارثة وأمام الخسائر في الأرواح والأموال أن يكفوا عن إرسال سفنهم إلى إنجلترا. فليحمل التجار الإنجليز تجارتهم من فينيسيا في سفنهم.

كان انقطاع هذه الواردات – على غير انتظار – عن ثغور إنجلترا هو العامل الذي دفع التجار الإنجليز إلى الذهاب بأنفسهم لجلب التوابل، مما ترتب عليه تأسيس شركة الشرق بعد أن عقدت الملكة اليصابات اتفاقية مع السينيور الأكبر في عام ١٥٨١. قرر عام ١٥٨٢ تاجران من أعضاء هذه الشركة زيارة الهند برا معتزمين السفر من لندن إلى حلب ومن ثم إلى هرمز فالهند.

---

[٢٧٦] Isle of Wight

وسمع رجل يدعي جون نيوبري(٢٧٧) بالرحلة المعتزمة فقرر الانضمام إلى التاجرين وقد حملته الملكة اليصابات خطابين، أحدهما لملك كمباي والثاني لإمبراطور الصين، وكان نص الخطاب المرسل لهذا الأخير كالأتي.

أيها الإمبراطور الذي لا يقهر:

إن شغف رعايانا بزيارة أركان العالم البعيدة مع توفر حسن النية والرغبة في التعامل تجاريا مع جميع الأمم عن طريق تبادل السلع والمنتجات لصالح الطرفين، ولتوثيق عرى الصداقة والمودة، قد دفعني إلى كتابة هذا الخطاب وإرساله إليكم مع حامله جون نيوبري ومن يكون معه مم زملائه ورفقته، الذين أقدموا في جرأة وبسالة على تحمل أهوال السفر إلى حدود إمبراطوريتكم. وختمت الملكة خطابها طالبة إلى الإمبراطور أن يشمل برعايته رسولها ومن معه وأن يسمح لهم بالمرور.

وهكذا نرى عام ١٥٨٣ أربعة رجال من الإنجليز هم: رالف فتش، وجون نيوبري، وصائغ اسمه إلدِرِدْ(٢٧٨)، ونقاش اسمه استوري (٢٧٩) يرحلون من حلب إلى البصرة ومنها إلى هرمز. وكان نيوبري يبعث الرسائل من كل بلد ينزلون فيها بما يجمعه من المعلومات بشأن التوابل وأسعارها... الخ. ولم يدر بخلد هؤلاء المسافرين احتمال مناصبة الإيطاليين والبرتغاليين العداء لهم، فساءت الأمور في هرمز إذ أحس الإيطاليون باحتمال المنافسة لهم،

(٢٧٧) **John Newbury**
(٢٧٨) **Eldred**
(٢٧٩) **Story**

فاتهموا الإنجليز بالجاسوسية مما دعا السلطات البرتغالية إلى وضع هؤلاء المنافسين – على غير انتظار – في السجن.

كتب جون نيوبري إلى تاجر إنجليزي بالبصرة ليكتب بدوره إلى تجار لندن، ليشفعوا له ولزملائه لدى ملك إسبانيا الذي كان ملكا على البرتغال في نفس الوقت، مختتما رسالته بهذه العبارة لا يجوز للبرتغاليين هنا أن يعدمونا إذا هم توخوا العدالة والإنصاف. إنهم قد يذبحوننا أو يتركوننا في أعماق السجون فلتكن مشيئة الله فأمره نافذ على كل حال. ولكن حدث أن والي هرمز كان قد لقي كثيراً من العطف ذات مرة من أحد مواطني المتهمين، فأراد أن يقابل الإحسان بالإحسان، لذلك بعث بهم إلى "جوا" ليحاكموا أمام نائب الملك وهي خطوة أنقذت حياتهم ما في ذلك شك.

ولما كانوا إنجليزا بحكم جنسيتهم فقد اعتبروا لأول وهلة من أبناء المذهب البروتستانتي، ولم يصدق أحد قولهم بانتمائهم إلى الكنيسة الكاثوليكية الرومانية. ولكن ما كاد يقتنع الترجمان، وكان راهبا بلجيكيا، بأن السجناء يعتنقون نفس المذهب الذي يدين هو به، حتى وعد بالعمل على إطلاق سراحهم، على شريطة أن ينضموا إلى جماعته، وهي جماعة "الجزويت". رفض السجناء الإنجليز هذا الشرط فلم يكن بهم حاجة إلى الرهبنة، ولا للرهبنة غادروا وطنهم. كان رفضهم نذيرا لهم بالعذاب الشديد إذ قرر الراهب أن يتركهم لمصيرهم في السجن طمعا منه في الاستيلاء على ما كان معهم من الأموال لحساب جماعة الجزويت. كان استوري النقاش هو الوحيد الذي قبل اعتناق مذهب الجزويت، ولكنه لم يدم طويلا على

هذا العهد فقد خرج على نظام الجماعة وتزوج من إحدى نساء الأهالي وقضى بقية حياته في "جوا". وكان من حسن حظ هؤلاء الإنجليز الذين أصبحوا لا حول لهم ولا قوة أن سمع بوجودهم في "جوا" رئيس الأساقفة البرتغالي فأرسل سكرتيره "أيان هيوغن فان لنشوتن" مع بعض البلجيكيين لاستجواب السجناء. كانت نتيجة الاستجواب أن أطلق سراحهم بضمان تاجر أخذته الشفقة عليهم ولكن تصرمت الشهور دون أن يقدموا للمحاكمة.

سنحت الفرصة لرلف فتش، وجون نيوبري خلال هذه الفترة لمراقبة مجريات الأمور في "جوا" وهي تنبض بالحياة والحركة وغدو الناس عليها ورواحهم، فشاهدوا مقدم سفير من قبل ملك اليابان لملك البرتغال وقدم غيره من سفراء العجم وكامباي وكلكنا وكوشن، لتوقيع معاهدات للسلام مع نائب الملك في "جوا".

كل هذا جعل الإنجليز يدركون مدى عظمة البرتغال وسلطانها في الشرق. وقع في ذلك الوقت حادث رواه لنشوتن، كان له أعمق الأثر في نفوس الأوروبيين فقد قدمت إلى جوا ملكة هرمز الصغيرة السنّ ومعها شقيقها ليعتنقا الدين المسيحي ويتعمدا، وكان على الملك أن يواصل السفر إلى البرتغال بينما بقيت الملكة في "جوا" حيث تزوجت بعد حين من ضابط برتغالي، ولكنه لم يلبث أن أرسل إلى هرمز بسبب اعتناقها الديانة المسيحية.

وسرعان ما قضت نحبها من شدة الحزن على فراق زوجها فبكاها كل إنسان في "جوا" لأنها كانت أول ملكة في ذلك القطر تعتنق المسيحية مفضلة ذلك على عرشها ووطنها.

***

أبحر رئيس الأساقفة بعد ذلك الحادث بقليل إلى لشبونة على ظهر السفينة موسقة التوابل ولكن لسوء الحظ غرقت السفينة ولما تبعد كثيراً عن الميناء، وتصادف وجود قوارب عديدة استطاعت أن تنقذ جميع الركاب سوى بعض الأرقاء المصفدين، وظهر من التحقيق الذي أجري لمعرفة الأسباب التي أدت إلى غرق السفينة أن الأثقال التي توضع عادة في السفينة لحفظ توازنها، كانت قد ألقيت في البر سراً لإفساح المكان لشحنة من القرفة نظراً لارتفاع سعرها في إسبانيا. وكان المشرفون على الميناء قد تغاضوا عن هذا الأمر غير المسموح به تحت إغراء الرشوة.

أما لنشوتن فيعزو سبب الغرق إلى هرب بعض الدجاج من حظيرتها، فجرى كل جماعة وراء دجاجة ليمسكوها، وحيث أن السفينة كانت خالية فقد غرقت من فورها. أبحر رئيس الأساقفة بعد ذلك الحادث بوقت قليل فوق ظهر سفينة أخرى ولكنه توفي أثناء الرحلة. وكان أن وصل نبأ وفاته إلى لنشوتن في نفس اللحظة التي علم فيها بوفاة أبيه فقرر من فوره العودة لهولندا، وفى الوقت نفسه ساور الإنجليز القلق لوجودهم بجوا رغم إرادتهم ولغير جرم ارتكبوه، على أنهم لم يلبثوا أن اكتشفوا بأن المعاملة المجحفة التي

يعاملون بها ما هي في الواقع إلا انتقام لما لحق بعض البواخر البرتغالية من سوء المعاملة في أرخبيل الملايو ذات مرة على يد رجل إنجليزي.

كتب نيوبري إلى إنجلترا بكل ما سمعه من أن "المستر دريك غادر إنجلترا في أسطول مكون من عدة قطع، ومن أنه وصل جزر ملوك وملأ سفنه بالقرنفل، وأنّه عندما وجد بها إحدى السفن البرتغالية الكبيرة أمر قطعتين من أسطوله بإطلاق النيران في الحال عليها"، وأضاف نيوبري إلى ذلك بقوله "حينما رأيت غضب البرتغاليين في جوا لما حدث سألت أحد الضباط الموكل إليهم أمر حراستنا عما إذا كان إذ كان أسرنا للانتقام. فأجاب لا وأنه ليقصد العكس" وذكر نيوبري في خطابه هذا بأنه هو وأصحابه مدينون لأحد الرهبان من الإنجليز المنتمين لجماعة الجزويت[٢٨٠] يدعي الأب توماس إستفينس وإلى سكرتير رئيس الأساقفة الهولندي باستمرار وجودهم على قيد الحياة.

ولما ضاق الإنجليز ذرعا بإقامتهم في جوا منتظرين تقديمهم للمحاكمة قرر ألف فتش وجون نيوبري محاولة الهرب، فابتاعا بعض الجواهر بما كان معهما من المال ولاذا بالفرار سالمين. وفى مدينة لاهور افترق نيوبري عن زميله ليعود إلى إنجلترا عن طريق سوريا، ولكن انقطعت أخباره منذ ذلك

---

[٢٨٠] لم تكن السفن البريطانية قد سلكت حتى الآن في إبحارها إلى الهند طريق رأس الرجاء الصالح وإن يكن أحد الإنجليز قد فعل ذلك في إحدى السفن البرتغالية وهو الأب توماس ستفينس المنتمي إلى جماعة الجزويت على أنه حدث قبل ذلك بسنوات عديدة أن قدم الهند عن طريق البر أسقف أوفده ألفريد الأكبر ملك إنجلترا لزيارة قبر القديس توماس، وكان هذا الأسقف أول إنجليزي يحمل إلى وطنه التوابل من الهند مباشرة.

الحين فلم يسمع أحد عنه شيئا. أما رالف فتش فزار المغول الأكبر في عجرا ثم واصل سفره حتى الصين وأرخبيل الملايو، وكان يدرس مسألة احتمال الإتجار في الجواهر والتوابل في كل مكان نزل به. انقضت ثمان سنوات على مغادرته إنجلترا قبل أن يعود إلى وطنه في عام **١٥٩١** حيث كتب قصة رحلته ومغامراته، ضمنها معلومات مفصلة عن كل ما يتعلق بالتوابل، فكان ما كتبه مصدر معرفة قيّمة لطبيعة كل تابل وطريقة نموه وخاصيته؛ فالقرنفل يأتي من ملوك وهي مجموعة من الجزائر الصغيرة، وشجرته تشبه شجرة الجوز عندنا ولكنها أصغر حجما، أما خشب الصندل الأبيض فحلو المذاق جدا ويوجد في جزيرة تيمور. ويعتبر الكافور من السلع الثمينة الغالية. وثمنه في الأسواق الهندية أإلى من ثمن الذهب، وتأتي أجود أصنافه من جزيرة بورنيو. أما الصبر فيأتي من كوشنشاينا[٢٨١] .

وكان أهم من هذا كله في نظر تجار لندن أن يقفوا على ثمن القرنفل والبهار وجوزة الطيب والقرفة في مواطنها التي تنبت فيها والسعر الذي تباع به في القاهرة وما يحققه المستوردون الأوروبيون من أرباح ضخمة.

أثار تقرير فتش اهتماما عظيما في حي الأعمال بلندن حتى أن كثيراً من التجار أخذوا يفكرون جديا في إرسال السفن إلى الشرق الأقصى لحسابهم لا بد وأن يكون رالف فتش قد استولت عليه الدهشة عندما علم بالرحلات الرائعة التي قام بها مواطنه الذائع الصيت المستر دريك، إذ كان

---

[٢٨١] **Cauchinchina**

ما أصابه هو وصحبه من البلاء الشديد والأسر والسجن، إنما كان بسبب المستر دريك هذا. نشر ريتشارد هلكوت أنباء رحلة سير فرانسيس دريك حول العالم في الجزء الثالث من مؤلفه "أهم الرحلات"، وهو يشير إلى أن السفينة "الهند الذهبي" كانت أول سفينة تفرغ حمولتها من التوابل المستوردة من جزائر ملوك مباشرة بميناء إنجليزية.

وليس بمستغرب في الواقع أن يحوي مؤلف هلكوت أنباء هذه الرحلة التاريخية إذ كان الهدف من تأليف هذا السفر تمجيد عظمة إنجلترا وبسالة ربابنتها لا تقارن – على حد قول المؤلف – حتى من جانب الملاحين البرتغاليين والإسبان، إذ ما من شك في أن أخطار البحار الشمالية وشدة برودة الجو فيها وما يخيم عليها من ظلمات، تتطلب جلدا وصبرا ومثابرة أكثر من خوض البحار صوب مشرق الشمس، فلا جدال في أن رحلات سير فرانسيس دريك قد جمعت كل عناصر الأخطار التي واجهها حتى الآن القواد البرتغاليون والإسبان معاً.

انقضت خمسون عاما على اكتشاف ماجلان للمضايق التي تحمل اسمه، وقام ربابنة كثير من الأمم بمحاولات عديدة لترسم خطاه، ولكن عبثا يحاولون، والواقع أن هذه المحاولات مضافا إليها الأساطير التي ذاعت حول هذه المضايق في المحيط الهادي قد أثارت في رؤوس البحارة نوعا من الرهبة الراسخة، فكانوا يرفضون السفر إلى تلك الجهات. كانت الرحلة إلى المحيط الهادي في يوم من الأيام من أعز أمنيات فرانسيس دريك، على أن الفرصة ما لبثت أن سنحت له على غير انتظار.

كانت العلاقات بين الملكة اليصابات وفيليب الثاني كثيرة التحول والتقلب، فما أن تصل إلى حد النفور والمقاطعة؛ حتى تصبح فجأة في غاية المودة والمحبة، فكانا يستبد بهما الغضب لما يبديه أحدهما من التأييد لرعايا الآخر كلما شقوا عصا الطاعة عليه، غير أن الاعتبارات الدبلوماسية لا تلبث أن تعيد الأمور إلى نصابها، فيسود السلام ويتصل ما انقطع من حبل المودة.

وحدث في خريف عام ١٥٧٧ بينما كانت الملكة اليصابات في حالة غضب على ملك إسبانيا أن أرسلت في طلب القبطان فرانسيس دريك، وكانت معاركه مع الإسبان قد أكسبتة شهرة واسعة، ووجهت له الكلام قائلة:

"دريك كم يسعدني أن أنتقم من ملك إسبانيا من أجل إهانات شتى ألحقها بي" فأجاب دريك بأن في الإمكان "مضايقة" ملك إسبانيا في جزائر الهند الشرقية بمهاجمة بناما عن طريق مضايق ماجلان. أعجبت الملكة بالفكر، وفي الخامس عشر من شهر نوفمبر عام ١٥٧٧ أبحر دريك في أسطول صغير من ثغر بليموث في مهمة سرية بأمر الملكة.

وكان من البديهي أن يكتم عن البحارة ما اعتزمه من المرور وسط مضايق ماجلان، إذ كان المغنم الشخصي هدف كل مشترك في هذه الحملة والدافع له على الانخراط في سلكها، بينما كان أمام القائد أكثر من عمل وُكِلت إليه مهمة تأديته. كان هذا البروتستانتي المتطرف، يرى في إحباط

أعمال الكاثوليك الرومان، وبخاصة الإسبان منهم، واجبا يتعين عليه تأديته بأمانة وإخلاص.

والواقع أن رحلة دريك حول العالم، والأعمال الرائعة المذهلة التي قام بها هذا الملاح، وأشهر القرصان قاطبة، تعتبر ركنا من أركان المجد الذي دُعِّمت قواعده من عهد الملكة اليصابات.

ما الذي يضيره إذا نعته أهل إنكلترا "بلص العالم المجهول الأكبر" فهو من جانبه يشعر بأنه مُحِقٌ في أسر السفن الإسبانية وتجريدها من كنوزها، كانت فكرته أن يحصل على جزء من الحصاد الذي ينتّزعه الإسبان من الأرض الطيبة ويرسلونه إلى إسبانيا ليزيدوا العالم بلبلة واضطرابا.

أشار أحد كتاب ذلك العصر في كتابه المسمى – التاريخ الملكي الصحيح للإمبراطورة اليصابات الشهيرة – إلى عودة سير فرانسيس دريك عام ١٥٧٩ بقوله "عاد فرانسيس دريك حوالي هذا التاريخ ومعه ثروة ضخمة ولكن الذي كان أهم من الثروة هو أنه كلل هامته بالمجد بسياحته حول الكرة الأرضية، موفقا كل التوفيق، فهو وإن لم يكن أول من طمح إلى منزلة الخلود، إلا أنه أول إنسان بعد ماجلان يموت في ميدانه.

ألهبت خيال الشعب قصة ما عاد به إلى إنجلترا هذا الربان الموفق من كنوز هائلة ضخمة، بيد أن الآراء في البلاط وفى الأوساط السياسية كانت مختلفة متباينة فيما يتعلق بشرعية الغنائم التي ألم بها؛ فالسياسيون شعروا بشيء من تبكيت الضمير، بينما ثارت ثائرة فيليب الثاني وراح يطالب

بالتعويض ورد ما سلبه دريك وأمّا دريك فقد أثرى وصعد درجات المجد تباعا، على أن أهمية كل هذا لم تكن إلا لفترة مؤقتة. فقد أدركت الملكة، ببصيرتها النافذة ما سوف تتمخض عنه أعمال دريك من مغنم مستديم لإنجلترا فمجرد بلوغ السفن الإنجليزية جزائر ملوك كان أعظم أهمية لإنجلترا من سلب كنوز السفن الإسبانية كما برهن المستقبل على صحة هذا الافتراض.

أهدت الملكة إلى دريك بعد أن أنعمت عليه بلقب سير كأساً ملكية عرفاناً بفضله، وتخليداً لذكرى زيارته لملك ترنيت حفر عليها مشهد استقبال ملك ترنيت له، وقد ورد ذكر هذا الحادث في كتاب "قصة رحلة سير فرانسيس دريك حول العالم".

***

قال نائب الملك الموفد من قبله إلى القائد الإنجليزي بأنه – أي دريك – لن يحصل على الأشياء التي طلبها أو يطلبها في رفق من الملك، فحسب ولكن الملك نفسه يسره أن يعقد أواصر المودة مع أميرة لها مثل ما لأميرتكم من الشهرة. وإذا كان يسرها أن يمنع عن جميع الدول وخاصة البرتغال المعادية لها، منتجات كل جزيرة وأن يحتفظ بهذه المنتجات لها ولشعبها وحده، فإنه يفعل ذلك عن طيبة خاطر، وأنه يرسل الآن مع الجنرال خاتمه برهانا على صدق قوله، على أنه سوف يحضر بنفسه بعد وقت قصير لزيارة الملكة شخصيا. لم تستغرق زيارة جزائر ملوك سوى

بضعة أيام، ولكن النتائج التي ترتبت على هذه الزيارة برهنت على مدى أهميتها خلال قرون طويلة. كانت أطنان القرنفل التي حملت إلى ظهر السفن الإنجليزية تبدو لأعين كل من يهمه الأمر، كما لو كانت عناقيد العنب التي حملها الجواسيس إلى يوشع من أرض الميعاد، إلاّ أنها في الحالة الراهنة جزائر التوابل.

قدر للاتفاقية الشفوية التي عقدت بين ملك ترنيت وسير فرانسيس دريك، والتي بمقتضاها منح الإنجليز حق احتكار جميع ما تنتجه الجزائر التي يسيطر عليها من القرنفل أن تصبح هذه الاتفاقية مع مرور الزمن، أداة دبلوماسية في المرتبة الأولى من الأهمية الدولية حتى أن بعض المؤرخين وصفها فيما بعد، بأنها أَنْجَر (هلب) أرسته الدبلوماسية الإنجليزية في الشرق.

الفصل السَّادسُ عشر

من جزائر ملوك إلى حارة منسوج[٢٨٢] (الفرم)

"لقد بحَّرت في البحر على طول شواطئك يا جزائر ملوك حيث احتفى بي جماعة من أبنائك الوثنيين، وفي استطاعة أبناء مواطني أن يتعاملوا معكم في ميدان التجارة كما يتعامل البرتغاليون إذا ما شئتم ذلك"

توماس كافندش سنة ١٥٨٦

تركت رحلة سير فرانسيس دريك الموفقة حول العالم، ورحلة سير توماس كافندش التي قام بها على حسابه الخاص سنة **١٥٨٦** أثراً عميقاً في نفوس تجار إنجلترا وجعلتهم يفكرون جدياً فيما يمكن الحصول عليهم أرباح وفيرة عن طريق التعامل المباشر مع الشرق. كان كافندش من التجار المغامرين ذوي الجرأة والإقدام، أبحر عن شواطئ إنجلترا في ثلاث سفن ليحصل على التوابل بترخيص خاص يتيح له حق مهاجمة سفن الأعداء. وبعد أن حقق هدفه إلى أبعد مدى، عاد إلى إنجلترا راضياً عن رحلته ومغامرته كل الرضا.

---

[٢٨٢] **Mincing Lane**

اهتم فريق من التجار – كانت لهم معاملات في هذا الوقت مع الشرق – بما رواه كافندش عن احتمال فتح أسواق لتجارة التوابل، معتقدين بأن الوقت قد حان لتأسيس علاقات تجارية مباشرة مع الهند عن طريق البحر، وكان ما لقيه كافندش من حفاوة سلاطين جزائر ملوك، من الأسباب التي جعلته يصر على أن في استطاعة التجار الإنجليز أن يتعاملوا مع تلك الجزائر مني شاءوا في حرية تامة كما لو كانوا من تجار البرتغال.

وكان في طليعة الذين عناهم هذا الأمر بوجه خاص. توماس سميث، من أعضاء المجلس البلدي وريتشارد ستوبر، وكان هذا الأخير قد أرفقه نائبه رالف فتش، بعد عودته من الهند على طائفة من المعلومات عن ذلك الفطر. وكان من بين العوامل التي أثارت الاهتمام بالإتجار في التوابل مع الشرق، تلك الرسائل التي بعث بها ريتشارد ثورن، يحث فيها مواطنيه على تقليد البرتغاليين وترسم خطاهم. أضف إلى ذلك تلك المعاهدة الشفوية التي عقدها سير فرانسيس دريك مع ملك ترنيت، وقد ساد الشعور بأنه قد يكون من الحكمة استغلال هذه المعاهدة.

أما احتمال ما قد يترتب على مثل هذه المغامرة من خسائر وأخطار فيقابله الأمل في احتمال أسر سفن الأعداء، مما يعوض على الأقل جزءًا من نفقات الرحلة ومعداتها، وخاصة أن التجار كانوا يعتقدون بصدق المثل القائل "لا ربح بغير مسعي"، لذلك استقر عزمهم على رفع التماس للمجلس الاستشاري بغية الحصول على ترخيص من الملكة لإعداد ثلاث

سفن وثلاثة قوارب وحماية تجارتهم وألا يطالبوا بشيء سوى تسديد الضرائب الجمركية عند عودتهم إلى شواطئ الوطن.

وتضمن الالتماس قائمة بالمستعمرات البرتغالية القائمة على شواطئ المحيط الهندي وبحر الصين، مع الإشارة إلى ما هنالك من الجهات المتعددة التي يستطيع التجار الإنجليز التعامل فيها بصورة مربحة. وختم التجار التماسهم المرفوع إلى مجلس الشورى بأن في إمكان إنجلترا، أن تنمي حركة ملاحتها وتزيد من عدد سفنها بفضل تجارة ما وراء البحار التي كانت العامل الأساسي في نمو الأسطول البرتغالي.

أجيب التجار إلى طلبهم وتقرر إرسال ثلاث سفن إلى البحار الشرقية تحت قيادة القبطان س. ريموند. وعلى هذا أبحرت في سنة ١٥٩١ السفن بنلوبي(٢٨٣) والتاجر الملكي(٢٨٤) وإدوارد بونافنتور(٢٨٥). ولكن انتشرت الأمراض بين بحارة السفينتين الأوليين وحلت بهم المصائب حتى اضطر القبطان ريموند إلى العودة بهما إلى إنجلترا. أما السفينة الثالثة إدوارد بونافنتور فواصلت الرحلة وحدها، وبينما كان قائدها جيمس لانكستر راسيا بها أمام الزنجباري شاهد وصول بعض الجنوك، قدمت موسقة بالفلفل للحامية البرتغالية المرابطة فأسال قدومها لعابه، وعندما ترامى إلى سمعه، أنه ينتظر مرور بعض السفن في اليوم التالي بأقصى طرف الهند الجنوبي في

---

(٢٨٣)Penelope
(٢٨٤)Merchant Royal
(٢٨٥)Edward Bonaventure

طريقها إلى شاطئ ملابار، وهي موسقة بالتوابل المستوردة من جزائر ملوك وملقا، استقر رأيه على التعرض لها وقطع الطريق عليها.

ولكن فشلت الخطة لسوء الأحوال الجوية وهبوب الرياح الشديدة على أنه تمكن بعد ذلك من أسر عدة سفن موسقة بالفلفل ووصلت إدوار بونافنتنور بعد ذلك ميناء بولو بينانج [٢٨٦] ومن ثم أخذت في طريق العودة إلى إنجلترا مارة بجزائر الهند الغربية.

وحدث بينما القبطان وغالبية أعوانه قد نزلوا إلى ساحل جزيرة صغيرة تاركين على ظهر السفينة خمسة بحارة وغلاما، أن هبت فجأة عاصفة هوجاء اقتلعت الهلب من مرساه، وجرفت الأمواج السفينة إلى عرض البحر، وتعذر عليها العودة إلى حيث كانت بالرغم مما بذله بحارته الباقون من الجهود الجبارة للعودة بها إلى شاطئ الجزيرة، فلم يكن أمامهم سوى الإبحار قدما شطر إنجلترا بحمولتها العظيمة من التوابل، وهكذا كان حظها مطابقاً لاسمها.

أنقذ القبطان لانكستر وأعوانه بواسطة سفينة من دبيب حملتهم إلى سان دومنجو، وهنا حملته هو وأحد الضباط ويدعى إدموند باركر سفينة أخرى من سفن دبيب، كانت في طريقها إلى دبيب موطنها الأصلي.

كتب إدموند باركر قصة هذه الرحلة وقام بطبعها ريتشارد هلكوت وقد اختصها بهذه الكلمات "أقمنا في دبيب يومين للراحة وتجديد النشاط،

---

(٢٨٦) **Pouls - Penang**

وبعد أن صلينا لله وحمدناه على ما منّ به علينا من النجاة، شكرنا لجيراننا الأصدقاء حسن صنيعهم، وأخذنا في طريق الرحلة إلى راي [٢٨٧] كانت هذه الرحلة هي أولى الرحلات التي قامت بها سفينة إنجليزية إلى الهند؛ ومنيت فيها بالخسائر الفادحة وخاصة في الأرواح، إذ لم يعد لإنجلترا سوى خمسة وعشرين رجلا من المائة وثمانية وتسعين الذين أبحروا في مبدأ الرحلة.

***

نشأت عناصر جديدة في ذلك الحين، حدت بالمتهمين في لندن من تجار التوابل إلى اتخاذ خطوة حاسمة في هذا الموضوع، ولما كانت إنجلترا في حالة حرب مع إسبانيا فقد تعذر استيراد الفلفل رأساً من لشبونة إلى لندن، فانتهز التجار الهولنديون هذا الظرف لزيادة أرباحهم من تجارة التوابل، فارتفعت أسعار الفلفل من أربعة شلنات للرطل، إلى ستة شلنات، وأحيانا إلى ثمانية، ولم يطق التجار الإنجليز هذه الحالة، ورغبوا في الاستغناء عن الوسطاء الهولنديين، واتفقت نفس المجموعة من تجار لندن الذين سبق الإشارة إليهم على أن يلتمسوا من الملكة هذه المرة منحهم براءة لتأسيس شركة مهمة تستهدف التجارة مع الهند وجزر التوابل. وكان مما ساعد على تعجيل الأمور أن الشركات الهولندية كانت ماضية في ابتياع السفن من إنجلترا لحمل بضائعهم من الهند، فصرح عضو البلدية توماس وأصحابه بأنه إذا كان في النية إرسال السفن إلى المياه البعيدة لتعود بمنتجات تلك البلاد النائية فلماذا لا يكون مخورها في البحار تحت اللواء الإنجليزي؟

---

[٢٨٧] **Rye**

نفد صبر زعماء هذه الحركة التجارية الجديدة لعدم صدور البراءة الملتمسة فوراً، وكان السبب الذي أبدته الملكة لرفض التماسهم ذا طابع سياسي إذ كانت في هذا الوقت ماضية في مفاوضات مع ملك إسبانيا لتحقيق السلام، فلم تشأ عمل ما قد يحول دون تحقيق هذه الغاية لمجرد خفض أسعار الفلفل، فمما لا جدال فيه أن فيليب الثاني لابد وأن تثور ثائرته لو علم بأنها قد صرحت لرعاياها دخول ميادين يعتقد أنها وقف عليه وحده، وأن منتجاتها حكر خاص به.

وأراد متزعم إنشاء الشركة الجديدة أن يقنع الملكة بأنهم لا يعتزمون احترام ما يدعيه ملك إسبانيا لنفسه من حقوق، فرفعوا إليها مذكرة جديدة ضمنوها قائمة بأسماء الشواطئ التي يعتزمون الاتصال بها وهي جميعها تقع شرقي رأس الرجاء الصالح، وغربي مضايق ماجلان. ولم يسبق للإسبان الاتصال بها قبل اليوم وأشار التجار في مذكراتهم إلى أنه في استطاعتهم التعامل مع هذه البلاد المذكورة دون التسبب في إثارة أي شيء قد يضايق إسبانيا.

ولكن مصير هذا الالتماس كان مثل مصير الالتماس الأول، وأكد وزير الدولة لهؤلاء التجار الملحفين في الطلب بأن "السلم خير من تجارة الفلفل".

ولكن ما كادت المفاوضات للسلم تنهار، ولم يعد للملكة من الأسباب ما يحملها على مراعاة ما قد يثير غضب خصومها، حتى شعرت

بأنه قد أصبح في مقدورها تجاهل ما يدعيه ملك إسبانيا من حقوق بمقتضى المنشور البابوي الصادر في عام ١٤٩٣، فأعلنت بأنها لم يسبق لها أن وافقت على حق البابا فيما وهبه، ولا هي اعترفت بحقه في ذلك ولا بممتلكاته الخيالية.

وبناء على ذلك أبلغت الملكة إليزابيث ملك إسبانيا بأن استخدام البحر والجو حق مشترك بين الجميع. ولما كان هذا رأيها فقد منحت البراءة عن طيب خاطر للمحافظين، ولشركة الإتجار مع جزائر الهند، بعد استبعاد جميع المناطق المملوكة لأي ملك مسيحي تقوم بينه وبين الملكة علاقات صداقة ومودة.

ونُصَّ في البراءة على أنها سارية المفعول لمدة خمسة عشر عاماً مع احتساب السنوات الثلاثة الأولى من قبيل التجربة، وكانت هذه الوثيقة عسيرة في تدوين موادها إذ كان لا بد للملكة إليزابيث من أن تأخذ في الاعتبار ما منح من الامتيازات للشركات البريطانية الأخرى المؤسسة قبلها مع مراعاة حقوق الدول الأخرى. وذكر التجار المشار إليهم في التماسهم المقدم إلى المجلس الاستشاري بأن هدفهم من الإقدام على هذا العمل هو التشبه بالهولنديين حبا في خدمة الوطن، ولأنهم لا يقلون كفاءة وذكاء عن أولئك الهولنديين.

كان رأس مال الشركة عند بدء تكوينها ثلاثين ألفا ومائة وثلاثة وثلاثين جنيها وستة شلنات وثمانية بنسات، زيدت فيما بعد عندما

أوشكت على إرسال أول بعثة إلى الهند إلى سبعين ألفا من الجنيهات. وكان جون ديفز قد عاد حديثا من رحلته إلى أرخبيل الملايو مع الأسطول الهولندي فزاد ما رواه عن رخص سعر الفلفل والأفاويه من رغبة مديري الشركة في استغلال هذه الفرص الطيبة.

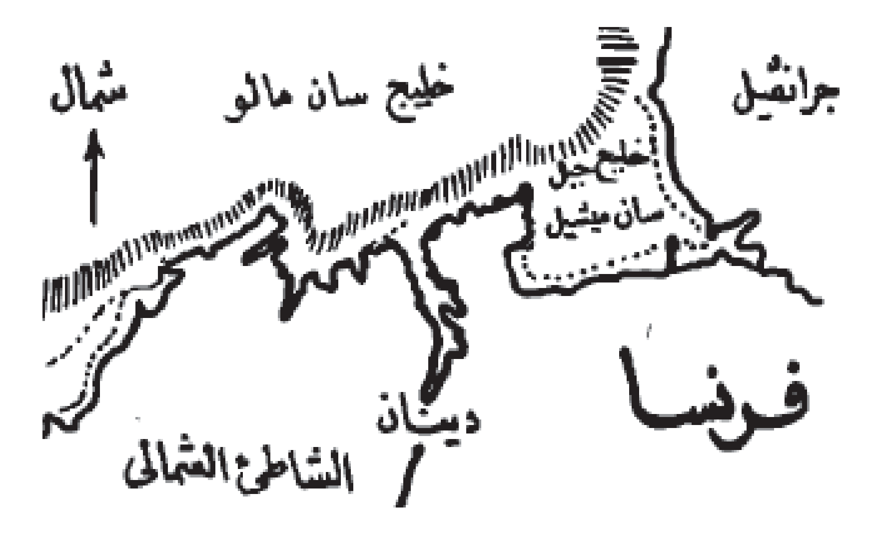
اغتبط محافظو الشركة لما أتوه من استعداد ديفز للعودة مرة أخرى إلى جزائر الهند الشرقية فعينوه مرشداً عاماً للأسطول المقلع تحت قيادة جيمس لانكستر، إذ كانت التجارب التي اكتسبها أثناء رحلته الأولى إلى الشرق، مضافاً إليها ما يتحلى به من كريم الخلال قد أهَّلَتْه للاضطلاع بمثل هذه المسئولية المهمة الجسيمة.

وكان مضمون التعليمات الصادرة إليه "الوقوف على حركة التجارة في جزائر الهند والعودة إلى إنجلترا بالتوابل وغيرها من سلع تلك البلاد، وحدد محافظو الشركة "للجنرال"، وهو الاسم الذي كان يعرف به في الشركة واجباته ومسئولياته وامتيازاته، بينما كتبت له الملكة من جانبها خطاباً، منحته فيه إلى جانب الامتيازات الممنوحة له حق تطبيق الأحكام العرفية عند اقتضاء الحاجة، كما زودته بخطاب موجه بصورة عامة "إلى جميع ملوك الدول الواقعة إلى ما وراء رأس الرجاء الصالح، وضحت فيه أسباب رغبتها وحاجتها إلى تبادل المنتجات مع تلك البلاد وعسّرت مع رجائها في أن يكون رعاياها الذين رخصت لهم في زيارة البلاد النائية، موضع عطفهم ورعايتهم وأنهم سوف يجدونهم "عادلين مهذبين" وأن في مقدورهم تزويدكم ببضائع أجود مما يزودكم به البرتغاليون والإسبان.

واختتمت الملكة كتابها معتذرة عن تأخر التجار الإنجليز عن الظهور في أسواق الشرق حتى الآن، ملقية تبعة ذلك على البرتغاليين الذين يدعون بأنهم أصحاب السلطان ومرجع الأمر والنهي في جميع ممالككم، وأذاعوا بأن شعوبكم موالي لهم، وجعلوا من حقهم أن يلقبوا بملوك جزائر الهند الشرقية

لم يدر بخلد الملكة يومئذ بأن هذه البعثة الموفدة لاستجلاب الفلفل والقرنفل وجوزة الطيب إنما كانت الخطوة الأولى في تأسيس عرش الهند، وأنه سيأتي يوم تشعر فيه ملكة أخرى غيرها بأن من حقها اتخاذ لقب أسمى وأرفع شأنا من اللقب الذي احتجت إليزابيث بقوة على ادعاء ملوك لويزيتانيا وأشبيلية له.

وقعت البراءة الممنوحة للشركة الذكورة آنفا في الواحد والثلاثين من شهر ديسمبر عام ١٦٠٠، وأبحرت بعد هذا التاريخ بستة أسابيع ثلاث سفن هي "التنين الأحمر، والأسانسيون، وسوزان" وألحقت بها مركب لحمل الزاد والمؤن. واتخذ جيمس لانكستر وجون ديفز مكانهما على ظهر التنين الأحمر.



أبحر الأسطول الصغير في ظروف سعيدة مواتية، ولكن سرعان ما حلت به الكوارث التي لم يكن بد من أن تحل بالبحارة، غذ كان داء البلاجرا أمراً شائعا بين البحارة في تلك الأيام.

أسر الأسطول مركبا برتغالية محملة بالزيوت والأنبذة والغلال فكان ذلك من لطف الله بهم، إذ كانت البلاجرا قد شرعت تفتك بالبحارة فتكا ذريعا حتى أن بحارة سفينتين من السفن الثلاث عجزوا عن القيام بأي عمل قطعا حتى اضطر التجار المسافرون مع البعثة إلى الأخذ بنصيب من جميع ما كان يقوم به البحارة من أعمال.

حدث كل هذا قبل الوصول إلى رأس الرجاء الصالح، ولم تحدث إصابات تذكر بين بحارة التنين الأحمر، والسبب في ذلك يرجع إلى عناية قائدها جيمس لانكستر وبعد نظره، فقد اصطحب معه ثلاث زجاجات من عصير الليمون الذي كان يعطي كل بحار ثلاث ملاعق منه كل صباح،

ولم يسمح لهم بتناول شيء من الطعام قبل انتصاف النهار مع تجنب تعاطي اللحوم المملحة جهد الاستطاعة. ومما يؤسف له أن هذه الطريقة الناجحة لم تعمم كوسيلة لتحصين البحارة ضد هذا الداء الفتاك، داء البلاجرا.

ويرى القارئ لقصة هذه الرحلة شخصية جيمس لانكستر تتألق وحدها بصورة جلية، ويعجب الإنسان بعنايته الدقيقة لتجنب الكوارث، فتراه ينزل بنفسه إلى الشاطئ عند رسو السفن بخليج نيبال لجس نبض الأهالي وعقد أواصر الصداقة معهم قبل السماح لأحد من أعوانه أو بحاراته بالنزول إلى البر. وقد أمر هذا الإداري الحكيم ببناء سور حول المخيم الذي أقامه على الشاطئ لإنزال المرضى فيه، وهكذا لم يكن يترك شيئا للصدف أبدا، ثم شرع بعد ذلك في تنظيم وسائل التعامل مع الأهالي حتى يأمن عدم وقوع أي احتكاك من شأنه أن يؤدي إلى الشغب أو احتمال غدر الأهالي برجاله، فيؤكد لنا جون ديفز بأن هذه الوسائل الحكيمة التي اتخذها جيمس لانكستر كان لها الفضل في تمتع الإنجليز بحياة هادئة أثناء إقامتهم بأرض الجزيرة، تسودها المحبة والصداقة التي امتدت أسبابها بينهم وبين الأهالي، بعكس ما كانت عليه الحال مع الهولنديين، ولا يخفى أن جون ديفز كان يكتب عن تجربة شخصية.

ابتاع قائد الأسطول في غضون اثنتي عشر يوما ألف رأس من الأغنام واثنين وأربعين ثوراً كان لها أعظم الأثر في شفاء المرضى، ولكن من دواعي الأسف أن خمسة ومائة من المجموع الكلي للبحارة وهو مائة وثمانون، كانوا

قد تُوُفُوا. أما من بقي على قيد الحياة فكانت صحتهم في تحسن مستمر لتأقلمهم مع مناخ هذه المنطقة الجنوبية.

واستغرقت الرحلة من مدغشقر إلى آشين في سومطرا ثلاثة أشهر، وهنا رحب الهولنديون القلائل الذين كان كورنيليوس فان هوتمان قد تركهم في الجزيرة لدراسة اللغة بالوافدين ترحيباً حارا، مؤكدين لهم بأن السلطان سيحتفي بهم احتفاء عظيما بلا أدنى ريب وأنه سوف يحسن استقبالهم بوصفهم من رعايا الملكة العظيمة لما بلغه عن انتصارها على ملك إسبانيا في عدة مواقع، وخاصة لأنه هو نفسه كان في حرب مع البرتغاليين من رعايا ذلك الملك، أي ملك إسبانيا.

وكان ما رواه جون ديفز للسلطان قد أمّن مصالح الإنجليز وخاصة لأن هذا السلطان المرح، صياد الأسماك السبق كان يسره الاجتماع بالضيوف الغرباء، هذا إلى جانب ما كان يشعر به من الميل نحو إنجلترا.

كانت كل هذه العوامل والظروف الطيبة تبشر بقرب نجاح لانكستر في مهمته، فما أن سمع السلطان علاء الدين بوصول السفن الإنجليزية، وبأن قائدها يحمل إليه خطابا من ملكة إنجلترا حتى أمر بإقامة حفلة استقبال باهرة تليق بمثل هذا المبعوث الخطير، وأرسل ستة أفيال ضخمة لحمل الضيوف إلى قصره، مخصصاً أضخمها لحمل خطاب الملكة وبعد تزيينه رسميا وضع الخطاب في إناء من الذهب الخالص مغطى بقطعة من

الحرير المزركشة ووضع الإناء فوق أريكة من المخمل القرمزيّة اللون داخل هودج من المخمل أيضا

وبعد الانتهاء من تبادل التحيات الرسمية، عامل السلطان مبعوث الملكة معاملة ودية لا تكلف فيها، وبينما كان جيمس لانكستر ماضيا في شرح رغبات مليكته وحرصها على عقد أواصر الصداقة والاتحاد والتجارة، قاطعه مضيفه بهذه الكلمات "إنني واثق بأنك متعب من جراء رحلتك الطويلة، فاجلس واسترح حتى تنتعش نفسك، فأنا مرحب بمقدمك من أجل ملكتك، وكل طلباتك مجابة في حدود المعقول" وهنا قدم لانكستر خطاب الملكة إلى السلطان ثم سلم الهدايا إلى أحد رجال الحشية، وكانت مكونة من إناء فضي في وسطه نافورة زنتها خمسة وعشرون آونسا[٢٨٨] ، وكأس فضية ومرآة ثمينة وغطاء للرأس مزين بالريش الغالي، وطائفة من الخناجر، وحزام، ومحمل سيف مزركش ومروحة من الريش. كان سرور السلطان بهذه المروحة أكثر من سروره بأي شيء آخر، فهي وحدها الهدية التي قَّلبها بين يديه، ثم أمر بعد ذلك إحدى الوصيفات القائمات على خدمته بأن "تمروح" له بها.

وأقيمت عقب المقابلة مأدبة عظيمة، وأدرك جيمس لانكستر عند ارتشافه أول جرعة من النبيذ المستخرج من الأرز أنه قوي المفعول فاستأذن مضيفه في مزجه بالماء، أو إن يأذن له في الاكتفاء بالماء القراح، وهو أفضل عنده؛ فأذن له السلطان متعطفا، فاستمرأ لانكستر الرّزين

[٢٨٨]الآولس واحد على ستة عشر من الرطل.

الطعام وتذوقه إلى أبعد حد، واستمتع غاية الاستمتاع بالرقص الذي أعقب المأدبة، وقبل أن يأذن السلطان لضيفه في الانصراف أهداه حلة قطنية بيضاء جميلة مما تصنعه كلكتا مزركشة بالذهب وعلّاقة تركية وخنجرين، وعرض عليه أن يختار لسكناه أي منزل يشاء، ولكن جيمس لانكستر فضل العودة إلى سفينته.

***

من المؤكد أن الملكة اليصابات لم تقرأ التقرير الذي كان جون ديفز قد رفعه إلى الإيرل أوف أسكس، لأنها لو كانت قد اطلعت عليه، لما أشارت في خطابها للسلطان "الصياد سابقا" إلى ذكر آبائه وأجداده من السلاطين الأمجاد. ولا بد وأن يكون السلطان علاء الدين قد ابتسم ولو قليلا عند سماع هذه المبالغة. فقد كان يتمتع بروح مرحة فكهة.

وفى اجتماعه الثاني بجيمس لانكستر قال له السلطان بشأن خطاب الملكة "إذا كان ما جاء فيه صادراً من القلب حقيقة فسوف ينزل منزلة طيبة من نفسه"، وعبر عن استعداده لعقد روابط السلام والمودة مع الملكة استجابة لرغبتها، أما فيما يتعلق بالناحية المادية من الخطاب فسوف يكلف اثنين من مستشاريه بمعالجة الأمر، أحدهما يشغل منصب المفتي الأكبر وهو رجل حكيم وقور، والثاني رجل عاقل متزن ينحدر من أنبل الأسر وأقدمها وإن لم يكن له ما للمفتي من الدراية بالمؤتمرات.

قام بالترجمة يهودي يحسن اللغة العربية كان جيمس لانكستر قد أحضره معه من لندن ليقوم بهذه المهمّة، وكانت محاضر الاجتماعات وتفاصيلها من الأشياء التي تلذ قراءتها. أما النتيجة النهائية فكانت مرضية للغاية، فهي تبيح للإنجليز حرية دخول البلاد وحرية الإتجار مع إعفائهم من الرسوم الجمركية على الوارد والصادر، وتنص على وجوب مساعدة ولاة المور لهم في حالة تحطم سفنهم أو غرقها إنقاذ للأرواح والسلع، كما سمحت للإنجليز أن يهبوا أموالهم ومخلفاتهم لمن يشاءون.

ولهذا الامتياز أهميته وخطر "إذ اعتاد الحكام في هذه المناطق الاستيلاء على كل ما يخلفه الغرباء بعد وفاتهم بحكم الشرع والقانون. ونصت الاتفاقية على ضمان مستو ثابت للمساومة والسعر وطرق الدفع من جانب الرعايا في آشن، كما كان من بين قرارات المؤتمر حق الإنجليز في أن يحاكموا أمام محاكمهم الخاصة، كما نص على حرية العقيدة.

وكان من المنتظر أن تبدأ حركة التجارة بمجرد انتهاء جلسات المؤتمر وأن يصبح في مقدور التجار البريطانيين الحصول على كل ما يريدون من الفلفل، ولكن الكميات الموجودة منه كانت قليلة نظراً لسوء حصاد العام السابق

وما أن سمع جيمس لانكستر بأنه توجد كميات كبيرة من الفلفل في بريزمان(٢٨٩) على بعد مائتين وخمسين فرسخا حتى أرسل السفينة سوزان

---

(٢٨٩)**Prisman**

إلى ذلك الثغر، وهو يقع بعيد من المكان الذي ابتاعت منه سفن مدينة دبيب الفلفل أثناء أول رحلة لها.

***

ولسوء حظ التجار الإنجليز المرافقين للأسطول، وقائده جيمس لانكستر، أن سعر الفلفل ارتفع في هذا الوقت الذي نحن بصدده من أربعة ريالات إسبانية إلى عشرين ريالا كما يؤخذ من تقرير ديفز، حار القائد الإنجليزي في أمره فثمن الفلفل كان أعلى بقليل من الثمن الذي صرح له بعقد الصفقات في حدوده. هذا من ناحية، ومن الناحية الأخرى فإن من الخزي والعار أن يعود بأسطوله صفر اليدين خالي الوفاض بينما السواق أمامه قد تكدست بالفلفل المنشود. على أنه لم يلبث أن ابتسم له الحظ حينما هاجم في جرأة بعض السفن البرتغالية في مضايق ملقا وجودها من حمولتها.

اغتبط التجار البريطانيون الذين تركوا في آشن، حينما نمى إليهم ما صادفه لانكستر من التوفيق، وزاد في اغتباطهم أن ما أصابه من الغنيمة كان على حساب السفن البرتغالية، نظراً لأن البرتغاليين في آشين كانوا قد بذلوا كل ما في وسعهم للحيلولة بين أخذ الإنجليز بنصيب من حركة التجارة في ذلك البلد.

أبحر جيمس لانكستر من آشين إلى باتنام، حيث عقد معاهدة مع ملكها الشاب، وقايض على جزء من الغنيمة (وهي تشمل الأقمشة

الهندية والأرز وكثيرا من مختلف السلع الأخرى) في نظير كميات كبيرة من الفلفل.

كان لهذه العملية أهميتها وخطرها إذ أن جميع التوابل التي حصل عليها التجار أثناء غيابه في مهاجمة البرتغاليين – كما سبق الإشارة إليه – لا تكاد تكفي لوسق سفينة واحدة.

***

سلم سلطان آشينل لانكستر في آخر مقابلة له معه قبل رحيله خطاباً [٢٩٠] موجها لسلطانة "إنجلترا وفرنسا وغيرلندا وفريزلند" جاء فيه أنه كان من دواعي سروره أن يمنح الإنجليز كل ما طلبوه من امتيازات، لأنه وجدها عادلة نظراً لأن الغرض منها لم يكن إلا تبادل المنتجات والسلع، أما فيما يتعلق بالإنجليز أنفسهم فقد وصفهم بأنهم "أشراف وأنهم على جانب عظيم من العطف".

وحمل جيمس لانكستر خاتما إلى الملكة مرصعاً بياقوته حمراء، وحلتين مزركشتين بالذهب وموشتين بالقصب، موضوعتين في صندوق صيني مطلي باللاكيه. كان مشهد الوداع رقيقا يتسم بجو إنجليزي محض، كما جاء في وصفه أنه مشهد عادي لا شيء فيه يلفت النظر ولا تكلُّف فيه. سأل القائد لانكستر: "عندكم مزامير داود؟" فأجاب أمير البحر على الفور"

---

[٢٩٠] مكتوبا باللغة العربية وقد ترجمه المدعو وليم بِدِول.

نعم ونحن نرتلها يوميا" فقال الملك "إني وهؤلاء النبلاء من حولي سوف نرتل مزموراً ضارعين إلى الله أن يكتب لكم السعادة والتوفيق"، وقرنوا القول بالفعل فشرعوا يرتلون المزمور من فورهم في هدوء ووقار، وبعد أن انتهوا من الترتيل قال الملك: "كم أود أن أسمع منكم ترتيل مزمور بلغتكم". وكان من بين الحضور إثنا عشر رجلا من رجالنا، فرتلنا مزموراً آخر، وبعد ذلك استأذن الجنرال الملك في الرحيل.

***

أبحرت السفن الإنجليزية بعد ذلك إلى بريزمان حيث حصل التجار على كمية من التبر وستمائة باهار[٢٩١] من الفلفل، وست وستين من القرنفل، ومن ثم أقلعوا إلى بندا حيث ابتاعوا كميات من التوابل، وعقدت الصفقات في هدوء وسلام دون أيّ تدخل من جانب البرتغاليين. وترك لانكستر في بندا ثمانية من رجاله، ولما كانت السفن قد ملّت بالتوابل ومختلف السلع، قرر العودة من فوره إلى إنجلترا، على أنه أرسل السفينة الإضافية الصغيرة إلى جزائر ملوك، آمرا رجالها بالإتجار مع الأهالي وتأسيس مركز تجاري لجمع التوابل وتخزينها، كما أرسل بعض التجار إلى ترنيت لمواصلة ما كان قد بدأه السير فرانسيس دريك.

وبعد ذلك أخذ جيمس لانكستر في طريق العودة، وإذا كان هنالك من تعرض لأهوال البحار وأخطاره، فإن هذا الأسطول قد تعرض لها بما

---

[٢٩١]الباهار = ٣٨٥ رطلا.

يعجز عنه الوصف، أثناء عودته من جزائر الهند، ولكن شخصية قائده سيطرت على الموقف مرة أخرى وعلى رجاله بفضل المحبة التي كانوا يكنونها له، كما يؤخذ من تقرير شاهد عيان.

***

لم يعد الأسطول إلا في سبتمبر سنة ١٦٠٣ حاملا معه مائتي ألف رطل وعشرة آلاف رطل من الفلفل وكميات ضخمة من القرنفل والقرفة والصمغ واللاكيه، إلى جانب ما نهبه الإنجليز من السفن البرتغالية، حتى حق للشركة أن ترتاح إلى نتيجة هذه الرحلة من كل الوجوه لولا أن وباء الطاعون كان منتشراً في ذلك الوقت انتشاراً عظيما. وقد شلت هذه الحالة حركة التجارة حتى اضطرت الشركة إلى توزيع الفلفل على حملة الأسهم كجزء من الأرباح ليتصرفوا فيها كما شاءوا لحسابهم. ومهما يكن من أمر فإن هذه الرحلة قد سجلت بداية الإتجار مع جزائر الهند الشرقية بنجاح عظيم، وأنعمت الملكة على جيمس لانكستر بلقب سير، وعين في منصب كبير المستشارين لشركة الهند الشرقية. وكان رالف فتش يستشار أحيانا كلما اقتضت الضرورة ذلك بيد أن الملكة إليزابيث لم تكن راضية عن أعمال الشركة، قد نُصَّ في البراءة الممنوحة لها على أن تقوم برحلة سنوية إلى جزائر الهند الشرقية كشرط أساسي من شروط براءة الامتياز، ولكن مرت ثلاثة أعوام دون أن يقلع خلالها سوى أسطول واحد، ولم تلبث الملكة أن بسطت لمحافظي الشركة أسباب غضبها عليهم ناصحة لهم بأن "يتشبهوا بالهولنديين".

أرسلت شركة الهند الشرقية عام ١٩٠٤ تحت قيادة الربان هنري مدلتون نفس السفن التي سبق أن أرسلتها تحت قيادة جيمس لانكستر. وكانت المرحلة هذه هدف تسعى إلى تحقيقه وهو الوصول إلى جزائر التوابل، وما أن وصلوا إلى نهاية الطريق حتى وجدوا الضغائن والأحقاد على قدم وساق بين الأهالي والبرتغاليين، وبين البرتغاليين والهولنديين، كما وجدوا العلاقات متوترة بين سلاطين جزائر ملوك كلها، بينما كان الهولنديون يناصرون هذا أو ذاك من السلاطين حسب ما تقتضيه مصلحتهم. ولم تلبث أن استمرت نار المنافسة بين التجار الهولنديين والتجار الإنجليز في هذه المناسبة، فاتهم الفريق الأول رجال الفريق الثاني عند السلطان بأنهم لصوص وقطاع طريق.

أما الهولنديون فكانوا – على حد تعبير أحد القواد الإنجليز – شعبا وقحاً جعجاعاً، وكان سوء تصرفهم يدل بوضوح على ما ينتظر أن تكون عليه الحالة في جزائر الهند الشرقية إذا قدر لها سوء طالعها أن تقع تحت سلطانهم.

أحسن ملك ترنيت استقبال القائد هنري مدلتون ورحب بمقدمه إلى أرض مملكته التي تشمل سبعين جزيرة، فلا غرو إذ وصف نفسه بأنه "سلطان ترنيت وماشيان وموتير وأموينا وحيلولو"، وبالاختصار جزائر ملوك بأجمعها.

وبالرغم مما شعر به ملك ترنيت من العطف على الإنجليز، إلا أنه لم يستطع ملء سفنهم بالقرنفل، لا هو ولا سلطان تيودور، نظراً لما سبق من وعدهما الهولنديين بجميع محصولهما من التوابل، وحمَّل كل من الملكين القائد مدلنون رسالة إلى ملك إنجلترا.

أما ملك ترنيت، وهو ابن الملك الذي كان قد تعاقد معه سير فرانسيس دريك، فضمن كتابه لملك إنجلترا تفاصيل ما حدث، والسبب الذي من أجله أرغم على منح الهولنديين تلك الامتيازات التي سبق لأبيه منحها للإنجليز، متوسلا إلى الملك أن يغفر له خطأه، واعداً إياه في نفس الوقت، بتيسير الأمور في المستقبل لكل إنجليزي يزور مملكته، وأهدى الملك رمزاً للصداقة زنة بهارٍ من القرنفل، هو كل ما يمكنه إهداءه نظراً لفقر بلاده التي لا تنبت غير هذا المحصول.

وحينما استعرض ريتشارد هكلوت ما حققه الملاحون والتجار الإنجليز من جلائل الأعمال جاش صدره ببيتين من الشعر اللاتيني معناهما كالآتي:

"ذلك الإسباني الصلف التغطرس الذي كان يحتقر الإنجليزي إلى عهد قريب، قد أصبح يرثو في دهشة وذهول إلى ما حققه الإنجليزي من عظيم الأعمال".

الفصل السابع عشر

روين [٢٩٢]– باريس – جولنكدا[٢٩٣]

"بوركت منازل الهند وتوابل أوركا وجواهر جولندا"

المقطع السابع

لم يكن هنري الرابع ملك فرنسا أقل رغبة من الملكة اليصابات في أن يقتفي شعبه خطوات الهولنديين في نشاطهم بالشرق، يدلنا على ذلك ما أصدره من الأوامر – حتى قبل سفر أول أسطول أوفدته إلى الشرق شركة الهند الشرقية – لصنع طائفة من السفن أو لشرائها، لتتمكن فرنسا من أن تنتزع من البرتغال جانبا من تجارة التوابل.

وكان السفير الإنجليزي في باريس قد أخبر الملكة بما اعتزمه ملك فرنسا هنري الرابع، وحذرها مغبة هذا الأمر "إن الملك لا ينفك يضرب على نغمة الحاجة إلى بناء أسطول بحري قوي" ثم استرسل في خطابه قائلا "فلو وفق الملك إلى تحقيق هذه الغاية فإنه سوف يكون شر جار لجلالتك".

---

[٢٩٢] يقرنا **Rouen**

[٢٩٣] منجم خيالي في الهند للماس والأحجار الكريمة واسم حيدر آباد القديم **Golconda**

كان دبليسيس موريي [٢٩٤] – أحد مستشاري الملك – من أكبر المشجعين له على المضي في مشروعه وإنشاء خطوط بحرية منتظمة لسير السفن الفرنسية بين جزائر ملوك و"جوا"، ومن ثم إلى هرمز فالسويس، وفي السويس تنقل التوابل على ظهور الجمال إلى الإسكندرية، وهي رحلة تستغرق ستة أيام لا غير، فتوفر جانباً كبيراً من الوقت، وكثيراً من الأرواح، إذ تكون قد تجنبت الرحلة الطويلة الشاقة حول رأس الرجاء الصالح، أضف إلى ذلك أن التوابل تصل إلى فرنسا أكثر طراوة لقصر الطريق.

وأما الدوق دي سولي فكان على نقيض رأي المستشار السابق، فأخذ يقلل من قيمة المشروع، ويحض الملك على ترك هذه المشاريع لاقتناء الأساطيل، وتركيز كل جهوده حول تنمية الشئون الزراعية في الداخل، على أن كثيرا من الرجال البارزين في الدولة كانوا قد وقفوا على مجريات الأمور، فكانوا يرون "بأن النتائج التي تترتب على الملاحة، بغض النظر عما تُكسبه من المعلومات بشأن البلاد الأخرى وما تتيحه من الفرص لنشر العقيدة المسيحية، فإنها تمهد الطريق لإنشاء العلاقات بين الناس من مختلف الشعوب والأجناس. وليس أصلح لتبادل المنتجات من إيجاد هذه العلاقات عن طريق التجار – وقد كان مقصورا في ذلك الحين على تجارة التوابل" – احتلت مسألة المعاملات التجارية فيما وراء البحار مكانة دقيقة عظيمة الأهمية، نظراً للظروف التي نشأت بسبب الحرب التي نشأت بسبب الحرب التي كانت قائمة في ذلك العهد بين تركيا وفارس؛ فقد عجز

[٢٩٤] **Duplessis. Morney**

مصدرو التوابل في حلب وطرابلس بسبب هذه الحرب عن تزويد عملائهم الفرنسيين بالتوابل، ولا يخفى أن التجار الفرنسيين كانوا يتمتعون منذ عام ١٥٣٥ باحتكار التوابل التي تعرض في المشرق للتصدير، وهو امتياز خصهم به سلطان تركيا.

وكما اضطرت إنجلترا وهولندا إلى تأسيس شركات للاتجار مع الهند عن الطريق البحرية، فكذلك اضطرت فرنسا بدورها إلى التشبه بهما، وكان المحرض لفرنسا على ذلك رجل من فلاندرز يدعى جيرار ليروي، كان قد رافق سفن بلتازار موشرون في رحلته إلى الهند، وقد رأى الآن أن يضع جميع معلوماته وتجاربه تحت تصرف أنطوان دي جودي فروي[٢٩٥] خازن الملك في ليموج.

ولما كان من العسير القيام بمثل هذا المشروع المهم بدون إذن الملك فقد رفع هذا الأخير المشروع إلى هنري الرابع، أضف إلى ذلك أن المشروع كان يقتضي شيئاً من المعاونة والحماية وتدخل الملك بنفسه ليرجو حاكم هولندا العام السماح لأنطوان دي جويفروي في الحصول على بعض السفن والبحارة من هولندا، إذ كان بها وحدها من السفن الصالحة للسفر إلى الهند ومن المؤن ما يفيض عن حاجتها. استجاب الملك هنري الرابع لما طُلب منه ووقع في عام ١٦٠٤، براءة تمنح حق تأسيس شركة لمدة خمسة عشرة عاماً وكان من المسلم به أنّه بمجرد عودة بعثة الشركة الجديدة من

---

[٢٩٥] **Antoine de Godetroy**

رحلتها الأولى يعمد المساهمون إلى تأسيس شركة أوسع نطاقاً، لا يقل مبلغ ما يساهم به العضو فيها عن ثلاثة آلاف جنيها.

لم تكن هذه البراءة الأولى التي وقعها الملك تمنح أصحاب الشركة امتيازات بعيدة الأثر كالامتيازات التي منحتها الشركات الهولندية والإنجليزية، ولكنها كانت تكفي على كل حال لأولى المحاولات التي اعتزمتها الشركة. على أن مادة من مواد البراءة كانت تعتبر تجديدا، لأن بمقتضاها سمح للنبلاء على اختلاف مراتبهم في الانضمام إلى الشركة دون أن يكون في هذا العمل ما يلقي أي شبهة عليهم لا من حيث مراكزهم الاجتماعية ولا من حيث كرامتهم أو امتيازاتهم الشخصية.

والواقع أن اشتراك طبقة اللوردات الإنجليز في مجلس إدارة شركة الهند الشرقية، قد دفع ملك فرنسا إلى أن يحذو حذو إنجلترا في فتح باب الأعمال التجارية للنبلاء والأشراف. وقد نص في البراءة على هذا لما كان يرجى أن يحقق من ربح للملك والوطن "عن طريق هذا العمل الشريف الجدير بالتقدير"، كذلك منحت الشركة حق احتكار استيراد التوابل، وفى ذلك ما فيه من ربح وفير للغاية. ونظرا لكثرة النفقات والخسائر التي تنجم عن مثل هذه الرحلة رؤي إعفاء البضائع التي تعود بها السفن في رحلتها الأولى من المكوس والضرائب الجمركية. ووعد الملك بتزويد كل سفينة بمدفعين وبعض الذخيرة الحربية. وضرب موعد لاجتماع الأسطول في برست، ولكن بالرغم من جميع هذه المقدمات التي كانت تبشر بالخير، فإن الأسطول لم يبحر بعد هذا كله إلى الهند نظرا لاحتجاج الحاكم العام للبلاد

المنخفضة عن طريق سفيرها في باريس، ولم يقتنع الحاكم العام بتفسير الملك، وهو أن سوء الأحوال في المشرق بسبب الحرب الدائرة بين تركيا وفارس قد اضطره إلى الحصول على التوابل من جزائر الهند الشرقية مباشرة، ولم يكن أهل البلاد المنخفضة ليرتاحوا إلى ظهور منافس لهم على مسرح سوق التوابل؛ والواقع أن هولندا كانت متبرمة بفرنسا أشد التبرم لإغرائها بحارتها على الخدمة بأسطولها باذلة لهم أجورا مرتفعة عن المستوى المعتاد، لذلك عندما طلب ملك فرنسا أن يسمح للهولنديين بالعمل على ظهر سفن الشركة الجديدة لم يقبل الحاكم العام طلبه، وراح يتوعد باعتراض سبيل السفن الفرنسية أينما وجدت وسط البحار، وبشنق كل بحار هولندي يعمل فيها. فكان في توعده هذا فصل الخطاب، والقضاء على مشروعات الشركة الفرنسية ولو بصفة مؤقتة.

وحدث قبل نشوء هذا الظرف الدقيق المعقد بثلاث سنوات، أن كوّن تاجران من تجار سانمالو[٢٩٦] شركة صغيرة فيما بينهما للاتجار مع الهند مباشرة، اسم أحدهما فرانسوا بيرار من بلدة لافال، واسم الآخر مارتان من بلدة فيتريه [٢٩٧] ولكن الأول كان القوة الحافزة وراء هذا النشاط، وقد وفق في إقناع بضعة تجار من مدينة روين بالاشتراك معه في تمويل البعثة المعتزمة.

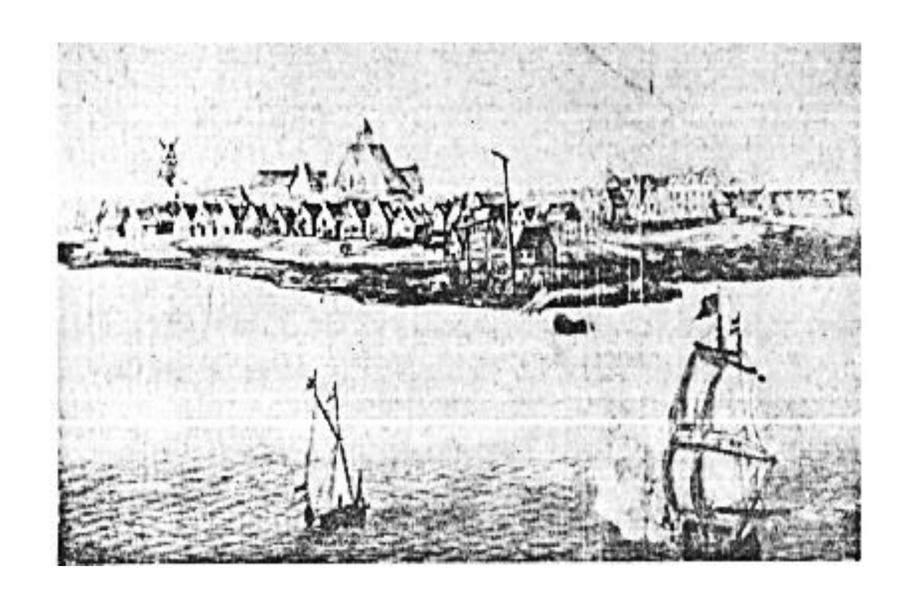
---

[٢٩٦] **San malo**
[٢٩٧] **Vitré**

كان فرانسوا بيرار هذا، شديد التبرم بتخلف فرنسا في ميدان السباق لتجارة ما وراء البحار، فعزم على تلافي هذا النقص وتمهيد الطريق لوطنه حتى يحصل على نصيبه من التوابل. كانت فرنسا حتى ذلك العهد، تعتمد على البرتغال في تموينها بحاجتها من الذهب والتوابل وما إليها من منتجات الشرق، بدلا من أن تقوم هي ببيعها إلى الأمم الأخرى، ولم يكن بيراردي لافال– وهو الاسم الذي كان يدعى به في الغالب – يرى تجارة أنبل من عروض التجارة المستوردة عن طريق البحر، بينما دفعته وطنيته لرفض ما تدعيه البرتغال وإسبانيا من أن الإتجار عن طريق البحر وقف عليهما وحدهما، كما أن استيراد التوابل من حقهما وحدهما أيضا، لذلك اعتزم الصديقان تجاهل القيود التي فرضها على رعاياه فرانسوا الأول في عهده إرضاءً لملك البرتغال، وكان قد ترتب على هذه القيود أن السفن الفرنسية، أحجمت عن السفر إلى الشرق منذ قيام ربابنة جان أنجو بالرحلة إلى سومطرا من سبعين سنة خلت ولما كان تجار سان مالو يجهلون كل الجهل ما قام به تجار دبيب قديما "فقد اعتقدوا في أنفسهم عند أعدادهم سفينتهم "كوربان[٢٩٨] وكرواسون[٢٩٩] أنهم أول من اعتزم الاضطلاع بالرحيل إلى تلك البلاد النائية من بين مواطنيهم. وأسندت مسئولية القيادة إلى ميشيل فروتيه دي لابردليير، أما نائبا القائد فكان أحدهما إنجليزيا والآخر هولنديا.

---

[٢٩٨] **Corbin**
[٢٩٩] **Croissant**



ملقا

وانضم مارتان ديفتري وبيرار دي لافال إلى المسافرين، أولهما بغية "الاستماع برؤية العالم والبحث عن الثروة، ولكن أيضا – على حد ما كتبه – للبحث عن طريق لجزائر الهند ليطلع مواطنيه عليها ولابتياع التوابل من مصادرها، ولكن الأقدار حالت سنين طويلة دون حصوله على ما ينشد، فحطمت موربان غير بعيد من جزيرة مالديف وأسر مِلك ماليه جميع من نجوا من الغرق ومن بينهم بيرار دي لا فال.

أما صديقه مارتن ديفتري، فقد كان أحسن منه حظا إذ وصلت سفينة كرواسون إلى سومطرا، وبعد أن قضى الجماعة خمسة أشهر في تلك الجزيرة عادوا بسلام إلى سان مالو ومعهم شحنة طيبة من التوابل، أما كوربان فقد ساد الاعتقاد بأنها غرقت بجميع من عليها من الرجال.

وأما ما حدث بعد تحطيم السفينة فقد رواه بيرار دي لافال بعد مضي عشرة أعوام على وقوع الكارثة في كتاب تحت عنوان "أول رحلة للفرنسيين إلى الهند الشرقية، وفى كتابه هذا وصف حيّ نابض لمجريات الحوادث في جزائر الهند الشرقية وأرخبيل الملايو خلال هذه السنوات العشر، فهو يصور لنا تقلص ظل سلطان البرتغال وابتداء سلطان الهولنديين في تلك الأنحاء".

استطاع بيرار دي لا فال بفضل الفرص التي سنحت له لأن يتتبع مجرى الأمور، فروى لنا قصة الانحطاط والجشع والقسوة وكيف أن أيام البطولة والبسالة التي اتسم بها عهد دلبوكيرك العظيم، قد أخلفها عهد حافل بأدنأ الأعمال وأخسها ملأت قلوب أهالي أرخبيل الملايو بالبغضاء للبرتغاليين والحقد عليهم، فيروي لنا كيف كان يرحب الملوك المحليون في تلك المنطقة بالهولنديين كمخلصين لهم من الذل والاستبعاد ولم يدر في خلدهم أن هؤلاء سيصبحون عما قليل شرا ووبالا عليهم، يذيقونهم مرارة الظلم والاستبعاد.

قضى بيرار دي لافال، نتيجة غرق السفينة التي كان على ظهرها ست سنوات في الأسر بجزائر ملديف، ولكن تعلمه اللغة واكتسابه احترام الملك ضمنا له الاستمتاع بقدر معين من حرية، وسُمح له في مصاحبة الأهالي إلى مختلف الجزائر لمواصلة شئون التجارة.

وفى النهاية تمكن هو وبضع زملاء له من الهرب، ونزلوا بإحدى الثغور الواقعة على شاطئ ملابار حيث عاملهم الأهالي معاملة طيبة، ومن ثم رحل الفرنسيون إلى مدينة كلكتا حيث أرسل ملكها في استحضار بيرار دي لافال لاستجوابه عن البلد الذي يتمنى الانتساب إليها إذ كان قد علم أنه ليس بهولندي.

وكما سبق لفان هوتمان أن شرح لسلطان آشين الفرق بين فلندرز وإنجلترا، كان على "بيرار دي لافال" أن يحتذي حذوه ويشرح الفرق ما بين فرنسا وهولندا.

ظل الملك يستجوبه ثلاث ساعات كاملة بشأن هذين البلدين، وكانت تبدو على الملك مظاهر القلق والحيرة إذ لم يدر من يصدق: الهولنديين الذين أفهموه بأن الكونت موريس أعظم قوة من ملك فرنسا، أم يصدق بيرار دي لافال الذي يؤكد العكس؟

وبعد أن مكث ثمانية شهور في كلكتا التي وجدها أكبر سوق التوابل كما شعر بذلك من قبل مائة عام فاسكودا جاما، واصل بيرار دي لافال السفر إلى كوشين. وهنا حلت به وبرفقته المصائب فوضعهم البرتغاليون في الحديد، ولم يطلق سراحهم حتى شفع لهم بعض رؤساء الكنيسة الذين اهتموا بأمرهم نظرا لأنهم كانوا من أتباع الكنيسة الكاثوليكية الرومانية، ومن ثم أرسلوا إلى جوا، وهنا أيضا حامت حولهم الشبهات فلم يُتركوا لحظة واحدة بدون حراسة ورقابة.

استغل بيرار دي لافال فرصة وجوده في جوا لدراسة مجرى الحياة في رواح الناس وغدوهم على تلك المدينة المشهورة، عاصمة البرتغاليين في ممتلكاتهم الهندية الشرقية.

أرسل كبير أساقفة جوا في إحضار لافال وأعرب له عن دهشته من انتهاج الفرنسيين في سفرهم إلى الشرق طريق رأس الرجاء الصالح على حين وجود روابط مودة طيبة بين ملكي إسبانيا وفرنسا إن سلوك هذه الطريق قد لا يستغرب من الإنجليز والهولنديين بحكم العداوة القائمة بينهم وبين إسبانيا، ولكنه أمر يستغرب من الفرنسيين حقا.

ويضيف لافال إلى ذلك بأن رئيس الأساقفة لم يقل مثل ما قاله البرتغاليون الآخرون، بأنه من الواجب أن نشنق وحول رقابنا جوازات سفرنا والبراءة الممنوحة لنا من ملكنا.

ومهما يكن من أمر، فإن الفرنسي اضطر للانضمام إلى جنود البرتغاليين كواحد منهم، حيث استخدم سنوات عديدة في مرافقة السفن التجارية لحراستها، فتمكن بذلك من زيارة عدة بلاد بعيدة حتى البرازيل والصين واليابان وسومطرا، لم يجد الفرنسي، السلطان علاء الدين المرح على عرش آشن عند زيارته لها، والظاهر أن ابنه الشاب سئم من امتداد الأجل بأبيه فكبله بالحديد واغتصب عرشه.

ذكر بيرار دي لافال هذه الحوادث كما ذكر أنه كان للهولنديين منزلة سامية في آشن، التي أصبحت من أهم المدن، حتى أن اسمها كان يعم سومطرا جميعها كما كان يقال بنتام عندما يراد الإشارة إلى جاوا.

***

وعندما عاد صاحبنا التاجر الفرنسي سابقاً، والجندي البرتغالي حاليا إلى جوا، وجد بالمدينة عدداً من الأجانب كلهم أسرى أو شبه أسرى، وبعضهم مكبل بالحديد، كما كانت الحال معه من قبل. وكان من بين هؤلاء الغرباء رجل من سويسرا، وآخر من لورين، وآخر من والون، وأربعة من هولندا، واثنان وثلاثون بحاراً إنجليزيا، وأربع غيرهم من الإنجليز كانوا عائدين من زيارة للمغول الأكبر.

وكان قد وصل إلى نائب الملك في ذلك الحين أمر من ملك إسبانيا يحرم استخدام أي جندي أو بحار في الهند من رعايا هولندا وفرنسا وإنجلترا؛ فكان الأمر ضربة قاسية لكثير من رعايا هذه الدول، إذ كان في الهند عدد كبير منهم حرموا من مقومات معاشهم بصدور هذا الأمر، ووجدوا أنفسهم مثل لافال هائمين على وجوههم في جوا.

استعرض نائب الملك، وكان رجلا ذا شخصية عالية، هؤلاء الأجانب بنفسه، وشد ما كانت دهشته حينما علم بأن بيرار دي لافال ورفاقه من أصل فرنسي، قدموا إلى الهند في سفنهم الخاصة؛ فلما وقف على جلبّة

الأمر، وعلم بجنسيتهم وما قاسوه خلال مدة إقامتهم الطويلة بالهند، وعد بمديد المساعدة إليهم وتزويدهم بالمؤن في رحلة العودة لوطنهم

كان قد بقي على موعد قيام الأسطول برحلته القادمة إلى البرتغال أربعة أشهر، وكان من المقرر أن يسافر رئيس أساقفة جوا إلى لشبونة في نفس الوقت، فداعب الأمل الإنجليز والفرنسيين عسى أن يكون من حظهم الانخراط في سلك حاشيته.

وشرع قس فرنسي من أبناء روين، والجزويت الإنجليزي البستيفن الرقيق، الذي أحسن إلى فنش ونيوبري في وقت بلائهم، شرع هذان الرجلان من رجال الدين في استخدام نفوذهم لصالح مواطنيهم.

وبينما كان العمل قائما على قدم وساق لإعداد سفينة كبيرة للرحلة، أرسلت بعض المراكب الصغيرة إلى كوشن لاستحضار الفلفل نظراً لأن ملك تلك الناحية رفض إرساله إلى جوا. كان من حق ملك إسبانيا وحده أن يبتاع الفلفل لذلك كانت تخصص على ظهر كل سفينة عائدة إلى الوطن مساحة تتسع لخمسمائة صندوق من هذا التوابل، وأما المساحة الباقة فكانت تحت تصرف التجار لشحن أصناف التوابل الخري.

وأخيرا حان وقت الرحيل، وتقرر أن يرافق السفينة الرسمية أسطول من المراكب، ووزع الأجانب على المراكب، كل أربعة على واحدة منها، وكان من حسن حظ لافال أن منح مكاناً بين حاشية رئيس الأساقفة، ومنح فرنسي اسمه جان موكيه امتياز مماثلا، وكان قد رافق نائب الملك

الجديد من لشبونة إلى جوا كصيدلي له، بيد أن مخدومه توفي أثناء الرحلة، فلم يسع جان موكيه هذا إلا البحث عن عمل مؤقت يقوم بأوده، فالتحق بمستشفى جوا العظيم كصيدلي وخبير بالأعشاب وكان قبل ذلك يشغل وظيفة صيدلي لهنري الرابع ملك فرنسا الذي كان قد عينه أميناً لمتحف قصر التويليري حيث يحتفظ بمجموعة طرائف خاصة.

ولكن لما كان جون موليه مولعاً بالأسفار، فلم يكن يرضيه شيء أقل من العالم بأسره على حد قوله – وكان الملك يأذن له من وقت لآخر في زيارة البلاد الأجنبية، حتى أنه كان يتحمل جميع نفقاته على شريطة أن يعود إليه في غضون عامين على الأكثر حاملا معه مجموعة من التحف النادرة.

كان هذا الصيدلي الملكي حريصا على تحقيق رغبة الملك، إلا أن شغفه بالأسفار كان يزداد مع كل رحلة، بيد أن رحلته إلى الهند لم تبعثه في نفسه ما كانت تبعثه رحلاته السابقة من الارتياح والرضا، لذلك قرر في النهاية أن يعود إلى أوروبا ضمن حاشية رئيس الأساقفة، فكان له ما أراد وحينما حانت ساعة الإبحار، مُليء ظهر السفينة بصناديق القرفة المرصوص بعضها فوق بعض إلى ارتفاع منتصف الصارية، حتى أن حيزوم السفينة انغمس في الماء ذات مرة من ثقل وسقها وغمرت المياه ظهرها غمراً شديداً ترتب عليه تسرب الفلفل إلى مياه الشرب العذبة فأفسدها، واضطر الربان إلى إلقاء جانب كبير من حمولة السفينة في الماء لإنقاذها.

كانت الرحلة رهيبة حتى ليعجب الإنسان كيف بقي أحد من ركاب هذا الأسطول على قيد الحياة. وكان الركاب الإنجليز مكبلين بالحديد وحتى الفرنسيين منهم. وسرعان ما تبينوا أن الامتياز الذي منح لهم ووعد نائب الملك بتزويدهم بالطعام لم يُلْزِم أتباعه ومرؤوسيه ولولا عطف بعض رفقة السفر لمات بيرار دي لافال ورجاله جوعاً.

وكان مما سبب كثيراً من الضيق لجان موكيه تلك الأسراب من الصراصير التي عبثت بأمتعته عبثاً مريعاً وخاصة بخزينة من البسكويت، أما عدد ركاب السفينة فكان ثمانمائة رجل من بينهم سبعون امرأة.

وجد جون موكيه حين عودته إلى فرنسا أن مخدومه الملكي قد مات مقتولا، لذلك أهدى المؤلف الذي نشره إلى الملك الجديد لويس الثالث عشر، على أنه يستنتج من القصة التي رواها في كتابه أنه ممن يهتمون بالعلوم الطبية لذلك ليس بمستغرب أن يسرد تفاصيل الآلام الجثمانية التي شهدها على ظهر السفينة. فهذا مصاب بالبلاجرا، وهذا مصاب بدوار البحر، إلى جانب قوم قرضت الفئران عيونهم وأصابع أقدامهم، على أنه رغم ذلك كله يستحث القراء على اقتفاء خطواته والتمتع بمشاهدة عجائب العالم.

كان من بين الذين قضوا نحبهم أثناء الرحلة، رئيس الأساقفة الذي ساعد جان موكيه على تحنيط جثته الجراح البرتغالي "القليل الخبرة". ومما يذكر هنا أنه كان فعل نفس الشيء بجثة نائب الملك في أثناء الرحلة إلى

الهند، ويقول جان موكيه في قصته أن تحنيط الجثة في رحلة العودة أمر سهل لوجود الكافور وحامض البنزويك والأطياب.

وذكر المؤلف في كلمة الإهداء إلى الملك لويس الثالث عشر، ما كان من سماح الملك الراحل له بالسفر إلى الهند، وكيف أنه كان يقرأ تقاريره بارتياح كبير، وأنه يأمل أن يواصل الملك الحاليّ عطفه عليه، وأن يمكنه في المستقبل من استكمال مجموعة التحف الموجودة بقصر الـ "تويليري". وذكر جان موكيه في مقدمة الطبعة الألمانية لكتابه هذا الموسوم "بالرحلات" بأنه بروتستانتي المذهب، لذلك فهو يفضل أن يقتحم أول البحار على أخطار الحرب الأهلية، ومن هنا كان حبه للأسفار منقذا له من الحروب الأهلية فلا عجب إذا كان قد قام بخمسة أسفار في غضون أثني عشر عاماً.

وتؤيد بيرار دي لافال كتابه عام ١٦١١، وقد دلت الأيام على صدق روايته هو ويعتبر في جملته أحسن ما كتب عن الهند في أيامه، قد أيد هذا الفرنسي في مواضع عديدة من مؤلفة ما كتب ماركو بولو ونيكولو دي كونتي قبل ذلك بأعوام.

ويقع الكتاب في مجلدين، وهو يستعرض فيه للقارئ تاريخ البحث عن التوابل، ويذكر فيه لمؤلف تجاربه الخاصة في البلاد التي زارها البرتغاليون أولا حيث اكتشفوا "حبوب الجنَّة" ثم يذكر ما شاهده بجزائر رأس فرد، فالكنجو، فسوفالا، على شاطئ إفريقيا الشرقي، وكتلها الذهبية،

فموزمبيق بعاجها وأبنوسها، فمومبسا بعنبرها، فالبحر الأحمر، وساحل أو بعبارة أخرى "القس يوحنا".

وشاهد بيرار دي لافال في هرمز ما رواه ألفونسو دي كوفلهام في تقريره المرفوع على الملك عن الفرس والسوريين والأرمن وهم يبيعون ويبتاعون السجاجيد والخيول والعقاقير والطيوب والتوابل، ولم يجد في نفسه القدرة على حصر كل ما رآه من منتجات الشرق، ولكنه ينقل إلينا مثلا يعبر عن عظيم خطر هذا المركز التجاري المهم: "لو أن العالم بيضة لكانت هرمز محها".

ثم هو يخبرنا عن كامباي وديو، اللتين زارهما فاسكو داجاما، وما بهما من ثروة ضخمة، وما تنتجه من النيلة والقطن والحرائر والصناديق المصنوعة من الأخشاب الثمينة، بما عليها من حفر مهرة صناع الهنود. ونرى في ملقا ذات الشهرة القديمة، أن الحال فيها لم تتغير منذ عهد ماركو بولو بها، ونرى السفن تنقل من جميع الجزائر أطنان التوابل والعقاقير والماس والجواهر، كما تنقل من الصين واليابان منتجاتها ومصنوعاتها.

ويصف بيرار دي لافال جزائر التوابل التي لقي حتفه في سبيل العثور عليها كثير من البحارة الأبطال، تلك الجزائر التي مهدت لقيام الإمبراطورية البرتغالية في الهند الشرقية، فمن قلم هذا التاجر الفرنسي من سكان سان مالو، يتعرف القارئ في جلاء ووضوح على الأسباب التي أدت إلى تقوض سلطان البرتغال في تلك البلاد النائية، وهو يؤكد لنا أن الهنود يعتبرون

الهولنديين الآن أصحاب السلطان على البحار، ويشاركهم البرتغاليون أنفسهم هذا الاعتقاد.

أثار تقرير بيرار دي لافال عن ضخامة ثروة الهند ومنتجاتها أطماع خازن الملك في ليموج، أنطوان دي جود يفروي وأطماع صديقه جيرار ليروي، فأجمعا على أن الوقت قد حان لطلب تصريح بإيفاد بعثة إلى الشرق.

ما لم يكن في مقدور هنري الرابع في سنة ١٦٠٤ أن يمنحه نظرا لتهديد الهولنديين ووعيدهم، استطاع أن يمنحه لويس الثالث عشر، وحصل الفرنسيان المذكوران آنفا على التصريح بتأسيس شركة للإتجار مع الهند، ولكن لأسباب لا نعلمها لم يقوما بإرسال أي سفينة لتحقيق الغرض الذي من أجله أسست الشركة.

انقضت أربعة أعوام قبل أن يستيقظ مديرو هذه الشركة من سباتهم العميق ليروا أن تجار مدينة روين، قد عرضوا على الملك أن يقوموا برحلة إلى الهند نيابة عنه. ووعد جان جاك مويسون وإيزكييل دي كان [٣٠٠] بدفع جانب عظيم من الأرباح للملك لويس الثالث عشر.

لم يرق لمديري الشركة رؤية منافسين لهم في ميدان يعتبرونه حكراً لهم ووقفاً عليهم، فراحوا يشرحون للملك أسباب التأخير في استغلال الامتياز الممنوح لهم وتصالحوا مع الملك على وضع جديد، وفى عام ١٦١٥ منح

[٣٠٠] **Ezekiel de Caen**

جلالته الشركة براءة جديدة لتكوين شركة اشترك فيها تجار روين وغيرهم، وتقرر أن تحمل السفن الموفدة إلى الهند اسم مونتمورنسي تخليداً لاسم أميرال فرنسا.

وكون الكردينال ريشيليو شركة ثانية بعد اثني عشر عاماً لغرض واحد، هو استعمار مدغشقر، إذ كان يعتقد بأن هذه الجزيرة تحوي ما لا حصر له من كنوز الذهب والتوابل، ولكن النتائج خيبت ظنه.

ويرجع الفضل إلى كوليبر في تنمية العلاقات التجارية مع الهند فمنحت الشركة الفرنسية لشرق الهند في عام **١٦٦٤** امتيازا بعيد الأثر على غرار الامتياز الممنوح للشركتين الهولندية والإنجليزية.

وأبدى لويس الرابع عشر اهتماماً شخصياً "بشركة الهند الشرقية"، وكان الدرع الممنوح للشركة من الملك ليكون شعاراً لها سماوي اللون، على أحد وجهيه وردتان ذهبيتا اللون وعلى الوجه الآخر غصن نخلة، وعلى الدرع صورتان تمثلان السلام ووفرة المحاصيل.

وعين كولبير رجلا فارسيّ الجنسية اسمه ماكارا افنتشيزا[٣٠١] مستشاراً لمجلس الإدارة الأعلى للشركة بمدغشقر، نظراً لكثرة أسفاره إلى الهند، ولخبرته الواسعة بكل ما يتعلق بشئون التجارة. وبعد قيام أحد مديري الشركة بأول رحلة إلى الهند حيث ابتاع فلفلا رديء النوع في سورات، قرر

---

[٣٠١] **Macara Avanchiniz**

المجلس إرسال مكارا إلى ملك جولكندا ليحصل للشركة على التسهيلات اللازمة والامتيازات لتأسيس مركز تجاري في مملكته.

اصطحب المستشار الفارسي عدداً من التجار الفرنسيين وسافر إلى ماسوليباتام(٣٠٢) حيث رافقه الحاكم بفضل نفوذ أصدقائه في تلك المدينة إلى جلولكندا في موكب باهر لمقابلة الملك. وهنا يعيد التاريخ نفسه مرة أخرى، فكما ادعى فاسكو دا جاما في كلكتا ما أدعاه عن قوة ملكه وعظيم سلطانه ومجده وكما أطرى كورنيليوس فان هوتمان الأمير موريس في آشن، وكما زعم كذلك جيمس لانكستر ما زعمه عن عظمة الملكة اليصابات وقوتها، كذلك فعل الآن هذا المبعوث الفرنسي بالنسبة للملك لويس الرابع عشر.

شرح المبعوث باللغة الفارسية للملك جولكندا مجد ملك فرنسا وعظمة شعبها، وروى كيف أسس لويس العظيم شركة على غرار الشركتين الإنجليزية والهولندية، ولكنه لم يؤسسها في منتجات الهند وثروتها، فلديه في مملكته ما يزيد عن حاجته، وإنما غرضه أن يفضي إلى ملك جولكندا وأمراء الهند عن رغبته في التراسل معهم، كما يود كذلك أن يحيطهم علماً بعظمة الشعب الفرنسي وحسن نيته وأمانته في المعاملات التجارية.

---

(٣٠٢) **Masulpatam**

واسترسل ماكارا في إطراء الأمة الفرنسية بمثل تلك العبارات وأهدى لوحة تمثل صورة ملك فرنسا، تقبلها ملك جولكندا بارتياح ورضى مصدراً أمره من ساعته لوضعها في إطار من الذهب السميك.

وتقبل الملك الهدايا الأخرى بمزيد من السرور، وكانت تشمل خمسة أثواب من الأقمشة الفرنسية المموهة بالذهب وثلاثة عشر ثوباً من القماش الهولندي، وإحدى عشرة مرآة، وثلاث جمدانات من النبيذ الفارسي الفاخر المعتق، وعدداً كبيراً من قطع النقود الذهبية.

وبالرغم من أن كل الظروف كانت تبشر بالخير للفرنسيين إلا أن سرعان ما أقيمت العقبات في هذا السبيل بفضل ما بذله التجار الهولنديون من الجهود الجبارة لحوك المؤامرات، وإحباط المساعي وبذل الرشوة، لمنع كل تنافس لهم. إلا أن النتائج الأخيرة لجهود ماكارا كانت مرضية، يدل على ذلك الفرمان الذي أصدره ملك جولكندا، والذي بمقتضاه منح الفرنسيون امتيازات بعيدة الثر، ولم يستطيع لا الإنجليز ولا الهولنديين أن يفوزوا من الملك بمثلها، بالرغم من الأموال الطائلة التي عرضوها عليه.

***

وفى المقابلة الأخيرة، قبل انصراف المبعوث، ألقى عليه الملك أسئلة عديدة بشأن جميع ملوك أوروبا وممالكهم فأتاح ذلك له الفرصة ليسهب في الكلام عن قدم المملكة الفرنسية وعريق مجدها، وشجاعة أبطالها،

وإخلاص شعبها وتفوق ملوكها على جميع ملوك أوربا، موضحاً بصورة خاصة ما يتحلى به لويس العظيم من كريم الخلال وحميد الخصال.

عاد ماكارا لماسوليباتام في ديسمبر سنة ١٦٦٩ ومعه الفرمان العالي، حيث شرع يؤسس في الهند أول مركز تجاري فرنسي وهكذا بدأت التوابل منذ ذلك اليوم ترسل مباشرة إلى فرنسا على ظهر السفن الفرنسية.



الفصل الثامن عشر

التنافس

ادعاء فتح الشاطئ الهندي وامتلاكه

"المقطع التاسع"

القرنفل وجوزة الطيب والبهار والفلفل، كل هذه التوابل قد أصبحت بعد حين وسائل للثراء بدلا من أن تكون أداة نافعة تجعل الطعام مريئا، والشراب مستساغا، فالإمعان في طلب التوابل قد ترتب عليه الفتوحات وانتشار السلطان، وكان لا بد بعد ذلك من قيام المنازعات والخصومات بين المتكالبين على مصادرة الثروة، فخلت المأساة واشتد التنافس المرير، ونشبت الحروب، وطال أمدها.

إن تاريخ النزاع الرهيب للانفراد بالنفوذ والسلطان في جزائر التوابل، ليملأ المجلدات العديدة الضخمة، فهو قصة مؤلمة لسلسلة حروب غادرة مخاتله لا هوادة فيها ولا وازع لها من شرف أو ضمير. شنها البرتغاليون على أهالي جزائر الملايو، وشنها الهولنديون على البرتغاليين والإنجليز، وشنها هؤلاء بدورهم على الهولنديين والأهالي؛ فالتجارة أدت إلى الفتوحات، ولكن بينما كانت النتائج السياسية وما ترتب عليها من قيام ممتلكات لهولندا وإنجلترا في الهند والملايو تتوج هامتيهما بالمجد كما كانت

الحال مع البرتغال فيما سلف، كانت هذه الأخيرة قد أضعفها في الشرق صراعها مع هولندا، وأقرتها التكاليف الضخمة التي تنفقها على جيوشها في الشرق وكفاحها ضد الهولنديين، حتى أن ملك البرتغال كان يفكر جديا في وقت من الأوقات في بيع حقوقه بممتلكاته الهندية إلى ملك فرنسا، ولكن هذه الفكرة لم توضع موضع التنفيذ.

كان لما يقع من الحوادث في البحار الشرقية بين ممثلي الشركات الهولندية والإنجليزية صدى في لندن وأمستردام، حيث كانت الشكاوى تبحث بالوسائل الدبلوماسية المهذبة، ولكن المشاكل في جزائر التوابل كانت تحل بطرق تختلف اختلافاً بيناً عن وسائل الدبلوماسية إذ كان الاحتكام فيها للسيف لا للقول على أنه لم يكن هنالك فرق يذكر بين الوسائل المستعملة من جانب الطرفين المشربين إلى الاحتفاظ بالجزائر المنتجة للتوابل أو امتلاكها فقد كان كل منهما يحقق أرباحا ضخمة.

فكان حملة أسهم التأسيس في هولندا يحققون ربحا بلغ أربعمائة في المائة، وبالرغم من هذا الربح الوفير كانت تتعالى الأصوات مطالبة بالإتجار مع جزائر الهند الغربية والعدول عن جزائر الهند الشرقية، لما كانت تذهب إليه الظنون من أنَّ نتائجها الاقتصادية سيئة وغير المرغوب فيها. أخذ على عاتقه أحد حملة الأسهم بعد مضي ستة عشرة سنة على تأسيس الشركة أن يشرح للجمهور الفوائد القومية العظيمة التي تجنى من وراء تجارة التوابل، فذكر بأن معدل المرتبات والأجور التي تصرف لبحارة كل سفينة ترسل إلى الهند يزيد على زنة "طن من النقود الذهبية"، تنفق كلها داخل

هولندا. أضف إلى ذلك الفرص التي أتيحت للعمال في مختلف المرافق المتصلة بشئون الملاحة مما تضمن أسباب المعاش لفقراء الأمة في شيء من الراحة النسبية، على أن الذي كان يعتبره هذا المسهم من أهم النتائج المرضية هو ما أنزل بملك إسبانيا من خسارة فادحة ونكد مقيم.

وراح هذا الهولندي يعدد ما غنموه من السفن، منذ حرم فيليب الثاني على الهولنديين عام ١٥٩٦ استيراد التوابل من لشبونة إلى قادس، ثم يسترسل هذا الهولندي إلى القول في زهو وفخر، بأن مركز تجارة التوابل قد انتقل من البرتغال إلى هولندا، وأن تجار إسبانيا قد اضطروا في بعض الأحيان إلى شراء جوزة الطيب والقرنفل والبهار من "أسواقنا" أي الأسواق الهولندية.

وكانت الأرباح في إنجلترا عظيمة كذلك حتى وصلت أرباح التجار الإنجليز في وقت من الأوقات إلى ٦٥٠٪ من تجارة جوزة الطيب وإلى ٧٠٠٪ من تجارة الفلفل وإلى ٨٠٠٪ من تجارة البهار والقرنفل، وهنا أيضا كانت تعلو الأصوات بالاحتجاج على شركة الهند الشرقية بأن هناك من الاعتبارات ما هو أهم من خفض أسعار التوابل، فهناك مسألة هذه الأرواح التي تزهق أثناء هذه الأسفار المحفوفة بالأخطار.

وفى إحدى المناقشات حول تجارة إنجلترا مع جزائر الهند الشرقية احتج بعضهم على أنه "كان أفضل للعالم المسيحي لو أن رأس الرجاء الصالح لم يكتشف، لأن في إرسال إنجلترا والبرتغال وهولندا سفنها لابتياع

السلع التافهة من الشرق مضيعة لثروة المسيحية من ذهب وفضة ونقود وخاصة فيما يتعلق بإنجلترا".

وهنا رد أحد أعضاء شركة الهند الشرقية بأن مثل هذا الاحتجاج لا يصدر إلا عن جهل مطبق بمجريات الأمور، وأن المنطق السليم ليشهد بأن هذه التوابل أشياء ضرورية للاحتفاظ بالصحة، كما أنها ضرورية لمعالجة الأمراض والأدواء. فإذا ما قبل أن هناك من الشعوب من يعيشون بغير حاجة إلى استعمال التوابل والعقاقير، فإن تفسير ذلك لا يكون إلا لأنهم عاجزون عن دفع الثمن، ولا بد أن تكون الأمراض أكثر انتشاراً بين تلك الشعوب وأن تكون آلامهم أشد وأمضى. ويقول عضو آخر في دفاعه عن تجارة التوابل، بأنها أبعد من أن تكون عقبة في سبيل تنمية الثروة، لأنها تخلق الثروة. وهو يبرهن على صحة ما ذهب إليه، بأن الشركة ابتاعت في أحد الأعوام مائة وخمسين ألف رطلا من الفلفل من مصدر إنتاجه بسعر شلن وثمانية بنسات للرطل الواحد بينما لم يقل سعر الرطل عن ثلاثة شلنات قبل أن تقوم شركة الهند الشرقية باستيراده. أما ثمن القرنفل فكان ثمانية شلنات، وثمن البهار تسعة شلنات. ويقول المؤلف بأن مدينة مرسيليا كانت تنفق سنوياً خمسة آلاف من الجنيهات وكمية صغيرة من السلع أحياناً في الهند، لاستيراد بعض منتجات الهند. أما فينيسيا فكانت تنفق نحو مليون من الجنيهات وكميات كبيرة من السلع، بينما كانت البلاد المنخفضة تنفق خمسة ملايين من الجنيهات إلى جانب قليل من السلع. وفى ذلك ينطلق لسان أحد الخطباء بالإطراء على شركة الهند الشرقية بهذه الكلمات.

ما أعظم التقدير الذي تستحقه هذه الشركة الإنجليزية لتجارة الهند الشرقية الذي أصبح بفضل مسماها يتحقق الأمل في تحويل جانب هذه التجارة الغنية المربحة إلى إنجلترا عن طريق شحن البضائع رأسا من الخليج الفارسي، على حساب تركيا، إذ أن النتيجة التي لا بد وأن تترتب على ذلك هي أن تفل حصيلة الجمارك التركية وأن تزداد خسائرها تدريجيا، بينما تُوفر أموال العالم المسيحي كما هو حاصل حاليا فيما يتعلق بتجارة بعض أنواع معينة من التوابل وصبغة النيلة.

نشرت هذه الكلمة في تقرير الإتجار بالتوابل سنة ١٦٢٠ وحدث في العام نفسه أن جزيرتين من جزائر بنداس المشهورة بالتوابل والتي لم يكن الهولنديون قد أدعوا ملكيتها بعد، وهما بلواي [٣٠٣]وبولارون[٣٠٤] قد استسلم أهاليها لإنجلترا بمقتضى اتفاقيتين محترمتين، نص فيهما على سبيل تخليد الذكري، أن يرسل أهالي الجزيرتين لملك إنجلترا كل عام غصناً من شجر جوزة الطيب.

حدث هذا بينما بادرت بعض الدول الأخرى إلى الاشتراك في السباق إلى الهند، خشية أن يفوتهم الحصول على جانب من كنوزها، فأرسلت الدانمرك بعض سفنها إلى ترنكبار[٣٠٥] على ساحل كرومندل[٣٠٦] حيث أسست مركزاً لتجارتها. وجاء دور السويد فمنح الملك جوستاف

---

[٣٠٣]pulaway
[٣٠٤]Pularone
[٣٠٥]Tranquebar
[٣٠٦]Coromandel

أدلفس[٣٠٧] عام **١٦٢٥** امتيازاً لإحدى الشركات ولكن الحروب ووفاته أجلت قيامها مؤقتا بأي نشاط.

***

كانت تقام في مدينة لندن أحياناً مواكب فيها منتجات جزائر الهند وكنوزها وتوابلها وفاكهتها العبقة العطرة، وكان في كل مرة ينتخب فيها محافظ لندن الجديد عضوا في جمعية البقالين الموقرة خلال القرن السابع عشر، كما كانت تقام حفلة يمثل فيها مشهد يتصل من بعض نواحيه بالتوابل وحوادثها. كان هذا من الأمور الطبيعية نظراً لأن جمعية البدالين وهي إحدى نقابات مدينة لندن الاثنتي عشرة كانت قد تطورت في عام **١٣٤٥**من جمعية الإخوان الفلفليين القديمة إلى نقابة. وقد أشير لهم في البراءة الممنوحة عام **١٣١٥** بلغة النورمانديين الفرنسيين بهذه العبارة "هؤلاء الرجال المحترمون من المقدمين في تجارة الفلفل" وقد استبدل اسم الفلفليين بالبدالين لأنه يميز أصحاب البيع بالتجزئة عن تجار الجملة. ولما كان استيراد التوابل مصوراً في العهود السابقة على التجار الإيطاليين، خلفاء الرومان القدماء، فقد حدث في بعض الأزمنة أن أحد أهالي لومبرديا، يدعى بوتشريني، كان من أجداد أحد محافظي لندن من عام**١٢٣١** إلى **١٢٣٧** اسمه اندروبوكرل[٣٠٨].

---

[٣٠٧] **Gustuf Adolphus**
[٣٠٨] **Andrew Bokerel**

غلام زنجي يتوسط سلتين فضيتين ملئتا بالفاكهة والتوابل، وقد أخذ الغلام ينثرها بين جموع النظارة الذين تدافعوا في مرح وسرور لالتقاط البرتقال والليمون والقرنفل وجوزة الطيب. وكان من بين مناظر المهرجان آلهة تسمى أيبولنتا (Opulenla) (ومعناها الثرية)، وهي التي يقال إن بيدها مفاتيح كنوز الهند، وقفت تلقي على الجماهير خطاباً جاء فيه: "إن العقاقير والتوابل والطيوب [التي تأتي بها السفن الإنجليزية إلى لندن] والتي تستخرج منها بفضل توجيه الأطباء، وحكمة الكيميائيين وفن الصيادة الأدوية والمراهم للعلاج وصيانة الصحة، يحتفظ البدالون بكميات وفيرة منها في متاجرهم إلى جانب ما يعرضونه من أنواع التوابل،كالفلفل والقرفة والقرنفل وجوزة الطيب والأرز والمستكة وخشب الصندل الوردي بجميع أنواعه. وبمتاجرهم أيضا تجدون جميع أنواع الفاكهة وغيرها من السلع التي تزيد عن الحصر".

وبعد أن فرغت أبيولنتا من كلمتها، جاء دور أروماتوريو[٣٠٩] (رب الطيوب) ليلقي كلمته، وهو يمثل مزرعة خيالية يفترض وجودها في جزيرة سيلان، وتشمل أشجار القرفة وجوزة الطيب والقرنفل.

وكان رب الطيب هذا يرتدي قباء من الستان الأبيض فوق ثوب حريري أسود، وشيت أهدابه بالخيوط الفضية، وعلى رأسه تاج صغير مطعم بالقرنفل، ألقى كلمة دعا فيها أصحاب المزارع وفلاحيها إلى تأدية أعمالهم، ففعلوا وهم ينشدون في فرح ومرح.

---

[٣٠٩] **Aromatorio**

بالقرفة والقرنفل والبهار وغيرها من التوابل

نحن الزراع قد زرعنا فردوساً جديداً

دون أن نشعر بأي ضرر من خطيئة آدم.

فهاكم فلفلا لذوي المروءة، وهاكم جوز طيب للحسان.

نحن نعمل ونكد دون أي ملل أو ضجر،

فليس لدينا ماُ نْلَعُن به سوي توبل أو بعض توبل.

في عام ١٦٨٩ انتخب الملك وليم رئيساً أعلى لجمعية البدالين، فكتب مسجل الجمعية ويدعى وليم ريفن هل نبذة قصيرة رغبة منه في إحاطة صاحبي الجلالة الملك وليم والملكة ماري بتاريخ نشأة الجمعية ومقرها الرسمي الذي يسمي بهو الطيوب والذي بني بعد حريق لندن. وشرح المسجل في نبذته هذه، كيف أن الجمعية أفل نجمها في السنتين الأخيرة نتيجة الحروب [٣١٠] والحريق، ولكنه الآن ينتظر أن يعود لها سابق ازدهارها بفضل نفوذ جلالتهما.

وأشار المسجل إلى أن الملك شارل الثاني كان قد أدمج أصحاب العطارة والحلوى والتبغ في جمعية البدالين للسبب التالي: "أدرجت أنواع كثيرة من السلع على مر الأيام تحت اسم البدالة، ولا جدال في أن هذه

---

(٣١٠) كان هذا في الواقع بسبب القروض الممنوحة للملك شارل الأول على غرار القروض الممنوحة له من الشركات في المدن الكبرى.

المدينة (لندن) والأمة الإنجليزية، تدين بتطور ملاحتها وترقيتها "إلى حد بعيد" للتجار الذين كانوا يتاجرون بفضل امتيازات الجمعية، مع جميع بلاد المعمورة، مستوردين التوابل والعقاقير والفاكهة والأثمار والطيوب وما إلى ذلك من السلع الثمينة، وحق لهذه الجمعية أن تفخر بأصلها العريق، الذي ينحدر من تجار روما، أولئك الذين كانوا يستوردون التوابل من أنحاء الشرق، والذين جاءوا إلى هذه المدينة روما واستقروا بها منذ فتح الجزيرة، وكانوا أول من نهض بشئون الملاحة هنا مما ترتب عليه أن أصبحت هذه الجمعية (أكثر من أي شركة أخري في لندن) تضم أعضاء أثرياء يتجرون في داخل البلاد وخارجها، وقد أعقبوا أسراً محترمة ضمن نطاق طائف تعرف باسم "الحراس الأربعة"، وليس للطائفة رئيس، لذلك كانت جديرة برئاسة رأس متوَّج".

وبعد مضي خمسين عاماً على مهرجان التوابل هذا الذي كشف لجمهور لندن عن أهمية التوابل التي حبتها الطبيعة برائحة زكية عبقة، نشر رجل فرنسي اسمه دي فرزن دي فرانشفيل " de fresne de francheville" مؤلفا ألم فيه بتجارة التوابل، وكان مما أشار إليه في هذا المؤلف، تطلع كثير من الأمم للأخذ بنصيب من تجارة الهند الشرقية. ومما كتبه أيضا قوله: "ليس في هذا ما يستغرب له، لأنه لا يوجد في العالم تجارة أوفر ربحاً ولا أكثر أهمية من التجارة التي تتصل أسبابها بتلك البلاد الشرقية. فمن تلك الجزائر الخصبة التي تشرق عليها الشمس من مسافة أقرب من المسافة التي بيننا وبينها، تستورد أثمن السلع التي تساعد على رغد العيش ورفاهيته، وفخامة المظهر وروعته. فمن جزائر الهند تستورد

الجواهر والأحجار الكريمة إلى جانب الحرير الثمين، والقرفة، والفلفل، والقرنفل، وجوزة الطيب.



الجذور الصينية للجنزبيل

وكان ما كتبه هذا الفرنسي نثرار زينا، قد نظمه أحد الإنجليز في الأبيات التالية.

فوق ظهر البسيطة من أقصاها إلى أقصاها

وفى الأسفار الطويلة فوق العباب المتموج

بعثت فرنسا وإسبانيا وهولندا وإنجلترا

رجالا يبحثون عن الجواهر من أين تأتي وعن التوابل كيف تنمو

حاملين معهم قليلا من السلع

غير أنهم عادوا بتجارة جزائر الهند الغنية

مجلة انتصار لندن سنة ١٦٦٨



الفصل التاسع عشر

اختطاف أشجار التوابل

لم يسبق لعاشق أن يحيط محبوبة يغار عليها بمثل ما أحاط به الهولنديون جزيرة أمبوانا[٣١١] حيث تنبت أشجار القرنفل.. "لأحد المعاصرين" عام ١٧٥٠

في أواخر القرن السابع عشر، توصل الهولنديون إلى احتكار تجارة القرنفل وجوزة الطيب، فابتاعوا من حكام جزائر "ملوك" حق إتلافها وتدميرها وإبادتها عن آخرها في الجزر الواقعة تحت سلطانهم، حيث أشجار التوابل، نظير مبلغ من المال يدفعونه لهم سنويا على سبيل التعويض. ركز الهولنديون زراعة أشجار القرنفل في جزيرة أمبوانا، وزراعة أشجار جوزة الطيب في ثلاث جزر صغيرة من بين مجموعة جزائر بندا [٣١٢]. وكان لهم في أمبوانا حامية ترابط في حصنها، كما رابطت الجنود على طول الشاطئ ونظمت الدوريات البحرية في السفن لتمنع كل تعامل تجاري غير مشروع، ومراقبة المزارع لإبادة الشجيرات التي ربما تكون قد ترعرعت في المناطق المخربة. وقد تأثر مناخ المنطقة نتيجة إحراق مثل هذا العدد الضخم من أشجار التوابل حتى أصبحت الإقامة في أمبوانا لا تلائم الصحة بعد أن كانت منتجعا للناس ينشدون فيها استعادة صحتهم ونشاطهم، والواقع أن

[٣١١] Amboyna
[٣١٢] Banda

جوها فسد وساء إلى درجة رؤي معها عدم مرابطة أي جندي بها لأكثر من ستة شهور. ويبدو أن شذى العطر الذي كان ينبعث من أشجار التوابل التي لا حصر لها كان يلطف من ضرر البخرة البركانية في هذه الجزر.

وقد ترتب على هذا أن مُنِيّ أهالي هذه الجزر بخسائر مادية فادحة نتيجة حرمانهم من مقومات معاشهم، غير أن الذي كان أدهي وأمر من ذلك كله، استجلاب الهولنديين الرقيق للعمل في مزارع التوابل. وكانت مزارع التوابل هذه تباع اسميا للعجزة من الجنود أو المعتلين منهم، على شريطة أن يبيعوا جميع محصولهم إلى الشركة الهولندية بالسعر الذي تحدده. وكانت هذه الشركة تقوم بتزويدهم بكل مستلزمات معاشهم وبالرقيق أيضاً لفلاحة الأرض.

أثرت هولندا ثراءً عريضا بفضل تجارة التوابل الجزئية، وأصبحت الآن سيدة بحار الشرق، وكانت تعتبر عدوا لها كل من ينافسها أو يناوئها من أبناء الغرب، لذلك كان عليها أن تقعده عن المنافسة ولو عن طريق إزهاق الروح.

ولكم قيل أن أحداً لم يحط محبوبة يغار عليها بمثل ما أحاط به الهولنديون جزيرة أمبوانا حيث تنبت أشجار القرنفل. حدث ذات يوم أن فرنسيا مغامراً متوبل الاسم إذ كان يدعي (لي بوافر) أي الفلفل – اسماً ومعنى – جعل هدفه في الحياة اختطاف هذه الغادة الفاتنة، معشوقة الهولندي التي لم تكن في هذه المناسبة سوى القرنفل، ليحررها من الأسر،

ويطلق سراحها تنتشر حيث تشاء فوق هذه الأرض الطيبة لعلها تجد رقعة منها تكون بها أكثر براً وأشد حدباً عليها. وكان من الافتراضات الشائعة في ذلك الوقت أن أشجار القرنفل وجوزة الطيب المزدوجة، لا تنمو في تربة غير تربة جزائر ملوك، كأن الله لم يجعل لها مكاناً تحمل فيه ثمارها سوى هذه الرقعة الضيقة المحدودة.

قضى السيد ليبوافر المثابر الجريء على مزاعم أصحاب هذه النظرية الوهمية، فاستحق ما نعمت به من أنه رسول التوابل. كان ليبوافر في صباه قد اعتزم التبشير والدعوة إلى المسيحية في الصين الوثنية، فسافر من أجل ذلك إلى الصين لإعداد نفسه للقيام بهذه المهمة. ولكن الأقدار كانت قد رسمت لهذا الغلام الإكليركي المشبوب العاطفة خطة غير التي رسمها لنفسه. والظاهر أنه اختار هذه المهنة استجابة لرغبة ملحة لمشاهدة العالم ودرس الطبيعة في الصين، أكثر من رغبته في صلاح الأرواح وتقويمها. ففي مكتبة "البعثات الرسولية" بباريس يوجد اسم "بيبرليبوافر" مدرجا في سجلات عام ١٧٤٠ – ١٧٤٤. ويرى مرة أخري في سجلات عام ١٧٤٩ – ١٧٥٤.

إنها قصة محزنة، ولكنها قصة فنان شغف حباً برسم اللوحات الزيتية، وكان عقله المتوقد يهيم حباً بالطبيعة كما كان به بعض الميل للشئون التجارية، وكل هذه صفات طيبة في مجموعها، ولكنها بعيدة كل البعد عما ينتظر من نشاط رسول ديني في مستقبل أيامه.

أما فيما يتعلق بطباعه فقد كان شديد الانفعال، غير ضابط لأعصابه، سريع الغضب، ولكنه كان طيب القلب رحيما. وليس بمستغرب والحالة هذه في غلام فتي السن، لا يقيم للنظام وزناً، أن يتورط في كثير من المنازعات، والتي كان بعضها من النوع الذي يثير الشبهات حتى أن رؤساءه من رجال الدين تنفسوا الصعداء حينما نفى الأسقف هذا الغلام المشاغب من الصين.

أعيد "بيير ليبوافر" إلى فرنسا على ظهر سفينة من سفن شركة التجارة الفرنسية، ولكن حدث أثناء الرحلة أن تصدت لها سفينة إنجليزية فدارت بين الفريقين معركة حامية، فقد فيها ليبوافر كفه اليمنى وأسرت السفينة الإنجليزية السفينة الفرنسية. وجرد صاحبنا من جميع مذاكراته ورسوماته ولوحاته، ولعل هذا كان بدافع الأمل في أن تحتوي على معلومات قيمة عن الهند الصينية تستفيد منها الشركة الإنجليزية لشرق الهند.

وفى بتافيا، أنزل أمير البحر الإنجليزي الأسرى الفرنسيين توفيرا للطعام والشراب، وهنا أدرك الفتى المغضوب عليه أهمية ما يتمتع به الهولنديون من احتكار تجارة التوابل، فعكف على دراسة طريقة زراعة أشجار القرنفل وأشجار جوزة الطيب. وشرع يرسم في مخيلته مشروعات تجارية عظيمة تعود عليه وعلى بلاده بالخير والنفع العميم.

زار بيير ليبوافر في طريق العودة إلى الوطن مملكة سيام، حيث قضى بعض الوقت في ضيافة المبشرين الذين لم يكن قد ترامى إلى علمهم بعد ما

جلبه على نفسه من العار، معتقدين أنه ما يزال عضوا من أعضاء الهيئة الدينية. كان رسو السفينة بعد ذلك في المحطة التالية، وهي بند تشري[٣١٣]، حيث تعرف برجل أيرلندي يدعى فريل [٣١٤] وكان هذا الأخير قد سبقت له زيارة الصين الهندية الفرنسية من بضع سنوات، وقد أحضر معه بإذن من الملك غلامين "داماس وميجل" ليتمرنا على الترجمة، إذ كان يرجو العودة إلى الصين.

واستطاع بيير ليبوافر اكتساب صداقة ميجل الذي كان القسس البرتغاليون قد حولوه عن عقيدته الأصلية إلى الدين المسيحي. فشرع ليتوافر يعلمه رسم اللوحات في نظير دروس يعطيها له هذا الأنامي.

عاد بيير ليبوافر إلى فرنسا عام ١٧٤٥، بيد أن فكرة العودة إلى الشرق الأقصى وتحويل تجارة القرنفل وجوزة الطيب المربحة إلى وطنه كانت لا تزال تداعب خياله، وكان يعتزم تنظيم الإتجار مع الصين الهندية الفرنسية. وفي باريس اتصل بمديري شركة الهند الشرقية الفرنسية الذين سبق أن أثار اهتمامهم المستر فريل للإتجار مع الهند الصينية. ولكن الحرب حالت دون تنفيذ هذا المسعى. وما أن وضعت الحرب أوزارها حتى اغتبط مديرو الشركة بمعرفة بيير ليبوافر، إذ وجدوا فيه خير ممثل لهم في الشرق، والتمسوا من الملك لويس الخامس عشر أن يكتب خطاباً لإمبراطور أنام يقدمه له بيير ليبوافر بنفسه، كما حُمل خطابات لحاكمي إيل دي فرانس

---

[٣١٣] **Pondicherry**
[٣١٤] **Friell**

[٣١٥] أي – جزيرة فرنسا – وبوند تشري يتضمنان تعليمات بوجوب مساعدة مبعوث الملك بكل الوسائل الممكنة. فكانت النتيجة أن أعطي بيبر ليبوافر سفينة تحمل أربعين مدفعاً وجميع السلع التجارية اللازمة، إلى جانب الهدايا المخصصة لملك تلك الجهات، وكان الفضل في هذا كله، يرجع إلى الخطاب الذي حمله ليبوافر إلى المركيز دوبلكس[٣١٦].

أثار وصول مثل هذه السفينة المسلحة كثيراً من الاضطراب في حصن فايفو[٣١٧] بالقرب من توران [٣١٨] ولكن سرعان ما عادت الأمور إلى نصابها عندما تأكد الأهالي من حسن نية الزائرين، وابتهج القس الفرنسي المشرف على الجزيرة بوصول مواطنيه، فأسرع إلى استقبالهم مهيبا بهم أن يسرعوا بالرحيل لما كان يعلمه عن طبيعة الصعوبات التي كانت في انتظارهم غير أن بيبر ليتوافر لم يكن يعتزم مغادرة الجزيرة قبل تنفيذ الهدف الذي جاء من أجله، ولم يكن يشعر بمدى التحول الذي سيعتري هذه الجزيرة في غضون الشهور الستة القادمة، بفضل المغامرات والغدر والرشوة، فأرسل من فوره في استحضار تلميذه ميجل[٣١٩]، وكان نازلا بكاو في تلك الأيام، ليقوم بوظيفة الترجمان بالرغم من تحذير الأسقف له بألا يأتمن هذا الأنامي، كما حذره القائد البرتغالي ولكن بيبر ليبوافر رفض أن يصدق ما قيل له عن صديقه غير أنه لم يلبث أن دفع ثمن عناده، إذ

---

[٣١٥] Ill de France
[٣١٦] Marqnis Dupleix
[٣١٧] Fai - Fou
[٣١٨] Tourane
[٣١٩] Miguel

قامت حوله العقبات نتيجة مكائد الترجمان الغادر ووسائله الدنيئة، مما سبب لبيير كثيراً من الضيق وأخيراً حصل من الإمبراطور على وثيقة رسمية ممهورة بتوقيعه، تعفي المراكب الفرنسية الواردة على ميناء فايفو من المكوس الجمركية لقاء مبلغ من المال وكميات معينة من الهدايا.

كان غضب ليبوافر على ميجل قد زاد في هذا الحين إلى أقصى حدوده، حتى أنه عزم على تأديبه بحمله إلى إيل دي فرانس، والوقع أن هذه الطريقة كان قد اقترحها عليه أحد رجال الكنيسة من البرتغاليين، وظن ليبوافر أن هذا العمل سهل ميسور. كان ميجل يقوم ببعض الأعمال المعينة أثناء إعداد السفينة للرحيل، ولكن سرعان ما انتشر في الميناء خبر اختطاف الترجمان، وما أن وصل إلى مسامع الإمبراطور حتى ساءت الأحوال وأصبحت حياة الأسقف الفرنسي ورجال البعثة الدينية في الهند الصينية في خطر، إذ كان حمل أحد الأهالي من البلاد بدون إذن مليكها يعتبر جرما يعاقب عليه القانون. ولا جدال في أن ما عمله ليتوافر، هدم جميع ما قام به المبشرون في تلك البلاد، فضلا عن أنهم نُفوا جميعاً من الهند الصينية واضطهدت السلطات جميع من اعتنقوا المسيحية من المواطنين أعواما عديدة.

تبودلت الرسائل المطولة بين الأسقف وليبوافر الذي أنكر أن حادث اختطاف الترجمان لم يكن سبب ما حل "بالدين"، وأن كل ما في الأمر هو أن الإمبراطور اتخذه ذريعة للتخلص منه. واستطرد ليتوافر إلى الجزم بأن أحد الصينيين في كانتون أخبره بأن إمبراطور الصين الهندية لم يفعل أكثر من

اقتفاء أثر إمبراطور الصين الذي نفى جميع الأجانب من عاصمته. وفي سجلات البعثات الدينية في الخارج قيدت هذه المراسلات تحت عنوان "طيش بيبر ليبوافر".

وصل مبعوث الملك إلى إيل دي فرانس بسلام، حيث طلب إلى الحاكم أن يعينه على تنفيذ مشروعه المتفَق عليه مع مديري الشركة في باريس، وهو حمل بذور القرنفل وجوزة الطيب إلى هذه الجزيرة. اصطدم ليتوافر بعقبات جديدة، فقد تغير مجلس إدارة الشركة وحل محله أعضاء جدد تحت رئاسة رجل ينحدر من أصل هولندي، لم يكن يرغب بطبيعة الحال في إخراج مشروع ليتوافر إلى حيز الوجود نظراً لما سوف يترتب على هذا من الخسائر فادحة لتجارة مواطنه الأصلي، في التوابل وما يصيبها من أضرار، على أن ليتوافر نجح في حمل حاكم إبل دي فرانس على مساعدته في تنفيذ المشروع مستنداً في ذلك إلى أن التعليمات الصادرة إليه بالسفر إلى أرخبيل الملايو لم تُلغ بعد.

وافق الحاكم، وهو رجل بحري اسمه بوفيه [٣٢٠] على يد المساعدة لصاحبنا ليتوافر إذ كان هو أيضا يهمه تنمية ثروة وطنه على حساب الشركة الهولندية للهند الشرقية. لذلك بذل كل ما في جهده لمعاونة مبعوث الشركة. غير أن تلك المساعدة لم تمتد إلى أكثر من إعارة سفينة صغيرة قديمة اسمها كولمب (أي الحمامة البيضاء)، حمولتها مائة وستون طناً أبحر عليها ليبوافر إلى مانيلا حيث با ع ما كان معه من البضائع محققاً بعض

[٣٢٠] Bouvet

الربح. واستغل إقامته بتلك الجزيرة في عقد أواصر الصداقة مع سكانها من الإسبانيين والوطنيين تمهيداً لمحاولة الحصول على البذور المنشودة.

كانت جزائر الفيليبين وجزائر ملوك تتجران معاً خلسة في القرنفل وجوزة الطيب، ومن هنا استطاع ليبوافر الحصول على بعض النباتات والبذور الصالحة للتنمية. وكانت هذه البذور تعتبر شيئاً نادراً جداً نظراً لأن الهولنديين كانوا يعالجون كل جوزة طيب بالكلس لقتل المادة الحية فيها ولحفظها من التعفن أيضاً. وكان من حسن حظه كذلك الاتصال بهولندي تأثر على وطنه أفضى إليه بمعلومات تتصل بجزيرة لم يهتد الهولنديون إليها بعد، حافلة بأشجار التوابل، فأصبحت هذه الجزيرة منذ ذلك الحين هدف ليبوافر.. كان ليبوافر في هذا الوقت قد حصل على خدمات بعض المرشدين البحريين المبرزين، إلى جانب خدمات فرنسيين قضوا الشطر الأكبر من حياتهم بجزائر ملوك. على أن مشروعاته كانت مهددة بالفشل وبالتبخر في الجو، نظراً للموقف الذي اتخذه منه أعضاء مجلس الشركة في إيل دي فرانس. فقد انتظر منهم الرد، فطال انتظاره اثنين وعشرين شهراً قبل أن يفضي إليه أكثر من موسمين متعاقبين من مواسم الأمطار، لذلك لم يكن أمامه سوى مغادرة الفيليبين والعودة إلى إيل دي فرانس عن طريق بوند تشري مصطحباً معه النباتات القليلة التي استطاع الحصول عليها.

وكانت أصعب المشاكل التي واجهته، مسألة كيفية نقل هذه النباتات الرقيقة، بيد أن هذه العقبة ما لبثت أن ذللت بفضل صاحبنا "الشحنة

المترقة" [٣٢١] الذي وضع كابينته تحت تصرف ليبوافر. استغرقت الرحلة إلى بوند تشري ثلاثة أشهر، وما أن رست السفينة بالثغر حتى تبين ليبوافر أن اثنتي عشر غصناً من أغصان النباتات التسع عشرة التي حملها هي كل ما بقي وفيها أثر من حياة. وما أن استقر المقام ببيير ليبوافر في بوند تشري حتى بادر إلى إرسال بعض من يوثق به من عماله إلى مانيلا بالتعليمات اللازمة للحصول على أغصان أخرى، وكميات من جوزة الطيب، بينما أبحر هو إلى إيل دي فرانس، حاملا معه في سفينته غصنين من كنزه الثمين، وعهد إلى سفينة أخري في حمل ثلاثة أغصان أخرى حرصاً منه على نجاة طائفة منها إذا ما حدث مكروه لواحدة أو أخرى من السفينتين أثناء الرحلة، ولكن ما كان أشد ابتهاجه حينما وصل إلى إيل دي فرانس، أن وجد الشتلات الخمس سالمة لم تتأثر بالرحلة، وقد كان في مستقبل الأيام شأن عظيم لنجاتها. عهد ليبوافر بهذه الشتلات إلى بعض الموثوق بهم من الزراع للاعتناء بها بعد أن وعدوا بتنميتها تحت إرشاده ووفقاً لتعليماته، وأبحر بعد ذلك عائداً إلى مانيلا حيث وجدها تتأجج بنيران الحرب، كما وجد صديقه ملك بولو أسيراً بين أيدي الإسبان فبذل مجهوداً كبيراً في الوساطة بين الفريقين لإعادة السلام إلى نصابه كما وفق إلى التوسط لاستعمال بعض اللين في معاملة الملك الأسير، ثم واصل بعد ذلك سفره متجها نحو جزيرة تيمور حيث تصادق مع ملكها ومع حاكمها البرتغالي الذي زوده بكمية عظيمة بكمية من جوزة الهند وبعض ثمار أشجار القرنفل

---

(٣٢١) Wilem Lodewijekesl الذي وافق أسطول كونيليو سهوتمان المبحر إلى الهند عام ١٥٩٥.

النضجة الصالحة للزرع. ومن ثم عاد مرة أخرى إلى إيل دي فرانس حيث وجد حاكمها بوفيه قد رحل عنها، فأدرك أن فرصة الرحيل من جديد إلى الشرق الأقصى لن تسنح له مرة أخرى، ففضل العودة إلى فرنسا.

منح الملك بيير ليبوافر، بفضل اقتراح المشرف العام على شئون التجارة عشرين ألفا من الفرنكات مكافأة له على خدماته، فانتقل ليبوافر بعد ذلك إلى مدينة ليون واستقر بها مكرساً نفسه لزراعة النباتات النادرة، وللتراسل مع السيد جوسييه مدير حديقة النباتات بباريس. وقد دعي مسيو ليبوافر بعد ذلك إلى إلقاء محاضرة عن ملاحظاته على النباتات في الشرق، ففعل ونشرت محاضراته دون علمه تحت عنوان "رحلات فيلسوف".

لم يكد ليبوافر، هذا الرجل الذي يعتبر من الرعيل الأول في تأسيس تجارة التوابل، يشعر بأن مستقبله في الميدان العملي قد قارب نهايته، وبدأ يواسي نفسه على نفسه على فشل مشروعاته العظمى، حتى عين فجأة عاملا للملك على إيل دي فرانس ولم تمانع عروسه الفتية في مرافقته إلى الشرق الأقصى، ففرح بذلك كثيرا. وكان هذا التعيين بداية أهم شطر مثمر موفق من حياته. وأوضح أنه في استطاعته الآن تنفيذ مشروعاته التي حيل بينه وبينها في الماضي فبفضل منصبه الجديد أصبح تحت تصرفه من الوسائل ما يضمن إخراج مشروعاته إلى حيز الوجود، بل والتوسع فيها، كذلك ولقد وجد من بين الأخصائيين في علم النباتات رجلا يدعي بريفست، جديراً بالثقة إلى جانب بعض الضباط البحريين، أرسلهم جميعاً

لاستحضار النباتات المنشودة على ظهر سفينتين هما الفيجيلون (اليقظان) والإثوال دي ماثان (نجم الصباح).

اغتبط بيير ليبوافر عظيم الاغتباط في عام ١٧٧٠ بعودة رسله سالمين ومعهم أربعمائة شتلة من جوزة الطيب، وعشرة آلاف جوزة حية صالحة للتنمية، وسبعين شتلة من القرنفل وصندوقاً كبيراً مليئا ببذور القرنفل، بعضها قد شرع في التنبيت فعلا. ولم يشأ أن يفوّت على نفسه فرصة الاستزادة من هذه الشتلات، فأرسل سفينتين أخريين لصديقة حاكم جزيرة جيبي للحصول على مزيد من الثمار والشتلات المنشودة.

ابتاع ليبوافر قطعة من الأرض أطلق عليها اسم "مسرتي" ليزرع فيها هذه النباتات والأشجار والبذور، وما هي إلا عشية أوضحها حتى أصبحت هذه الضيعة من أشهر حدائق النبات فيها مجموعة ضخمة من مختلف الأشجار المستوردة من الصين والفيليبين وجاوا وسومطرا وسيلاَنْ. وكان بها كذلك أشجار فاكهة الخبز والمانجو والمانجوستان[٣٢٢] ونبات الشاي وأشجار الكافور والقرفة والساجو[٣٢٣] ونخيل البلح وأشجار التفاح والكمثرى والكروم وأشجار التوت. ولكن كان أهم ما فيها بطبيعة الحال القرنفل وجوزة الطيب. غير أنه وقع حادث سببَّ لعامل الملك على هذه الجزيرة حزناً عميقاً فقد حرم المجلس التشريعي في هذه المستعمرة تصدير القرنفل وجوزة الطيب رغبة منه في الاحتفاظ بمحصولها لاستهلاك

(٣٢٢)المانجو ستان فاكهة هندية.

(٣٢٣)والساجو دقيق النخل والنشا الحاصل من لب الساجو.

جزيرة إيل دي فرانس محليا، واعتبر تصديرها عملا غير مشروع يعاقب عليه القانون.

أدرك عامل الملك بثاقب فكرة خلو هذا القانون من الحكمة والتعقل وما فيه من خطر على هذه الأشجار والنباتات، فقد تقتلها الرياح الموسمية الهوجاء التي تدمر هذه الجزائر في بعض الأحيان، ففكَّر في إرسال شتلات إلى المستعمرات الفرنسية الأخرى لتنزرع فيها، ولحسن الحظ أصدر وزير المستعمرات الفرنسية في ذلك الحين أمراً بإلغاء القانون السابق الذكر مما ترتب عليه إمكان زراعة أشجار القرنفل بنجاح في إديل دي بربون[٣٢٤] وفى كايين وفى جزائر الهند الغربية. وعندما حان الوقت لعودة بيير ليبوافر إلى فرنسا با ع لملكة حديقة نباتية بالسعر الأصلي الذي دفعه ثمناً للأرض، لا أكثر ولا أقل، وبذلك يكون قد قدم لملكه هدية قيمة كريمة، وللمستعمرة كل ما بالحديقة من أشجار ونبات. وعين ليبوافر قبل مغادرته الجزيرة مديراً لحديقة النباتات رجلا يدعى سيرن [٣٢٥]، أفضى إليه بكل ما يعرفه عن فن أشجار القرنفل وجوزة الطيب الثمينة. فلا غرو أن ازدهرت حديقة النباتات بفضل عناية مديرها الجديد كما ازدهرت في إيل دي بربون حيث زرعت تحت إشراف مسيو هويير ثمان آلاف شجرة من أشجار القرنفل في ذلك الوقت.

---

[٣٢٤] **Ilede Bourbon**

Cerne[٣٢٥]

كان المسافر إلى إيل دي فرانس "حديقة الملك" حتى آخر القرن الثامن عشر يعتبر الحديقة من عجائب الدنيا، وانتهز ليبوافر قبل مغادرته المستعمرة فرصة سانحة للبحث مع خلفه في مصير أشجار التوابل التي زرعها. وكتب من باريس بعد ذلك بفترة من الزمن خطابا إلى خلفه بشأن الحديقة فجاءه رد مطول موجود ضمن سجلات وزارة المستعمرات في باريس كان مضمونه كالآتي: إن جل همك يا سيد ليبوافر أثناء ولايتك على إيل دي فرانس لم يكن على ما يبدو سوى العناية بأشجار توابلك الثمينة، أما أنا فلدي من الأعمال ما هو أهم شأناً وأوسع نطاقاً، فاسمح لي أن أخبرك في صراحة تامة بأني قد سئمت كل السأم لفظة "توابل".

وأضاف الوالي الغاضب بأنه أن المسيو ليبوافر يغالي كثيراً في تقدير أهمية نباتاته المفضلة كسلعة للتجارة. ولكن هل تراه تغالى في ذلك حقيقة؟ كتب مستر جون كروفرد[٣٢٦] المقيم الإنجليزي لدى بلاط جاوا في عام ١٨٢٠ كتاباً عن تاريخ أرخبيل الملايو، ولم يكتف المؤلف بما وجده في سجل محفوظات الحكومة فحسب، بل استمد كذلك موضوع كتابه من تجاربه الخاصة، ومن مجريات الحوادث المعاصرة بشأن تجارة التوابل، فذكر بأنه كان من بين ما استوردته إنجلترا عام ١٨١٨ — ٧٨ ألف رطل من القرنفل منها سبعون ألفاً مستوردة من كايين وحدها. فهل هناك برهان أكبر من هذا على بعد نظر بيير ليبوافر وما كان ينتظر أن تربحه فرنسا من وراء كمية أشجار القرنفل في مستعمراتها؟ أكثر الناس في فرنسا لا يعلمون

[٣٢٦] Johan Crawfurd

شيئا عن بيير ليبوافر حتى أن بعضهم ليتساءل في سذاجة لدى سماع اسمه "أترى كلمة الفلفل مشتقة من اسمه"؟ فإذا لم يكن الأمر كذلك، ولم تكن هناك أي صلة بين لفظة الفلفل واسم ليبوافر، فإن الأمر على نقيض ذلك فيما يتعلق بالقرنفل وجوزة الطيب فقد اقترن اسمهما بشهرة مسيو ليبوافر، وإلى بعد نظره ومثابرته وشجاعته وقوة شخصيته يرجع إليه الفضل، في أن جزائر ملوك لم تعد تنفرد وحدها بزراعة التوابل في هذا العالم، بل تشاركها في زراعته اليوم مدغشقر والزنجبار اللتان أصبحتا تزودان الشرق وأوروبا وأمريكا بكل ما تحتاج إليه من التوابل، سواء أكانت لمعالجة الأطعمة أم لمزج المستحضرات الطيبة لأدواء الجسم والأسنان.

لقد انقضت عصور وأجيال ما بين قيام ملاحي البرتغال برحلتهم التاريخية إلى الهند بحثاً عن التوابل، وبين أيام بيير ليبوافر، حينما جاء إلى إيل دي فرانس بتلك الغصينات االصغيرة من أشجار القرنفل. ولكن من المؤكد أنه عضو جدير بالاحترام، من أعضاء تلك المجموعة الباسلة من الرجال الذين كرسوا حياتهم وأفنوا جهودهم في طلب تلك المنتجات التي خصت بها الطبيعة تربة الشرق، والتي تبدو تافهة لأول وهلة كالفلفل والقرنفل وجوزة الطيب بالمقارنة إلى منتجات الطبيعة الأخرى.

الفهرس